- ١ -

ابراهيم الحوراني *

١٢٦٠ - ١٣٣٤ هـ
١٨٤٤ - ١٩١٦ م

كان في القرن الماضي من تنافس البرتستانتية مع الكثلكة والارثوزكسية من طوائف النصرانية في لبنان أن تقدم لخدمة العربية رجال كفاة علموا وألفوا وترجموا ، ومنهم بنو اليازجي وبنو البستاني ، وهذا الشيخ الذي تترجم له ابراهيم الحوراني •

هو ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن يعقوب بن سليمان بن فرح الحوراني • كان أبوه من سكان حمص ، وشخص الى حلب مُتَّجِراً ، وفيها ولد ابنه ابراهيم ، وترعرع وتعلم مبادىء العربية والحساب ، وكان يجمع أترابه ويدرسهم ما درسه ، وولع بالزجل والمواليا ، وهو في الحادية عشرة ، ونظم الشعر الفصيح في الثانية عشرة • وفي سنة ١٨٦٠ نزح والده الى دمشق فتعرف الى الدكتور ميخائيل مشاقة ، وكان عالم عصره من الانجيليين ، فأشار على والده أن يدخل ابنه الى مدرسة عبيَّة الاميركية ، فقضى فيها أربع سنين ، وعاد الى دمشق فأتم دراسته في الرياضيات والمنطق والفلك ، وشدا شيئا من الانكليزية ،

* ترجمته في الاعلام ١ / ٥٠ ومعجم المؤلفين ١ / ٧٢ ، وتاريخ الصحافة ٢ / ١١١ ، وهدية العارفين ١ / ٤٥ وانظر ايضاح المكنون ١ / ٦ ، ٣٦٣ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٢/٥٦٤ الموسوعة العربية ٣٠٤ واكتفاء القنوع لفانديك : ٤٤٧ ، ٤٨٩ ، ومعجم المطبوعات : ٨٠٢ -٨٠٣
وقال الزركلي في الاعلام : ان ترجمة مطولة له محفوظة لديه بخطه، وفيها مختارات من شعره •

وقال عن نفسه انه استفاد من تعليم نفسه أضعاف ما استفاده ممن كان يعلمه • وغلبت عليه الرياضيات والفلك ، وحذق علم قياس المثلثات والانساب والفلسفة الطبيعية والكيمياء والنبات والحيوان • وفي سنة ١٨٧٠ عين أستاذا في الكلية الاميركية في بيروت ، فعلم البلاغة والمنطق والرياضيات نحو عشر سنين ، وأتقن العلوم وابتكر بعض القواعد الرياضية • ودرّس في المدرسة البطريركية ، وفي مدرسة البنات ، وفي مدرسة اللاهوت الانجيلية الى آخر حياته ، واتصل بجماعة الانجيليين ، ومنهم العلامة الدكتور فانديك [1] صاحب الايادي البيضاء في تخريج بعض رجال الشام ، ووضع التآليف العلمية بالعربية • ومنذ سنة ١٨٨٠ تولى الحوراني كتابة النشرة الاسبوعية وتصحيح مطبوعات المطبعة الاميركية ومعرباتها ، فكتب مئات من المقالات العلمية والادبية وألقى الخطب ، وقيل : ان تآليفه ومترجماته وتصحيحاته بلغت خمسة وعشرين[2] مصنفاً • ومن كتبه « الشهب الثواقب » ، « جلاء الدياجي في الالغاز والمعميات والاحاجي » ، و « مناهج الحكماء في مذهب النشوء والارتقاء[3] » ، « الحق اليقين في الرد على مذهب داروين[4] »، « الآيات البينات في عجائب الارض والسماوات[5] » ، « ضوء المشرق

---

(١) انظر ترجمة له في هذا الكتاب .

(٢) الاصل : خمسا وعشرين .

(٣) كذا الاصل ، وقد طبع بعنوان : مناهج الحكماء في نفي مذهب النشوء والارتقاء (معجم المطبوعات ٨٠٤) وكذلك ورد في ايضاح المكنون وغيره .

(٤) كذا الاصل ، وقد طبع بعنوان : الحق اليقين في الرد على بطل داروين ، وهذا يوافق المصادر الاخرى كهدية العارفين وايضاح المكنون .

(٥) كذا الاصل . وقد طبع أيضا بعنوان : الآيات البينات في غرائب الارض والسماوات . وهو يوافق المصادر الاخرى .

في علم المنطق[1] » الى غير ذلك مما ألفه[2] • ومما لم يطبع ديوان شعره، ولو جمع شعره كله وما قاله في المجون والزجل والمعنى لبلغ عدة مجلدات • وقد عرّب كثيرا وصحح كتباً كثيرة ، وأكثرها بغير اسمه ، ومما صححه : « النهج القويم في التاريخ القديم » لبورته ، و « قاموس الكتاب المقدس » لبوست، وآزر في عدة جرائد ومجلات، وحرر جريدة « المحروسة » في مصر سنتين •

وعرف الشيخ الحوراني بشدة صبره على البحث والتنقيب ، وقيل : انه كان يعرب من الانكليزية ــ وكان يفهمها ولا يحسن النطق بها ــ في الموضوعات العلمية ما يرضى عنه أجلّ العلماء والباحثين • وبهذا يمكن القول بأنه وزع قواه ، ولم يخرج للناس كتبا توازي علمه وأدبه • والتعليم في العادة يفيد صاحبه مرانا كثيرا ، ولا يبقي له وقتا كافيا لامعان النظر فيما غلب عليه من ضروب المعارف واستخراج ما يتحمل ابداعا وابتكارا •

كان من أجداد الشيخ من يقول الشعر ، ويشارك في بعض العلوم ، فانتقل ذلك في دمه ، فنشأ بالفطرة شاعرا • سمع أباه يحثه على تحدي جده في قول شعر • فقال مضمنا ذلك :

يقول أبي بُنيَّ الشعرُ فخرٌ
لمن بمقاله الغاوينَ يَهْدي
فزاولْ نَظْمَهُ وانْشُرْ علينا
ذَكيَّ النَّشْرِ من وَرْدٍ ونَدٍّ

---

(١) طبع بعنوان : الضوء المشرق في علم المنطق (معجم المطبوعات).
(٢) من ذلك : سواء السبيل في اسكان ارض النيل (هدية العارفين) ، حكم الانصاف في رجال التلغراف (ايضاح المكنون ومعجم المطبوعات) •

فجدُّك كــان ذا شِعــرٍ نفيسٍ
فقلتُ : انشرْ لنا نَفَحاتِ جدي
فقال : إليــك مــا نقلت حُــداةٌ
به كانت مطيُّ الشــوقِ تحدي
« ألا دع ما استطعت حديث نجدٍ
ففي ذاك الحديث قديمُ وجــدِ »
« فَجُزْ تلــكَ الربوع فإن فيهــا
تُعَلِّي عــادة ربــوات لحــد »
فقلت : طربت من ذا الجد جــداً
سأبــذل في نظــام الشعر جهــدي

. . .

وقال في مذهبه في الشعر :

هــذّب كلامَكْ في نظــا ... مــك قبــل نقــد العالــم
فالشعــرُ كالمــرآةِ يــرْ ... ســم فيــه عقلُ النــاظمِ

. . .

وقــال :

وعذابُ أربــابِ الفضائل لــذةٌ
وكفى الأفاضلَ أن غَدَوا أبــرارا
إن كان موتي في الفضيلة رفعــةً
فليقضِ ربي أن أمــوتَ مِرارا

. . .

وارتجل هذين البيتين :

جميــعُ النــاس في تيــهٍ ... على طُرُق الرّدى ماتــوا
فلولا الجهــلُ مــا تاهــوا ... ولــولا التيــهُ ما ماتــوا

. . .

ومن أبياته في الحكمة :

لا خيرَ في عقلٍ ولا علمٍ ولا
دينٍ ولا مالٍ بغير عفافِ

* * *

أخافُ وكم خفتُ من واعظٍ
كثيرِ الصلاةِ قليل التُّقى

* * *

إني لأعلم أنني لا أعلمُ
وكفى بذا علماً لمن يتفهَّمُ
إن الجهولَ الغِرَّ يَحْسَبُ أنه
أدرى من الشيخ الحكيمِ وأعلمُ

* * *

وقال :

يا نفس لست بمدرك كل الذي
تبغينه فدعي عناءك واقصري
إن الذي في دفتر الأقدار لا
يأتي على وفق الذي في دفتري
ولقد دخلت الأرض غير مخيَّرٍ
وسأترك الغبراءَ غيرَ مخيَّرِ

* * *

وقوله ينصح الفتاة التي ترغب في مال خطيبها لا في كماله :

ما كلُّ ذي مالٍ شريفٌ فاطلبي
مَنْ شرَّفَتْهُ في الورى أخلاقُه
كم من غنيٍ مجدُه أموالُه
كالزهرِ كلُّ جمالِه أوراقُه

* * *

وله في كأس الخمـــر :

في هذه الكأس الهلاكُ فلا تَذُقْ
حَلَبَ العصير صديدَ أهل جهنم
عكستْ لظى لألائهــا من نارهــا
وحَبابها نفثُ الحُبابِ الأرقمِ (١)

. . .

وقال في الكهرباء والحب :

كأني في الهوى العذري عصفٌ ... وليلــي في المحاسن كهربـــاءُ
دنــت منــي ومسستني لهــذا ... علقــت بهــا كما حكم القضــاءُ

ومن نثره من خطبة في عالم الحس وعالم الخيال : « ومن فوائد الخيال أنه نزهة المعتزل ، ففيه يرى الحدائق الغناء توقع عليها قيان الوُرق أطيب الالحان ، وتجري تحتها جداول زلال ألذ من بثيث ألحانه، وتحيط بمنابتها بواسم الازهار كما يحيط بالمعاصم السوار ، وتـــرى مدافع الشواهق تقذف بلجين الماء على در الحصباء في الاودية الخضراء فترده آماه المهى وظمأ الظبى ، فتصبو الى الورد ، ولا تطفىء أواما فتئن وجداً وتنشر هياماً .

ألا قـــل لسكان وادي الحمـــى ... هنيئـــاً لكم في الجنان الخلـــود
أفيضـــوا علينا من الماء فيضـــا ... فنحن عطـــاشٌ وأنتـــم ورود

ثم اذا مللت مشاهد النهار توجهت الى مشاهد الليل ، وبدلت

---

(١) الحباب (بفتح الحـــاء) : الفقاقيع . والحباب (بضم الحاء): الحيـــة . والارقم : ما فيه بياض وسواد ، أو أخبث الحيات .

طلعة الشمس بمحيا سهيل[1] ، فترى هناك النجوم دررا في باطن الخيمة الزرقاء والمجرة نهرا عظيما تدفق في حديقة نرجس ، وفروعها جداول البطحاء ، وترى هناك تباين المؤتلفات ، وائتلاف المتباينات ، فتشاهد الطائر والواقع ، والذاهب والراجع ، والخفي والظاهر ، والثابت والسائر ، والاسد بين السرطان والعذراء ، والسرطان بين الاسد والجوزاء[2] ، والابراج والمنازل والطوالع والاوائل ، فترى العالمين على العالم الاصغر ، وتنسى أنك العالم الاكبر ، ثم تنتبه الى المعتزل واليه تبوء فتعلم صحة قولهم : الوحدة خير من جليس السوء » اه

وله آراء وحكم كثيرة • منظومة ومنثورة ، توخى فيها السهولة في التركيب • وكان مزاجه لطيفا ويصغي للنكتة ، ويأتي ساعات الفراغ بأنواعها ، وزجلياته آية ، ومنها مالا يجوّز المعاصرون اقتباسه في الكتب والصحف لمخالفته آداب العصر بزعمهم •

دعي مرة ليخطب في حفلة مدرسية فافتتح بأبيات غزلية وأشار الى شيخوخته بقوله :

قَدُمَ الزمانُ وصبوتي تتجددُ
فكأنني في كل عصرٍ أولَدُ
شيخاً أُرى بين الشيوخ وأمردا
في المرد مما شاب منه الأمرد
قالت غواني الرقمتين وقد رأت
ثلجَ المشيبِ أظنّ نارَكَ تخمدُ
فأجبتها ما الشيب بل لَهَبُ الهوى
في الرأس مما في الحشا يتوقدُ

(١) سهيل : نجم .
(٢) الاسد والسرطان والعذراء والجوزاء : أبراج سماوية .

قالت : مشيبُك أسودٌ في ناظري
قلتُ : الحقيقةُ أن لحظكِ أسودُ

وقال في امرأة تركت مهذبا لفقره ، وتزوجت خشنا لغناه فعذبها :

لقد هَجَرَتْ أخا فَهْمٍ قليلاً مالُه يَعْلَمْ
وودّت بعدَه وحشاً كثيرَ المال لا يفهمْ
فنالت من مخالبه جِراحاً مالها بلسمْ
وذاك جزاءُ تاجرةٍ تبيع الحبَّ بالدرهمْ

وقال في فتاة جميلة متعصبة كانت تعنفه على مزاحه وتبكيه عند ضحكه :

غراءُ شمسُ نهارنا من وجهها وهلالُ ليلتنا مثالُ جبينها
ما كان أطربني لطيب حديثها لو أن رِقةَ خصرها في دينها

ومما قاله فيه أحد من أطالوا في الترجمة له صديقنا الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف : انه أرهف يراعه منذ الصبا فأجاد في الموضوعات التي دبجها به ، ولم يبق بحثاً لم يتناوله بأَسَلاتِه(1) فتفنن في مقالاته تفننا لا يجيد فيه الا من كان مثله كثير الاطلاع ، متضلعا من العلوم والآداب ، متقنا للمعقول والمنقول ، فتراه يذهب بعقل المطالع لكتاباته الوضيحة البليغة كل مذهب وينحو به كل منحى ، فيمر على المدن والدساكر(2) ، ويريه الشوارع والمنعطفات ، ويسدد خطواته في مناهج الحقيقة ، ويطير به في عالم الخيال ، ولكنه لا يتيه بالقاري ولا يضله

(١) مفردها أسلة ، والأسل ، الرماح ، والنبل ، والأسلة : كل عود لاعوج فيه ، وتستعار لليراع .
(٢) مفردها دسكرة ، وهي القرية والصومعة والارض المستوية وبيوت الشراب والملاهي .

سبيلا ، بل يملأ مخادع حافظته صور تعابير بليغة ، ويطبع في مخيلتـه أصح الآراء وأسد الافكار فيعود مطالع ابحاثه مستفيدا كل الاستفادة ، مع تفنن في التعبير ، وخلوص من التعقيد ، وبساطة في التركيب • صرف حياته بالتدريس والبحث والجمع وتوسيع المدارك بالمطالعة ، وانتظم في سلك الجمعيات العلمية والادبية ودعي الى بعض المؤتمرات العلمية في أوربا ، وعرفه الاوربيون والاميركيون بسمو المدارك • ومـن مكتشفاته معادلة الجيوب ، ومعادلة معرفة أضلاع الاشكال القياسية الوترية من المسبع والمتسع وذي الاحدى عشرة وما فوق ذلك الى غير نهاية •• وكثيرا ما برهن المنطق بالجبر ، وأجاب على أسئلة في جميـع الموضوعات بسداد رأي ودقة نظر ، وعرف طريق رسم الاشكـال القياسية كلها وقيمتها العددية بلا تكعيب • ولم تكن معارفه اللغوية أقل من معارفه العلمية ، فاذا أورد لفظة تثبت فيها ، وأشار الى اول من استعملها مثل شبه جزيرة ملعقة (ملقة) كما قال الشيخ داود البصير الانطاكي في تذكرته[1] • وهكذا استخرج من بطون الكتب المصطلحات القديمة ، وحقق آراء العصر فيها ، ومن أوضاعه المشهورة : المرقب والمجهر والحوصلة « الكبسول » والمضلع « القبـاجور » والنجيري « المدخنة » والفوارة « النوفرة » •

لا جرم أن العلامة الحوراني كان من أعظم دعائم النهضة الشامية أو العربية ما كان فيه جمود العلماء ولا تبذل الادباء • عاش يعلم الناس

---

(١) داود بن عمر الانطاكي (ت ١٠٠٨ هـ ، ١٦٠٠ م) عالم بالطب والادب ، انتهت اليه رئاسـة الاطباء في عصره ، وقرا المنطق والرياضيات وشيئا من الطبيعيات ، واحكم اللغـة اليونانية ، ولد بأنطاكية ، ولكنـه هاجر الى القاهرة وبها توفى • وتذكرته المشهورة كتاب في الطب سمـاه (تذكرة اولي الألباب) ، وله كتب اخرى (الاعلام ٩/٢) •

منذ كتب له أن يتعلم ، وقد تخرج به كثير مـــن الشبان والشابات ، ونشر العلوم الطبيعية والرياضية مع المحافظة على روح الدين ، والتزام القصد فيما ألف ونشر . وهو من غرائب الرجال . جمع الادب الغض — على مالا يتأتى مثله لغير أفراد من كبار الادباء — الى الاطـــلاع الواسع على العلوم التي كانت قبل مدارس الاميركان في الديار الشامية مجهولة عند الخاصة جهلاً فاضحاً ، والفضـــل لها في الاكثر ، لانهـــا أخذت بيد مثل الحوراني وأعانته على نشر معارفه وتعليم الجاهلين فكان دعامة من دعائم النهضة الشامية .

وأسعدني الحظ فاختلفت الى مجلسه ، وزرته في بيته غير مرة ، وهو بين خاصته وتلاميذه فأفدت من علمه وتجاربه . وزرته مودعا أقصد القاهرة لانشىء مجلة « المقتبس » ومما قاله لي[1] : «انك ستنجح في مشروعك الجديد ، لانك ستبدأ به وأنت شاب . وأنا أنشأت مجلة « الرئيس » في الشيخوخة فما أفلحت » . وهذا من صراحة العلماء المحبوبة ، وكنت اذا زرته أكبر علمه وأعجب بأدبه وأشهده لا يخلي جُلاّسه من فوائده ، كما لم يخل قراء كتبه ورسائله ومقالاته من تعليم وتثقيف .

★ ★ ★

---

(١) الأصل : لـــه .

- ٢ -

ابراهيم اليـــازجي *

١٢٦٣ – ١٣٢٤ هـ
١٨٤٨ – ١٩٠٦ م

هاجر من حمص أحد أجداد بيت اليازجي سنة ١٦٩٠ ، ونـزل قرية كفر شيما من سواحل بيروت ، وكان أهل هذا البيت على مذهب الروم الارثوذكس فانتحلوا الكثلكة ، ودخل بعضهم في خـدمة الدولة العثمانية كاتبا ، فأطلق عليه اسم « يازيجي » أي الكاتب ، حُرِّفت بعدُ فصارت « يازجي » .

ولد ابراهيم في بيروت ، وظهرت عليه مخايل النجابة في سن العاشرة ، وكان أبوه الشيخ ناصيف من رجال النهضة العربية الاولى ، وله مقام عال في الادب والشعر . ولقب الشيخ كان في لبنان يطلق على الطبقة التي كانت ترتفع عن العامة ، وتنحط عن طبقة الامراء .

وتخرج ابراهيم بأبيه في علوم العربية ، وحفظ القرآن في صباه ،

* ترجمتــه في الاعـلام ١/٧٢ ومعجـم المؤلفـين ١/١٢٠ وانظـر معجم المطبوعات ١٩٢٧ ففيه ترجمة له بقلم جبران النحاس ، ورواد النهضة الحديثـة : ١٦٤ ، قدماء ومعاصرون : ١٤٩ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١٠٧٦ تراجم مشاهير الشرق ٢/١٤٤ والاتجاهات الادبيـة في العالم العربي الحديث : ١٠٦ دراسات في الشعر العربي المعـاصر ٢٤٠ ولعيسى خليل سابا كتاب عنه . ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٧ ص ٣ – ١٧ .

وأخذ الفقه الحنفي عن الاستاذ محيي الدين اليافي ، وأولع بالرسم والنقش والحفر،وامتاز بجمال خطه،وهو الذي نقش بعدُ أمهاتحروف مجلتيه : « البيان » و « الضياء » ، وحروف المطبعــة الادبية ، وكانت منها حروف معظم المطابع في الشام ومصر •

وتعلم الفرنسية والانكليزية ، وأخذ بطرف من الالمانية • وقال أحد مريديه في الكلام على اتقانه الفرنسية انه سمعه يقرأ فصولا استملح عربيتها ، ثم تبين أن نظره كان يجول في السطور الفرنسية فيلقيها لسانه بالعربية الفصحى •

قال لي المترجم له : لو كان لي الخيار لآثرت أن أكون رساما مصورا ، الا أنني رأيت الاجدر بي الانصراف الى خدمة اللغة العربية حتى لا يغلق بيتنا بانقراض أفراده المعنيين بهذه اللغة ، فيفوتني شرف خدمتها ، على ما كان الحظ لأبي في هذه الخدمة •

انضم الشيخ في أول شبابه الى الجمعية العلمية السورية ، فألقى فيها الخطب وأنشد القصائد ، ثم تولى تحرير جريدة « النجاح » فحبَّر المقالات ، وترسَّل ، فكانت هذه الجمعية وهذه الجريدةمدرسته الاولى في البيان والصحافة •

وعهد اليه الآباء اليسوعيــون بتقويم ترجمة الاسفار المقدسة ، وكانت عربت عن أصلها العبراني واليوناني عدا ثلاث ترجمات عربية كانت أمام من قاموا على تصحيحها • وكان تعريب المزامير والانجيل مقيدا بترجمة عبد الله زاخر لشهرة نصوصها في المعابد • فقضى الشيخ في هذا العمل ثماني سنين ، واضطرته معارضة الترجمة على المتن الاصلي الى التبحر في بعض اللغات السامية ولا سيما العبرانية والسريانية ،

وألف في العبرانية كتاب نحو وصرف نسج فيه على منوال النحـــو العربي وصرفه •

علم الشيخ دهرا في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت خلفا لابيه فتخرجت به طائفة من الادباء كانت لهم منزله رفيعة في الآداب • وفي سنة ١٨٨٤ نشر بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة مجلة « الطبيب » سنة واحدة ، ثم هاجر الى مصر ، فأصدر فيها مجلة « البيان » بالاشتراك مع الدكتور زلزل سنة واحدة ، واستقل بعد ذلك باصدار مجلة « الضياء » ، وقد اطرد صدورها ثماني سنين حتى سنة وفاته ، وكانت من أمتع المجلات العربية بجمال أسلوبها وطلاوة عباراتها وطرافة أبحاثها،وفي « الضياء » ظهرت شخصيته • كان ما كان مضى من حياته العلمية في لبنان قبل أن تصح عزيمته على نشر مجلته في مصر ، كان دور استعداد تجلى بعده نبوغه على أكمل حالاته ، وما سبق له من نشر آيات علمه وأدبه ، كان كالمقدمة قدمها بين يـــدي كتابه الشامل •

وفي « الطبيب » و « البيان » و « الضياء » توفر على نشر أبحاث متسلسلة استخرج من بعضها كتباً برأسها مثل : لغة الجرائد[1] • ومن أبحاثه الممتعة : أمال[2] لغوية ، أغلاط العرب ، أغلاط المولدين ، اللغة العامية واللغة الفصحى ، اللغة والعصر ، أغلاط لسان العرب ، المجاز ، الشعر ، التعريب ، العلوم عند العرب•الى غير ذلك من المقالات والابحاث الممتعة • ومن كتبه : « نجعة الرائد في المترادف والمتوارد »[3] ، ومنها: اختصار أو تصحيح بعض كتب والده كمختصر « نار القرى » ومختصر

---

(١) طبـــع •

(٢) الاصل : أمالي •

(٣) طبع بعنوان : نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد كما طبع له كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد •

« الجمانة » وشرح ديوان المتنبي سماه « العرف الطيب » والى ذلك يشير في آخر هذا الديوان اشارة تنم عن بره بوالده قال : « وأنا أبقيت عنوان الشرح باسمه ــ باسم أبيه ــ رعاية لكونه هو واضع الاصل ، فلم أوثر أن أتطفل عليه في نسبة الكتاب ، وان تطفلت عليه في التأليف ، واني لارجو أن يكون قد وهبني الله السلامة في ذلك كله ، وأنزلني من هذا الشرح منزلة توجب استدرار الرحمة على واضعه ، ولا تكون مدرجة لنقص برّي به بأن أمر عليه تبعة تلزمني دونه ، أو ينسب إليّ فضل هو أحق به مني ، ومعاذ الله أن أدعي لنفسي في جنبه فضلا أو علما ، فانما أنا اهتديت بمناره واقتديت بآثاره ، واني لا علم لي الا ما علمني » .

وصحح الشيخ كتبا كثيرة ومنها ، تاريخ بابل وآشور[1] ، ونفح الازهار[2] ، ودليل الهائم[3] ، ونخب الملح ، والعقود الدرية في شرح شواهد المختصر[4] ، ورسالة الغفران للمعري ، والفرائد الدرية ، وهو معجم عربي فرنسي . ونقد القسم الذي ترجمه باربيه دي مينار ، من مستعربي الفرنسيس من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي ، كما نقد « تكملة المعجمات العربية » لدوزي ، ومعجم « محيط المحيط » للبستاني وسماه الحواشي ، ومعجم « أقرب الموارد » للشرتوني ، و « الدرة اليتيمة » لشكيب أرسلان وناقش أرباب « المقتطف »

(١) لجميل نخلة المدور .

(٢) تتمة عنوانه : في منتخبات الاشعار ، جمعه شاكر البتلوني بإرشاده .

(٣) تتمة عنوانه : في صناعة الناثر والناظم جمعه شاكر البتلوني بإرشاده .

(٤) عنوان الكتاب الصحيح : عقود الدرر في شرح شواهد المختصر لشاهين عطية .

وصاحب « الجوائب » فيما وقع لهم من الاغلاط وغير ذلك[1] .

وصرف شطرا من حياته في تأليف معجم سماه « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » قال : انه شرع في وضعه مقتصرا على الفصيح دون المولد والمحدث في الاصطلاح، لانه رآهما طرفين لا يلتقيان ، ولا تؤلف منهما حلقتا بطان ، فضلا عما يقتضي بحث الطارىء من التجرد والجهد ، واخلاء الذرع للبلوغ الى باحة القصد ، فلا بد من افراد هذا القسم في كتاب مخصوص يحاط به بعد مراجعة الكتاب والنصوص . قال : «وقد وضعت الكتاب على نسق لم أكن متابعا فيه ولا مقلدا ، ولا متحديا ممن سبقني أحدا . فاني اعتبرت فيه جانب المعاني في كل مادة ، فقدمت منها ما حسبته الاصل في ذلك التركيب ، ثم ألحقت به ما تفرع عنه من طريق المجاز الاقرب بالاقرب الى ان تنقطع سلسلة الترتيب ، وما بقي بعد ذلك مقتضبا من ذلك النظام ذيلته في آخر المادة ، وضمنته المشهور من الأعلام . وكل ذلك على أسلوب مختصر اطّرحت فيه الوحشي من اللفظ والمهجور في استعمال الفصحاء . وتجنبت ما يستحى منه من ألفاظ السوءات ، وما يضاف إليها مما تبذؤه نفوس الأدباء، وكنت قد بلغت في تسويده الى آخر حرف الحاء المهملة مما يقدر بالربع أو يزيد » . اهـ

أولع الشيخ ببلاغة القرآن . حدثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر أنه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه اذا تصدوا للكتابة ونشر المقالات أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون . أو ما هذا معناه . فمن كان هذا اعتقاده لا يعقل أن يطعن ببلاغة

(١) وله ديوان شعر عنوانه (العقد) طبع في البرازيل ، الا انني لم أتمكن من العثور على نسخة منه .

الكتاب العزيز وفصاحته ، على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف • من أنه عارض القرآن وحطّ من شأنه في رسالة له نحلته إياها ، وما هي الا من أقلام بعض دعاتهم •

وكان أعداء الشيخ من الفريق الذي أصلاهم نار نقده مثل صاحبي « المقتطف » وسعيد الشرتوني ، وشكيب أرسلان ، وجماعة اليسوعيين • وعلى مطبوعات هؤلاء حمل حملة شعواء ، وكثيراً ما عمد في حوارهم الى السخرية، وربما انتهى بعض هذه المناقشات بالمهاترة أحيانا ، وأدى بعضها الى ما كان يودّ أحباب الشيخ لو تصوّن عنه •

وقيل : ان الشيخ كان ينشر أشياء باسم بعض تلاميذه أو بأسماء مستعارة فيما لا يريد أن ينسب اليه • وهذا أيضا لا يخليه من تبعة ، خصوصا وهو في بعده عن اللغو ، والتحلي بالفضائل النفسية المثل الأعلى • بيد أنه جبل على حب المطارحات والمناظرات ، وبها تجلت ملكته في البيان هذا التجلي الرائع اذا أريد التنظير بين كلامه وكلام معاصريه • وفي المناقشة التي دارت بينه وبين العلامة أحمد فارس كان أكثر اعتدالاً مع أنه كان شابا وخصمه كان شيخاً •

كان الشيخ يألم ممن يرتكب غلطا لغويا ألمه ممن يسيء اليه مباشرة ، فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يهدى اليه من الكتب الجديدة لتقريظه والتنويه بصاحبه ، وكل ذلك حتى لا يعبث باللغة عابث ، و « كان أقصى أمانيه أن يعيد الى اللغة بهجتها الأولى ،ويرد الناشئة من كتّاب العصر الى النهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقررة في أمهات المعاجم وكتب البلاغة المعروفة بصحة التعبير وفصاحة الالفاظ • وألا يعدل الى المولد الدخيل الا بعد طول البحث

والتنقيب ، واجماع أهل العلم الواسع من المحققين ، وبعد اليأس من الوقوع على الفصيح الاصيل » •

ومما كان يحزنه أن اللغة لا تفي بمطالب العلم في هذا العصر ، ولذلك وضع ألفاظا لمسميات افرنجية سرى بعضها على أسلات أقلام الكتاب والصحافيين في حياته • وعرّب بعض المصطلحات تعريباً صحيحاً • ولو طال به الاجل لاستكثر من كل ما يفيد اللسان العربي حتى يداني بمادته العلمية لغات العلم عند الافرنج ، ويؤدي على أيسر وجه معاني بعض الالفاظ الجاري استعمالها في العلم والاجتماع والفن والصناعة •

قال لي مرة وأنا أسأله رأيه في اللغة العصرية : اني مغتبط بأن اللغة علت بلهجتها وقل فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها ، ويتخللها الآن من الفصيح ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط • وكيف لا يفرح لسمو اللغة وهو من أول العارفين بجرس الالفاظ ورنّتها وخفتها وثقلها وإدراك أجدر المواضع باستعمالها •

درج حياته على تصفح كتب البلغاء والتقاط ألفاظها وتراكيبها الجميلة، يتمثلها ويدمج في تضاعيف كلامه ما تقتضي الصناعة بادماجه، يقرنها الى أمثالها مما وعاه صدره ، وبهذا ارتفعت كتابته عن كتابة غيره ، اذ توفرت لها المادة والقوالب ، وعرف أساليب الكتاب على اختلاف العصور ، فبعد عن مستوى غيره • يعين على ذلك ذوق سام جمع بين أدب الافرنج والعرب •

هذا وهو لم يعالج من فنون الانشاء الا ما أخذ من نفسه ، ولا تتعلق همته على الاكثر بغير الموضوعات الادبية والتاريخية القريبة المأخذ ، مما لا يتعاصى تفهمه على من شدوا شيئا من الآداب •

كانت مجلة « الضياء » كتابه الام ، حفلت بالفوائد الادبية واللغوية ، حتى ليستخرج منها عدة كتب ، ومن أهم ما ينتزع منها مجموعة جميلة من نقده الادبي وسخرياته ، يستخرج منها أسفار نافعة حري بالناشئة أن تجعلها سمرها في خلوتها ، وتتخذها أصولا للبلاغة . وفي مجلته هذه يتمثل لعينيك جهده في انشائها ، وتوفره على اتقان أبحاثها ، حتى لقد صدته عن النظر في سائر مؤلفاته ، ومنها معجمه . ويبدو لناظرك أن صاحبها قد نقى اللغة وغربلها وطحنها ونخلها وعجنها وخبزها . فجاء منها بكل لقمة كريمة وحلواء لذيذة .

وكان باب النقد مما يحبب مجلة الضياء الى القراء ، ذلك لانه كان على مثل اليقين أن أبحاثها لا تخلو من جفاف فيداويه بشيء من الفكاهات والاقاصيص ، يكتبها له أهل هذا الشأن من تعريبهم أو تأليفهم ، والناس أميل الى تلقف مايسليهم منهم الى الجنوح الى ما يتعلمون منه ، ولو بحصر أذهانهم دقائق معدودة ، والبحث في الآداب مما يثقل على السواد الاعظم ، وهم لا عهد لهم بالنظر في هذه الابحاث ويعدّونها من الأبحاث الجامدة .

وكانت « الضياء » تبرز الى قرائها في حلة لبنانية بروحها وموضوعها[1] ، تتراءى لمن يقرؤها أنها تكتب في لبنان وتطبع في مصر، وترى منشئها فيها وقد التف حوله تلاميذه وذوو قرباه ومواطنوه من الشاميين يؤازرونه في انشاء مجلته فيما يتقنون من الموضوعات ، فلا يكاد المتأمل يقع بينهم على كثير من النابهين المصريين ينشرون أبحاثهم فيمجلته . ولعل العلة في ذلك ابتعاد الشيخ عن الاختلاط بالناس ، فأكثر الشاميين يعيشون بين جاليتهم لا يمتزجون بالمصريين كثيرا . على أنه يندر يومئذ في المصريين رجال من الطراز الذي تعجب صاحب المجلة كتابته وبحثه .

---

(١) وهي التي كانت تصدر بمصر .

لم ينصرف الشيخ الى الشعر انصرافه للنثر ، ولذلك يعد من المقلين منه[1] ، استخدمه في أغراض اجتماعية على الاغلب ، كأن يذكر العرب بمجدهم، أو يدعو القوم الى كسر قيود الاستبدادوتطلّبالحياة الحرة ، والقضاء على من وقفوا عثرة في سبيل نهوض العرب ، وكانوا سببا في تدنيهم وخمولهم • فمن شعره في هذه المعاني :

وما العَرَبُ الكرامُ سوى نصالٍ
لهـا في أجْفُنِ العَليـا مقـامُ
لَعَمْرُكَ نحن مصدرُ كلِّ فضل
وعـن آثارنـا أخـذ الأنـامُ
ونحن أولـو المآثـر من قديـمٍ
وإن جحـدت" مآثـرنا اللئـامُ
فقـد علـم العراق لنـا قديمـاً
أياديَ ليـس تُنكِرهـا الشّآمُ
وفي أرض الحجـاز لنـا فيـوض"
يسيل لهـا إلى اليمَنَ انسجـامُ
وفـوق الأندلـوس لنـا بنـود"
لهامـات النجـوم بهـا اعتمـامُ
وسل في الغـرب عن آثار فخـرٍ
لهـا في جبهـة الزمن ارتسـامُ

• • •

وله السينية المشهورة ومطلعها :

ذع مجلس الغيـد الأوانسْ وهوى لواحظهـا النواعسْ

(١) طبع له ديوان شعر بعنوان « العقد »

إلى أن يقـول :

فالشـرُّ كـل الشر مـا — بـين العمائم والقـلانسْ
والخيـرُ كـل الخير فـي — هـدم الجوامع والكنائسُ
مـا هُمْ رجـالُ الله فيـ — ـكم بل هم القوم الأبالسْ
يمشـون بـين ظهوركـم — تحـت الطيالس والقلانسْ
أيُّ النعيـم لمـن يبيـ — ـت على بساط الذلّ جالسْ
ولمـن تـراه بائسـاً — أبداً لذيل الترك «بائسْ»(١)
ولمـن أَزمّتـهُ بكـف عِداهُ يُظلَـم وهو آيسْ
ولمـن تبـاعُ حقوقـه — ودماؤه بيـعَ الخسائسْ(٢)
ولمـن يـرى أوطانـه — خِرَباً كأطـلالٍ دوارسْ

وقال في التـرك :

فالتـركُ قـوم لا يفـو — ز لديهـمُ إلا المشـاكسْ
أَوَلسـتمُ العـرَبَ الكرا — مَ ومَنْ هم شُمُّ المعاطس(٣)
فاسـتوقـدوا لقتالهـم — نـاراً تروِّع كـلَّ قابِسْ
عَمَّتْ قبائحهـم فـأضـ — ـحت لا تحيق بها الفهارسْ
حـالٌ بهـا طـاب التبسُّـ.....ـم للوغـى والموتُ عابسْ
وحلا بها سَفْكُ الدِّمـا — ء وسفكُها للجور حابسْ

ومثلها قصيدته(٤) :

---

(١) المراد بكلمة « بائس » الاخيرة الذي يقبل وقد صاغها من قول العامة (باس فلان يد فلان) .

(٢) الاصل : ولمن تباح ، ولعله سهو .

(٣) الاصل : الشم المعاطس ، ولعله سهو .

(٤) نظمها سنة ١٨٦٨ ونشرت سرا ، ولم تهتد الحكومة العثمانية الى معرفة ناظمها وفي كتاب عيسى ميخائيل سابا عنه واحد وعشرون بيتا منها انظر صفحة ٤٩ منه .

تنبهـوا واستفيقوا أيها العـربُ
فقد طما الخطب حتى غاصت الرُّكَبُ[1]
فيـم التعللُ بالآمال تخدعكـم
وأنتـم بين راحات القنا سُلُبُ
كم تُظلمون ولستم تَشتكون وكم
تُستغضبونَ فلا يبدو لكم غَضَبُ

ثم يعرّض بحكام تلك الأيـام فيقول :

سلاحهم في وجوه القوم مَكْرُهُمُ
وخيرُ جُندهمُ التدليسُ والكذب
لا يستقيم لهـم عهدٌ إذا عقـدوا
ولا يصحّ لهم وعدٌ اذا ضرَبـوا
بالله يـا قومَنا هُبّوا لشأنكـم
فكم تناديكم الأسفـار والخطـب
ألستمُ مَـنْ سَطوا في الأرض واقتحموا
شرقـاً وغربـاً وعَزّوا أينمـا ذهبـوا

• • •

فما لَكم وَيْحكُم أصبحتُم هَمَلا
ووجهُ عِزّكُمُ بالهُون منتقبُ
لا دولةٌ لـكمُ يشـتدّ أزركمُ
بها ولا ناصرٌ للخطبِ يُنْتَدَبُ
أقدارُكم في عيون الترك نازلـةٌ
وحقّكم بين أيدي الترك مغتصبُ

---

(١) طما ، يطمو ويطمي : زاد وارتفـع .

وأظن هذه القصيدة هي التي اتهم بها أحد الادباء يومئذ ، وحبس بها سنة ، كما قال لي الشيخ رحمه الله •

وهذه القصائد تنادي بأنه كان حرا يدعو الى الحرية ، وعربيا يبكي لمجد العرب ، ويحاول أن ينزعوا من ربقتهم حكم العثمانيين ، وينجوا من الاستعباد • وهو ما كان يطيب له ادعاء هذه القصائد ، لان قصده مجرد عن الغاية ، فلا يطمع في الظهور والتمجد • ولو ظهر عليه أدنى أثر من الانكار على الدولة لناله من العقوبات أفظعها ، فهو بعقله وحيطته يتقيهم ولا يرتكب مالا يرضيهم ، على ما كان يتقي أهل بيئته ، وبيئته كانت جد متعصبة جامدة ، وكنت تلمح حرية فكره تلمع أشعتها من خلال ما ينشره ، ويتجلى للناقد البصير أنه معلم حكيم ، يرمي الى تهذيب النفوس بكل ما لديه من الذرائع ، ويحاول اخراج أمته الى طريق سليم ليدخلها في غمار الامم الناهضة ، وهو الذي يعرف مبلغ أمته من معاونته ومعاونة أمثاله ، ولذلك لم يجاهر بدعوته ، لان الامة خلت من هذه المعاني ، وما كانت تفكر الا في الساعة التي هي فيها •

وما سلم الشيخ من عيوب الشعراء المتأخرين ، فقد كان أصحابه وجيرانه وأهله يريدونه على أن ينظم تواريخ لأضرحة موتاهم ، وكان يرجى أن لا يقبل اضاعة وقته في مثل هذه المنظومات ، ومنها المدح والرثاء • وما كان الحامل له على نظمها على ما يظهر الا ارادة التخلص من تعجيز المعجزين ، وقد اعتاد الناس ألا يرضوا عن الشاعر الا اذا مدح أحياءهم ورثى موتاهم • وقد أثرت له رسائل لك أن تدعوها من جنس الإخوانيات ، كان يبعث بها الى أحبابه أو الى أرباب الوجاهة لدفع مغرم وجلب مغنم لمن يتوسطه ، يكتبها من حاضر الوقت ، لا يتعمل فيها ، وأكثرها مسجوع ، اذا تلوتها تراءى لك أنه ينسج فيها على

منوال الهمذاني والخوارزمي والصاحب • ومن شعره الجميل يذكر حمص منبت أجداده •

وسقى اللهُ أرضَ حمصٍ وحيّتْ
نفحاتُ الرضا خصيبَ ثَراها
هي فردوسِيَ القديمُ ومنها
ثمراتُ الحياةِ كان جَناها

ومنه :

ليس الوقيعةُ من شأني فإن عرَضَتْ
أَعرَضْتُ عنها بوجهٍ بالحياء ندَي
إني أَضِنُّ بعِرضي أن يلمَّ به
غيري فهل أتولى خرقَهُ بيدي

وقال في ساعةٍ دقّاقة :

ومُحْصِيَةٍ أعمارَنا كلما انقضت
لنا ساعة"دقّتْ لها جرَسَ الحزن
فيا بنتَ هذا الدهرِ سِرْتِ بسيره
فهل أنتِ دونَ الناسِ منهعلىأمنِ

وقال في عود الطرَب :

وعودٍ صفا الندمانُ قِدْماً بظلّه
وما برحتْ تصفو لديهِ المجالسُ
تعشّقَهُ طيرُ الأراكةِ أخضراً
وحنَّ إليه ريشُه وهو يابسُ

وقال في بعلبك :

يـا بَعْلَبَكُّ غريبةَ الأزمـانِ
والعهـدِ والصنـاع والبنيـانِ

لم تُبْلِكِ الأيامُ في حِدْثانِهـا
إلا لتُظهِـرَ قـدرةَ الرحمـنِ

وقـال :

تَعَجَّبَ قومٌ من تأخُّرِ حالِنـا
ولا عجبٌ في حالنـا إن تأخـرا

فمذ أصبحتْ أذنابنا وهي أرؤسٌ
غدونا بحكم الطبع نمشي الى الورا

وقال في الحِكَمِ(١) :

حياةٌ أَسَرُّ العيشِ فيها مُذَمَّمُ
وناسٌ بهـا قلب الخليِّ مُتَيَّمُ

سَقَتْ كلَّ قلبٍ كلَّ يومٍ مَشارباً
توهَّمَ فيها لـذَّةً وهـي علقـمُ

وما الأرضُ إلا قَفْرةٌ زأرتْ بهـا
أسودُ المنايا حولنا وهـي حُوَّمُ

لها كلَّ يومٍ بيننا كـلُّ منـذرٍ
ينادي علينا سُمَّعاً وهـو أبكـمُ

تُنبهنـا بعضـاً ببعضٍ فتنثنـي
وأجفاننا في غفلـةِ اللهـو نُوَّمُ

---

(١) وردت هذه القصيدة في كتاب عيسى سابا ص ٤٣ بعنوان عبرة الاقلام على انها في رثاء الامير محمد أرسلان وقد توفي في القسطنطينية .

خَلَتْ دونها شُمُّ الحصون فلم تكن
لساكنها مــن غارةِ البين تعصـِمُ
وأصبحَ مَنْ قد كان يُرْهَبُ بأسُه
يُنــاحُ عليــه بعد حينٍ ويُرحَمُ
ترابٌ من الأرض استوى تحت صورة
تلــوحُ عليها مــدةً ثم تهـدمُ

. . .

إذا مــا دُفعنــا للبليــة مــرةً
ولم ننتفع بالحزن فالصبرُ أحــزمُ
جرى قدرُ المولى بما شاءَ واستوى
لديه جَزوعٌ في الأســى ومسلِّمُ
وليس لنا من مطمعٍ فات نَيْلُـه
إذا كان ما نبغيــه مــا ليس يُغنمُ
وما كان ما لا بُدَّ منه مؤخّــراً
يهونُ لديــه الرُزْءُ وهو مقدَّمُ
وما الفــرقُ في الحالين إلا هُنيهةٌ
تَمُرُّ سريعاً والقضــا متَحَتِّمُ

ومن قوله في الحِكمَ أيضاً :

وإنمــا نحن في داءٍ اذا اعتبــرتْ
ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يــوم أناسٌ فوقها فجعــوا
على أناس طوتهم تحتهــا الحفــر
بئس الحياة التي ما زال واردهــا
يمازج الورد في كاساتــه الصــدَرُ

حالان إحـداهما مملوءة حـذراً
مما يليهـا وأخـرى فاتها الحـذر

قال في مصير الارض من مقالة :

« واعتبر ذلك في الارض وما يؤلف أديمها من الجواهر ، ويشتمل عليه جوها من العناصر ، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء ، والحيوان السارح على وجه الغبراء ، والسابح في لجتي الماء والهواء ، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها ، ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد آخرها الى أولها ، بل ترى الارض نفسها عرضة للطبيعة ، تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف ، والامواج التي تهاجم ثغورها ، والزلازل التي تصدع صخورها ، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار ، الى أن يأتي يوم تنحل فيه الجبال ، وترسب في درك البحار ، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الارض حتى لا يبقى فيه أمت[١] ولا انحناء ، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية ، وقد عاد سطحها مستويا تحت الماء كاستواء سطح الماء ، فعادت كما كانت في أول خلقها • ماء غامر ، وكون بائر ، قد خلا من عالمي البر والهواء ، ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء •

هذا اذا لم تصب الارض قبل ذلك بالهرم ، وينضب ماؤها بعد خمود ما في باطنها من الضرم ، ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان ، ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران ، على حد ما تم ذلك في القمر ، حتى لم يبق فيه وشل[٢] لمرتاد ، وحتى

---

(١) الأمت : المكان المرتفع ، او التـلال الصغار ، والانخفـاض والارتفاع ، والاختلاف في الشيء •

(٢) الوشل : الماء القليل أو الكثير (ضـد) .

تجرد من ثوب هوائه أوكاد ، وحتى أصبح قفراً هامدا لا ينبت عليه شجر ، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر ، بل لو بقي هواء الارض وهو خال من بخار الماء لجمد البر وسطحها تجميداً ، وانقبض الاحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عمودا ، ثم لايزال بساطهم يزداد ضيقا على توالي الحقب الى أن تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب[1] ، فتدفها الثلوج حيث لا تنكشف رممها الا يوم التلاقي ، وتخط يد القضاء على أديم الارض « سبحان الحي الباقي » .

وهذا اذا لم تهرم الشمس فتقلب نارها بردا ، ولكنه برد بغير سلام ، فتهيم السيارات والآثار من حولها في فضاء من الزمهرير والظلام، ويومئذ لا يبزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق ، ولا يقبل الماء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق ، ولا يكون اذ ذاك كسوف ولا خسوف ، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالامس ، وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس . ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون موج يتنفس ، ولا سحاب ينبجس ، ولا سيل يتدفق ،ولا جدول يترقرق ،وتركد حركة الهواء ، فلا تهب شمال ولا صبا[2] ، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى ، وأنى والشمس مصدر الحركة في العوالم ، وقوام الحياة لكل قائم ، فاذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب ، واذا دبت النسم فالشمس هي التي تدب ، واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر ، واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر . ألا وهي الشمس التي تجري في

---

(١) السغب : الجوع .

(٢) الشمال : ريح تهب من الشمال . والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار .

الانهار ، وهي التي تغرد في الاطيار ، وهي التي تزهر في الرياض ، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض ، وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها ، واذا ماتت الافئدة فمحال أن تعيش أجسادها» •أ•هـ

وبعد ، فلم ينبغ لبنان أكتب من الشيخ فيما أعتقد ، ولا أجزل حظا منه في علوم البيان ، وندر أن كملت لغيره ما كمل له من عبقرية صقلتها العناية أي صقل ، ومن قام بواجبه في خدمة اللغة ، وسلك كل طريق نافع الى غرضه ، فقد قال فيه الاستاذ الامام محمد عبده : انه أكتب من أديب بكثير ، بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى • وناهيك بها من شهادة • وقال فيه الاستاذ شيخو : ان كلامه يظهر لقارئه كأنه المرآة الصقيلة أو الماء الزلال ، فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مرارا حتى يخرجه كالبرد القشيب والخميلة الناعمة •

وقال الاستاذ عبود : « ان انشاء الشيخ ليس بالانشاء المنمق العالي اذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر ، وفيهما ظهر أنه ناثر فني من الطراز الاول ، فخياله طريف فيهما ، وسجعه أنيق ظريف ، كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر ، وقد كتب جل نثره بأسلوب العلماء والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين ، وتضلعه من اللغة ، وادراكه أسرارها أدى به الى العدول عن المجاز • وله فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة ، وكان له أبعد الاثر في توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم ، ولئن كان في انشائه جفاف أساليب العلماء فلا تنس أن فيه صحة وشدة أسر » •

كان سمت الشيخ سمت العلماء، وعلى جانب عظيم من الوقار، تقرأ في طلعته جلال العلم وجمال الادب ، وتحس في كلامه كأنك في مجلس

فنان ، أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق : عقل عالم ، وحكمة حكيم ، وعين فنان ، وذوق شاعر ٠

كان الشيخ مأخوذا بعلمه ، مخلصا له ، لم يتعلق من الحياة بغير المعنويات ، دار حياته في دائرة ما حدثته نفسه أن يتخطاها قيد أنملة فلم يخرج فيها عن نشر العلم والآداب ، وخدم لغة القرآن خدمة لم يوفق الى أكثر منها أكبر علماء الاسلام ٠ وعاش مقلا متقشفا لم يطرق أبواب الملوك ، ولا قصد رجال المال ليستعين بهم على ما يضطلع به ، ومع أنه سبق للدولة المصرية قبله أن عاونت اللبنانيين العظيمين بطرس البستاني وأحمد فارس من رجال النهضة الاولى ، فهو لم يجد من حكومة مصر العربية عونا ، وغفل أغنياء المصريين والشاميين عن الاخذ بيده ، وكان يشير في الأحايين الى هذا النقص في أخلاق الامة ويردد أن الاغنياء وأرباب الشأن بمعزل عن نشدان المطالب العالية والمشاركة في الامور النافعة ٠

عاش الشيخ عزيز النفس ، وما أسفَّ الى ما أسفَّ [إليه] أكثر علماء عصره ، ومات لم يتزوج ولم يعرف سعادة البيوت وعطف الولد ، ومن أغرب ما يسجل أن حكومة لبنان اقترحت عليه أن توليه «قائم مقام»[1] على زحلة ، وهو عمل يقوم به بعض تلاميذه ، على أنه لم يخلق للادارة ولا للسياسة ٠ وكافأته الجالية السورية في البرازيل بعد وفاته بأن صنعت له تمثالا نصبته ببيروت ، في احدى ساحاتها ٠

قلت فيه يوم نعيته في جريدة « المؤيد » : « قضى حياة المتعلم

---

(١) منصب اداري يشغله من يدير أمور منطقة تشتمل على عدة قرى ، ويقابله اليوم منصب « مدير المنطقة » .

والمعلم والعالم على أكمل وجوهها • وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فعد من آحاد زمانه • نشأ في بيت كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والادب فشب وشاب فيما نشأ عليه وأنشىء له • وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره ، ويعاني الادب في جميع أدواره ، لايصل الى سمعه غيره ، ولا تقع عينه على ما سواه ، والجميع مستحسن لهومصفق ومؤمن على أقواله ومصدق ••• ولا بد لمن يتمحض للانتقاد أن يلاقي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب • والناس لم يألفوا الانتقاد ، وكان أكثر المتقدمين يعدون الانتقاد ثلما لشرفهم واسقاطا لاقدارهم ، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب »[1] •

★ ★ ★

---

(١) توفي بحلوان • وتحدث عن جنازته شاهين القـزي في كتابـه (ذكريات) وأقيم لهتمثال وضع عليه شيخ العروبةأكليلا من الزهور سنة ١٩٢٦ (انظر كتاب ذكريات وكتاب أحمد زكي لأنور الجندي) •

- ٣ -

احمد الاسكندري *

١٢٩٢ - ١٣٥٧ هـ
١٨٧٥ - ١٩٣٨ م

ولد أحمد الاسكندري في مدينة الاسكندرية في ٢٦ شباط سنة ١٨٧٥ ، وبعد أن حفظ القرآن التحق بالمعهد الديني بالاسكندرية . ولما لم تشبعه مناهج التدريس أخذ يقرأ الكتب التي تقع تحت يده ، فأولع بالادب ، وقرض الشعر ، ورأى الافق العلمي في الاسكندرية محدودا فرغب في النزوح الى القاهرة ، فلم يوافقه والده مع أنه كان يتعهده بالتعلم ، فصمم على الرحلة ، وجمع كتبه وحزمها ، وخرج في غفلة من أهل الدار ، وليس في جيبه الا دريهمات ، وركب مركبا في ترعة المحمودية بلغ به كفر الزيات ، وهنا نفد زاده ودريهماته ، فحمل كتبه على ظهره ومشى على قدميه حتى وصل القاهرة والتحق بالازهر .

وفي سنة ١٨٩٤ دخل دار العلوم وهو أصغر زملائه سنا ، وكان من عادة المدرسة يومئذ أن تعقد في أول كل سنة دراسية اختبارا عاما لطلبة المدرسة في كتب تعينها لهم وتختبر درجتهم في المعلومات العامة ، فكان الاسكندري كل عام فارس الحلبة فتخصه المدرسة بجوائزها .

تخرج في دار العلوم سنة ١٨٩٨ واشتغل بالتدريس في المدارس الاميرية ، ثم كان ناظرا لمدرسة المعلمين في الفيوم فالمنصورة ، وفي سنة

* ترجمته في الاعلام ١ / ١٧٧ معجم المؤلفين ٢/١٤ وانظر معجم المطبوعات ٣٩٤ ، ٤٣٨ ومقالاته في مجلة المجمع العلمي ، المجلد ٧ ص ٢٦٣ ، ٣٢٦ و ٤٢١/٩ ، ٤٦١ ، ٤٣٩/١١ وغيرها .

١٩٠٧ انتقل الى دار العلوم لتدريس مادتي الانشاء والادب العربي • وظل يزاول هذا العمل في تلك المدرسة زهاء سبعة وعشرين عاما ، ألف في أثنائها كتاب « الادب العربي في العصر العباسي » وقد أجمع الادباء على أنه كان المعين الذي استقى منه جميع من بحثوا في تاريخ الادب بعده • وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة في دار العلوم ، وكان غير معروف من قبل فيالمدارس المصرية فحمل عبء تدريسه • وقسمه قسمين : قسم فلسفي نظري يتعلق بنشأة اللغات والاشتقاق والنحت واختلاف اللهجات وغير ذلك • وقسم نظري يتناول وضع الالفاظ اللغوية للمسميات •

وفي سنة ١٩٢٢ عرض عليه كبير أن يـزج بنفسه في المعترك السياسي فأبى اجابة مقترحه محتجا بأن العلماء أحرى بهم ألا يكونوا ساسة • وجميع من تخرجوا في دار العلوم من سنة ١٩٠٧ الى ١٩٣٤ تتلمذوا له ماعدا فرقتين ثنتين •

وفي سنة ١٩٣٣ عين أستاذا للادب العربي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وكان في المكتب الفني عضوا عاملا ، واشترك في وضع مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، وفي مراجعة الكتب العربية لهذه المدارس • ولما أنشيء المجمع اللغوي الملكي في ١٣ كانون الاول سنة ١٩٣٢ وقع عليه الاختيار ليكون فيه عضواً • ومن يراجع محاضر جلسات المجمع في سنواته الخمس يجد أنه كان المحور الذي تدور عليه المقترحات والمناقشات • ولقد ساهم في أكثر اللجان الفرعية فكان عضوا في سبع لجان من احدى عشرة لجنة •

كان يحب العربية ويتعصب لها تعصبا شديدا ، ويعتبر التساهل وفتح الباب للغات الاجنبية لغزو اللغة العربية جريمة شنعاء ، ويعجب

ممن يعيبون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات جديدة ، لانه كان يرى أن هذه الالفاظ وان بدت غريبة الآن فانها بالاستعمال تسهل على السمع وتجري على اللسان . هكذا كان يجاهد جهادا شديدا حتى وافق المجمع على عدم اللجوء الى التعريب الا لضرورة قصوى .

قال فيه أحد من ترجم له : « كان يعتقد ان اللغة جسم يمكن ان ينمو ويربو بوسائله الذاتيـــة من غير لقاح او غـــذاء خارجي . فتعلق بفكرة أن اللغة العربيـــة لغة اشتقاق لا غير . ثم قصر اجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية ، والمقصـــود بالصيغ القياسية تلك الصيغ التـــي ورد فيها كثير من الكلمـــات المصوغة على وزانها . أما الصيغ الأخرى وهي الأكثرية الكبرى فكان يقول على مذهب قـــدامى اللغويين انهـــا صيغ سماعية ، أي تسمع عن العرب فقط ولكن لا يقاس عليها . بذلك تحصر الدائـــرة وتضيق ، ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسمـــاء الشؤون العامة مقتصراً على استخدام وسيلة واحدة هي الاشتقاق مـــن الصيغ القياسية في اللغة . هذا الى جانب المجاز ، وهو ان يوضع لفظ" استعمل لمعنى قديم ليؤدي معنى جديدا تجوّزاً لعلاقة بين المعنيين ،سواء كانت العلاقة كبيرة أو صغيرة » .

« كان من مذهبه في اللغة ان الفصيح من كلام العرب وحده هو الذي يحق له البقاء ، أما ما دون ذلك فدخيل لا حقّ له في الحيـــاة أو البقاء . ومعنى الفصيح عنده ما نقل عـــن العرب الى نهاية القرن الثالث الهجري قبل أن يولـّد المولـّدون في اللغة شيئا ، وقبل أن تختلط اللغة الفصيحة بعجمة العناصر البعيدة عن العربية السليمة . ولقد يسلم بنـــا هذا القول الى أن اللغة العربية ملك للعرب ، وليس للعرب عامة ،وإنما للعرب الذين عاشوا الى نهـــاية القرن الثالث الهجري . ذلك في حين أن

الثابت على مقتضى حكمة النشوء والارتقاء أن اللغة ملك لمن يتكلمونها ويستعملونها ويتخذونها أداة للتفاهم ، تنمو بنمائهم وتتطور بتطورهم ، وتصب في القوالب التي تدعـو الحاجة اليها . والواقع أن لكل زمان حاجاته ، وأن من التحكم ان نلزم تلك الأساليب التي انتحاها اسلافنا كأننا غيـر مخلوقين لزمان بعيد عن زمانهم عشرات القرون » .

أول مؤلفاته « تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي » ثم ألف كتاباً في اللهجات العامـة قدمه لمؤتمر المستشرقين سنة ١٩١١ ثم كتابـاً للمطالعة في المدارس الثانوية وسماه « نزهة القارىء »[١] ثم كتاباً جامعاً في الأدب العربي في جميع عصوره لم يطبع . وله مؤلفات في هذه اللغة ، واشترك مع غيره في وضع كتب مدرسية في التاريخ العام وتاريخ الأدب والنصوص الأدبية . وفي سنة ١٩١١ سافر الـى مؤتمر المستشرقين في اليونان بصحبة الأمير فؤاد (الملك فؤاد الأول) وأحمد شوقي وأحمد زكي وحفني ناصف وغيرهم .

هذا غاية ما دُوِّن من حياة الشيخ الاسكندري . وقد كتب لي أن عرفته وصحبته من سنة ١٩٠١ ، وكانت اجتماعاتنـا تتوالـى وتجري مذاكراتنا غالبا في شؤون تعود علينا وعلى الناس بالنفع . وكان الجـد يتجلى فيه ما أحب غيره .

كان مثال رجل يحسن القيام بالواجب ، وبلغ في الإخلاص بعلمه وعمله غاياته . أخلص في تلقي العلم ، وأخلص في تلقينه ونشره فعـدَّ حقاً من أركان نهضة العربية الأخيرة ، وكل تلاميذه ـ ويعدون بالمئات ـ معجبون بعلمه وأخلاقه ، ذلك لأنه كان من الأسـاتذة الذين يجب أن يُخَرِّجَ الناشئة بأقصر وقت من أقصر طريق . كان على وداعة ظاهرة

---

(١) طبـع .

وتواضع محمود ، بريئاً من الدعوى ، يحسن الدفاع عما اعتقد صحته من القضايا العلمية ، لا يصانع ولا يدالس ، أحسن تهذيب نفسه وتهذيب من وكل إليه أمر تهذيبهم ليتولوا بعده تهذيب أبناء وطنهم • ولما انتخب عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية كان لسانه وألسنة رصفائه : العوامري ووالي وحمروش والجارم أطلق ألسنةٍ اعتادوا الكلام أكثر من اعتيادهم حمل الأقلام ، وذلك لمرانهم على الإلقاء منذ أن كانوا يتولون التدريس ، وما كان ينقصهم الا معرفتهم لغة غربية ليتدبروا بأنفسهم أصل وضع اللفظ الذي يراد وضع مسمى له •

ويعد من مزايا الاسكندري أنه ما خرج عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ كان غلاماً ، وهجر دار أبيه في الاسكندرية ليطلب العلم في أزهر القاهرة ، سار على وتيرة واحدة ما غيرّ فيها ولا بدّل ، ولا طمع بمال ولا حدثته نفسه بمظهر من المظاهر • وكان يعد السعادة ما هو فيه ، ولسان حاله أنه سعى فنجح سعيه وجدّ فنال ثمرة جده ،وكان يخيل إلي أن صديقي لو سمع بأن في الصين رجلا يخدم اللغة العربية لتقدم وعقد معه صلات ليعاونه فيما هو بسبيله •

حدث مرة أن ألف المجمع اللغوي لجنة للنظر في تعريب الأعلام الجغرافية فلما لم ير اسمي من أعضائها قام والغضب آخذ منه ،وأقسم بالله أن كتابي « خطط الشام » أرقى من خطط المقريزي ، فمن يؤلف مثل « خطط الشام » كيف لا يضم الى لجنة تبحث في الجغرافية ، فبادرت وشكرته على حسن ظنه ، ولم أقبل مشاركة اللجنة ، واكتفيت بأن صححت لها مخطط الشام وكان محرّفاً تحريفاً مخجلاً ، ولم أرض أن يذكر اسمي في المحضر بأني صححت هذه الأعلام • ذكرت هذه

القصة مثالا من غيرة الشيخ الاسكندري على العلم وإنصافه بإنصاف المشتغلين به .

اختاره المجمع العلمي العربي[1] عضوا مراسلا فأكبر هذه الإشادة وعمد الى مؤازرة مجلته بقدر ما اتسع له وقته على ما لم يفعل بعضه أكثر الأعضاء المصريين . ومما نشره في مجلة المجمع بحث مستوفى في حياة ابن خلدون وفلسفته وتآليفه ، وآخر في ابن خفاجة الأندلسي ، وثالث في صفي الدين الحلي ، ورابع في أثر الأدب الغربي في شعر شوقي .

كانت تآليف الاسكندري محصورة في تعليم الآداب العربية خاصة وما تعداها الى موضوعات أخرى . وهذا مما يعد أيضا في باب غيرته على خدمة اللغة من طريقها الموصل المعبد . فاللغة هي التي دار في دائرتها الواسعة منذ جلس على مقعد التدريس ، وما كان يلتفت الى معالجة أبحاث غيرها .

ونثره النثر المرسل الخالي من التكلف ، الحالي بالسلاسة ، وما ترك له التدريس وقتاً يصرفه في الشعر ، وان علّمه ونقده وعرف جيده من رديئه وخرج من تحت يده شعراء وكتاب وأساتذة يحق له أن يفاخر بهم ، ويحق لهم بأن يفاخروا بالأخذ عنه .

★ ★ ★

(١) بدمشق .

- ٤ -

احمد تيمــور *

١٢٨٨ ـــ ١٣٤٨ هـ
١٨٧١ ـــ ١٩٣٠ م

كان جد أحمد تيمور من أكراد الموصل ، جـاء مصر وجدّ أمير الشعراء أحمد شوقي بوصاة من والي عكــا الى محمد علي الكبير ، فارتقى في وظائف الدولة ، وأخلص الخدمة حتىأصبح من قواد صاحب مصر ، وغدا ابنه بعده رئيس الديوان الخديوي ، وخلّف ثروة لا بأس بها ، ومات وأحمد طفل ، وكان ولد سنة ١٢٨٨ فكفلته أخته عائشـــة التيمورية[١] الشـــاعرة المشهورة • ودرس في بيتـــه مبادىء العربيـــة والفرنسية والتركية والفارسية ، ثم أدخل مدرسة مارسيل الفرنسية ،

---

* نشر هذا البحث في جريـدة الاهـرام المصريه ١٩١٥٧ للســـنة ٦٤ تاريـــخ ١٠ ذي القعـدة ١٢٥٦ الموافـــق ١٩٣٨/١/١٢ م • وهـــو محاضرة كان قد ألقاها في قاعة يورث التذكارية في الجامعـــة الامريكيـــة بالقاهــرة •

ترجمته في الاعلام ٩٥/١ ، ومعجم المؤلفين ١٦٦/١ وانظر معجـم المطبوعات ٦٥٢ ومقدمة طه حسين لكتـــاب (اوهام شعـــراء العـــرب) وكذلك مقدمة خليل ثابت ، ومرآة العصر ٣٢٩/٢ وانظر ايضامجلةالمجمع العلمي ١٤٧/٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٤٠/٩ ، ١٦٠ ففيهـــا مقـــالات لـــه •

وفي مجلة العربي العدد الرابع لسنة ١٩٧٤ مقال بعنوان مجالس احمد تيمور لأحمد الجندي •

(١) شاعرة أديبة من نوابغ مصر،كانت تنظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية توفيت سنة ١٣٢٠ هـ ، ١٩٠٢ م من مؤلفاتها : حليةالطراز (ديـــوان شعرها العربي) ، نتائج الاحـــوال (في الادب) ، وكشوفـــة (ديوان شعرها التركي) • (الاعلام ٥/٤ ـــ ٦) •

وكانت خاصة بأبناء الأعيان ، فقضى فيها خمس سنين أتقن خلالهااللغة الفرنسية وأخذ العلوم اللسانية والدينيـة والعقلية من علماء عصره ، ومنهم الشيخ رضوان المخللاتي ، ولازم الشيخ حسن الطويل أعظـم علماء عصره اثنتي عشرة سنة ، ثم لازم الشيخ العدوي والشيخ الهوريني والشيخ الحسيني ، وأخذ عن الشيخ محمود التركزي الشنقيطي ،وعن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبـده ، وصحب العلاّمة الشيخ طاهـر الجزائري ثلاث عشرة سنة .

تخرج أحمد بهؤلاء الأعلام فجمع بين الثقافتين ، وربمـا زادت ثقافته العربية على ثقافته الغربية ، فقد استخدم ثقافته العربية طـول حياته ، وما كانت ثقافته الغربية التي تثقفها في صباه الا خادمة للثقافة الأخرى ، وقلما نمّاها في كبره . ونشأ متدينا تقيا عطوفا على الفقراء ، بارا بالضعفاء ، يقيم الصلوات ويمارس شعائر الإسلام ، ويتصدق في السر تقربا الى الله واحتساباً ، يعطي من حر مالـه المئات من الجنيهات، وهو مع ذلك يرمى بالبخل .

لم يطمح أحمد تيمور في خدمـة الدولة على النحو الذي كـان عليه أبوه وجده ، بل شغل نفسه بتهذيبها وتعليمها ، فكان كل يوم من أيام صباه يزداد علماً ومعرفة ، ولمـا كان من خلقه الابتعاد عن الناس لم يجد حب الظهور والتمجد والتعاظم مكاناً من قلبه . طمحت نفسـه الى ما هو أسمى من كل هذه المظاهر ، طمحت الى أن يكون عالما باحثا، وخادماً أمينا لأمته وتاريخها وأدبها ، معالجا أمراضها بدرياق العلـم وبلسم الفضائل . والمرء حيث وضعته فطرته وبيئته .

نشأ غرام أحمد تيمور بالكتب وهو طفل في المدرسة ، وبدأباقتناء المطبوعات ، وما لبث أن أخذ يبتاع المخطوطات ، ثم توفر على اقتنـاء

كل مهم يقع له من الكتب المخطوطة ، فيشتريها ويطالعها ، ويعلق عليها ويفهرسها ويبوبها ، حتى كانت في نظامها وفهارسها غاية في الإحكام • وترك بآخرة خزانته ثلاثة عشر ألف مجلد ، نصفها مخطوط ، وقد حوت من النوادر الشيء الكثير ، ومنها ما هو بخطوط مؤلفيها ،أومما قرىء عليهم وأجازوه ، ومنها ما أخذه بالتصوير الشمسي من خزائن أوربا أو استنسخه من خزائن الشرق • عمل في هذه الخزانةسنين طويلة ثم أوصى بأن تكون وقفا على أمته لتستفيد منها كما استفاد هو ،وكان منذ جمعها لا يضن على باحث ولا طابع ولا ناشر من أبناء الشرق والغرب بإعارته ما يريد إذا أيقن أنه يفيد منها ويستفيد • ومن مكارم أخلاقه أنه قد يعير المخطوط وهو في حاجة الى أن يكون عنده • وقد يعرض له إشكال يقتضيه الرجوع الى ذلك السفر فيذهب بنفسه للمراجعة فيه عند من أعاره اياه ، ولا يجوز أن يقول له أعد إلي كتابي فقد طال مكثه عندك • وكرمه في هذا الباب ظاهر ، وهو لخدمة العلم يخاطر بأعز الأشياء على قلبه • وقد يعادل ثمن المخطوط وزنه تبراً •

أريد أن أتوسع في أخلاق صاحبي ، لأنها هي موضع العجب ، كما هو مثال يعجب به لعلمه وبحثه ، شهدته منذ تشرفت بزيارته بدرب سعادة[1] ، ثم في داره في عين شمس وفي الحلمية وفي الزمالك عزوفاً عن بعض الناس ، يحتاط فلا يتهور في اصطحاب من لا يعرف ماضيه وحاضره ، ويكره طبعاً وتطبعاً كل من وقع في نفسه أنهم زاغوا عن محجة الدين ، ووجد الإلحاد الى قلوبهم سبيلاً ، وكل من وصم بهذه الوصمة ضعف حظه من صداقته وصان مجلسه عن ذكر اسمه •

ولما شاعت دعوة أنصار القديم والحديث ودعوة الرجوع الى

---

(١) احد احياء القاهرة .

الفرعونية والزهد في كل ما هو عربي آلى على نفسه أن لا يطالع من الجرائد الا جريدة الأخبار لصاحبها أمين الرافعي رحمه الله ، لأنها تدافع عن الإسلام ، وتقاوم الإلحاد المعبر عنه في لسان العصر بالجمود أو الرجعية • ولما تعرض صديقه أحمد زكي باشا للمأمون وغمزه أخذ يعالجه بالوسائط المنوعة حتى اعتدل وعاد للانتصار للعرب ومدنيتهم قائلاً : انه لا سبيل اليه إلا أن يعود الى سيرته الأولى التي لم ينل شهرته الا بها • ولما سمي البرلمان بمصر باسم افرنجي وعدلوا عن تسميته بدار الندوة أسف أن سُمّي أكبر مظهر من مظاهر الاستقلال باسم أعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية •

كان من عادته أن يتبسط في الحديث مع خاصته تبسطاً لا يخرجه عن حدود الأدب والدعابة البريئة والنكات والتنادر ، ثم ينقلب الى البحث في الكتب مطبوعها ومخطوطها ، وفي المؤلفين وما يؤلفون ، وفي الكتّاب وما يكتبون • يخوض في كل ذلك من الجد بذوق وشوق وتقدير وإنصاف • ويهتم كثيراً بأمر المسلمين والإسلام والعرب والعربية ، لا يخص مصر فقط بعنايته ، بل يُعنى بسياسة غيرها عنايته بسياستها •

وكان غرامه بصداقة رجال العلم والأدب من أهل عصره على اختلاف مذاهبهم يوازي غرامه بكتب علماء السلف ، فهو يحب الأحياء كما يحب الموتى ، ولما سكن الإمام محمد عبده في عين شمس اتخذ داراً في جواره مدة ، ونقل اليها خزانة كتبه • فلما انتقل الإمام الى جوار ربه اسودّت الدار في عينيه فانتقل الى جهة أخرى ، وعرض دار عين شمس للبيع ، وبادر فنقل خزانته الى احدى مزارعه في قويسنا من عمل المنوفية ،وكانت هذه المزرعة محببة الى أبيه وأمه فنشأ هو على

حبها أكثر من جميع ضياعه • ولما ذكرت لـه ما ربما يصيب خزانته من الحريق وهي بالقرب من مساكن الفلاحين والقصب في سقوف دورهم طمنني بأنه ابتاع أرضاً في الزمالك ، وأنه ينوي أن ينشىء فيها داراً لخزانة كتبه • وبعد أن أنجز بناءها نقلها من قويسنا وقضى فيها بقية أيامه ، وكانت داره هذه كسائر الدور التي سكنها من قبل أرباب القرائح والعبقرية • ومن خُلقه أن يشارك أصحابه في سعادتهم وشقائهم، ويرمضه[1] أمرهم اذا نزلت بهم نازلة ، وكان الوفاء لأصحابه من أيسر صفاتـه •

قلنا انه كان يتصدق في السر بأن يجري مشاهرات على من قعد بهم الدهر عن الاكتساب ، ويفضل على بيوت كثيرة من المحاويج المساتير ، ويدر عليهم رواتب مقررة تأتيهم في بيوتهم رأس كل شهر ، ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه إذاعة ما تجود به نفسه ، لذلك أخذ العهود على من كان يعطيهم ما يقوم بأودهم أن لا يذكروا أنهم يرزقون منه • ولما باح أحدهم بالسر لضغط شديد وقع عليه شَق ذلك على هذا المحسن فقطع المشاهرات والإدرارات كلها متظاهرا بالضائقة ،وعاد بعد مدة يرسل بواسطة المصرف حوالات مالية بأسمائهم وهم لا يعرفون مصدرها ، بل ان المصرف نفسه لا يعرف حقيقة اسم المرسل ، ولذلك صح لنا أن نقول : انه كان لا ينفق ماله على غير العلم وعمل الخير ، ويبالغ في كتمان صدقاته حتى لا تدري شماله بما فعلت يمينه ، وكانت أطيانه[2] تزيد ، وريعها ينمو ، ونعمته تفشو مع هذا البذل الكثير •

ولئن كانت أحداث الأيام قد تفرق بيننا بعض السنين ، لا سيما زمن الحرب العامة ، فما استطاعت ان تفرقنا بالمراسلة • وعندي من

---

(١) أرمضه : أوجعه وأحرقه •

(٢) أي ما يملك من الاراضي ، وهي في اللغة المصرية الدارجة •

رسائله أكثر من مئة وأربعين رسالة هي في خزانتي أجمل ذخر وذكرى، وفيها صورة من علمه وأدبه وخلقه ومنازعه ومراميه • وقد جاء في بعضها كلام جميل يجدر اقتباسه ، لأنه صادر من صديق الى صديق يبوح له أبداً بذات نفسه ، فمنها ما كتبه عندما وجهت اليه رتبة الباشوية ، وكيف ضاق صدره بها ، وضاق صدره أيضا لما صدر الأمر الملكي بتعيينه عضوا في مجلس الشيوخ ، وحاول أن يستقيل غير مرة لولا حرصه على رضا الملك فؤاد الأول رحمه الله الذي أنعم عليه بالرتبة والعضوية بدون توسط أحد • دعاه الى هذا التشريف فرط محبته لتيمور وتقديره لنبله وفضله •

تولى أحمد تيمور أعمالاً علمية عامة كانت في نظره ألذ من كل مظهر : كان عضواً في مجلس دار الكتب المصرية ، وعضواً في المجمع المصري ، وعضوا في المجمع العلمي العربي[1] ، وقد خدم هذه المجامع والمجالس خدمات جليلة ، وأحسن الى مجمع دمشق أنواع الإحسان بمقالاته وأبحاثه التي نشرها في مجلته ، وبإهدائه أمهات من المخطوطات المصورة ، وبمنحه مجموعة نفيسة جداً من النقود الذهبية والفضية والنحاسية والزجاجية انتهت اليه من جده وأبيه ، وهي اليوم في متحف عاصمة الشام ، تنادي بلسان الحال أن أحمد تيمور كان يعطف على كل بلد عربي عطفه على مصر • وما أنشئت خزانة كتب في بلاد الشرق إلا كانت هدايا أحمد تيمور اليها أسبق الهدايا ، وتنشيطه للقائمين بها أبلغ تنشيط •

قلنا انه كان عزوفاً عن الناس ، يؤثر العزلة ، وكان يود لو مكّنته أعماله في القاهرة من الانقطاع الى مزرعته في قويسنا ، يأنس بجانب

---

(١) بدمشق .

خزانته ، ويستخرج فوائدها لقومه • ثم ان هذا كان من الصعب عليه أيضا ، لأنه كان على عزوفه ألوفا يألف من تربطه بهم وحدة الفكر ووحدة الروح • كتب إلـيَّ في رجب ١٣٣٨ هـ يقول : « وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله ورضي عنه مفزعي الوحيد عندما أكون في القاهرة فشاخ القدر أن يفجعنا به ولا يبقي لنا من تلك الأيام الا الذكرى المؤلمة والأسف المتواصل • حالنا ياسيدي الأخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد ، فقد أصبحت العامة والخاصة ، الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء • ونعمت ـ والله ـ الحالة لولا أنه عمل صالح مرفوع الى أسفل ، وتتيجة منطقية تابعة للأخس من المقدمين ، فقل لي ، بعيشك ، أي أنس في الاجتماع ، وأية لذة في المخالطة ، وقد أصبح من المتحتم على المرء قبول كل ما يقال على تغيره وتناقضه كل يوم ، وإلا فالويل له ثم الويل ، ولهذا تراني في أكثر أوقاتي جانحا الى وحدتي بقويسنا ، مكتفيا بمنادمة كتبي ••• » •

وكتب في رسالة : « أما الأحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة ، والمصير مجهول ، والله لطيف بعباده » •

ولما أنشىء المجمع اللغوي الأول في مصر ، وانضم الى أعضائه كتب : « انه انضم اليه من هب ودب ، وانه اميل الى التشاؤم بعد أن سمع اقتراحات بعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة ،وفتح الصدر لكل دخيل » •

هذه صورة صغيرة من منازع أحمد تيمور وأخلاقه • بقي علينا أن نلمّ إلمامة خفيفة بتآليفه ، وبها تتبين صورة علمه وأدبه • فأهم

ما كتب : « معجم الألفاظ العامية المصرية » بيّن فيه أصول تلك الألفاظ واشتقاقها وما يرادفها من الفصيح ، وهو من أفيد التآليف ، يدل على تبحر مترجمنا في اللغة ، وعلى بعد غوره في فنونها . وهو لم يطبع .

ومن تآليفه المطبوعة : « تصحيح أغلاط القاموس المحيط » و « تصحيح أغلاط لسان العرب » وهي رسائل تدل على دؤوبه وعبقريته ومعرفته الواسعة باللغة . هي بضع رسائل ، وتعد من أهم الكتب ، وقيمة التآليف بفائدتها وإمتاعها لا بطولها وعرضها وثقل حجمها وكثرة أوراقها . ومن كتبه المطبوعة رسالة في اليزيدية ،وأخرى في حدوث المذاهب الأربعة ، وثالثة في العلم العثماني ، ورابعة في قبر السيوطي ، وخامسة في أبي العلاء المعري وعقيدته ، وسادسة في الحلقة المفقودة في تاريخ مصر ، وسابعة في الألقاب والرتب وغير ذلك.

ومما لم يطبع ، أو طبع في إحدى المجلات العلمية « طبقات المهندسين[1] » ألفه باقتراحي من اجابة لرجائي ، وكنت آسف أن تضيع تراجم أولئك العظماء الذين خلفوا لنا هذه المصانع والعاديّات ، وما رأيت أقدر من أحمد تيمور على وضع كتاب في سيرهم .

ومن رسائله : التصوير عند العرب ، والأمثال العامية ، وهي خمسة آلاف مثل عامي ، ولعب العرب ، ونقد القسم التاريخي من « دائرة معارف فريد وجدي » ، وذيل طبقات الأطباء ، والآثار النبوية ، ومفتاح الخزانة للبغدادي ، وأعيان الشرق في القرن الثالث عشر ،جعله

---

(١) نشر اكثره في مجلة (الهندسة) بمصر .ثم زاد فيه وافرده في جزء لطيف طبع بعد وفاته بمصر سنة ١٩٥٧ بعنوان (أعلام المهندسين في الإسلام) .

ذيلاً لسلك الدرر للمرادي[1] ، ثم ألحقه بذيل في تراجم أعيان أوائل القرن الرابع عشر • ومنها : نوادر المسائل او معجم الفوائد والبرقيات، وهي كلمات تؤدي كل منها معنى جملة كاملة • الى غير ذلك من رسائله ومقالاته وتحقيقاته مما نشره في « المؤيد » والأهرام والمقتطف والضياء والمقتبس والهلال والهندسة والسلفية والآثار والزهراء ومجلة المجمع العلمي العربي ومنها ما نشر له بعد وفاته في « الرسالة » الى ما كان يكتبه في المناسبات •

أما الكتب التي استرشد فيها العلماء والناشرون بآرائه فكثيرة جداً ، يتألف منها كتاب من أمتع الكتب في النقد والبحث ، هذا الى رسائله الى علماء الشرق والغرب • وكان يكتب كل ذلك بيده ، لا يعتمد فيه على كاتب أو مساعد ، وهو سريع الإجابة على ما يرد عليه من الأسئلة ، إلا اذا اقتضى الحال التعمق في البحث فإن جزازاته وتعاليقه كانت متقنة يهتدي بها الى ما يريد لساعته •

وبعد ، فإني لا أعرف في بلاد العرب من أقصى شمالي إفريقية على البحر الأطلنطي الى خليج فارس رجلاً جمع مثل هذه الصفات ، وأحب العلم هذه المحبة الشديدة ، وخدمه في نطاق طاقته هذه الخدمة ، وهو في أصله من طبقة النبلاء وأرباب الثراء • فما أبطرته النعمة ، ولا استهواه الغنى والجاه ، وراح في كل أدوار حياته يبتعد عن الشهرة والشهرة تلحقه كعادتها مع من لا يتطلبها • وربما كانت شهرته في البلاد الخارجة عن القطر المصري أوسع من شهرته هنا • وقد رأيته يتبرم بها ظاهراً وباطناً •

---

(١) في أعيان القرن الثاني عشر وهو في اربعة اجزاء والمرادي هو شيخ الإسلام محمد خليل بن علي بهاء الدين محمد المرادي مفتي الاحناف بدمشق توفي سنة ١٢٠٦ هـ •

ان هذه الصيانة وهذه التقوى وهذا الرفق قلّ حتى في رؤساء الدين مثله • هذا مع اتساع الفكر لكل جديد ، وفتح الصدر لكل بحث اذا لم يصادم العقل فيه النقل •

كان إماما مدققا في علوم اللغة والبيان ، كاتبا نقي العبارة ، يكتب على أجمل ما يكتب نبغاء المؤلفين ، لا تعمّل ولا تصنّع ، يحيط بالتاريخ الإسلامي عامة وبتاريخ مصر خاصة إحاطة واسعة ، وقد رزق ذاكرة قوية ، لا ينسى ما يقيد ولا مالا يقيد ، وغلب عليه التواضع ، وتملكه الحياء ، والحياء من الإيمان ، فكأنه من جنس أولئك العلماء الذين ذكرهم الإمام محمد عبده يوماً في مجلسه ، وكان ذلك فيما أذكر في دار أحمد تيمور بدرب سعادة ، وقد سأله أحد الحضور أما آن لمصر أن تنشىء جامعة تخرّج أبناءنا في العلوم بالعربية ؟ فأجاب الأستاذ الإمام : حقا لقد حان الوقت لذلك ، ومتى تهيأت لنا الأسباب لتأسيسها نجلب ، ان شاء الله ، لتدريس بعض الفروع فيها أساتذة من سويسرا • فاستغرب أحد الحضور هذا التخصيص بالسويسريين ، وسأل الأستاذ عن هذا السر فأجابه : نعم من سويسرا ، ذلك لأن علماءها كالبنات العذارى اذا أحدقت النظر في وجوههم أخذهم الحياء واحمروا خجلاً •

ان محصول الأستاذ أحمد تيمور في العلم لا يعد قليلا اذا اعتبرنا جودة ما أتى به من الأبحاث ، واذا أدركنا أن التعليق على مخطوطاته استغرق جانبا عظيما من وقته ، وأن غرامه بالكتب كان يتقاضاه صرف الساعات الطويلة أيضا ، أكبرنا ما أتى به ، خصوصا اذا علمنا أنه كان يتولى كل أمر بنفسه حتى كتابة الفهارس • ولو نبغ مثله عند أمة غربية من الأمم الكبرى أو غيرها لكان اسمه في كل لسان ، ورسمه في كل عين ، ولكن هو الشرق يكبر الصغير ويصغر الكبير ، وينسى رجاله

أو يتناساهم ، لأن الرجال فيه كثر ، وقد يستفيض شهرة من لا يحسن أكثر من استفاضة شهرة من يحسن ، ولا يبجل في الأغلب الا من دجّل ودلّس وعبث بعقول الناس ، وكان وسطا في قريحته[1] .

★ ★ ★

(١) انظر ما ورد فيه أيضا اواخــر ترجمة احمد زكي القادمة . ومجلة المجمع ، المجلد ١١ ص ١٢٩ ففيها محاضرة عنه للمؤلف .

- ٥ -

احمد زكـي *

١٢٨٤ ـ ١٣٥٣ هـ
١٨٦٧ ـ ١٩٣٤ م

كان أحمد زكي إماما في التاريخ وعالما بأدب أمته ، ومحكما أدب الافرنج ، وكان الى ذلك خطيبا مِصْقعا ، ولد في المحـرم سنة ١٢٨٤ بمدينة الإسكندرية ، واختلف المترجمون في جده وأبيه ، والإجماع على أنه من أصل مغربي رحل جده أو أبوه الى يافا في فلسطين في التجارة ، ثم انتقل الى « رَشيد » ، الا أن المترجَم كان يكتم أن أباه ولـد في يافا ، وبعبارة أصرح أنه فلسطيني الأصل • وكفله أخوه محمود رشاد، ودفعه الى مدارس الحكومة حتى بلغت به خاتمة المطـاف الى مدرسة الحقوق ، وكان اسمها مدرسة الإدارة في عهده •وظهرت أمارات النبوغ عليه منذ كان يدرس الدروس الابتدائية ، ثم دخل في خدمة الحكومة بالمسابقة ودخل أولاً مترجما في محافظة الإسماعيلية ، ثم انتقل الى قلم المطبوعات في وزارة الداخلية حتـى بلغ أمانة السر في مجلس النظـار (١٨٨٩ م) وأصبح في آخر أيام خدمته أمين سر هذا المجلس •

هذه نظرة عجلى في نشأة أحمد زكي وعمله الرسمي ، ولـو كان موظفا كأكثر الموظفين ما سمع به أحد غير أهل بيئته والمحتفين بـه ، ولا تعدت شهرته حدود مصر ، ولكن كان أحمد زكي رجلاً من غيـر

---

* ترجمته في الاعلام ١٢٢/١ ومعجـم المؤلفـين ٣٢٥/١ وانظـر معجم المطبوعات : ١٧١ الراحلون : ٤٣ ومجلة المجمع مجلد ١٣ ض٣٩٤ ومجلة العربي العدد الاول لسـنة ٧٦ ص ٦٩ مقال للدكتـور حسـان حتحوت ، ولأنور الجندي كتاب عنه في سلسلة اعلام العرب برقم ٢٩ صادر سنة ١٩٦٤

هذا الطراز • كان رجل علم وأدب وبحث منـــذ وعى على نفسه[1] ، لم تشغله مشـــاغل الإدارة والكتابة عن عمله ، ودرس فن الترجمة فـــزاد إحكاما للغتين العربية والفرنسية ، وقلّ من أتقن الفرنسية من أبناء مصر إتقانه ، فقد كان ينشيء فيها ويخطب كمـــا ينشيء أدبـــاء الفرنسيين ويخطبون • وكان اذا سمع الخطاب العلمي في أحد المجامع بالفرنسيـــة ينقله حالاً وبدون استحضار الى العربية ، وبالعكس لا يكاد يخرم منه معنى ، ولا يتلجلج ولا يتلكأ ، وهـــذا لم يكتب لغير أفراد قلائل من البلغـــاء •

سافر أحمد زكي ثلاث مرات الى مؤتمرات المستشرقين في الغرب نائبا عن الحكومة المصرية ، وبذلك اتصل بأكثر المستعربين من علمـــاء المشرقيات في الديار الأجنبية ، كانوا يسألونه فيما يقع لهم من المشاكل فيحلها لهم أحسن حل ، ويساعدهم على ما هم بسبيله من خدمة العلـــم ولا سيما فيما له مساس بالمدنيـــة الإسلامية ، ولقـــد قال لي أستاذي الشيخ طاهر الجزائري ، وكان من أعظم الرجال علما بالتاريخ الإسلامي ودقائقه ومشكلاته : إنه ليس على أديم الأرض رجل عرف المدنية العربية والإسلامية كما عرفها أحمد زكي • بذّ في هذا الفرع المسلمين وغير المسلمين •

وأعانه اتصاله بالحكومة على اختصار صندوق الحروف العربية في المطابع ، وبدأ ذلك بالمطبعة الأميريـــة ، واختـــار النمط الذي راقه ، وأملى إرادته في ذلك على أرباب الاختصاص • وكان درس الطرق لهذا الإصلاح في رحلتين له الى الغرب • وهو الذي أدخل طريقة الاختـــزال الى اللغة العربية ، وكذلك طريقة الترقيم لتتعرّف الجملة العربيـــة ان

---

(١) كذا الاصل ، ولعل الصواب : وعى نفسه .

كانت في التعجب أو الاستفهام أو متصلة بما تقدمها ومنفصلة عما تأخر عنها • وسافر الى اليمن في آخر أيامه لخدمة السياسة العربية فما نسي العلم ، واتصل بإمامها ، فوقف علــى كتب اليمن ، واستنسخ ما راقــه منها ، وكتب جزازات مفيدة في أسماء بلاد اليمن وارجاعها الى أصولها القديمة ، ورحل مرات الى القسطنطينية ، واستنسخ منها لنفسه أو لدار الكتب المصرية عشرات من أمهات الكتب العربية بالتصوير الشمسي •

أما خزانة كتبه التي وقفها على الأمة فقد جُعلت أولاً في جنــاح خاص في دار الكتب المصرية ، ثم نقلت الى قبة الغوري ثم أعيدت بعد وفاته الى دار الكتب مثل الخزانــة التيمورية ، وهــي مــن الخزائن المهمة جــداً •

كتب لي يوم ١٤ جمادى الأولى ١٣٣٧ (١٥ فبراير ١٩١٩): «ولعله يسرك أن تعرف أن خزانتي قد انتقل عديدها من الألفين فبلغ الاثنــي عشر ألفا الآن ، وأنا أشكر الله تعالى طلبا للمزيد » •

وأتيح لي أن أصف بالتطويل خزانتي أحمد تيمور وأحمد زكي في مجلة المقتبس • وقــد رأيت المخطوطات النادرة جدا في خزانة الأول ، والمطبوعات النادرة في العرب والإسلام باللغــات العربية والإفرنجيــة في خزانة الثاني • لا جرم ان ثروة صاحب الخزانة التيموريــة أعانته كثيراً على التوسع في اقتناء الأطايب من المخطوطــات على ما اعتــرف بذلك أحمد زكي[1] نفسه • أما صاحب الخزانة الزكية فقد بدأ بجمع الخزانة وهو تلميذ أيضا بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٣ فكانت النقــود التي يرضخ بها له[2] أخوه محمود رشاد يشتري بها كتبا افرنجية، وأخوه يبتاع له الكتب الثمينة ، فتولد فيه الغرام بالكتب كما قال • ولما دخل

(١) كذا الاصل ، ولعل المراد احمد تيمور .

(٢) رضخ له : أعطاه عطاء قليــلا . وبعضهم يستعملها بمعنــى خضع وهو خطــأ .

في خدمة الحكومة خصص نصف راتبه الشهري لشراء الكتب . وكانت الديون التي عليه الى آخر أيامه للوراقين والطباعين وباعة الكتب العتيقة والجديدة في أوربا ومصر ، وأكثر كتبه الافرنجية ومنها ما كتب باللاتينية والألمانية والانجليزية والاسبانية والإيطالية ، واجتمع له معظم الكتب العربية التي طبعها علماء الافرنج منذ القرن الخامس عشر ، والمخطوطات العربية التي ضمتها خزانته هي منتقاة أيضا ، وأكثرها في التاريخ والأدب .

ومن خصائصه أنه كان محيطا بكل ما حوت خزانته كفعل أحمد تيمور ، وقد علق عليها شروحا وحواشي،وشفعها بمفكرات وجزازات. أما تنسيقها فأقل من تنسيق الخزانة التيمورية ، لأن صاحب هذه الخزانة[1] انقطع اليها سنين ، وما أضاع أوقاته في الإدارة والسياسة والتوسع في معرفة الناس .

كانت زوج أحمد زكي من فُضْلَيات العقائل[2]،وعاونته بثروتها على الظهور والبذل ، وكانت داره في جيزة الفسطاط في الثلث الأخير من حياته محط رحال رجال العلم والأدب من الأقطار الشرقية والغربية والأقاليم المصرية . واختار لها اسم « بيت العروبة » وهو اسم موفق ، وافق فيها الاسم المسمى[3] ،وأنشأ بجوارها جامعا ومدفنا فلم يتم الجامع على ما يجب من الهندسة العربية والزخرف . نقول : « بيت العروبة »

---

(١) أي أحمد تيمور .

(٢) جمع عقيلة ، وهي الكريمة المخدرة ويقصد بها اليوم الزوجة .

(٣) وزين جدرانها بثلاثة ابيات أجمل فيها هدفه وخطته في احياء التراث العربي هي :

وقفت على احياء قومي يراعتي ... وقلبي وهل الا اليراعة والقلب
ولي كل يوم موقف ومقالة ... أنادي ليوث الرب ويحكم هبوا
فإما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... واما فناء وهو ما يرقب الغرب

انظر وحي القلم ج ٣/٢٥٩

ويمكن أن يطلق عليه « بيت شعوب الخافقين » ولطالما دعا الى داره عشرات من الآسياويين والإفريقيين والأوربيين والأميركيين فمزجهم مزجا ، وخطبهم واستخطبهم ، وتجلت فيه مكارم الشرقيين بل مكارم المصريين .

كان يحب المناقشة . فإذا آنس من كاتب غلطة استفظعها وكتب فيها المقالات ، أو يقر له من قارف تلك الشنعاء معتذرا ، وهو قد يعتذر أيضا اذا ارتكب خطأ ، وقد يعترف به جهارا ، شأن العلماء . كان يبادر الى إطلاع الناس على أعماله ، وقد يبالغ فيها ، فاستفاضت لذلك شهرته ، وساعد على إنمائها قوة بيانه وشدة عارضته ، وتوفره على خدمة علماء الغرب في كل ما يعنّ لهم من الأسئلة ، على حين كان يتلكأ عن اجابة المسترشدين به من علماء الشرق . فإذا آخذوه على إهماله زعم أنه كسول[1] .

كان أحمد زكي يتجوز فيما لا يتجوز فيه أرباب التقوى ، فكأنه تخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم ، وما رأى حرجا في ذلك ، ويضطره العبث واللعب الى الإسراف . ولذلك أنفق كل ما دخل في يده من مال قرينته أولاً ، ثم من مال شقيقه ثانيا ، أنفق جميع ما خلفه له أخوه من نقد ، وهو مبلغ لا يستهان به في سنين قليلة ، غير حاسب للأيام حسابا ، وربما أفرط في ذلك ، ولعل إفراطه لكونه لم يُعقب ولداً . وقيل : انه ترك خدمة الحكومة مختارا ، وقيل : انه أريد على ترك الخدمة ، لأنه أتى أشياء تخالف قانون الإدارة .

هذا ما عرفته من أخلاق أحمد زكي ، وما أدركته مما نهض به من الأعمال ، بقي أن ألمّ إلمامة خفيفة بتآليفه . وتآليفه على ما رأيت ككثير من العلماء أقل من علمه العظيم . وقد كان مما يؤاخذ عليه أنه يريد

---

(١) كسول : صفة للأنثى وكذلك كسلة وكسلانة ومكسال أما صفة المذكر فكسلان وكسل (بفتح فكسر) .

الاستئثار بكل شيء ، وأن يخوض عباب كل مبحث . ولما وضعت وزارة المعارف المصرية مبلغ ٩٣٩٢ جنيه مالاً احتياطيا خصصته لمشروع إحياء الآداب العربية ، وطبع سبعة وعشرين كتابا من أهم كتب التاريخ والأدب والعلوم القديمة أحب أن ينفرد وحده بهذا العمل العظيم . وإذ كان يحب التدقيق ، ولا يثق بتحقيقات غيره أبطأ بالطبيعة في إخراج العمل فاستُرجع المبلغ الذي كان خصص لهذه الغاية .

ومن تآليفه : « الدنيا في باريز » ، « السفر الى المؤتمر » « قاموس الجغرافية القديمة » ومنها : محاضرات وأبحاث نشرت بالفرنسية والعربية أو بالعربية فقط في المجلات والصحف وكلها في موضوعه الذي هام به: « المدنية العربية ، والآثار الإسلامية ، وسيرة رجال الإسلام ، وتاريخ المشرق » . وقد طبع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري[1] ، وأجاد في التعليق عليه . وطبع كتاب « الأخلاق » ونسبه للجاحظ ، وعلق عليه ، وبقي مصراً على نسبته للجاحظ ، وليس هو كذلك . وطبع كتاب « الأصنام » لابن الكلبي[2] . و« نَكْت الهِمْيان في نُكَت العميان » للصفدي[3] ، وغير ذلك . وترجم من الفرنسية

---

(١) أحمد بن يحيى مؤرخ حجة في معرفة الممالك وخطوط الاقاليم والبلدان ، له عدا هذا الكتاب كتب اخرى منها (التعريف بالمصطلح الشريف) في مراسم الملك ومـا يتعلق به وغيره وله شعر في منتهى الرقة . توفي سنة ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩ م (الاعلام ١ / ٢٥٤) .

(٢) هشام بن محمد المشهور بابن السائب الكلبي (ت : ٣٠٤ هـ = ٨١٩ م) مؤرخ وعالم بأنساب العرب واخبارها وايامها ، ومن اهل الكوفة ، كثير التصانيف ، له نيف ومئة وخمسون كتابا ، فقد اكثرها .

(٣) خليل بن ايبك ، المشهور بصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م) اديب ومؤرخ وكثير التصانيف .

« الرق في الإسلام » والأصل لمؤرخ مصر صديقنا احمد شفيق • ونقل «تاريخ المشرق» لمسبيرو[١] • وبينما كان يملي دروسا في الحضارة الإسلامية على طلبة الجامعة القديمة اذا هو يكتب في « رسائل إخوان الصفا » وتقويم العرب قبل الإسلام ،ويبحث في اختراع البارود والمدافع وما قالته العرب في ذلك • ثم ينتقد العهدة النبوية الموجودة صورتها في دير الطور ، ويكتب تقارير في الكتب العربية التي خلفها العرب في الأندلس ، ويبحث في « الفيّوم » وبلاده في أيام الأيوبيين ،وفي تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى ،وفي الترقيم وعلامته في اللغةالعربية، وفي غرام العرب بالكتب ، وفي علاقات المصريين مع الأندلسيين ، وفي أهل الكهف ، وفي الأسباب التي ارتقى بها الإسلام ، وفي الطيران في الإسلام ، وفي مؤاساة العميان في دول الإسلام ، وفي مصر وحظها من خدمة الجغرافيا ، وفي العرب وأميركا ، وفي بقايا العرب الخالدة في أوربا • وفي الشام والحرية ، وفي التجارة في الإسلام ، وفي سراديب خلفاء الفاطميين ، الى غير ذلك من أبحاثه الطريفة ، وكلها نادرة في بابها ، مفيدة لمن نظر فيها ، وهي [أبحاث لا][٢] يكاد يجيدفيها إلا من كان في [مثل علمه][٢] •

ومن أهم ما امتاز به [معرفته أمور][٢] الجغرافيةولا سيما ماكان

(١) في معجم المطبوعات : ٩٧١ انه مختصر لتاريخ ماسبيرو . أما جاستون ماسبيرو (Maspero) فهو مستشرق فرنسي منعلماء الآثار، تعلم اللغات الشرقية وتضلع من الهيروغليفية واشتهر بعد نشر كتابه « تاريخ امم الشرق القديم » في باريس ١٨٧٥ م وترأس بعثة فرنسية لدراسة الآثار في مصر ، واسس المعهد الفرنسي بالقاهرة وشغل مناصب علمية له مؤلفات وبحوث . توفي سنة ١٩١٦ م (المستشرقون: ٣٣٢) .

(٢) كل ما كان هنا ضمن قوسين معقوفتين أصله تالف فجئنا بألفاظ ملائمة .

[منها خاصا] بالأندلس والشرق ، وقد ألف [فيها كتابا] لم يطبع[1]، وحبذا لو توفرت [لجنة تشرف على] طبعه وطبع جزازاته [ومفكراته التي حوت] كنوزاً مما التقطه من ذخائر [الكتب] .

ولقد كان في الكهولة وما بعد [الكهولة] مرجع حكومته في كل ما تحتاج [إليه من] الوثائق والسجلات والأضابير مما [استند إليه] في المطالبة بحق مصر في الاستقلال [وفي] خزائنه من ذلك صنوف من المراجع [هي] عدة المؤرخ والباحث والسياسي [اليوم] وكل يوم .

كانت له أشياء يستخرجها من مخطوطاته أو من جزازاته ومفكراته، ويتحف بها العالم العربي الحين بعد الآخر يقصد بها التعليم والإدهاش . فمما حدثنا به وهو مما استند فيه الى مجموعته الكاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة الآن بالشِّفْرَة[2] وكيفيتها عند العرب واستخراجها قال : وكانت العرب تسمي هذا الفن بفن الترجمة ، وحل التراجم ، وحل المترجم ، والذي يشتغل بذلك «المترجم» ـ بكسر الجيم ـ ولذلك نرى المؤلفين الأقدمين مثل ابن النديم[3] وغيره عندما يتكلمون على الكتب المنقولة عن اليونانية والفارسية

---

(١) لعل الكتاب المقصود هو كتابه (عجائب الأسفار في أعماق البحار) .

(٢) كلمة مولدة ، وهي المراسلة السرية المبنية على رموز لايحلها الا المتواضعون عليها ، وقد تكون مأخوذة من كلمة (الجفر) الذي يطلق مجازا على العلم المكنون . وقد وضع لها المجمع العلمي العربي بدمشق كلمة (الجفر ، أو القلم السري) ، ويقابلها بالفرنسية Chiffre

(٣) محمد بن إسحاق المتوفى سنة ٤٣٨ هـ = ١٠٤٧ م صاحب كتاب « الفهرست » .

يستعملون في الغالب لفظة النقل ولا يستعملون لفظة المترجم ولا الترجمة إلا نادراً • ولما كان هذا العلم خفيا خاصا بأسرار الحكومات الإسلامية كان مضنونا به ولا يصل الجمهور إليه ، ولذلك جهل كثير من الناس معنى هذه الكلمة ، حتى ان كتب اللغة لا تشير اليها ، بل ان شراح المقامات عندما أشار الحريري اليها في إحدى مقاماته جهلوها ولم يفسروها وتمحلوا فيها ، بل ان صاحب « لسان العرب » نفسه لم يذكرها ، وما كان عارفا بهذا الفن تمام المعرفة ، وكان هذا الفن مستعملاً في الدول الإسلامية من أيام المأمون الى الحروب الصليبية ، فأخذه الإفرنج عن المسلمين ، وهؤلاء أخذوا مبادئه عن اليونانيين ، ثم رده الإفرنج إلينا ، ولجهلنا بمعارف أهلنا اخترناه باسمه الجديد عن الافرنج وهو الشفرة ، التي نقلها الغربيون عن كلمة صفر العربية واستعملوها بمعنى الأرقام ،لأنهم استخدموا الأرقام بدلاً من الحروف في الكتابات السرية ، ثم اننا جعلنا بدل الشفر لفظة الجفر لتقارب المخرجين خصوصا ، وان كان الجفر يستعمل في الإلغاز بالحوادث المستقبلة ، فصار من هناك شبه علاقة جعلت العامة تعتقد أن الجفرة المستعملة الآن هي مأخوذة من لفظة جفر المستعملة في كتاب «الملاحم»(١) والصواب غير ذلك •

ومما حوته خزانته الجزء الرابع من « تاريخ الجبرتي » ويظن أنه يحتوي على فصول كثيرة اضطروا الى حذفها من النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق ، لأن فيها ما فيها مما يختص بمحمد علي ، ولكنه لم يحقق ذلك بطريقة يقينية ، غير ان ضخامة الجزء تجعل الظن أقرب الى اليقين، خصوصا والصفحة من المخطوط تعادل ثلاث صفحات من المطبوع على

---

(١) لعل المراد كتاب (الفتن والملاحم) لنعيم بن حماد المروزي المتوفى سنة ٢٢٨ هـ = ٨٤٣ م

الأقل ، فتزيد بأقل تقدير ١٥٣ صفحة من المخطوط ، واذا أضيف اليها ٤٠ صفحة من المخطوط أيضا فيكون المجموع المطبوع الى النهاية العظمى ــ وعلى التسامح الزائد ــ معادلاً لألف صفحة من المخطوط. وربما كان ما يبقى بعد ذلك من المخطوط هو عبارة عن مجموع الفصول والجمل والعبارات التي استصوبوا حذفها من الأصل لبعض الاعتبارات .

ومثل هذه المسائل كان أحمد زكي يخرجها للناس ويشرحها ويدنيها من العقول ، ويحبب ، بنشرها الى من يقرؤها ، البحث والنظر ، فكان بذلك صاحب رأي معين في التاريخ العربي ، يهتم لدقائقه .

وكان علماء المشرقيات ، من أجل هذا ، اذا ذكروا علماء مصر ذكروه في الصفحة الأولى وهم عرفوه معرفة أكيدة لاختلاطهم به واستفادتهم من تجاربه وأبحاثه .

قلت في محاضرة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة في أحمد تيمور وأحمد زكي : ان طريقة أحمد زكي فيما كتبه وترجمه ونشره أقرب الى ان تكون غربية منها الى أن تكون عربية . والعربية في آثار تيمور محسوسة أكثر من الإفرنجية ، والإفرنجية في كتابات زكي شائعة أكثر من العربية والروح الديني يتجلى في تيمور ، والروح المدني غالب علي زكي . فكأن هذا مستشرق شرقي ، وذاك شرقي قبل كل شيء :شرقي بتقاليده وهدايته وتربيته وثقافته . وتيمور جال في دائرة ما أحب ان يخرج عنها طول عمره ، وكذلك كان زكي ، إلا أن الدواعي والبواعث كانت تضطر هذا الى تجاوز الحد الذي رسمه لنفسه . ولئن كانت منطقته أوسع فلم تكن في كل حين أمنع وأمتع .

خاض زكي في المجتمع وتغلغل في تضاعيفه ، وقبله بما فيه من

حسنات وسيئات أكثر من صنوه تيمور • وهذا ابتعد عن المجتمع ، ولم يحب أن يتعرف إلا الى طبقة خاصة لا تنغص عليه عمله وسلامه •وهنا ظهرت بعض الشيء ارستقراطية تيمور وديمقراطية زكي • كانت حياة زكي مرحة يتمتع بمباهجها ومناعمها على ما يشتهي ويتعجل النعيم لا يرجئه ، وحياة تيمور عابسة فيها شيء من الانقباض ، وفيها عزوف ، وكلاهما كان صادقا في مشربه ، صادقا في سيرته ، غير مدلّس ولا مُؤالس[1] ، ولا مُتَنَطّس ولا مُتَنَمّس ولا مُتَزَمّت •

فني تيمور فيما أحب من صنوف الآداب ، أما زكي فلم يفن الفناء كله ، فأخذ من حياة العمال والسياسيين ، وحياة المسرفين والمترفين ، وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون ما كان •

إن عدد من أخذ عنهم تيمور من الشيوخ كان اكثر من عدد من أخذ عنهم زكي ، وكانوا في ذاتهم أشد تدينا وغيرة على الدين • وكان عدد من أخذ عنهم زكي من العصريين أكثر من عديد من أخذ عن أمثال طبقاتهم تيمور • فجاء تيمور عالما إسلاميا قبل كل شيء ، يحب الانتفاع بما أنتج أهل الغرب ، وجاء زكي عالما شرقيا يشبه علماء الغربيين الى حد بعيد • كلاهما اشترك في فضيلة الوفاء والكرم • وعُدّ من عظم مروءة زكي وفاؤه للخديوي عباس بعد انتقال أحكام مصر الى غيريده•

★ ★ ★

(١) الألس ، بضم الهمزة وسكون اللام : الخيانة والغش والكذب والريبة وأخطاء الراي . وتنطس : تأنق ، تقذر . وتنطس عن الامر : بحث عنه واستقصى . ونمس الامر : ألبسه وابهمه .

- ٦ -

احمد شـوقي *

١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ
١٨٦٨ - ١٩٣٢ م

ولد أحمد شوقي في القاهرة في سنة ١٨٦٦ م . قال لي ان جـده لأبيه كردي من الجزيرة (١)، جاء مصر واتصل بواليها محمد علي الكبير، فارتقى في أيامه في مناصب الحكومة . وجـد" والدته تركي كان من عمال والي مصر إبراهيم باشا ، زوّجـه بمعتوقته تمراز ، وهي يونانية كفلت شوقي وكان لها أثر في تخريجه . فهو كما ترجم لنفسه عربي كردي تركي يوناني جركسي، ومن حيث الدم والعنصر سامي" آري" يافثي" .

دفعه ذووه الى الكتّاب وهو لم يتجاوز الرابعة من سنيه ، ودرس الدروس الثانوية ، وتخرج في العربية بالشيخ حسين المرصفي ، ثم التحق بمدرسة الحقوق ، ودرس فن الترجمة ، وأحرز شهادتها . وفي مدرسة الحقوق تكشفت قريحتـه لأستاذ الأدب الشيخ محمد البسـيوني البيباني . وكان الشيخ يدفع اليه شعره ليصححه ، وذكـر للخديوي توفيق أن في بُردي شوقي نابغة في الشعر . ونظم الشاعر الفتى بعض القصائد في عزيز مصر فأرسله الى باريز لإتمام الدراسة .

---

* ترجمته في الاعلام ١/١٣٣ ومعجم المؤلفـين ١/٣٤٦ ، تاريـخ الادب العربي للفاخوري : ٩٨٠ ، الادب العربي المعاصر في مصر : ٩٢ - ١٠٣ ، تاريخ الشعر العربي الحديث : ٧٤ ألراحلون : ٤٣ - ٦٠ شعراء مصر للعقاد : ١٤٩

(١) المراد المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي من سورية .

ولما عاد الى مصر عين رئيسا للقلم الافرنجي في ديوان الخديوي عباس ، وظل في هذا المنصب حتى نشوب الحرب العامة فأرادته السلطة على الخروج من مصر فاختار المقـام في اسبانيا ، وقضى في الأندلس أربع سنين ، وعادالى مصر عقبى الهدنة فعين عضوافي مجلس الشيوخ.

نشأ شوقي في الشعر كما ينشأ الشعراء عادة ، يبـدأون بالمديح والهجاء ، ووقى الله شعره من وصمة الهجـاء وقول الهُجر ، وأغرق في المديح ، وبالطبع بدأ بمدح الخديوي توفيق ، ثم مـدح الخديوي عباس طوال مدة اتصاله بخدمته ، واعتذر عن نظم المديح فقال : انـه لم يجد أمامه لأول نشأته غيـر دواوين للموتى ، لا مظهر فيهـا للشعر وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحا في مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى ، فما زال يتمنى هذه المنزلة ويسمو اليها حتـى وفق الى ما أراد ، ولذلك أنفق معظم مديحه في عباس ، ووفى له بعد اعتزاله الحكم ، ومـدح محمد علي وإسماعيل وحسـين كامل وفؤاد الأول ، وأشار الى اعتزازه ببيت محمد علي بقوله[1] :

أأخـونُ إسماعيـلَ في أبنـائه
ولقد وُلدتُ ببـاب إسماعيـلا
ولبستُ نعمتـهُ ونعمـةَ بيتـه
فلبستُ جَزْلاً وارتديتُ جميلا
ووجدتُ آبائي على صِدْق الهوى
وكفـى بآبـاء الرجـال دليـلا

---

(١) لم أجد هذه الابيات في ديوانـه .

ودافع عن مذهبه في الإشادة بالمناقب في قوله[1] :

يُظهرُ المدحُ رونقَ الرجلِ الما
جدِ كالسيف يزدهي بالصقالِ
رُبَّ مدحٍ أذاع في الناس فضلاً
وأتاهم بقدوة ومثالِ
وثناء على فتى عَمَّ قوماً
قيمة العِقدِ حُسْنُ بعضِ اللآلي
إنما يَقْدُرُ الكرامَ كريمُ
ويقيمُ الرجالَ وزنَ الرجالِ [2]

نعم مدح شوقي كثيرين من العظماء والنبلاء والأصدقاء ، وبالغ في مدح عبد الحميد الثاني سلطان العثمانيين،ومدح سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد الخالق ثروة ، ومدح مصطفى كمال ، ثم عاتبه ومدح غيره من رجال السياسة . وهنأ أنقرة يوم أصبحت عاصمة ،وكان معجبا بفَروق [3] ولطالما ردد آيات جمالها ، وكان معظم حياته ، لطول ملابسته الكبراء واتصاله بعزيز مصر ، لا يقول الا ما يروق للكبراء ، ولا تلحقه تبعته :ينظم مايتفق والرسميات، ولذلك لم يرث الإمام محمد عبده لأن الخديوي كان غير راض عنه وعمل فيه ثلاثة أبيات يخاطبه فيها أن يفسر له آية الموت ، فكان لسان حاله يقول : سبحان من أنجى مصر منك بالموت . وكان الى هذا على اتصال دائم بالأجانب من

---

(١) من قصيدة في ديوانه ج١ / ١٨٨ عنوانها (يا شباب الديار) مطلعها :

غال في قيمة ابن بطرس غالي   علم الله ليس في الحق غالي

(٢) قدره : عظمه .

(٣) فروق من اسماء الآستانة ، ويقال لها أيضا استانبول .

رجال السياسة والمال والأدب والفن ، يرضيهم ويرضي نفسه ، ويأخذ عنهم ويعجبون بأدبه .

وغريب من شاعر هو أسير خياله وإلهامـه ، في ليله ونهاره أن يخضع مختارا لهذه القيود الثقيلة ، ويشرب قلبه حبّ المظاهر والرتب والأوسمة . والصحيح أنه لولا ذل الخدمة أعواما طويلة ما ذهب الشاعر بهذا العز ، والعز في الشرق ينبعث عـن صاحب السلطـان ، والناس لا يرون فوق ذلك مظهرا .

إن اتصال الشاعر بالخديوي كان منه الهبات والعطايا ، ونفوذه في القصر دعا أرباب الغرام بالمراتب والرتب والأوسـمة أن يتوسطوه في نيل ما تطمح إليه نفوسهم من الرغائب ، فجمع من ذلك ثروة لم يحرزها شاعر في عصرنا ، وفي كثير من العصور الماضية ونعم بالأطايب في الحياة، وعاش عيش العظماء وأرباب القصور ، واستطاع أن يبذل بعض مـا يسترضي به من يخدمه فاتسعت شهرته في الآفاق ، علـى ما لم يكتب لشاعر أو كاتب مثلها .

لاحظته عيون السعادة من شبابه الى شيخوخته، وتحلل من هموم الدنيا ، وتخللت قلبه مباهجها ، وكان على نعمته صاحب ترتيب في كسبه وعطائه ، يحاسب غرماءه حسابا مدققا ، وينزل عن مال يرضي به الأدباء والشعراء والبائسين المعوزين ، ولم تسمح نفسه أن يتساهل مع مديري الجَوْقات ، فأغلى ثمن رواياته المسرحية كما قال لي ، وتقاضاهم أكثر ما يمكن من مكافأة ليعلمهم احترام الأدب فيؤدوا لأجله بعض ما تستحقه قرائح الأدباء ، وكانوا من قبل يهضمون حقـوق المؤلفين ، فلا يعرض بضاعته عليهم الا من سدت وجوه الرزق في وجهه ، وهم يستغلونه على ما يشاؤون .

أراد شوقي منذ صباه أن يعاني النثر كمـا عانى الشعر ، وكتب بعض الروايات في آخر أمره ، ووضع كتابا أسماه « أسواق الذهب » فما جوّد في الأول ولا في الآخر ، لأن الكتابة لم تسلس له قيادها كما أسلس له الشعر قياده •

ميزاته : عرف شوقي بسعة خياله ، جاءه ذلك من مجموع الدماء التي دخلت في دمه من أجداده وأمهاته ، وعرف بنقاء ديباجته ، وأحيى كثيراً من فصيح اللغة ما كانت قبله من مألوف الكتاب والشعراء •واذا وقعت له بعض هنات لغوية أو بيانية فما خلا من مثلها حتى المعدود من عظمـاء الشعراء •

ولم يخرج شوقي على أساليب العرب وقوالبهم في شعره ، وزاد في موضوعات الشعر بابتداع المعاني الجديدة في قصائده ، مدحا كانت أو تشبيبا أو غير ذلك ، يلبسها آخر زي من أزياء العصر ، ولم يعل في نقله القصص المنثورة عن مستوى القصص المتعـارفة وأسلوبهـا ، وألف واحتذى حكايات للأطفال فاستجادها الناس واستظهرهافتيان المدارس، وخرج عن مألوف الشعراء في الملاحم التي نظمها ، منها ملحمة أتى فيها على تاريخ وادي النيلضمنها حِكَماً وعِبَراً وسياسة،ومنها ملحمتهأو قصيدته الكبرى التي نهج بها نهج البردة للبوصيري[1] ، وعرض فيها لمـا صح من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها ملحمته في الحرب العثمانية ، وملحمته في دول العرب وعظماء الإسلام • الى غير ذلك من القصائد المطولة •

---

(١) والتي مطلعهـا :

ريم على القاع بين البان والعلم احل سفك دمي في الاشهر الحرم

اما قصيدة البردة فهي للامام محمد بن سعيد البوصيري المتـوفى سنة ٦٩٦ هـ ومطلعهـا :

أمِنْ تذكرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

والملحمة قصة منظومة في وقائع الأبطـال ومجد أمـة وتاريخها وعظمتها عرفها اليونان والرومان ، وعرفتها فارس والهند ، ولم يعهـد العرب مثلها لأن من طبيعة العرب الاختصار ، ولا يحبون إطالة القصيدة على روي وقافية واحدة ، واذا بلغت المئـة أو أكثرها تبرموا بها .

وكان بعض أداء الغربيين يَلْمِزون الشعر العربي [1] لخلوه من الملاحم ، فأكذبهم شوقي بما نظم ، وناداهم بأن الشعر العربي لايضيق عن عمل الملاحم ، وقد برز فيما نظم من هذا القبيل .

ومن بدائعه سينيته في الأندلس ، عارض فيها سينية البحتري في وصف إيوان كسرى [2] . وقصيدته التي عارض بها ابن زيدون في قصيدته الى ولاّدة بنت المستكفي بالله . وموشحته في صقر قريش عبد الرحمن الداخل الأموي ، وقـد نسج فيها علـى منوال الموشحـات الأندلسية [3] .

وأهم ما امتاز به شوقي سعة نفسه في كل ما خاض عبابه ،وإجادته الوصف ، وكان في نظم الحِكَم دون المتنبـي . ومن أهم ما عاناه في أخريات أيامه في تأليفه روايات مسرحية، صنف ستا منها،ونظم مقاطيع في الغزل مؤنثه ومذكّره مَلُحت في الأذواق ، وخـدم بها الموسيقى ، ونقلت على اسطوانات الحاكي فرنّ شعره في كل أفق من آفاق اللغـة العربية ، وخدم برواياته فن التمثيل ، وأثبت بملاحمه وقصصه ومقاطيعه

---

(١) اللمز : العيب ، والاشـارة بالعين ونحوها .
(٢) ومطلعهـا :
صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدا كل جبس
انظر ديوان البحتري ج ٢ / ١١٥٢
(٣) انظر الشوقيات ج ٤ ص ٤٤ ، ١٠٣ ، ١٧٠

أن اللسان العربي يتسع صدره لكل المعاني والصور والأخيلة القديمة والحديثة ، وأنه يصلح لأكبر الملاحم صلاحه للابداع في البيتين والثلاثة •

وكان يرتجل الشعر ، ويتوفر على تنقيحه ، ويؤثر أن ينظم بعد الهزيع الثاني من الليل • ينظم بين جلسائه ، وفي المجالس ، وفي القطار وفي المجتمعات ، وفي السفينة ، وفي الطريق ، وفي الحديقة ، وعلى رأس جبل وفي قاع الوادي ، ولا يدرك جليسه أنه ينظم إلا اذا بدأ يغمغم وأخذت أسارير وجهه تبرق • وكان له ولع بالسينما ، لا يكاد يفلت منه رواية جديدة ، وقد يشهد الرواية الواحدة مرات ، كما ولع بالموسيقى والألحان قديمها وحديثها •

لم يخض شاعر ما خاضه شوقي • أراد أن لا يطرح شيئا من موضوعاته القديمة ، وأن يدخل كل ما يمكن ادخاله في الشعر من الموضوعات الجديدة ، فجريدة أشعاره طويلة ، وربما كان يحسن اختصارها ، والمرء لا يخضع لقانون خاص في حياته ، لأن أدوارها وأطوارها تحكم عليه منذ وعيه على نفسه الى أن يدفن في رمسه •

وشعر شوقي ، على تشعب أغراضه، ما خلا من إبداع ، ولو كتب له نقل" الى احدى لغات الغرب لوجد فيه عشاق الخيال والغرائب ما وجدوه في بعض شعراء الشرق الذين نقل شعرهم الى لغات الغرب •

وقال من ترجموا له انه تحامى الدخول في بعض المسائل الاجتماعية الكبرى مثل مسألة المرأة ، فلم يرسل عنان فكره في إصلاحها ،ولم يمعن في نصحها وارشادها ، ولعل ذلك كان منه لأنه لا يرى نزع عادات رسخت ولا يعاني موضوعا قد تؤلم معالجته بعض النفوس ، وهو

الحريص على التماس الحظوة من الخَلْق ، ومَنْ خُلُقه التلطف مع كل أحد لا يرى إزعاج غيره ، ولا يحب أن يزعجه أحد ، واكتفى من شعره أن وعظ ونصح وسلّى وأطرب ، وأرضى وما أغضب .

يحمل شعر شوقي إشارات الى أشياء كثيرة قرأها ومارسها ،والى دراسات قلّ أن تمكن شاعر من تمثلها .

قرأ أجمل دواوين شعراء العرب ، وقيل إنه حفظ ديوان المتنبي في صباه ، والى ذلك اطلع على جانب كبير من آداب الإفرنج لحذقه الفرنسية ، فتأثر شعره بالقديم والحديث ، وكان القديم فيه أعظم أثرا . وما خرج على أساليب العرب وقوالبهم في شعره ، ووعاها كلها، وحرص على إحيائها .

قلنا انه كان يراعي الرسميات، ولا يعالج من الأفكار ما قد يتأذى به أحد ، وقد يجيش صدره في موضوع فيردّه عن ورود حوضه مقامه في الدولة . كما وقع له أن نظم قصيدة يخاطب بها قبط مصر يوم هاجوا لمقتل أحد رجالهم بطرس غالي باشا ، ولم ينشرها في حياته .ومما جاء فيها[1] :

بني القبط اخوان الدهور رويدكم
هبوه (يسوعاً) في البرية ثانيا
حملتم لحكم الله صلب (ابن مريم)
وهذا قضاء الله قد غال غاليا

---

(١) الشوقيات ٤ / ٥٥

ومنها :

قضـاء ومقـدار وآجـال انفس
اذا هـي حانت لم تؤخـر ثوانيـا
نبيـد كمـا بادت قبائـل قبلنـا
ويبقى الانـام اثنين : ميتـا وناعيا
تعالـوا عسى نطـوي الجفاء وعهده
وننبـذ اسبـاب الشقـاق نواحيـا
ألم تـك مصر مهدنـا ثم لحـدنا
وبينهمـا كانـت لكـلٍّ مغانيـا
ألـم نـكُ من قبل المسيح ابن مريم
وموسى وطـه نعبـد النيـل جاريا
فهـلا تساقينا على حبـه الهوى
وهـلا فدينـاه ضفافـا وواديـا

وتحلل شوقي من تقيته في الحرب العامـة ، وطفق يعالج أمورا ما كان يعالجها الى آخر كهولته • وبقي مع هذا علـى اعتداله ، لأنه يقدس القوة، ويعرف مبلغ أصحابها من الحرية•والأمة التي ينشر بينها شعره راضية منه علـى أي حال ، تقبل له كل ما ينشدها من شعره • والشعر ما كان على الأكثر موضوع حقائق سليمة وتاريخ صحيح ، ولا يؤاخذ الشعراء بأقوالهم كما يؤاخذ المؤرخون مثلاً •

ذكر الشاعر الشام في شعره بعد الحرب ، ومـا كان يذكرها من قبل ، لأن آماله وآمال المصريين كانت معلقة في ذاك الجيل على دولـة الخلافة وعلى الأتراك ، ولما كان في الشام قال قصيدتين غَرّاءين وربما كانت قصيدته في دمشق مما لم يوفق الى نظم مثلها شاعر على كثرة من

نظم في عاصمة الأمويين منذ القديم الى اليوم • وهي التي يقول فيها[1] :

[آمنت بالله واستنيت جنته
دمشق روح وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها
الارض دار لها الفيحاء بُستان
جرى وصفق يلقانا بها بردى
كما تلقاك دون الخلد رضوان][1]

كان شوقي يحب الشام كما يحب مصر ، ويحب الترك كما يحب العرب ، ويعطف على المسيحية والمسيحيين كما يعطف على الإسلام والمسلمين ، ويعجب بالمدنية الغربية كما يعجب بالمدنية العربية ،ويحيي التاريخ الفرعوني كما يحنو على التاريخ الإسلامي ، ويردد أبدا ذكر الإسلام والمسلمين ، وعلى معظم قصائده تتجلى مسحة جميلة من هذا المعنى يستهوي بها القلوب وتنم عن اعتقاد • يقول للترك[2] :

الدهر يقظان والاحداث لم تنم
فما رقادكم يا أشرف الامم

---

(١) لم يذكر المؤلف الابيات التي أرادها ، وذكر على الهامش ما نصه : « تنقل بعض ابياتها » وهذه الابيات التي اوردناها هي من قصيدته « دمشق » الواردة في ديوانه ج ٢ / ٩٩ ومطلعها :
قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وازمان
أما قصيدته الثانية في دمشق فقد جاءت في ديوانه ج ٢ / ٧٣ ومطلعها :
سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
(٢) هذان البيتان هما البيت الأول والبيت الاخير من قصيدة في الشوقيات ١ / ٢٢٥

فسيفهـا سيفهـا في كـل معتـرك
وعدلهـا طـوق الاسـلام بالنعـم

ويقول خطابا لسلطان العثمانيين[1] :

نعـم الرعيـة في ذراك ونضـرت
أيامهـم في ظلـك الاحكـام
في كـل ناحيـة وكـل قبيلـة
عـدل وأمـن مـورف ووئـام

ولو عاش شوقي شهرا واحدا في الديار التي حكم على عنصرها الحاكم أنه أشرف أمة وتغنى بأمنها وعدلها وأحكامها لما تلكأ عـن أن يكتب ديوانا برأسه في الشكوى من ظلمهم ، ولكن هذه النغمة كانت زياً من الأزياء المقبولة في مصر على عهده ، أي مدح بني عثمان والتزلف الى العثمانيين • ومن الغريب أن هذه الأماديح في الخليفة العثمـاني وحَمَلة عرشه ما كانت تحوز القبول عندهم ، لأنهم لا يفهمونها ، ومن لا يفهم شيئا وهو ينطوي على بغض لغة أهله كيف يقدرما قيل فيه من روعة وجلال ؟

ولشوقي عشرات من القصائد في مسائل اقتصادية وأدبية وغزلية واجتماعية جود فيها وعلم ، ووقعت له فيها وفي غيرها حكم جميلـة وآراء سديدة • وقد دون فيها كبريات حوادث مصر ، وما له مساس بتاريخها • وهي اذا قرئت بعد قرن تنم عما كان يهتم له أهل هذه الايام من مشاكلهم ومتاعبهم •

(١) من قصيـدة في ديوانـه ج ١ ص ٢٢٦ عنوانها (الاسطـول العثماني) مطلعهـا :
هز اللواء بعزك الاسـلام   وعنت لقائم سيفك الايام

وكان تبرم مصر بوطأة الغريب عليها من العوامل المهمة التي اضطرت كلا من شوقي وحافظ الى النطق[1] بما نطقا ، ونعم النطق نطقهما .

استغرق باب السياسة والتاريخ والاجتماع أكثر من ثلث ديوان شوقي (٣٦٤) صفحة ومنها ما قيل لغرض المدح أولا . وضم الوصف (١٣٦) صفحة ، والنسيب (٤٢) صفحة ، والمتفرقات (٦٠)صفحة، والمراثي الجزء الثالث من ديوانه برمته (١٩٦) صفحة .

جود من وراء الغاية في الوصف ، وأحسن في النسيب ، وعلى شعره أبداً مسحة من دراسته ، فهو يعرف استخدام التاريخ والانتفاع بعبره ، وهو عارف بوقته قلما تفوته فرصة الا وينظم فيها شيئا ، وخلا نسيبه من الالفاظ العويصة[2] ، ولو طال عمره بضع سنين أخرى لاغنى الآداب العربية بقصصه ورواياته ، وكان لمن بعده من المجددين في الشعر مثالا يقتدى به . ولنا أن نقول انه برع في الملاحم لاول أمره ، وبرع في الروايات التمثيلية في آخر عمره ، هذا عدا ما خص به شعره من جمال الديباجة واتساع الخيال مما يقل أن يصل اليه أحد من المجددين من الشعراء العصريين ، ترى قصائده ولو كانت في النسيب لا تخلو من حكمة بالغة وموعظة حسنة .

وقد رأيناه احتفظ بما رسمه من خطة لشعره في أول ديوانه القديم، اذ قال ان انزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ويتبرأ الشعراء منها . الا أن هناك ملكا كبيرا ما خلقوا الا

(١) عبارة الاصل مضطربة لأن المؤلف عدل الجملة التي سبقتها ، ولم يعدلها ، فلجأنا الى تعديل طفيف كي تستقيم العبارة .
(٢) العويصة : الصعبة .

ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه . وهذا الملك هو الكون . فالشاعرمن وقف بين الثريا والثرى يقلب احدى عينيه في الذّر (١) ويجعل أخرى في الذرا . يأسر الطير ويطلقه ، يكلم الجماد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة الطل . فهنالك ينفسح له مجال التخيل ، ويتسع له مكان القول ، ويستفيد من جهته علما لا تحويه الكتب ولا تَعِيُه صدور العلماء . ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسليا في الهم ، وشاغلا اذا ملّ الفراغ .

وسَّع شوقي ــ والحق يقال ــ دائرة الشعر ، وتفنن في معانيه. وشعره ينم على صورة عصره ، أو على بعض صفحات جيله في الجملة . وزاد في الامتاع بشعره أنه نشر في الآفاق بمختلف طرق النشر ، فلم يبق عربي لم يسمع بشوقي ، اللهم الا في بوادي نجد والشام والحجاز وصحراء افريقية . ورأيناه ، كسائر الشعراء والكتاب ، يحسن في الموضوع الذي نفذ الى روحه وشارفه عيانا . فقد وصف المرقص والرقص في الحفلات الراقصة والساهرة التي كان عزيز مصر يقيمها في سرايه(٢) فأجاد اجادة غريبة ، فمنها ما نظمه في ليلة راقصة في قصر عابدين (٣) :

حَفّ كأسها الحبب   فهي فضة ذهب
أو دوائر دُرَر   مائج بها لَبَب (٤)

---

(١) الذر : صغار النمل .
(٢) السراية ، والسرايا : بلاط الملك ، او مقر الدوائر الحكومية (فارسية معربة) .
(٣) مطلع قصيدة في الشوقيات ج ٢ ص ٩ والحبب : الفقاقيع التي تعلو الخمر .
(٤) اللبب : موضع القلادة من الصدر .

أو فم الحبيب جلا   عن جمانــه الشنب[1]
أو يــد بــاطنهــا   عاطل   ومختضب[2]

ومنها قصيدته المشهورة التي نظمها وهو طالب في باريز يتغزل بفتاة افرنسية تدلّه بحبها وهي [3] :

خدعوها بقولهم حسناءُ   والغواني يَغُرُّهُنَّ الثناء
أتراها تناست اسمي لمـا   كثرت في غرامها الاسماء
انرأتني تميل عني كأن لم   تــك بيني وبينهــا أشياء
نظــرة فابتسامة فســلام   فكــلام فموعــد فلقــاء

الى آخر الابيات .

وهذه القصيدة من المرقص ، ولا سيما البيت الرابع ، فانه صور فيه جميع ما يتقدم به المحب حتى يلقي حبيبته في شبكته .

تقع لشوقي أبيات تمتاز عن غيرها في القصيدة الواحدة ، شأن أكثر الشعراء ، فمما جاء في ملحمته « الحوادث الكبار » [4] :

ولــد الرفــق يــوم مولــد عيسى
والمــروءات والهـــدى والحيـــاء

---

(١) الشنب : عذوبة الاسنان .
(٢) الأصل : او يــداه .
(٣) مطلع قصيدة عنوانها (خدعوها) في الشوقيات ج٢ ص ١١١
(٤) في الشوقيات ج١ ص ١٧ مطلعهــا :
همت الفلك واحتواها المــاء   وحداها بمن تقل الرجــاء

وسرت آيــة المسيــح كمــا يسـ
ـري من الفجــر في الوجود الضياء

تمــلأ الارض والعوالــم نــــورا
فالثـــرى مائـــج بهـــا وضــاء

لا وعيــد لاصولـــة لا انتقـــام
لا حســام لاغـــزوة لا دمـــاء

ملــك جـــاور التــراب فلمـــا
مـــل نابت عــن التــراب السمـاء

وأطاعته في الالـــه شيـــوخ
خشـّع خضـّـع لـــه ضعفـاء

أذ عــن النــاس والملــوك الى مــا
رسمــوا والعقــول والعقـــلاء

ومنها :

وتولــى عــلى النفــوس هوى الاو
ثــان حتــى انتهــت لــه الاهــواء

فــــرأى الله أن تطهـــر بالسيـ
ـف وأن تغسل الخطـــايا الدمـــاء

وكـــذاك النفــوس وهــي مــراض
بعــض أعضائهـــا لبعــض فــداء

لــم يعــاد الله العبيـــد ولكـــن
شقيــت بالغبـــاوة الاغبيـــاء

واذا جلَّت الذنوب وهالت
فمن العدل أن يهول الجزاء

وقال في قصيدة « الاندلس الجديدة » في تعاليم السيد المسيح عليه الصلاة والسلام[1] :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة
في العالمين وعصمة وسلامُ
ما كنت سفَّاك الدماء ولا امرءا
هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى
كثرت عليه باسْمِكَ الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم
رَحِماً وباسمك تقطع الارحامُ
أتت القيامة في ولاية يوسف
واليوم باسمك مرتين تقام
كم هاجه صيد الملوك وهاجهم
وتكافأ الفرسان والاعلام
البغي في دين الجميع دنية
والسلم عهد والقتال زمام
واليوم يهتف بالصليب عصائب
هم للاله وروحه ظلام

(١) الشوقيات ج١ ص ٢٣٠ مطلعها :
يا أخت اندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام

ويقول في رومة[1] :

ليت شعري الام يقتتل النا
س على ذي الدنية الفتانة
بلد كان للنصارى قتادا
صار ملك القسوس عرس الديانة
وشعوب يمحون آية عيسى
ثم يعلون في البرية شأنه
ويهينون صاحب الروح ميتا
ويعزون بعده أكفانه
عالم" قُلَّب" وأحلامُ خلقٍ
تتبارى غباوة وفطانة

وقال في قصيدة الدستور العثماني[2] :

الدين لله من شاء الاله هدى
لكل نفس هوى في الدين داعيها
ماكان مختلف الاديان داعية
الى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكُتْبُ والرسْل والاديان قاطبةً
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصل في مراشدها
وخشية الله أسٌ في مبانيها

(١) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ٢٥١ مطلعها :
قف بروما وشاهد الامر واشهد ان للملك مالكا سبحانه
(٢) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ٢٨٦ مطلعها :
بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وكـــل خـــير يلقـّــى فـــي أوامرهـــا
وكـــل شـــر يوقـّــى فـــي نواهيهـــا
تسامح النفس معنـــى من مروءتهـــا
بـــل المـــروءة فـــي أسمـــى معانيهـــا
تَخَلـَّق الصفحَ تسعدْ في الحيـــاة به
فالنفس يسعدهـــا خلـــق ويشقيهـــا

وقال في قصيدة رحّالة الشرق[1] :

كم في الحيـــاة من الصحراء من شبه
كلتاهمـــا في مفاجـــاة الفتـــى شَرَعُ[2]
وراء كـــل سبيـــل فيهمـــا قـــدر
لا تعلـــم النفس ما يأتي ومـــا يدع
فلست تدري وان كنت الحريص متى
تهب ريحاهمـــا أو يطلـــع السبـــع
ولست تأمن عنـــد الصحـــو فاجئـــة
من العواصف فيها الخـــوف والهلع
ولست تدري وان قـــدرت مجتهـــدا
متى تحـــط رحـــالا أو متى تضَعُ
ولست تملك من أمـــر الدليل سوى
أن الدليـــــل وان أرداك متبـــــع
وما الحيـــاة اذا أظمت وان خـــدعت
إلا سرابٌ عـــلى صحـــراءَ يلتمـــعُ

(١) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ١٥٥ مطلعهـــا :
اقدم فليس على الاقدام ممتنع   واصنع به المجد فهو البارع الصنع
(٢) شرع : سواء . وفي الاصل : في مناجاة . وهو خطأ .

وقال من قصيدة في وصف البسفور[1] :

جهـات أم عـذراى حاليـات
ومـاء أم سمـاء أم نبـات
وتلـك جزائـر أم نـيرات
وكيـف طلوعها والوقـت ظهـر
جلاهـا الافـق صفراً وهـي خضر
كزهـر دونـه في الـروض زهـر
لـوى بحـر بهـا والتـف بحـر
كمـا ملكت جهـات الدوح غُدرُ
تلـوح بهـا المساجـد باذخـات
وتتصـل المعاقـل شامخـات
طباقـا في العـلى متفاوتـات
سمـا بَـرٌّ بهـا وانحـط بَرٌّ
وكم ارض هنالك فـوق أرض
وروض فـوق روض فـوق روض
ودور بعضهـا مـن فـوق بعض
كسطـر في الكتـاب عـلاه سطـر
سطـور لا يحيـط بهـن رسـم
ولا يحصـي معانيهـن عـلم
اذا قـرئت جميعـا فهـي نظـم
وان قرئـت فـرادى فهـي نثـر

---

(١) ديوانه ج ٢ / ٤٠ مطلعها :
على اي الجنان بنا تمـر وفي اي الحدائق تستقـر

وهو وصف يصححه في الاكثر من شاهد بدائع فروق ٠

وآن لنا الآن أن نأتي بلمح من حكمه ٠ فمنها[١] :

اذا لـم يكن للمـرء عن عيشة غنـى
فلا بـد من يسر ولا بـد من عسر
ومـن يخبر الدنيـا ويشرب بكأسها
يجـد مرها في الحلو والحلو في المر
ومـن كان يغـزو بالتعلات فقـره
فـاني وجـدت الكد أقتـل للفقر
ومن يستعن في أمـره غـير نفسـه
يخنه الرفيـق العون في المسلك الوعر
ومن لم يقم سترا عـلى عيب غـيره
يعش مستباح العـرض منهتك الستر
ومـن لم يجمـل بالتواضع فضلـه
يَبِنْ فضلـه عنـه ويعطل من الفخر

. . .

واذا القلـوب استرسلـت في غيهـا
كانـت بليتهـا عـلى الاجسـام[٢]

ومثله :

واذا النفـوس تطوّحـت في لـذة
كـانت جنايتهـا عـلى الاجساد[٣]

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٢٥
(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٣٧
(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٢٠

وقد يقع له أن يكرر الحكمة الواحدة في عدة قصائد ، كما فعل هنا ، وكما فعل في حكمة :

لـك نصحي ومـا عليـك جدالـي
آفـة النصح أن يكـون جـدالا[1]

. . .

فقال في مكان آخر[2] :

عليـك النصح ان صادفـت أهـلا
وليس عليـك في النصـح الجـدال

وقـال[3] :

آفـة النصـح أن يكـون لجاجـاً
وأذى النصـح أن يكـون جهـارا

. . .

ومـن عبث الدنيـا وما عبثت سدى
شَببَنْا وشِبْنـا والزمـانُ وليد[4]

. . .

وقال مخاطبا أهل دمشق[5] :

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٣٣
(٢) لم اجد هذا البيت في الشوقيات .
(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٢٨
(٤) آخر بيت من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١١٨ مطلعها :
يمد الدجى في لوعتي ويزيد ويبدىء بثي في الهوى ويعيد
(٥) من قصيدة دمشق في الشوقيات ٢ / ٩٩ التي مطلعها :
قم ناج جلق وأنشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وأزمان

الملـك أن تعملوا ما استطعتمو عمـلا
وأن يبـين عـلى الاعمـال اتقـان
الملـك أن تخرج الامـوال ناشطـة
لمطلـب فيـه اصـلاح وعمـران
الملـك تحـت لسـان حولـه أدب
وتحت عقـل عـلى جنبيـه عرفـان
الملـك أن تتلاقـوا في هوى وطـن
تفرقـت فيـه أجنـاس وأديـانُ

ومما قال في القصيدة التي مطلعها[1] :

رمضان ولـى هاتهـا يـا ساقـي
مشتاقـة تسعـى الـى مشتـاق

. . .

وطني أسفت عليك في عيـد المـلا
وبكيت من وجدٍ ومـن إشفـاقِ
لا عيـد لـي حتـى أراك بأمـةٍ
شمـاء راويـة مـن الاخـلاق
ذهب الكـرام الجامعـون لامـرهم
وبقيـت في خلـف بغـير خـلاق
أيظـل بعضهـم لبعـض خـاذلا
ويقـال شعـب في الحضـارة راق
واذا اراد الله اشقـاء القـرى
جعـل الهـداة بهـا دعـاة شقـاق

(١) الشوقيات ج ٢ / ٧٦

وقال من قصيدة[1] :

لا تقولوا حطنا الدهر فما
هو الا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة في جهلها
ظهرت في المجد حسناء الرداء
باطن الامة من ظاهرها
انما السائل من لون الاناء

وقال من ملحمة له[2] :

ففريق متعون بمصر
وفريق في أرضهم غرباء
ان ملكت النفوس فابغ رضاها
فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسـ
ـر فكيف الخلائق العقلاء

وقال في تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر[3] :

عظيم الناس من يبكي العظاما
ويندبهم ولو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل
فتى يحيي بمدحته الكراما

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ٣ مطلعها :
يا فرنسا نلت اسباب السماء   وتملكت مقاليد الجواء
(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ١ / ١٧
(٣)الشوقيات ٤ / ٥٦ مطلع قصيدة .

وما عذر المقصر عن جزاء
وما يجزيهمو الا كلاما

وقال في فضل العربية[1] :

ان الذي ملأ اللغات محاسنا
جعل الجمال وسره في الضاد

ومن قصيدته في الازهر[2] :

لا تحذ حذو عصابة مفتونة
يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا
من مات من آبائهم أو عمَّرا
من كل ماض في القديم وهدمه
واذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة
والعلم نزرا والبيان مثرثرا

---

(١) آخر بيت من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ١١٢ عنوانها (على سفح الاهرام) مطلعها :

قف ناج اهرام الجلال وناد   هل من بناتك مجلس او ناد

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ١ / ١٥١ مطلعها :
قم في فم الدنيا وحي الأزهرا   وانثر على سمع الزمان الجوهرا

اذا رأيـت الهـوى في أمـة حكما
فاحكم هنالك أن العقـل قد ذهبا[١]

. . . . . .

اذا الاحـلام في قـوم تولـت
أتـى الكبـراء أفعـال الطغـام[٢]

. . . . . .

لا تعـدم الهمة الكبرى جوائزهـا
سِيّـان من غلب الايـام أو غُلِبا[١]
وكل سعـي سيجـزي الله ساعيـه
هيهـات يذهب سعي المحسنين هبـا

. . . . . .

فـان السعـادة غـير الظهـو
ر وغـير الثـراء وغـير التـرف[٣]
ولكنهـا فـي نواحـي الضمير
ر إذا هـو باللؤم لم يكْتَنِف

. . . . . .

قـم للمعلـم وفّـه التبجيـلا
كـاد المعلـم أن يكـون رسولا[٤]

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ١ / ٧٦ مطلعهـا :
اعدت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يأله طلبا
(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ١ / ٢١١ عنوانها (خاتمةرياض) .
وفي الاصل : تدلت .
(٣) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ١٥٩
(٤) الشوقيات ج ١ / ١٨٠

أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي
يبني وينشىء أنفسا وعقولا

. . . . . .

ان الوفاء سياج أخلاق الفتى
من حازه حاز المحامد أجمعا[1]
كم من لبيب كان يرجى نفعه
لكن أبى عدم الوفا أن ينفعا

. . . . . .

رُتَبُ الشجاعة في الرجال جلائل
وأجلهن شجاعة الآراء[2]

. . . . . .

أرى وطنا تحير ناشئوه
فما يجدون من عمل قواما[3]
فلا أسس التجارة فيه قرّت
ولا رُكنُ الصناعة فيه قاما

---

(١) لم اجد هذين البيتين في الشوقيات .

(٢) الشوقيات ج ٣ / ٢٢ من قصيدة في رثاء حافظ ابراهيم مطلعها :

قد كنت اوثر ان تقول رثائي — يا منصف الموتى من الاحياء

(٣) لم اجد هذه الابيات في الشوقيات .

مدارس لم تهيئهم لكسب
ولم تبن الحياة ولا النظاما

. . . . . .

جلال الملك أيام وتمضي
ولا يمضي جلال الخالدينا[1]
زمان الفرد يا فرعون ولى
ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض
على حكم الرعية نازلينا

. . . . . .

من خانه الدهر خانته صنائعه
وعاد ذنبا له ما كان احسانا[2]
ولا ترى الناس الا حرب مضطهد
وجالبين على المخذول خذلانا
والحظ يبني لك الدنيا بلا عمد
ويهدم الدعّم الطولى اذا خانا

. . . . . .

مثل القوم نسوا تاريخهم
كلقيط عيّ في الناس انتسابا[3]

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ٢٦٦ بعنوان (توت عنخ آمون) .

(٢) لم اجد هذه الابيات في الشوقيات .

(٣) من قصيدة في الشوقيات ٢ / ١٨ مطلعها :
انا من بدل بالكتب الصحابا لم اجد لي وافيا الا الكتابا

أو كمغلـــوب عـــلى ذاكـــرة
يشتكي من صلة الماضي انقضابا[١]
وأنــا المحتفــي بتاريـــخ مصـر
من يصن مجــد قومه صان عرضا[٢]

* * * * * *

ومما قال في نكبة دمشق[٣] :

بنــي سوريــة اطر حــوا الامــاني
وألقــوا عنكم الاحــلام ألقـــوا
فمِـــن خُدَع السياسة أن تُغَرّوا
بألقــاب الإمــارة وهــي رِقٌّ
وكــم صيــد بدا لــك مــن ذليــل
كمــا مالت مــن المصلــوب عنــق
فتــوق الملــك تحــدث ثــم تمضي
ولا يمضـــي لمختلفـــين فتـــق
نصحــت ونحـــن مختلفــون دارا
ولكـــن كلنــا في الهــم شـــرق
ويجمعنـــا اذا اختلفــت بـــلاد
بيـــان غــير مختلــف ونطـــق

---

(١) الانقضاب : الانقطاع .

(٢) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ٥٦ بعنوان (انس الوجود) مطلعهــا :

أيها المنتحـي بأسوان دارا كالثريا تريد ان تنقضــا

(٣) الشوقيات ج ٢ / ٧٣

وقفتم بين موت أو حياة
فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللاوطان في دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
ومن يسقي ويشرب بالمنايا
اذا الاحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا
ولا يدني الحقوق ولا يحق

. . . . . .

انما الشرق منزل لم يفرق
أهله ان تفرقت أصقاعه[1]
وطن واحد على الشمس والفصـ
ـحى وفي الدمع والجراح اجتماعه

. . . . . .

وقال في قصيدة يخاطب أهل دمشق :

نصيحة ملؤها الاخلاص صادقة
والنصح خالصه دين وايمان[2]
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزانُ
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم
ونحن في الجرح والآلام اخوان

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ / ١٠١ في رثاء المويلحي مطلعها :
كاتب محسن البيان صناعه استخف العقول حينا يراعه
(٢) الشوقيات ج ٢ / ٩٩

وقال في ملحمته « نهج البردة » مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام[1] :

علمتهم كل شيء يجهلون به
حتى القتال وما فيه من الذمم
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم
والحرب أسّ نظام الكون والامم
لولاه لم نر للدولات في زمن
ما طال من عمد أو قرّ من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة
في الاعصر الغرّ لا في الاعصر الدهم[2]
بالامس مالت عروش واعتلت سرر
لولا القذائف لم تثلم ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة
ولم نعد سوى حالات منقصم[3]

ومن قوله في قصيدة يوم الاعتداء على سعد زغلول[4] :

أرى مصر يلهو بحد السلاح
ويلعب بالنار ولدانها

---

(١) الشوقيات ج١ / ١٩٠.
(٢) الدهم : المظلمة .
(٣) المنقصم : المنكسر .
(٤) من قصيدة في الشوقيات ج١ ص ٢٦٢ بعنوان (اعتداء) مطلعها :

نجا وتماثل ربانها ودق البشائر ركبانها

وراح بغير مجال العقول
يجيل السياسة غلمانها[1]
وما القتل تحيا عليه البلاد
ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضي دولة
وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلاد
وبالعلم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العلوم
وأين الفنون واتقانها
وأين من الخلق حظ البلاد
اذا قتل الشيب شبانها

كان شوقي يعرف قدر شعره ومبلغ انتشاره في الآفاق ، ومما قاله في أهل دمشق[2] :

رواة قصائدي فاعجب لشعر
بكل محلةٍ يرويه خَلْقُ
. . . . . .

نالت منابر وادي النيل حصتها
مني ومن قبل نال اللهو والطرب[3]
. . . . . .

(١) الديوان : يجل السياسة .
(٢) الشوقيات ج٢ ص ٧٣
(٣) في الشوقيات المجهولة ج ١ ص ٧٦

ان الـذي قـد ردهـا وأعادهـا
في بُردتيكَ أعـاد فيّ البحتري[1]

. . . . . .

وكأنـه في الفتـح عموريـة
وكأنـي فيـه أبـو تمـام[2]
أسـم العصور بحسنـه وأنا الذي
يـروي فينتظـم العصور كـلامي

وله يخاطب عبد الحميـد الثاني[3] :

يـا واحـد الإسـلام غيـر مدافـع
أنـا في زمانـك واحـد الأشـعار
لي في ثنائـك وهـو بـاقٍ خالـد"
شِعرْ" على الشّعرى المنيعـة زاري[4]

فاخر شوقي بشعره وحق له الفخر ، وفاخرت به مصر ولها الفخر ، وفاخر به العرب شعراءهم الاقدمين .

ونشروا لشوقي الجزء الرابع بعد وفاته فحمل الغث والسمين ،

(١) لم اجده في الشوقيات .

(٢) لم اجدهما في الشوقيات .

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج ٢ ص ٣٦ يصف فيها مشـاهـد الطبيعة وهو في طريقه الى الاستانة مطلعها :
تلك الطبيعة قف بنا يا ساري حتى أريك بديع صنع الباري

(٤) الشعرى : كوكب يطلع في الجوزاء في شدة الحر .

والغالب أن فيه قصائد قد أغفلها الشاعر في حياته عن قصد ، وكان عليه أن يضعها في أماكنها من الديوان ، كأماديح الخديوي عباس ، على أن هذا الجزء لم يخل من أمور مهمة ، ومنها مجموعة من الشعر السهل نظمها لتكون للاطفال أدبا وثقافة ، ومنها حكايات على ألسن الحيوانات، وهي غير قليلة . ومما فيه ، وقد حوى معنى عاليا بيتان عنون لهما « بيني وبين أبي العلاء » وهما :

بيني وبين أبي العلاء قضية
في البر استرعي لها الحكماءَ
هو قد رأى نُعمى أبيه جنايةً
وأرى الجناية من أبي نعماء

اشارة الى ما يروى من قول المعري :

هذا جناه أبي عليّ
وما جَنَيْتُ على أحد(١)

وختم هذا الجزء بمداعباته للدكتور محجوب ثابت ، آخرها

---

(١) قال مؤلف (الجامع في أخبار ابي العلاء المعري)بعد انذكر هذا البيت : ذكر ابن خلكان والذهبي والبديعي وغيرهم (انظر تعريفالقدماء بأبي العلاء ١٥٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٨) أن ابا العلاء لماقارب الموت أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت كما يروى انه كان يقوله ويردده في مرض موته ، ولم ار هذا البيت على قبره ، ولا أعرف احدا ذكر أنه رآه عليه، وهو غير موجود في شيء من كتبه التي اطلعنا عليها ، فلعل من اوصاهم بكتبه لم ينجزوا كتبه ، وفي « أوج التحري » وغيره أن هذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فهم يقولون ان ايجاد الولد واخراجه الى هذا العالم جناية عليه ، لانه يتعرض للحوادث والآفات » ويروى : هذا جناة ... (انظر الجامع في أخبار أبي العلاء ١ ، ٤٤٣)

قصيدة بعنوان « براغيث محجوب »[1] :

براغيث محجوب لم أنسها
ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي
وتنفذ في اللحم والأعظم
وكنت إذا الصيف راح احتجم
ت فجاء الخريف فلم أُحْجَم
ترحب بالضيف فوق الطري
ق فباب العيادة فالسُّلّم
قد انتشرت جوقة جوقة
كما رُشَّت الأرضُ بالسِّمسم
وترقص رقص المُواسي الحداد
على الجلد والعلق الأسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء
وترفعُ ألوية الموسم
إذا ما ابن سينا رمى بَلْغَماً
رأيت البراغيث في البلغم
وتبصرها حول بيبا الرئيس
وفي شاربيه وحدّ الفم[2]
وبين حفائر أسنانه
مع السوس في طلب المَطْعَم

(١) الشوقيات ج ٤ / ٢٠٩

(٢) الرئيس كناية عن الدكتور محجوب نفسه . ومن الاشياء الحبيبة اليه التدخين في البيبا .

وقال شوقي في بنك مصر أو المصارف عامة[1]

نصون كرائم الأموال فيها
وننزِلها الخزائنَ والنضادا
ونخرجها فتكسب ثم تأوي
رجوعَ النحل قد حمّلن زادا
ولم أر مثلها أرضاً أغلّت
وما سُقيت ولا طَعِمت سمادا
ولا مستودعاً مالاً لقوم
إذا رجعوا له أدى وزادا
ولو ملكت كنوزَ الأرض كفّي
جعلت أساسها ماساً ورادا[2]
ولو أن النجوم عنَتْ لحكمي
فرشت النيّراتِ لها مِهادا

وقال يشيد بالفن[3] :

والفن ريحان الملوك وربما
خَلَدوا على جنباته أسماءَ
لولا أياديه على أبنائنا
لم تُلْفَ أمجدَ أمةٍ آباءَ

---

(١) من قصيدة في الشوقيات ج٤/١٤ مطلعها :
نراوح بالحوادث أو نغادي ونكرها ونعطيها القيادا

(٢) لعله يريد بالراد معدن الراديوم

(٣) من قصيدة في الشوقيات ج٤/٤٩ مطلعها :
خطت يداك الروضة الغناء وفرضت من صرح الفنون بناء

كانت أوائــل كــل قــوم في العُــلا
أرضـا وكنـا في الفخـار سمـاءَ
لـولا ابتسـام الفـن فيما حولـه
ظـلّ الوجـود جهامـةً وجفـاءَ
جـرّدْ مـن الفـن الحيـاة ومـا حَوَتْ
تجـد الحيـاة مـن الجمـال خَلاءَ
نبض الحضـارة في الممـالك كلهـا
يجـري السلامـة أو يـدقُّ الـداء
إن صـح فهي على الزمـان صحيحـةٌ
أو زاف كانت ظاهـراً وطـلاء

★ ★ ★

- ٧ -

أحمد فتحي زغلول *

١٢٧٩ ـ ١٣٣٢ هـ

١٨٦٣ ـ ١٩١٤ م

ولد في أبيان من عمل الغربية في مصر ، وأخذ التعليم الابتدائي والثانوي من مدارس مصر والاسكندرية • كان الاسم الذي اختاره له أبوه « فتح الله صبري » فلما رأى ناظر المعارف ما كان يتجلى فيه من النبوغ سماه باسمه أحمد ، واختار له من الالقاب « فتحي » فكان أحمد فتحي زغلول ، وزغلول اسم أسرته • ثم أوفدته المعارف الى أوربا فحذق علم الحقوق في باريز ، وتمكن من الآداب الفرنسية ، وجاء مصر فتولى وظائف كبيرة حتى بلغ منصب وكيل وزارة العدل ، وعني بما طلب منه وضعه من اللوائح والقوانين ، وهو الذي وضع لائحة اصلاح الازهر ، ولائحة اصلاح المحاكم الشرعية ، وكان أترابه يشهدون بتفوقه عليهم في هذا المعنى •

قال فيه عبد الخالق ثروت من علماء مصر وقضاتها : انه « نبغ في المعقول والمنقول ، مع الادب الجم ، تزينه البلاغة ويزينه المنطق الصحيح الى العلم الغزير ، تثبته الحكمة ، وتؤيده قوة العارضة الى

---

* ترجمته في الاعلام ١٨٥/١ ومعجم المؤلفين ٤٤/٢ واشهر مشاهير ادباء الشرق : لمحمد عبد الفتاح ١١٤/٢ وانظر معجم المطبوعات ١٤٣٥ ـ ١٤٣٧ والاعلام الشرقية ١٤/٣

ونشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في الجزء الرابع من المجلد السابع والعشرين الصادر في ١٩٥٢/١٠/١ ص ٤٨١ ـ ٤٨٥

صفات نادرة في تصريف الامور » • وكان كاتبا مبدعا وخطيبا مفوها ، وذا ذوق سليم فيما لم يعانه من الفنون ، وعلى جانب من دماثة الاخلاق والتواضع والبعد عن الدعوى ، يجمع الى هذا كله « شغفا غريبا بحسن التنسيق والتنظيم » و « ان جهاده في عام واحد من أعوام حياته يقصر دونه جهاد رجال في أعوام ولم يقصر همته على أعمالها الكثيرة العظيمة ، بل كنت تجده عاملا في كل شأن من الشؤون العامة » « حياة كلها جهاد ، وعمل لم يؤت فيهما عقله وجسمه قسطهما من الراحة، مدفوعا الى ذلك بعوامل فطرية ، مغالبا نواميس الطبيعة » •

كان رجل عمل يدعو الى تحبيبه الى الناس وتعليمهم طريقته الرشيدة ، ولم يكن رجل ثورة ، لانه يكره الثورات ويعتقد مضرتها • وعنده أن القانون الحسن ما احتملته الامة ونفذته راضية به مستعدة له • ويرى أن خير التعاليم السياسية والاجتماعية مالاءم طبائع الامة وكانت فيها قوة على خصمها وجبر مواطن النقص فيها •

« شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بأنه بذ الاقران ، لم يجمع مالا، ولم يتأثل عقارا ، ولم يترك درهما ولا دينارا » وقالوا في صفاته الشخصية : انه كان حسن العشرة ، حلو المفاكهة ، نزيه النفس واللسان ، يرضي كل جليس بغير دهان ، لا يمل جليسه جده ، ولا يعبث بوقاره هزله ، وكان متأنقا في زيه ومعيشته من دون ماتكلف •

وقال الشيخ محمد الخضري ، من أساتذة العصر في مصر : « أما خلقه فقد منح منه ما يحببه الى النفوس ، ويقربه الى القلوب طلاقة وجه وسعة صدر وتواضع الاشراف • كنا اذا أخذنا معه في مسألة رأيناه منا قريبا على رفعة شأنه وعلو مقامه ، وربما بدرت منا الكلمة في تخطئة الرأي فيفسح لها صدره ، ويلقاها لا تأفف ولا ضجر • وأما

اطلاعه على دقائق الفقه وأسراره ، فقد كنا نجلس اليه وقد محصنا المسألة تمحيص من يريد النزول الى الميدان ومباهاة الاقران الى مايخيل الينا أن الفقه علينا موقوف ، وعن غيرنا مصروف • فلا نلبث أن نرى ذلك السيل الدافق وقد رجعنا الى أول مرحلة من مراحل البحث بما يعارض به علل الفقهاء • وكان لشغفه بالقواعد العامة يستدرك على ما يخالفها من جزئيات المسائل ، فكان يحمل جليسه على البحث والاستقصاء ، ويعدل الفكر اذا زاغ • ولم يكن سمره وعمله الا فيما يرضي ضميره من كتاب يؤلف أو يترجم ، أو عمل صالح يقدم للجمهور من أمته » •

أتقن من لغات العلم الالمانية والانكليزية والفرنسية مئات من المصريين والشاميين والتونسيين والعراقيين فكانت لهم أدوات تفاخر لتوصلهم الى الاستخدام في حكوماتهم ، ولكن أحمد فتحي زغلول أحكم الفرنسية والعربية ، وما غفل ساعة عن تعريب الكتب وتأليفها يحملها لأمته فينير سبيلها الى العلم ، ويدعوها الى النهوض ، وما ألف ولا نقل من الغرب الا ما اعتقد نفعه للناس ، لا ليقال انه ألف ونقل فمما نقل وجود فيه ، وكل تآليفه وترجماته كان مجودا فيه ، « أصول الشرائع » لبنتام[1] و « خواطر وسوانح في الاسلام » لدي كاستري[2] ، و « سر تقدم الانكليز السكسونيين[3] » لادمون دي مولين ، وهو الكتاب الذي أثر في العقول ، ومما عرب عن الحكيم غوستاف لبون «روح الاجتماع[3] » ،و « سر تطور الامم » [3] ، وترجم « جوامع الكلم[3] » ، و « رسالة مصطفى فاضل الى السلطان

---

(١) طبع في مجلدين .
(٢) طبع وعنوانه في معجم المطبوعات :«الاسلام ،خواطر وسوانح»
(٣) طبع .

عبد العزيز ينصحه فيها ويذكر له ما أصيبت به دولته من الانحطاط[1]» .
ومن تآليفه « المحاماة »[2] ، و « رسالة في التزوير الخطي[3] » ، و « شرح القانون المدني[3] » ويقول علماء هذا الشأن ، ان هذا الشرح من أمتع ما كتب علماء الحقوق[4] . وكان له فضل في وضع المصطلحات القضائية التي لم تكن معروفة فاختار من العربية ما ينطبق عليها . وكان دقيقا فيما ينقل ، يحافظ في ترجمته على أفكار المؤلف ، لا يمسخ ولا يحرف . وبلغ من تضلعه من الفرنسية أن كان يلقي نظرة على كتاب علم كتب بها ويترجم عبارته ببيان عذب لا يشعر جليسه أنه يترجم، بل يقرأ من كتاب . كان له اللسان الغربي أجمل أداة ينفع بها أمته ، ورأى أن يحمل اليها الفائدة من طريق التعريب لعلمه بتفوق الغرب علينا في جميع العلوم .

لم يهدف المترجم له للخمسين من عمره ، وأخرج للعربية هذا المحصول الجيد من علم العلماء والمفكرين بلفظ جزل سلس واضح . وكان مع هذا لا يحرم نفسه من مباهجها ، ولا قومه من العناية بخصوصياتهم . يغشاهم في أفراحهم وأتراحهم ، ويشاركهم في آمالهم وآلامهم ، ويمتع نفسه بنصيبها من الرفاهة والنعيم . ولو كان كل من تعلم على طريقة فتحي مثله على جانب من بعد الهمة ومعرفة الواجب لقومه عليه لكان لنا من مجموع ما تخطه أقلامهم ويصدر من آرائهم وتجاربهم كنز نرجع الى ركازه في تنمية ثروتنا العلمية والمادية .

نقل فتحي أفكار غيره أكثر مما دون لنا أفكاره الخاصة لإيقانه

(١) طبع بعنوان (من أمير الى سلطان)
(٢) طبع ، وعنوانه في معجم المطبوعات (المحاماة في كل زمان ومكان)
(٣) طبع .
(٤) وطبع له أيضا : (الآثار الفتحية) وهو خواطر في العلم والادب والاجتماع عني بجمع شواردها عبد العال حمدان و (الملاحظات القانونية)

النفع العام في هذه الطريقة ، فخالف بذلك طريقة صديقه محرر المرأة قاسم أمين ، فان هذا دون تجاربه وتصوراته ، وجرؤ على نشرها للناس • ولو مال الى الاكثار من نشر أفكاره الخاصة أكثر من نشر أفكار غيره لتم الخير للعقول على يده أكثر مما تم • ولذلك كان أحد كبار أساتذتنا يقول : ان مقدمة « سر تقدم الانكليز السكسونيين » أفيد من الكتاب الاصلي الذي عربه فتحي •

قال في مقدمة كتاب « سر تقدم الانكليز السكسونيين » من تعريبه ، وفيه مثال من حكم القاضي العادل على قصور أمته : « ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة ، فهي التي نطالبها بحفظ حياتنا وخصب أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا ، هي التي نطلب منها أن تربي الابناء ، وتعلم الفقراء ، وترزق العجزة ، وتنفي أسباب البطالة ، وتحفظ الاخلاق وتلم شعث العائلات ، وتجمع أشتات القلوب • هي التي نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا وسيرتنا ، ورد هجمات المزاحمين عنا ، والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرنا في عمل من تلك الاعمال باهمالنا ، رميناها بسوء الادارة ، واتهمناها بحب الاثرة ، وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها•

ولا ريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل ، فانما الحكومة وازع لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات في الامم تأييد النظام وحفظ الامن واقامة العدل • وتسهيل سبل الزراعة ، ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة ، وتشجيع أهل الصناعات والحرف ، كما تقتضيه المصالح المشتركة ، وعلى قدر ما تسمح به الممكنات ، وبالجملة فالحكومة وازع عام لاواجب عليه الا الامر العام مما يدخل تحته جميع الناس ، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه ، وعلى

الامة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام،وتنتهز فرصة الامن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها ، وتطلب الكمال في زراعتها وصناعتها وتجارتها ، وفي نشر المعارف واحياء العلوم ، وفي أداء الواجب ، والمحافظة على الحقوق » .

كان أحمد فتحي زغلول يكبر شقيقه سعد زغلول بضع سنين ، خلد اسم هذا بعمله العظيم لاستقلال مصر ، وكان رجل ثورة ، وخلد اسم فتحي بتآليفه استفاد منها ابن مصر وأبناء العرب عامة ، وحرص على النهوض بأمته من طريق العلم وبث الملكات الصحيحة في النفوس .

★ ★ ★

- ٨ -

أحمد كمـال *

١٢٦٧ - ١٣٤١ هـ
١٨٥١ - ١٩٢٣ م

قلت يوم تأبين الاثري أحمد كمال في المجمع العلمي العربي : لما انتهى في مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين في بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثـين والمؤلفين والمبدعـين ، واستطاع المصريون بإصلاح شؤونهم الاقتصادية ان يتلقوا العلـم الصحيح في جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثـر ارتحال الاوربيين الى مصر ، وطواف المصريين في اوربا ،واشتد التمازج بين المصري والغربي ، فاقتبس المصري بعض ما ينقصه من أسـاليـب النهوض ، وكان للازهر ولمدرسة الالسنـة ولدار العلوم ولمدرسـة القضاء الشرعي والحقوق والزراعة والهندسة ثم الجامعة وغيرها مـن المدارس العالية والثانوية ما نراه من آثار نهوضها ، مما ندهش لـه ونهش ، وكلما كثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التي سبقتها ، وتراجع كل تنفة في العلم والصناعات ، وأصبحت الكلمـة للاخصائيين والفنيين . وقد نبغ في مصر لعهدنا رجال ليسـوا مفخرا من مفاخرها فقط ، بـل هم مفخرة العـرب والشرق عامة ، ومنهـم ـ والحق يقال ـ أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب في بحثهم ودرسهم . وأحمد كمال مترجمنا من جملتهم . فقد كان ـ اجزل الله ثوابه ـ مثال

* ترجمته في الاعلام ١/١٩٠ ومعجم المؤلفـين ٢/٥٣ وانظـر معجم المطبوعات : ٣٩٦ وايضـاح المكنون ١/٢٨٤ ، ٢/١٠٥ ، ١٨٨ ، ٣٨١ ، ٤٣٧ ، ٥٧٨

النبوغ المصري ، وآخر طراز كامل من أفراد الدهر • رزق صفات العالم العامل ،وصرف نقد عمره في خدمة الآثار المصرية،حتى اصبح الحجة الثبت فيها ، فكان ، اذا ذكر علم الآثار المصرية في الشرق والغرب ، يتمثل في شخصه وجهاده • عمل هذا بعيدا عن الجعجعة ، في زاوية صغيرة من بلده ، وعمت مع هذا شهرته الخافقين •

كان السيد حسن والد احمد من جزيرة كريت • ولد ابنه في القاهرة (١٢٦٧) ، ودخل مدرسة « المبتديان » وقضى فيها اربع سنين ، ومنها انتقل الى المدرسة التجهيزية فصرف فيها سنتين ، وفي سنة ١٢٨٦ دخل مدرسة اللسان المصري القديم ، وحذق اللغات العربية والفرنسية والالمانية والتركية والقبطية والحبشية فلقب باسم (كمال) لنبوغه وأدبه ، فصار له علما ، وانصرف كل الانصراف الى كل ما يزيد علمه في الآثار • وطاف متاحف اوربا وبعض متاحف مصر ، زارها زيارة العالم الباحث ، وولع بمعارضة اللغات والعمل على كل ما يؤدي الى الانتفاع بآثار بلاده ، وتخرج به كثير من طلاب هذا الفن ، وتولى أمانة المتحف المصري ، واختلط بعلماء الآثار من جميع الامم ، وكتب في المجلات الغربية والصحف العربية نتائج ابحاثه فأصبح الحجة الثبت في هذا العلم • وأسس مدرسة اللغات القديمة : الهيروغليفية والهبراتية والموتيكية والقبطية والعبرية واليونانية واللاتينية • وقام بحفريات في بعض أنحاء القطر ، وأنشأ دور تحف في طنطا والمنيا وأسيوط •

الف احمد كمال معظم كتبه بالعربية ، وعني عناية خاصة بمعرفة أصول الاشتقاق والمعارضات باللغات السامية والهيروغليفية والقبطية وله تآليف كثيرة يدور معظمها على الفن الذي أخذ من نفسه ، وصرف في خدمته عمره • ومنها : « العقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار

الأقدمين من المصريين »[1] ، و « الفرائـد الدريـة في قواعد اللغـة الهيروغليفية » [2] و « بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين » [1] ، و « الحضارة القديمة » [1] ، وهو مجموع ما ألقاه في تمدن قدماء المصريين الى آخر الاسـرة الرابعة عشرة علـى طلبة الجامعة المصرية وغير ذلك [3] .

وله بالفرنسية بضعة كتب تدور حول موضوعاته . وأهم مؤلفاته التي لا تزال مخطوطة ، وهو في اثنين وعشرين مجلدا : « قامـوس مقارنة اللغة الهيروغليفية باللغة العربية » يورد الكلمة ويقابل بينها وبين القبطية والحبشية والايرانية والعبرية وغيرها ، يأتي باللفظ واشتقاقه، وما عرف عنه من الآثار .وهو كتاب لغة وتاريخ وآثار واشتقاق وفلسفة لغة ، صرف في تأليفه نحو ربع قرن . وله مذكـرات وإضبارات كثيرة كان يعدها لدروسه في الجامعة .

وغاية ما يقال في وصف هذا العظيم انه ما خلت ساعة من حياته في غير الدرس والتدريس والبحث والتأليف .

كان المثل الاعلى بجده وحزمه ورويته وجلده ، قليل الكـلام ، كثير العمل ، نسيج وحده في فنـه وفي دؤوبه . لقي معاكسات كثيرة واغضى عنها ،وسار في طريقه فغلب حساده ،واغضى عمن اعتادوا وضع العقبات في سبيل كل نابغة ، فلم يذكرهم احد بحسنة ، وهو سيذكر بحسناته ما دام علم الآثار .

★ ★ ★

(١) طبـع .
(٢) عنوانه في معجم المطبوعات : الفرائد البهيـة ...
(٣) مما طبع لـه أيضا : الدر المكنوز في الخبايـا والكنوز (الجزء الاول بالعربيـة والثاني بالفرنسيـة) ، اللآلـي الدريـة في النبـات والاشجار القديمـة المصرية ، الدر النفيس في مدينة منفيس .

ادوار براون *

BROUNE , EDUARD

١٨٦١ - ١٩٢٦ م

ولد ادوارد براون في سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه سر بنيامين جبه من كبار المهندسين ، وأمه من اسرة مهندسين ، واشتهرت كلتا الاسرتين بحب الموسيقى فورث من أهله دقة السمع مما ساعده على تلقف اللغات دون الاعتماد على القواعد ، وأدخله ابوه في مدرسة ايتن مدرسة أولاد الاغنياء ، وكان ابوه غنيا ، وخرج منها في السادسة عشرة . وفي الحرب العثمانية الروسية أحب الترك ودرس لغتهم لينتظم ملازما في جيشهم ، ثم عرض عليه أبوه أن يكون مهندسا فأبى واختار الطب ، ودخل جامعة كمبردج سنة ١٨٧٩ .

وأخذ العربية عن استاذه بالمر[١] ، وحصل منها في فصل واحد على أكثر مما تعلم من اللاتينية واليونانية في خمسة اعوام . وطفق يدرس الفارسية فنال بعد سنتين رتبته في العلوم الطبيعية . وزار الآستانة ،

---

* ترجمته في « المستشرقون : ٥٠٠ » وولادته فيه سنة (١٨٦٢) والاعلام ١/٢٧٢ ومنه تاريخا الولادة والوفاة ، وفي الاصل ١٩٢٥ م فقط وانظر في مجلة المجمع العلمي العربي ٦/١٣٠ مقالا عنه لمرجليوث وانظر أيضا كتاب في الادب الحديث ١/٣٨٠

(١) عالم بالمشرقيات . ولد في كمبريدج سنة ١٨٤٠ م وتوفي سنة ١٨٨٣ ، كان مولعا بعلم اللغات وذا قدرة عجيبة في اتقانها فأتقن الفرنسية والايطالية والعربية والفارسية والاوردية وقرض الشعر العربي ، من آثاره : قواعد اللغة العربية ، بالانجليزية ، وترجمة القرآن ، وسيرة هارون الرشيد ، ورحلة في شبه جزيرة سيناء (قام بها على صهوة جواد) المستشرقون : ٤٨٢

ثم رجع الى كمبردج ليقضي سنتين في درس اللغات الشرقية فبرز فيها ، وكان الاول في امتحانها ، وعاد الى الطب فقضى ثلاث سنوات في أحد مستشفيات لندن • وسافر الى ايران وقضى فيها سنة[١] ، وفي عودته عين مدرسا للغة الفارسية في جامعة كمبردج (١٩٠٢) ثم استـــاذا للغة العربية[٢] ، وظل على ذلك الى آخر أيامه •

لم يمارس براون الطب ممارسة فعلية، ووضع كتابا بلغته في تاريخ الطب عند العـــرب أعجب به قومـــه ، كما وضع كتـــاب تاريخ الادب الفارسي في أربعة مجلدات جود فيـــه كل الاجـــادة ، وهو كتـــاب ــ كما قال مرجليوث[٣] ــ مستوعب موضوعه ، لم يسبق الى مثله ، وقلما يوجد في تواريخ الادب كتاب يضاهيه في الاستقصاء والاحاطة وجمال الاسلوب وسلامة الذوق ، كان برهانا على سعة العلم ومفاداته بالمال للحصول على خطوط وكتب مطبوعة وجرائد نادرة ، مقتفيا آثار التصنيف الفارسي من ابتدائه الى ايامنا هذه فخلد به ذكره وافتخر به وطنه •

وكان ــ خلال مقامه في بلاد العجم ــ درس مذهب البهائيين، واختلط بأهله فالف في مذهبهم تاليفا مستوفى أصبح مرجعا ، كما اصبح هـــو المرجع الاول في الغرب في معرفة ما يتعلق بالبهائية والبهائيين • وساعد أحرار فارس في مسائلهم السياسية ، وكان يكاتب الصحف الانكليزية ، وتطوع في الدفاع عن حرية الفرس والعرب ، عرف بهذه النزعة وأحبه

---

(١) أستاذا للطب •

(٢) خلفا للاستاذ تشارلز ريـــو Riew , charles (من مؤلفاته: فهرس المخطوطات العربيةفي المتحف البريطاني ج٢، وفهرس المخطوطات التركيـــة ، وفهرس المخطوطات الفارسية (المستشرقون : ٤٩٠)

(٣) مستشرق انجليزي (١٨٥٨ ــ ١٩٤٠ م)

العرب والفرس واكبروا غيرته ونجدته في خدمة دعوتهم وبيان حقيقتهم .

ونشر بالانكليزية كتبا وصف فيها حركات الاحرار والرجال الذين كانت لهم يد طولى في الدعوة الى الحكم النيابي والقضاء على الحكم الاستبدادي في الشرق . وحسَّن لجامعة كمبردج جلب معلمين من الاستانة ومصر وايران يلقنون لغاتهم تلقينا حسنا فتخرج بهم تلاميذ خدموا هذه اللغات احسن خدمة .

ومن أهم ما خدم به العلم الاسلامي تزيينه لابوي جيمز كب (١) من علماء المشرقيات وقف مبلغ عظيم تطبع من فائدته كتب عربية وفارسية وتركية من لغات الشرق الاسلامي تخليدا لذكر ابنهما ، فألف لذلك لجنة دعيت لجنة تذكار كب ، ورأس اللجنة ، واختار أعضاءها من كفاة علماء المشرقيات فطبعت عشرات من الكتب كان من المتعذر طبعها لقلة من يرغب في اقتنائها من أهل الغرب (٢) .

ووضع فهارس الخطوط الاسلامية المحفوظة في خزائن كمبردج، ونشر تآليف عربية وفارسية مع ترجمتها بالانكليزية . ومنها كتب عهد الى تلاميذه وأصدقائه بنشرها وعاونهم على تجويد تصحيحها (٣) .

---

(١) هو الياس جون جيب Gibb , E . J (١٨٥٧ ـ ١٩٠١) مستشرق اسكتلندي . تخصص بتاريخ الاتراك والفرس والعرب وآدابهم وفلسفتهم واديانهم ، خلدته والدته بإنشاء لجنة تذكارية باسمه (المستشرقون : ٤٩١)

(٢) منها مختار التاريخ لحمد الله صندوقي ـ مختصر بالانجليزية .

(٣) منها تذكرة الشعراء لدولتشاه ، تاريخ الادب الفارسي ٤ مجلدات ، مجاميع عن شعراء الفرس وخراسان والسلاجقة واصفهان ، ولب الالباب لمحمد عوني ، تاريخ الطب العربي (بالانجليزية) وهو عبارة عن عدة تآليف طبية عربية .

هذا عمل عظيم من علماء المشرقيات نفع الشرق والغرب بعلمه وعمله ،ولم يصرف يوما من حياته في غير نفع ، ولقد كتب لي الحظ الاوفى أن تعرفت اليه في مجلس استاذنا الشيخ محمد عبده في القاهرة،وقضينا ردحا من الزمن تتعاطف وتتباثث الافكار حتى زرته في كمبردج ففرح بلقائي بعد طول البعاد ، وأراد أن يضيفني في داره اياما فحال ضيق وقتي دون اجابة طلب علامة اشتهر بالسخاء بالعلم والمال . وكان هذا آخر عهدي به . رحمه الله .

★ ★ ★

- ١٠ -

ادوار مونتيـــه *

MONTET , EDUARD

١٨٥٦ - ١٩٢٧ م

ولد ادوارد مونتيه في ليون سنة ١٨٥٦ ، وفيها درس الدروس الثانوية ، ونال شهـــادة العالمية ، ثم التحـــق بجامعات جنيف وبرلين وهايدلبرغ وباريز ، ومن مدرسة اللاهوت البرتستانتي في باريز نـــال شهادة اللاهوت سنة ١٨٨٣ ، وقدم كتاباً من تأليفه في أصول الفرقتين الصدوقيين والفريسيين وتاريخهم الى ولادة السيد المسيح . وفي سنة ١٨٨٥ عين في جامعة جنيف استاذا للعبرية والآرامية والعهد العتيق . ومنذ سنة ١٨٩٤ أخذ يدرس اللغة العربية وتاريخ الاسلام .

واستفاضت شهرة المترجـــم له لاضطلاعه بالمدنيات السامية ولا سيما الاسلام فدعته فرنسا لالقاء محاضرات في مراكش مرتين ، وفي كوليج دي فرانس بباريز ، ورأس جامعة جنيف من سنة ١٩١٠ ـــ١٩١٢ وله مقالات في المجلات والصحف . ومن أهم تآليفه « مختصر في نحو العبرية ، والآرامية الكتابيـــة » و « مبادىء النحو العـــربي » ، و « تاريخ سكان مقاطعة الغو » ، و « تاريخ شعب اسرائيل من العهـــد القديم » ، و « رحلة الى مراكش » ، و « حاضر الاسلام ومستقبله »، و « الاعتقاد بالاولياء في شمالي افريقيـــة ولا سيما في مراكش » ، و « دروس شرقية ودينية » ، و « كتاب الاسلام » .

واتنخب عضوا مراسلا في المجمع العلمي العربي فأكبر هذا اللقب ،

---

* ترجمته في (المستشرقون ١/٢٢٩)

وساعد المجمع ورفع من شأنه بين علماء الشرقيات ، كدأب معظم الفرنسيين اذا آنسوا من علماء الشرق تقديرا لعملهم •

وعرفت مونتيه عندما نشر محاضراته الست في الاسلام ومستقبله• وقد طلب إليّ اعطاء رأيي فيها ، فراقتني صراحته وانصافه الاسلام في قوله : ان هذا الدين انتشر منذ أول ظهوره ، وقل في الاديان ما شابهه، وان دعوته ما انتشرت بالقسوة وقوة السيف فان الواقع قد كذب هذا الظن • وان مبادىء الاصلاح الاسلامي كانت دينية صرفة بادىء بدء، وأن محمدا كان رسولا عمل على أن ينقذ مواطنيه من دين بربري سخيف وأن يخرجهم بهديه من مدنية منحطة وأخلاق ساقطة ، وانه لا شك باخلاصه وحماسته الدينية ، وانه دعا الى اصلاحه بعواطفه •

لما قرأت هذا ونشرته بالعربية بين قومي ، ورأيت الاخلاص يتدفق من كلامه اتصلت به ثم زرته في جنيف ، وشكرته على حسن ظنه بالاسلام • ومما قلت له يومئذ : ان من كتبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الاوربيين قلائل جدا ، فالعلم يشكركم على اخلاصكم وصدقكم وأكدت له أن معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الامم الاخرى وان ظهروا في مظهر علمي يخالفونكم في رأيكم • فقال : هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم ، وفوق كل ذي علم عليم •

ولما نشر كتابه في الاسلام وقعت فيه على أشياء من مثل ما قال في محاضراته ، وعدد اعمال الرسول في الاصلاح ، وأنصف الاقدمين من المسلمين ، وقال : ان الرسول من أعظم من احسنوا للانسانية ، واستحسن ما اتنت به شريعته من تحريم الخمور على المسلمين ،ودعاهم

الى ان يحافظوا على هذا التحريم لان فيه قوتهم • حتى اذا تكلم على المسلمين في شمالي افريقية وفي غيرها من ديار الاسلام التي استعمرها الانكليز والهولانديون وغيرهم تكلم بلسان المستعمرين ، وأشار على المسلمين أن يخضعوا لمن استعمرهم وقال : ان فرنسا ساعية في تعليم المراكشيين والجزائريين والتونسيين على النحو الذي قرأه فيما كتبه كتاب الاستعمار عنهم وسمعه من جماعتهم فظنه حقا وصدقا ، وكان حكمه على الظواهر بما لا يليق بعالم من عياره ، ولكن الرحلتين اللتين رحلهما الى مراكش ، وكان فيها شيخ المستعمرين في هذا العصر المارشال « ليوتي » غيرت من أفكاره • ولسلامة صدره انطبعت آراؤهم فيه ورددها في كتابه فرسخت أفكاره بطبيعة الحال ممن اجتمع اليه من الفرنسيس • وفاته ان شياطين السياسة يتحيلون لاغراء كل صاحب شهرة ليتابعهم على خدمة أهوائهم • وهذا مما نزع الثقة من كل كلام يصدر عن مستعمر أو من له علاقة ولو طفيفة به •

★ ★ ★

- ١١ -

اسماعيل صبــري *

١٢٧٠ ـ ١٣٤١ هـ
١٨٥٤ ـ ١٩٢٣ م

حظني الحظ بمعرفة أقطاب الشعر في مصر : محمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري واحمد بك شوقي ، وحافظ بــك ابراهيم ، وعرفت البارودي في مجلس الامام الشيخ محمد عبده في عين شمس ، وعرفت صبري مرة في المقهى ، وكان أحيل على المعاش (وكيل وزارة العدل آخر وظائفه) أي أني عرفت الشاعرين العظيمين معرفــة بسيطة في آخر أيامهما ، أما معرفتي شوقي فكانت في المقاهي أولا ، ثم البيوت والحفلات في مصُر والشام . وكانت عشرتي حافظ طويلة ، وصداقتي متينة ، واجتماعاتنا مختلفة في أعوام عديدة .

ومن عجائب الاتفاق أن نشأة البارودي وحافظ جندية ، ونشأة صبري وشوقي حقوقية ، وكلهم نشاوا في كنف الدولة ورعايتها، ولقوا من أمتهم العطف والحظوة ، هؤلاء الثلاثة لم يثوروا على المجتمع الا

---

* ترجمته في الاعلام ١/٣١١ ومعجم المؤلفين ٢/٢٧٢ ، مشاهير شعراء العصر : ١٥٨ الموسوعة العربية الميسرة : ٤٦١ شعراء مصر : ٣١ تاريخ الادب العربي للفاخوري : ٩٧٤ وله ديوان شعر طبع ، دراسات في الشعر العربي المعــاصر : ٢٨ ، في الادب الحديث ٢/٣١٩ ، ٣٧١ تاريخ الشعر العربي الحديث لاحمد قبش : ٥٠ ولمحمد صبري كتــاب (اسماعيل صبري : حياته وشعره) .

ونشرت هذه الترجمة في مجلــة مجمع اللغــة العربية بــدمشق المجلد ١٨ لسنة ١٩٤٣ ص ٦ ـ ١٣ بعنوان شعر صبري .

بقدر معلوم ، بخلاف الرابع أي حافظ ابراهيم فانه ثار عليه حينما كان حرا طليقا •

كان صبري استاذ شوقي وحافظ ، وكان شاعرا موهوبا شهدله العارفون بخفة الروح ورقة الحس، ودقة الخيال ،وامتياز الطبع ،وحدة المزاج ،وارتفاع الذوق • وعلى ذلك كان منذ صباه، فلما درس وتفقه، وذهب الى فرنسا يدرس الحقوق تجلت شاعريته وعبقريته وتفرده بضرب من الشعر قل أن يدانيه فيه غيره •

كان الشعر الجميل الذي يصدر عنه منذ نشأته الى آخر أيامه شعر العواطف والوجدان ، وشعر الوصف الدقيق ، ولذلك كان شعره من أكثر ما غنى به المغنون ، لانه سلس ينم عن خوالج النفس، ولايخلو من عشق واكتئاب ، وأثر له ، عدا الشعر الذي تغنى به القوم، شعر" من شعر العامة ، أو الزجل برز فيه أي تبريز •

هذه هي الناحية الجميلة من شعر صبري • أما موضوعات الشعر التي عالجها فقد شارك فيها غيره من المعاصرين والغابرين : مديح ورثاء ومجاملات للكبراء والاصدقاء ، ومقطوعات تقال في مناسبة لارضاء فريق من الشعب أو لارضاء نفسه فقط ، وذكر بعض من ترجموا لصبري أنه استسلم للشعر ولكن في قصد واعتدال فلم يتخذه صناعة ، ولم يتوسل به الى الرقي ، ولم يتوسل به الى الكسب • نعم هذا صحيح من جهة لو لا أنه مدح أناسا كان يتوقع خيرهم ، وكان بيدهم رفعه وخفضه ، ولولا مكانه من الدولة ، وطموحه الى الترقي في درجات أعمالها شأن كل عمالها ما حلاهم بشعره بحلية ، ولا نظم فيهم بيتا • وصبري كسائر الشعراء ، بل كجمهرة الناس ، أحب ان ينتفع بشعره ولكن الى حد معقول فيه الاعتدال ولا شك •

ونحن لا يهمنا منه الا شعره الذي يجب أن يخلد ، وهو يرقي ويعلم ، ويسر ويحزن . وهذا جملة موضوعات الشعر المفيدة في نظرنا، وما عدا ذلك من معانيه فمسائل يختلف فيها الاجتهاد .يهمنا من صبري قوله ، وكأنه يصف كل نفس تحس وتحب ، يخاطب فؤاده ، ولحن فيه بعض المغنين (١) :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا
حَمْل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
ما كان ضَرَّكَ إذ عُلِّقْتَ شمسَ ضُحى
لو ادكرت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته
من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحما
في الوصل نارا وفي الهجران نيرانا

ولحنوا له أيضا هذه الابيات الثلاثة (٢) :

يا آسِيَ الحي هل فَتَّشْتَ في كَبِدي
وهل تَبَيَّنْتَ داءً في زواياها
أَوَّاه من حُرَقٍ أودتْ بأكثرها
ولم تزل تتمشى في بقاياها

---

(١) ديوانه : ١١٦

(٢) ديوانه : ١١٧

يا شـــوق رفقا بأضلاع عصفت بهـا
فالقلـب يخفـق ذعـرا في حناياهـا

وقال (١) :

ولمـا التقينـا قرب الشـوق جهده
شجيـين فاضـا لوعـة وعتـابـا
كـأن حبيبـاً في خـلال حبيبـه
تسـرب أثنـاء العنـاق وغـابـا

وقال (٢) :

تمسي تذكرنـا الشباب وعهـده
حسنـاء مرهفة القـوام فنذكـر
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما
أوفـى على قـدر الكفاية يسكر
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت
وتُطِلُّ من حَدَقِ العيون وتنظرُ
وتبيتُ تكفُرُ بالنحـور قلائـد
فاذا دنـت من نحرهـا تستغفـر
وتزيـد في فمهـا اللآلىء قيمـة
حتـى يسـود كبيرهن الاصغـر

وقـال (٣) :

---

(١) ديوانـه : ١١٠
(٢) ديوانـه : ١١١
(٣) مطلع قصيدة في ديوانه : ١٠٧

يـا لواء الحسن أحزابُ الهـوى
أيقظوا الفتنـة في ظـل اللـواء

فَرَّقَتْهُم في الهـوى ثاراتهـم
فاجمعي الامر وصوني الابريـاء

إن هذا الحسـن كالمـاء الـذي
فيـه للانفـس رِيٌّ وشفـاء

لا تـذودي بعضنـا عـن ورده
دون بعض واعدلي بين الظماء (١)

أنـت يم الحسـن فيـه ازدحمت
سفـن الآمـال يزجيها الرجاء (٢)

يقـذف الشوق بهـا في مائـج
بـين لُجَّيْن عنـاءٍ وشقـاء (٣)

شـدة تمضـي وتـأتـي شـدة
تقتفيهـا شدة هـل مـن رجـاء

وقال من قصيدة في ساعة الوداع(٤) :

ساعـةَ البَيْنِ قطعة" أنتِ قُدَّتْ
للمحبـين مـن عـذاب السعـير

لا تحينـي ، روحي الفداء لماحيـ
ـك غدا مـن صحيفة المقـدور

---

(١) لا تذودي بعضنا عن ورده : لا تمنعي بعضنا عن مستقي الماء
(٢) يزجيهـا : يسوقها ويدفعهـا .
(٣) هذه روايـة الديوان وفي الاصل يقذف الشوق بنا .
(٤) آخر بيتين من مقطوعـة في ديوانه : ١١٢ مطلعها :
اتزودت من ضياء البدور للـيال كثيفة الديجـور

وقــالَ :

لمــا تبــوأ مــن فؤادي منــزلا
وغــدا يسلط مقلتيــه عليــه (١)
نــاديتُــه مسترحمــاً من زفــرة
أفضــت بأسرار الضميــر اليــه
رفقــا بمنــزلك الــذي تحتلــه
يــا مَن يُخَرِّب بيتَه بيديــهِ

وله أبيات ، وكان دخل كنيسة رمــس المشهورة بفرنسا ، فرأى مكتوبا على عقرب احدى ساعاتها ما ترجمته :(كلهن جارحات والاخيرة القاتلة) يريد ساعات العمر والساعة الاخيرة ، فقال هذه القصيدة (٢):

كــم ســاعــة آلمنــي مسهــا
وأزعجتنــي يــدهــا القــاسيــة
فتشت فيهــا جاهدا لــم أجــد
هنيهــة واحــدة صــافيــة
وكــم سقتنــي المر أخــت لهــا
فرحت أشكوهــا الــى التاليــه
فــأسلمتنــي هــذه عنـــوة
لساعــة أخــرى وبــي مــا بيــه
ويحــك يا مسكــين هل تشتكي
جارحــة الظفــر الــى ضاريــه

(١) الابيــات في ديوانه : ١١٩ عنوانها (الى نزيل الفؤاد) .

(٢) ديوانــه : ١٨٨

حاذر من الساعات ويل لمن
يأمَنْ تلك الفئة الطاغية
وان تجد من بينها ساعة
جعبتها من غصصٍ خاليه
فاله بها لهو الحكيم الذي
لم ينسه حاضره ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة
من قُلّةٍ من تحتها الهاوية (١)
فهي وان بشت وان داعبت
محتالة ختالة عاديه
عناقها خنق وتقبيلها
كما تعض الحية الباغية
هذا هو العيش فقل للذي
تجرحه الساعة والثانية
يا شاكي الساعات اسمع عسى
تنجيك منها الساعة القاضية (٢)

وقال في راحة القبر(٣) :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار
ض تنم آمنا من الاوصاب (٤)

---

(١) القلة : اعلى الجبل .
(٢) المراد بالساعة القاضية : ساعة الموت .
(٣) ديوانه ص ١٩٠
(٤) الاوصاب : جمع وصب وهو الوجع .

تلك أم أحنى عليك من الأم
... التي خلفتك للاتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح
منك الا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق وان خالف العذ
وان ما نُصَّ في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فإن ما
ت فقد عاد سالما للتراب

وله أبيات في الشباب والشيب استوحاها من المثل الفرنسوي الذي ترجمته (ليت الشباب يعرف ، وليت المشيب يَقْدِر

Si Jeunesse sauait , si vieillesse pouvait lowalt

يشير الى ما في الشباب من قوة ونشاط يصرفهما في الغواية بغير عقل ، وما في المشيب من عقل وتجربة لا يجد من القوة ما يعينه على الاستفادة منهما وهي [١] :

لم يدر طعم العيش شبان ولم يدركه شيب
جهل يضل قوى الفتى   فتطيش والمرمى قريب [٢]
وقوى تخور اذا تشب   ث بالقوى الشيخ الاريب
بينا يقال كبا المغفل اذ يقال خبا اللبيب
أواه لو علم الشبا   ب وآه لو قدر المشيب

وللشاعر في هذه المعاني قصائد ومقطوعات حسنة جدا جديرة

---

(١) ديوانه : ١٣٦
(٢) طاش السهم : اخطأ المرمى .

بأن تتناقل وتستظهر ، منها في أخلاق الناس [1] :

غاض مـاء الحياة من كل وجـه
فغـدا كالـح الجوانـب قفـرا
وتفشـى العقوق في الناس حتى
كـاد رد السـلام يحسب بـرا
أوجه مثلمـا تشـرت علـى الاجـ
داث وردا ان هن أبـدين بشرا
وشفاه يقلن (أهلا) ولو أدين ما في الحشا لماقلن خيرا
عَمْرَكَ اللهَ هـل سـلامُ وداد
ذاك أم حـاولَ المسـلّمُ أمـرا
عَميَتْ عـن طريقها أَمْ تعامَتْ
أمم" في مفاوزِ الجهـل حَيْـرى
غَرَّهـا سَعْدُها ومن عادة السعـ
دِ يُواتي يوماً وَيخذُلُ دهـرا
فتجنَّت علـى الشعوب وشَنَّتْ
غـارةً في البلاد مِنْ بعدِ أخرى

الى أن قال :

عِبَـر" كلّهـا الليـالي ولـكن
أيـن من يفتح الكتابَ ويَقـْرَأ

وهي طويلة قالها بمناسبة ظهور مذنب (هالي) المشهور في سنة

---

(١) القصيدة في ديوانه : ١٤١

أهاجرتـــي أطفئـــي
لواعـجَ لا تنتهـــي
مضتْ في هواكِ السِّنونْ
ومـا نلـتُ مـا أشتهـي
إذا قيـلَ مـات الأديـبْ
بفاتنـةٍ أنـتِ هـي

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانُكَ قبلـي انتهـى ولا يرجـع المنتهـي
فحسْبيَ أن أزدهـي وحَسْبُكَ أنتشتهي[١]

أراني استرسلت في نقل هذا الشعر العذب ، وكل شعر صبري نمط واحد في العذوبة والسلاسة . ذلك لانه كان ممن ينقح شعره قبل نشره ، مثل حافظ ابراهيم . وقد قال في هذا المعنى[١] :

شِعرُ الفتى عِرْضُه الثـاني فأَحْرِ بِهِ
ألا يُشَـوَّه بالأقـذار والـوَضَـرِ
فانقُـدْ كلامَكَ قبـل الناقـدين تَحط
ثانـي النفيسـين مـن لَغْوٍ ومن هَـذَرِ

وعلى الجملة فان للشاعر العظيم مقطوعات أو بيتا او بيتين تحمل

---

(١) هذان البيتان وردا في ديوانه أيضا : ١٢٠

(٢) مـن قصيدة في ديوانـه : ٥٩ في تقريظ لمختـارات محمـود سامي البارودي الشعرية مطلعها :

يا رائد الشعر لا تقرب مناهله الا وراء دليلٍ صادق النظر

وقد نوه بهما احمد امين في مقدمة هذا الديوان .

معاني كثيرة وتترك سامعها في فكر وترهف حسه ، وما أحلى قوله[١]:

إذا خانني خِلٌ قديمٌ وعَقّني
وفوّقت يوماً في مَقَاتله سَهمي [٢]
تعرّضَ طيفُ الوُدِّ بيني وبينه
فكسَّر سهمي فانثنيتُ ولم أَرْمِ [٣]

وقال فيه أحد مترجميه أنطون الجميل : ان صبري كان يصوغ هذه الاشعار السهلة بصعوبة ، فكان جهاده الشعري طويلا شاقا ،وهو يجد قوته في تجديد مجهوده ، كان يستحث فنه دائما للاستزادة من الاتقان وجمال الفن ... وكان لا يزال يحور ويغير ، ويقدم ويؤخر ، وهو متعطش الى مثل أعلى لم يدركه حتى كأنه يقول : « ان أجمل شعري لا يزال في صدري لم أتمكن من نظمه حتى الآن » . ومن قصائده الخالدات على لسان فرعون مصر [٤] :

لا القومُ قومي ولا الأعوانُ أعواني
إذا وَنَى يومَ تحصيل العُلا واني
ولستُ ــ إن لم تؤيدني فراعنةُ
منكم ــ بفرعونَ عالي العرشِ والشانِ
ولستُ جبارَ ذا الوادي إذا سَلِمَتْ
جبالُه تلكَ من غارات أعواني

---

(١) ديوانه ص ١٤٤
(٢) فوّق السهم : أعده للرمي .
(٣) هذه رواية ديوانه ، وفي الأصل : فكسرت سهمي .
(٤) ديوانه : ١٧٢

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً
فماؤه العذبُ لم يُخلَق لكسلانِ
رِدوا المجرّةَ كدّاً دونَ مورده
أو فاطلبوا غيره رِيّاً لظمآنِ
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمُ
لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسانِ

ومن هذه القصيدة في وصف الاهرام :

أهرامهم تلك حَيٍّ الفنّ متخِذاً
من الصخور بروجاً فوقَ كيوانِ (١)
قد مرَّ دهرٌ عليها وهي ساخرةٌ
بما يضعضع من صرحٍ وإيوانِ
لم يأخذ الليل منها والنهارُ سوى
ما يأخذ النملُ من أركان ثهلانِ (٢)
كأنها ـ والعوادي في جوانبها
صرعى ـ بناء شياطين لشيطانِ

وله كلمة مأثورة منشورة سامت شعره في معانيها ، وكأنها أصبحت مثلا وهي قوله : أحب التوحيد في ثلاثة : الله والمبدأ والمرأة، وأحب الحرية في ثلاثة : حرية المرأة في ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الوطن في ظل الله .

وكان من القائلين بالاكتفاء بزوجة واحدة ، ومن قوله في ذلك (٣):

(١) كيوان : اسم كوكب زُحَل .
(٢) ثهلان : جبل عظيم في أراضي (نجد) في شبه جزيرة العرب .
(٣) ديوانه : ١٤٤

يا من تـزوج باثنتين ألا اتئـد [1]
ألقيتَ نفسَك ظالماً في الهاوية
ما العدلُ بين الضرَّتين بممكنٍ
لو كنتَ تعدِلُ ما أخذتَ الثانية

وقال معارضا بيتي الشريف الرضي [2] :

أرى بعد وِرْد الماء في القلب غُلَّةً
إليكِ على أني من الماء ناقعُ
وإني لأقوى ما أكونُ طماعةً
إذا كذبت فيك المنى والمطامعُ

فقال صبري [3] :

يا مَوْرِداً كنت أَغْنَى ما أكون به
عن كل صافٍ إذا ما بات يُرويني
عندي لمائكَ والأقداح طوعُ يدي
ملأى من الماءِ شوقٌ كاد يُرديني

ولاسماعيل صبري في باب التغزل بدائع تسيل رقة وعذوبة ومنها [4] :

(١) هذه رواية ديوانه ، وفي الأصل :يا من تزوج من اثنتين .
(٢) هو محمد بن الحسين بن موسى الحسيني (٣٥٩-٤٠٦ هـ ، ٩٧٠ - ١٠١٥) مولده ووفاته ببغداد ، شاعر مجيد ، انتهت اليه نقابة الاشراف في حياة والده .
والبيان من مقطوعة في ديوانه ٥٠١/١ مطلعها :
لقلبي بغوري في البلاد لبانة وإن كنت مسدوداً علي المطالع
(٣) ديوانه : ١١٧
(٤) مطلع قصيدة في ديوانه : ٥٤

لـو أنَّ أطلالَ المنازلِ تَنْطِـقُ
ما ارتدَّ حرّانَ الجوانحِ شَيِّقُ
هل عنـد ذاكَ السِّرْب أنّا بعـده
في الحـي مـن آماقِنـا تتدفـقُ
أو أن أَضْلُعَنا على ما استُودِعتْ
يوم الفـراق من الجـوى تتحـرقُ
أمنازلَ الأقمـارِ أَهْلُكِ أسرفوا
في النأي إسرافَ الغنيِّ وأغرقـوا
لو أنهم قـد أنصفـوكِ منـازلاً
ما حازهم في الكون بعدكِ مَشْرِقُ

ومما قال في خلع السلطان عبد الحميد الثاني [1] :

إن يرجع الخيرُ ـ نعمَ الخيرُ من عملٍ ـ
دَخَلْتَ في زمـرة الغـرِّ الميامينِ
أويغلبِ الشرُّ ـ لا كانت عصابتـهُ ـ
عُدِدْتَ في صَرْحِهِ أقوى الأساطينِ
إن لم تكن ـ لاثناكَ الدهرُ عن أمدٍ ـ
شيخَ السلاطينِ كُنْ شيخَ الفراعينِ
إنا عَهِدْناكَ لا ترضى اذا استَبَقَتْ
صِيْدُ الملوكِ إلى الغايات بالدّونِ

---

(١) من قصيدة في ديوانه : ١٧٦ مطلعها :
يا ناظر الترك قد فارت مراجلهم بين الدروب وفي عرض الميادين
قالها في ثورة الأتراك وخلع السلطان عبد الحميد وتولية محمد الخامس سنة ١٩٠٩

لا يُرْهِقَنَّكَ حكمُ الناسِ فهو غداً
مُستأنَفٌ عنــد سُلطانِ السلاطينِ

وقال ينادي الاقباط في الفتنة التي وقعت بينهم وبين المسلمين سنة ١٩١١ بمقتل بطرس غالي باشا رئيس الوزارة (١) :

مصرُ أنتم ونحن إلا اذا قا
مَتْ بتفريقنا دواعي الشقاء
مصرُ ملكٌ لنا إذا ما تماسك
نا وإلا فمصرُ للغرباء
لا تُطيعوا منّا ومنكم أناساً
بذروا بيننا بذورَ الجفاء
لا تُوَلّوا وجوهَكم شَطْرَ مَنْ عكّـ
ـرَ ما في قلوبنا من صفاء
إن دينَ المسيحِ يأمر بالعُرْ
فِ وينهي عن خُطّةِ الجُهَلاء

وأختم هذا بنموذجات من أغاني صبري . قال (٢) :

ادّك أمير الأغصان	من غير مكابرْ
وورد خدك سلطان	على الأزاهرْ
والحب كله أشجان	يا ألب حاذرْ
والصد ويّا الهجران	جزا المخاطرْ

. . .

(١) من قصيدة في ديوانه : ١٨٠ مطلعها :
معشر القبط يا بني مصر في السراء قد كنتم وفي الضراء
(٢) ملحق ديوانه : ١ وظاهر انه جار على كلام العامة .

يا ألب أدِ انت حبيت | ورجعت تندمْ
صبحت تشكي ما لأيت | لك حدّ يرحم
صَدُّأْت أُولي ورإيت | ذل المتيم
يا ما نصحتك ونهيت | لو كنت تفهم

• • •

أعرض لحسنك أوراء | واكتب وادوّنْ
وأبات صريع الأشواء | واحب واخمّن
و هجر وصبابة وفراء | يا رب هوّن
وارحم أَلوب العشّاء | دا شيء يجنن

ومما ينسب اليه من المواليا قوله (١) :

في ظل أهداب عيونك ورد خدك آل(٢)
وحسن يوسف ميراث عنه لوجهك آل(٣)
والشمس ويّا الأمر في حسنهم لك آل(٤)
لو أُلت للصبِّ أُلْ • كل الملاح جندي

ولي الجمال أجمعه من غير مشارك ، آل

قالوا : ان الشعراء على اختلاف درجاتهم لقبوا اسماعيل صبري باستاذ الشعراء ، وهي تسمية في محلها ، ولقبه بعضهم بشيخ الشعراء ، وقد قال فيه أحد من ترجموا له : ان صبري كان كامرىء القيس ، لم

---

(١) ملحق ديوانه : ٦
(٢) يريد القيلولة في وقت الحر .
(٣) آل يسؤول : رجع .
(٤) آل : أهل .

يقل الشعر راغبا ولا راهبا ، وانما كان يقوله عن عاطفة تختلج في صدره كقطرة الندى فيصوغها باللفظ كاللؤلؤة الصافية ، كانت القوى تجول في خاطره فتصغي اذنه لحفيفها فيوقع نغمها ايقاعا شائقا • لم يكن مزهره كثير الاوتار ، بل كان يضرب على وترين أو ثلاثة كمارأينا فيستخرج منها نغما شجيا بعيد القرار ، يصدر عن خفقة فؤاد فيتقلب متماوجا حتى يستقر في ثنايا الفؤاد كالموجة تقذف بها لجة البحر ، وتنكسر متلاشية على ساحل البحر •

ووصف خليل مطران طريقة صبري في قرض الشعر فقال : أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة شهدها ، أو خبر ذي بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه فالغالب في أمره أن يقول الشعر متمشيا • وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة « ايه » مستطيلة ، وقال : انه ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على هذا المقدار الا حيث يقصد قصيدة ، وهو نادر • شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى اذا استقام على ما يريده ذوقه من رقةاللفظ وفصاحة الاسلوب أهمله ثم نسيه •وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش في صدره شعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجي الطائر ، فيذهبان في الفضاء ضاربين منأشطرهما بأجنحة ملتمعة شاديين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان • ذلك هو شعر للشعر • ا هـ ما أصدق هذا الوصف •

وللاستاذ العقاد رأي غريب في شعر صبري قال : ان شعره لطيف لا تعمل فيه ، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة • ونقده نقد بصير عارف بالزيف كله ، ولكنه غير بصير ولا عارف بالصحة كلها ، وأثره

في تهذيب الاذواق ونفي ما كان فاشيا من زيف التشبيه وفساد الخيال أثر واضح لا ريب فيه ، ولكنه بعد هذا أثر محدود بذلك النطاق المرسوم • وان شئت فقل ان أدب الرجل كان أدب الذوق ، ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض ، وأدب الاطلاع الحسن ولم يكن أدب الابتكار المستكشف الجسور •

وأورد الدليل على هذا الرأي بعض قصائد لصبري في الغزل والتشبيب مثل قصيدته[1] :

يا لواء الحسن أحزابُ الهوى
أيقظوا الفتنة في ظل اللواءِ

فقال : انها ذوق وكياسة وليس فيها عشق وحرارة ، قال ولن تذكرنا هذه الابيات بعاشق يهوى معشوقا يقف عليه نفسه ويطلب اليه أن يقف نفسه عليه ، وانما تذكّرنا بنديم قاهري في سهرة من سهرات الطرب ، يلتف مع صحبه بغانية أو مغنية ، يتلطف في الزلفى اليها ، والثناء عليها ، فلا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين ، قناعة منه بالراحة بين الاحزاب والعدل بين الظماء •

نعم ان صبري مقلّ من قول الشعر ، ما إخاله نظم أكثر مما نظم حافظ ، والبارودي وشوقي كانا مكثرين مع الاجادة ، ومعاورة حافظ لشعره بالنقد والتشذيب كمعاورة صبري له ، وتخير الموضوعات الشعرية يتشابه فيها حافظ وصبري ولكل واحد مزية تفرد بها ، فقد تفرد صبري بأغانيه ،وحافظ باجتماعياته ، وشوقي بوصفه، والبارودي

(١) ديوانه : ١٠٧

بحكمه ، وكلهم حاولوا أن يدمجوا حكما فكانوا دون المتنبي، وربما كانت العاطفة في شعر صبري أبرز مما هي في شعر غيره من شعراء الطبقة الاولى حتى ليسوغ لنا أن ندعو شعره بالشعر العاطفي والغنائي.

ولطالما قلت وأنا أتلو شعر الشعراء الاربعة ، أو أجتمع اليهم وأسمع حديثهم : حبذا لو أسعفهم الزمن فعزلهم عن الوظائف. وألقاهم في ناصيته ينظمون لانفسهم ولمجتمعهم أحرارا غير مقيدين بقيود الاستخدام الثقيلة ، وربما جاء من كل واحد منهم شاعر كشكسبير وكيتي وموليير ودونونزيو من شعراء الافرنج، ولكانت تجلت قرائحهم فأبدعت ابداعا يبقى يتيمة في عنق الدهر ، وقد قيل [1] :

يموت رديء الشعر من قبل أهله
وجيّده يبقى وإن مات قائله

★ ★ ★

(١) القائل هو دعبل بن علي الخزاعي (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ ، ٧٦٥ ـ ٨٦٠ م) شاعر هجاء ، اصله من الكوفة ، وكان صديق البحتري وله كتاب (طبقات الشعراء) وكان طوالا ضخما والبيت من مقطوعة له في مجموعة شعره الذي جمعه الدكتور عبد الكريم الأشتر ص ١٧٧ والعمدة ١١٤/١ وديوان المعاني لابي هلال العسكري ٢٣٨/٢ وزهر الآداب ٦٦٥/٣ ومطلع هذه المقطوعة :

نعوني ولما ينعني غير شامت   وغير عدو قد اصيبت مقاتله

- ١٢ -

كولـد صهر *

GOLDZIHER IGNAZ

١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م

ولد اغناطيوس غولدصهير في هنغاريا سنة ١٨٥٠ ، وتلقى العلم في جامعات بودابست وليبسيك وبرلين ، وتخرج في العلوم الشرقية بالعلامة فميري المجري من اكبر علماء المشرقيات في عصـره ، ودرس اللغات السامية ، وأخذ العربية والشرع الاسلامي في الازهر ، وجـاء دمشق في شبابه ، واختلط بعلمائها وأدبائها ، وصحب أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري ، وكان يطيب له أن يوقع كتبه هكذا « الفقير اجناس غولد صهير المجري الازهري » ، وانتظم عضوا في المجامـع العلمية والجمعيات الآسياوية والمؤتمرات الشرقية . وكتب مقالات وأبحاثـا في مجلات المشرقيات،وكان يحسن بضع لغات ومنها الخرواتية الصربية، من أبحاثه خطابه في مذهب داود الظاهري ، وقد طبع له بعض كتبه ، كما طبع « المحلى » لابن حزم ، ومنها خطابه في المراثي عند العرب ، وكتب أكثر مؤلفاته بالالمانية والفرنسية والانكليزية ومنها كتابه فـي اليهود (وهو يهودي النحلة) وفي آداب الجدل عند الشيعة ،والاساطير الميثولوجية عند اليهود ، و « كتاب في الاسلام »[1] ، و « دروس في الاسلام » نشرها بالالمانيـة في مجلدين ، و « بحث فلسفي في اللغة

---

* ترجمته في « المستشرقون » : ١٩٦ والاعلام ج١/٨٠

(١) لعله كتاب (المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن) الذي نقده الاستاذ أحمد محمد جمال في كتابه (مع المفسرين والكتاب) ص ١٣٨ ـ ١٥٤ .

العربية » في مجلدين ••• وأحيا من المخطوطات العربية ديوان الحطيئة، وكتاب محمد بن تومرت ، ومعاني النفس ومقالة لكاتب اسرائيلي في أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى ، ورسالة « التَّقيَّة في الاسلام »• وألف بالفرنسية رسالة اللامساسية في مسألة السامري وعِجْل الذهب [1] :

ولما نميت اليه مزاعم بعض علماء المشرقيات في قصور العرب بتمحيص الرواية ومعرفة درجات الرواة في أصول علم الحديث وقواعد الجرح والتعديل عزم أن يضع كتابا يكشف القناع عن الحقائق ،ويظهر مكانة العرب من التمحيص ، وبينا هو يرصد المعدات لتأليف كتاب في هذا الشأن ظهر كتاب « توجيه النظر الى علم الاثر » للعلامة طاهر الجزائري • ورأى فيه من التحقيق ما سره وترجم عما في نفسه فقال : لقد كفانا الشيخ طاهر مؤونة التأليف في هذا الموضوع ، وترجمه بالالمانية •

ومما نشر « رسالة في الحسين بن منصور الحلاج » ونقد كتاب « الطواسين » الذي نشره العلامة ماسينيون ، ونشر كتاب المستظهري « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » للغزالي •

(١) قصة السامري وعجل الذهب وردت في القرآن الكريم سورة طه الآيات ٨٥ ــ ٩٧ ملخصها أن الله تعالى دعا نبيه موسى عليه السلام لتكليمه ، فترك قومه وخلفه فيهم أخوه هارون ،وكان موعده ثلاثين ليلة ، ولكن الله تعالى جعلها بعد ذلك أربعين ، فلما طال غيابه أضلهم السامري وهي نسبة الى قبيلة من بني اسرائيل يقال لها السامرة واسمه موسى بن مظفر وكان منافقا فصنع لهم عجلا من ذهب له خوار فعبدوه وتركوا عبادة الله فعوقب في الدنيا وحرم على الناس ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته ومسه فتحاماه الناس •

ولما عرجت على بودابست كان مشغولا بتصحيح هذا الكتاب والتعليق عليه فسألني ثلاث مسائل أشكلت عليه فاهتديت الى حل واحدة ، وحل الشيخ طاهر الثانية ، وبقيت الثالثة بلا حل . وأطلعني على خزانة كتبه ، وكان فيها كل ما ينبغي لعالم مثله اقتناؤه من الامهات المطبوعة في الشرق والغرب ومعظمها باللغة العربية ، ومما جمع فيها المراسلات التي دارت بينه وبين علماء الشرق وغيرهم ليرجع اليها على عادة الغربيين في استفادتهم من كل فكر وحفظه للرجوع اليه حين الحاجة. وابتاعت خزانته الجامعة العبرية في القدس وضمتها الى خزانتها العظيمة.

ولقد نشرت مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريز كتابا بعد وفاته من تأليف الاستاذ هيرالمجري ذكر فيه ما صنفه غولدصهير من الابحاث الاسلامية واليهودية في اللغات المجرية والالمانية والانكليزية والفرنسية والروسية والسويدية والخرواتية والعربية ، منهاما جاء في كتب ضخمة، ومنها ما كان مقالات في المعلمات الغربية وفي المجلات العلمية على اختلاف لغاتها .

شغل الاستاذ أكثر عمره بتدريس تفسير القرآن والاصول والحديث والملل والنحل في جامعة بودابست . سألته وقد تقوض المجلس وهو يستأذن بالانصراف : الى أين تذهب الآن ؟ فقال : لالقاء درسي ، فقلت له : ما درسك ؟ قال : تفسير القرآن ،فضحكت وقلت له: ذكرتني حالك الآن بما قاله العلامة احمد زكي المصري لما زار الاستاذ درنبرغ في مدرسة اللغات الشرقية بباريز وهو يدرّس القرآن فقال : اسرائيلي يدرّس كتاب المسلمين لجماعة من النصارى .

ودعاني لتناول طعام العشاء منا لغد في بيته وقال لي:انه سيكون

معنا ابنه غولد صهير المهندس وقرينته،ولما قدمني الى كَنَتّه قال:تحسن خمس لغات تكتب بها وتتكلم بطلاقة ، وهي عارفة بالآثار المصرية • فقلت : ما كان يخطر لي ببال أن أرى في الديار المجرية فتاة تشـــارك الرجال في عملهم الذي يتوقف درسه على معارف منوعة ، فــان كــان نساؤكم على هذا المثال في الغرام بالعلم ، فلا عجب إن جاء من رجالكم كل عجيبة • ولما انصرف المدعوون استبقاني وسألني كيف وجدت كَنَتي ، فأثنيت عليها وقلت له : بارك الله لزوجها بها فقال : هي متعلمة وجميلة وغنية أيضا ، أو متعلمة وغنية وجميلة ايضا ، لا أذكر العبارة بالضبط •

طلبت اليه لما تزاورنا أن يعرفنـــي الى بعض أرباب الصحف في بودابست لآخذ عنهم ما يهمني الوقوف عليه من حال هنغاريا فقـــال : وما الحاجة الى هذا الاجتماع وأنت عربي ومتشبع بعروبتك ، وأنت تعلم أن المجريين يحبون الاتراك ، ولا ينسون عطف الدولة العثمانيـــة على من التجؤوا الى بلادها من قوادهم عقبى احـــدى الثورات على النمسا ، فحمتهم وأكرمتهم وفادتهم • واني لأخشى اذا اجتمعت الـــى الصحافيين أن تبدر منك أومنهم كلمات تؤدي الى جدال لاتحمد مغبته، فالاولى أن تسألني ما تحب الاطلاع عليه ، وبذلك تتفادى الوقـــوع فيما ليس من الحكمة الوقوع فيه •

طالعت بعض ما كتب غولدصهير بالفرنسية ، ومنه ما نقل اليها مقالاته في الفقه وما الى ذلك مما نشره في معلمة الاسلام فرأيت طريقته طريقة العلماء يعشقون الحقائق ولا يعبؤون بما عداها ، ولا عجب إن أصبح غولد صهير مرجع علماء المشرقيات الاسلامية في ديار الغـــرب

لعهده . ومن أحصى ما نشر من أبحاثه باللغات المختلفة يأخذه العجب مما وصل اليه من مقامات العلم ، ولايكاد يصدق ان عمر الانسان القصير يتسع لتأليف ما ألف فيه من الابحاث الصعبة . وان الدراسات التي وجهت اليها[1] همة غولد صيهر مما يعز حصول مثله لعالم شرقي . ذلك لان الشرقي بعيد عن الاتقان . يصاب بالملل ولا سيما يوم تعرض له مشاكل تحتاج الى أناة طويلة وطول تفكير .

★ ★ ★

(١) الأصل : إليه .

- ١٣ -

أمين المعلوف *

١٢٨٨ - ١٣٦٢ هـ
١٨٧١ - ١٩٤٣ م

هو من أسرة لبنانية كبيرة ظهر منها مع انتشار التعليم في ربوع لبنان المؤرخ والطبيب والشاعر والسياسي . ومن نوابغهم أمين هذا .

درس الطب في الجامعة الامريكية فكان الصدر المقدم فيه بين أقرانه ، وكان غرامه بالأدب يوازي غرامه بالطب ، فكان أبرز شاهد على تعدد المواهب في انسان من كمون الموهبة العلمية في بعض زوايا نفسه ،فاذا آنست فرصة تجلت أعظم تجلٍّ وكسفت المواهب الاخرى . فقد احترف الطب ، وكان ذا حذق نادر في تشخيص العلة ، ولكن ظهرت فيه في الوقت نفسه الموهبة المدفونة في دفتي صدره وقرارة نفسه ،وهي موهبة البحث العلمي،وانبثقت فيه انبثاق الالهام والوحي، وظهرت طوالعها في كثرة التقصي والسؤال والمطالعة .

توفر سنين طويلة على وضع كتاب « معجم الحيوان » على الاصول الغربية من البحث الدقيق حتى جاء كتابه آية تتجلى فيها

---

* ترجمته في الاعلام ١/٣٦٠ ومعجم المؤلفين ٣/١٢ وانظر مقالات له في مجلة المجمع العلمي ٧/٢٨٩ ٣٢١، ٤٠/٩٦ ، ١٦٠ وهو امين بن فهد بن أسعد المعلوف ، ومن اعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق الراحلين وتوفي بالقاهرة إثر شلل اصابه .

العناية ، وجعله على حروف الهجاء • ذكر فيه الأسم العربي والأسم الانكليزي والاسم العلمي ، وأحيانا الاسم الافرنسي ، ووصف كل حيوان فيه وصفاً دقيقاً يقربه من ذهن القارىء • وهذا من الكتب الخالدة [1] • وألف أيضا المعجم الفلكي ، ألمّ فيه بذكر الثوابت والكواكب السيارة وصور النجوم وبعض الاصطلاحات الفلكية[2] • وكان يعد كتابا ثالثاً في النبات ، نشر منه في مجلة المجمع العلمي العربي مبحثين في المجلدين السابع والثامن ، ولم يطبع • وبدأ بتأليف معجم انكليزي عربي ولم يتمه ، وله أبحاث في الاصطلاحات الطبية ، وتعليقات على كثير من الألفاظ التي أخطأ العلماء فيها •

« ولقد كان ـ رحمه الله ـ من أصدق الناس وطنية وأسماهم أخلاقا ، وأخلصهم للقضية العربية • خدم بلاد العرب في الجيش المصري وفي الثورة العربية ، وفي الجيش العراقي ، وخدم لغة الضاد في جميع أدوار حياته ، فكان في كل ذلك نعم الخادم العالم الصادق الامين » •

★ ★ ★

(١) طبع بعنوان معجم الحيوان .

(٢) طبع بعنوان : المعجم الفلكي .

- ١٤ -

انستناس الكرملي *

١٢٨٣ - ١٣٦٦ هـ
١٨٦٦ - ١٩٤٧ م

ولد في بغداد من أب لبناني وأم بغدادية • ودرس في مدينة السلام الدروس الابتدائية ، والتحق بعد ذلك بمدرسة اليسوعيين في بيروت • ودير الكرمليين في شفرمون ببلجيكا ، وفيها سيمَ قساً سنة ١٨٩٤ فسمى نفسه أنستاس ماري الكرملي • وكان اسمه قبل أن يذهب بطرس بن ميخائيل جبرائيل عوّاد ، وعاد الى وطنه وقد أتقن العربية والفرنسية ، ودرس اللاتينية واليونانية وتخرج بالآداب العربية بعلاّمة العراق السيد محمود شكري الآلوسي ، وما زال يعامله الى آخر حياته معاملة التلميذ أستاذه •

وأخذ منذ دخل دير الكرمليين في بغداد يعنى بالبحث عن أصول المفردات العربية وعلاقتها باللغات السامية وغيرها ، فاقتضاه ذلك أن يلم الماماً خفيفاً بالسريانية والعبرانية والحبشية والمندائية والفارسية والتركية ، ثم الانكليزية والاسبانية والبرتغالية على مثال علماء المشرقيات في الغرب في تلقنهم اللغات التي تنبعث همتهم الى تذوقها قليلا •

---

* ترجمته في الاعلام ٣٦٦/١ ومعجم المؤلفين ١٧/٣ وانظر معجم المطبوعات ٤٨١ ومجلة المجمع المجلد ٢٣ ص ٦٠٨

وساعده فراغه في ديره ، فكان بعد قيامه بواجباته الدينية لا يصرف ساعة في غير الدرس والبحث ، فألف في الموضوع الذي أخذ من نفسه أبحاثاً وكتباً ورسائل،ونشر في المجلات العربية أبحاثاً ممتعة، ولا سيما في « المشرق » و « المقتبس » والمباحث والمسرّة والزهور والزهراء والمقتطف والهلال ومجلة المعلمين ومجلة المرأة الجديدة ومجلة المعهد الطبي العربي ومجلة المجمع العلمي العربي ومجلة مجمع فؤاد الاول وغيرها • وكان يوقّع مقالاته في هذه المجلات بتوقيعه الصريح أو بإمضاء مستعار • وقد أنشأ في بلده مجلة « لغة العرب » صدر منها ثمان سنين وأنشأ مجلة دار السلام أربع سنين •

وألّف في الدين والمواعظ كتباً ورسائل اشتهرت بين أبناء طائفته ، وتآليفه العلمية تتناول اللغة والتاريخ على الاكثر ، ومنها رسالة في « الكتابة العربية المنقحة » و « نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها (١) » و « أغلاط اللغويين الاقدمين (١) » « خلاصة تاريخ العراق (١) » و « النقود العربية وعلم النميات » وغير ذلك • ونشر من كتب الاقدمين الجزء الثامن من « الإكليل » للهمداني (٢) ، وجزءاً من كتاب « العين » للخليل بن أحمد(٣) ، و « نخب الذخائر في أحوال الجواهر » لابن الأكفاني • وله تآليف أخرى لم يكملها • وحدّثني غير مرة أن له معجماً مطولا في العربية سماه « المساعد » لم يوفق الى طبعه •

---

(١) طبع

(٢) وهو في أنساب حمير وملوكها ، وفيه وصف لليمن وآثارها ، والهمداني هو الحسن بن احمد بن يعقوب ، والمعروف بابن الحائك (ت ٣٣٤ هـ)

(٣) الفراهيدي ، المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، إمام اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، وكتابه (العين) معجم لغوي •

كان رصيفي في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وفي مجمع فؤاد الاول اللغوي في القاهرة • وهنا كانت تظهر عند المناقشة في الالفاظ سعة علمه بها حتى ليخيل للسامعين أن معظم الالفاظ التي يهمه معرفة أصولها قد وضع لها جزازات يرجع اليها كلما أراد • وهذا دليل دؤوبه في خدمة اللغة وطول أناته في البحث والدرس • وكانت كتابته سهلة، خالية من الالفاظ التي تعلو عن أفهام جمهور القراء ، لكن ديباجتها لا تناسب كتابة رجل عاش عمره في وسط كتب بلغاء العرب ، أي انه ما كان كاتباً بليغاً ، وتعرض له الركاكه أحياناً •

وكان يصلح لبعض علماء المشرقيات بعض أبحاثهم وكتبهم ،ويأخذ منهم ما يرتفق به ، وليس هذا ما يؤاخذ عليه ، وهو يؤاخذ عندما بالغ في مجلته برفع شعر أحد شعراء الناشئين فوق شعر أكبر شعراء العصر، وبالتنويه بمعجم هو يعترف أن كل صفحة من صفحاته لا تخلو من عشرات الاغلاط ، وذلك مقابل مبلغ من المال تقاضاه من الشاعر والمؤلف حتى يمدح عملهما بما لا يستحق • وجرى في ذلك على طريقة الصحف الفرنسية في التنويه بمؤلفين متوسطين ومؤلفات حقيرة مقابل دفع شيء للكاتب والناشر • وفي ذلك افتئات على العلم ، وغمط لحقه•

وكان يعجب من خطتي في تطلبي نقد ما ألفت ونشرت ، ويقول : لم أر في الشرق والغرب من جرى على هذه الطريقة ، فقد جرت عادة المؤلفين في الاكثر أن يتطلبوا تقريظ كتبهم ، ويسوؤهم أن تنتقد ، وأنت تتطلب نقد ما تؤلف وتنشره للناس ! فكنت أجيبه أن النقد حياة العلم ، وأن لمن ينقدني ثلاث منن عليّ : يفيدني ، ويفيد الناس، ويفيد العلم • أما التقريظ والمدح فلا ينفع أحداً •

جمع الأب العلاّمة خزانة كتب عظيمة قدرت في آخر أيامه

بخمسة عشر ألف مجلد ، فيها معاجم من اللغات المختلفة ، وكتب في التاريخ والأدب ، ومنها مجموعة من كتب العرب التي أحياها الغربيون بالطبع ، ومنها مخطوطات عربية ، وفي الحرب العالمية الاولى احتل ديره سريّة من جند الترك ، فاشتد عليهم البرد في بعض الليالي ، فلم يروا وقوداً أقرب اليهم من أخذ بعض المخطوطات وجعلها طعاماً للنار ، ثم تناولتها أيدي النهب ففقد مئات من مجلداتها ، وعاد بعد الحرب فاسترجع المسروق ، وما عوّض المحروق • وكان اذا ذكرت له خزانته يتألم لما حلّ بها • وقد وقف هذه الخزانة على الدير ، كما خص طائفته فقط بما ترك من ثروة جمعها في الاكثر من المسلمين وحكوماتهم •

غضب ذات يوم على أحد رهبان ديره فضربه بالعصا فحكمت الرهبنة عليه بالنفي الى دير الكرمليين في حيفا ، على أن لا يكتب ولا يؤلف ، فكتب لي بذلك سراً ، فرجوت بعض المقربين من ملك العراق فيصل — رحمه الله — أن يتدخل في الأمر لتطلق للأب حريته ، فطلبه الملك من رئيس ديره بحجة أن له أشياء يريد استفتاءه فيها ، فما وسع صاحب الدير الا اجابة الطلب ، وعاد أنستاس الى حريته يؤلف ويصنف وينفع اللغة والآداب •

كان المترجم له لا يرحم أحداً يعبث باللغة ، أو يقول فيها بلا علم • اشتد بنقده على الاموات والاحياء ، وأكثر من ضربه ضرباً مبرحاً أصحاب المعاجم العصرية ، فكان للبستاني وغيرهما حظ جزيل من نقده وسخريته ، لما وقع في معاجمهما من الشطط ، ولم يخلِ اليسوعيين أنفسهم من نقد معاجمهم والحملة على ما أحيوه من كتب العرب • وكان الرجاء معقوداً على نشره معجمه الذي صرف فيه شطراً كبيرا من حياته ، والى الآن لم تتعلق بذلك همة بعض الناشرين •

★ ★ ★

- ١٥ -

جرجي زيدان *

١٢٧٨ ـ ١٣٣٢ هـ
١٨٦١ ـ ١٩١٤ م

لبناني ولد في بيروت من أسرة فقيرة . تعلم في بعض مدارسها الابتدائية ، ودخل الكليـة الاميركيـة لتلقي الطب فلم يتم له نيـل الشهادة ، وهاجر الى مصر ، وتولى تحرير جريدة الزمان ، ثم رافـق الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ بوظيفة مترجم ، ثم عاد الى بيروت ، ودرس فيها اللغتـين العبريـة والسريانية ، ووضع كتابـه « الفلسفة اللغوية » ، ثم رحل الى لندن وعاد الى مصر ، وعين محرراً في ادارة « المقتطف » ، ثم أنشأ مجلة « الهلال » ١٨٩٢ وانقطع الى التأليف .

كتب اثنين وعشرين مجلداً من « الهلال » وخلّف بضعة مـن تآليفه الأدبية والعلمية عدا ٢٢ رواية وقصة أخذ أكثرها من تاريـخ العرب . ومن أهم كتبه «تاريخ التمدن الإسلامي» في خمسة مجلدات،

---

* ترجمته في الاعلام ٢/١٠٨ مراة العصر : ٤٥٧ قدماء ومعاصـرون : ١٥٦ ، عصاميون عظمـاء من الشـرق والغرب : ٥٩ـ٨٠ مقال ابراهيم الطناحي ، تاريـخ الأدب العربي للفاخوري : ١١٢٥ وانظر معجم المطبوعات : ٩٨٦ والرائد : ٧٤٥ وفي آخر الجزء الرابع من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ص ٦٨٣ ، رجال عرفتهم : ١٩١

ومنهـا « تاريـخ مصر الحديث » ، و «تراجم مشاهير الشرق » و « التاريخ العام » [1] ، و « تاريخ الماسونية » ، و « تاريخ اليونان والرومان » ، و « تاريخ العرب قبل الاسلام » و « تاريخ اللغةالعربية» و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، و « أنساب العرب القدماء » و « علم الفراسة الحديثة »[2] الخ .

محصول كبير أخرجه المؤلف بسرعة ، وما توخـى أن يكتب للخاصة ، بل كتب على الأكثر للعامة والطبقة الوسطى، وكان ضعف[3] أسلوبه في البيان معواناً له على فهم العامة ما يكتب ، وهي مزيـة لم يوفق الى مثلها أكثر من سبقوه ولحقوه من أرباب الأقلام ، وليس بث الآداب في السواد الاعظم مما يسهل على كل من تصدى للتأليف . وما كان المؤلف ، على ما بدا لنا لا يهتم أن تخلد كتاباته ، بـل يقصد منها تكثير جمهرة المطالعين في الزمن الذي نشرت فيه .

نقده كثيرون على هذه الخطة ، وما كان بعضهم الا من حساده، ومن يكثرون النقد يجبنون عن العمل . وفي الحق ان طريقة المؤلف السهلة التناول حببت الى كثير من قراء العربية الرجوع الى التاريـخ الإسلامي ، وكان من قبل وقفاً على خاصة المسلمين والمشتغلين بالعلم، فهذه منقبة يجب أن لا ينساها الناقدون والطاعنون .

كان زيدان من أول من خاض بحر الادب العربي واستخرج دُرَرَه وصاغ أكثرها في قصصه صياغة مقبولة ، يحملها الى القراء ، وكانوا على عهده قلائل. وما زال يطالعهم بما نشر ويتدرج بهم في الموضوعات

(١) كرر هنا في الأصل كتابه السابق (تاريخ مصر الحديث)
(٢) انظر معجم المطبوعات
(٣) عبارة الاصل (وكان له ضعف) بزيـادة (لـه) دون مسوغ

التي يبتدعها فيسمعهم نغمات لا عهد لهم بها ، ويحمل اليهم بضاعة تروقهم يسترخصونها ولا تثقل عليهم ، ألفاظها سهلة ، وتراكيبها مرسلة لا صعوبة فيها ولا تعلو عن مستوى عقول قراء الصحف اليومية ، فصادف ما نشره اقبالا ، وزاد في قبولهم له أن كتاباته كانت منسقة مبوبة مفهرسة تدخل الى النفس من أيسر السبل •

ولو امتد به الأجل لرجع على معظم ماكتب وزاد فيه ونقص منه ، شأن معظم المؤلفين اذا حالت الأعوام على ما كتبوا • وليس هذا مما يعاب عليه ما دامت بشرة المرء — كما قالوا — تتبدل كل سبع سنين • والمؤلف بالحري أن يبدل بعض أفكاره في بضع سنين أيضاً •

كان من الخاصة من يزعم أن زيدان يشوه التاريخ الإسلامي ويتعمد تحريفه ، ومنهم من يذهب الى أنه على ما يحمله الى قرائه يحبب اليهم النظر في الموضوعات العربية ، وفي كتابة « تاريخ التمدن الإسلامي » مواضع ما كان فيها على صواب نقدها عالم الهند العلاّمة شبلي النعماني ،وممن انتقده أحمد الإسكندري ورفيق العظم ولويس شيخو •

أما زيدان فأدرك تقصيره في بعض الأبحاث الإسلامية واعتماده على ما كتبه الإفرنج فيها ، ومنها ما كانت ترشح من كتابات رهبان القرون الوسطى ، فقد شهدناه لما نشر « تاريخ آداب اللغة العربية » ارتكب أغلاطاً حمله عليها ما وجده أمامه من مادة ، وغيَّر فكره فيها لما كثر بحثه ونشرت مواد كثيرة كانت مجهولة في عصر تأليفه • قال

بما لم يقل به أئمة التاريخ والثقات من رواة الأخبار من أن المسلمين أبادوا مكاتب فارس ومصر ، كما أرادوا هدم ايوان كسرى وأهرام مصر • والمعروف الثابت عند المحققين من علماء العرب والإفرنج أن نسبة حريق خزائن الفرس ومصر للمسلمين فرية افتراها خصوم الفاتحين • وما أحب المأمون هدم الاهرام ، بل أراد أن يعرف ما في داخله ، فأمر بثقْب جهة واحدة منه خدمةً للتاريخ والآثار •ورأيناه في هذا الكتاب يفضل كلام شاعر على شاعر وهو غير شاعر ، وأن السبب في تكاثر شعراء العشق هو انتشار التسري وركون القوم الى الرخاء فكان من ذلك التهتك والتخنث ، الى كثير من الآراء ما كانت ناضجة جارى فيها من نظروا الى المدنية الإسلامية نظرة عابرة خاطئة •وربما ما كانت تقع له تلك الهنات لو اتسع له الوقت ليحقق كل ما خاض عبابه• وما دام القصد نفع العامة فقد وفت تآليفه بغرضها ، وما استطاع أحد أن يقلده في طريقته ، يوسع أمام القراء أفق النظر ، ويصل لهم ماضيهم بحاضرهم بقدر ما تسمح به البيئة •

قالوا : ان المعلم العظيم الذي يحسن تلقين الأطفال العلم ، والكاتب العبقري هو الذي يملي على العامة ما يرقى بهم الى مصافّ الخاصة •

وكان زيدان آية في هذا الباب ، وخص بطول النفس ، وطرق موضوعات كتب لها الرواج فانبعثت همته الى الإكثار منها • وكان على صفات حسنة من جمال الأدب وطول الأناة وبعد الهمة •

طالت صداقتي لـــه ، وكان يعطف عليّ عطف الأخ الكبير على الأخ الصغير ، ويطلعني على ذات نفسه ، ويأخذ رأيي في بعـــض مـــا ينشره ، وكثيراً ما يتنازل ويعمل به ان رآه صواباً • دليل فرط أدبه وسعة صدره ، وكثيراً ماأرادني على أن أتخلى عن المؤازرةفي الصحف السياسية ، وأنقطع الى العلم فقط • مما يدل على صدقه وغيرته على الآداب •

★ ★ ★

- ١٦ -

جميل صدقي الزهاوي *

١٢٧٩ - ١٣٥٤ هـ
١٨٦٣ - ١٩٣٦ م

هو جميل صدقي بن محمد فيضي الزهاوي مفتي بغداد ، وأصلهم من أسرة بابان الكردية ، كان بعض رجالها أمراء السليمانية . سكن جده زهاو من فارس فنسب اليها .

ولد جميل سنة ١٢٧٩ هـ ، ١٨٦٣ م ، وتلقى علوم الدين والعربية فظهر ذكاؤه ، وبرز على الأقران وهو في ميعة شبابه ، وقال الشعر وهو في الخامسة عشرة ، وحذق الفارسية والتركية والكردية . قال من ترجموا له : ثم حبب إليه التحلي بالعلوم الكونية العصرية ، ولكنه لم يجد الطريق اليها نهجاً ، لأن هذه العلوم تتطلب دراسة منظمة زيادة على التضلع بلغة أوربية ، ولم تكن البيئة التي نبت فيها المترجم مساعفة للوصول الى تلك الغاية ، فما كان له بد من الرجوع الى المجلات والكتب العصرية التي كانت تنشر بالعربية أو التركية . وكان حسن

---

* ترجمته في الاعلام ١٣٣/٣ ، معجم المؤلفين ١٥٩/٣ وملوك العرب ٣٨١/٣٨١/٢ ، تاريخ الشعر العربي الحديث : ٣٧٩ ، دراسات في الشعر العربي المعاصر : ٧١ ، ساعات بين الكتب : ١٩٧ ، ٢٢٣ ، تاريخ الأدب العربي للفاخوري ١٠٢٩ ، رجال عرفتهم : ١٢٩ ، الراحلون : ٦١ ، وله مقالات في مجلة المجمع ٢١٢/٨ ، ٧٦٢/١١ ، وانظر مقدمة ديوانه المطبوع ليوسف نجم ، ولصالح العلي الصالح كتاب (الزهاوي ، حياته وآثاره)

التصرف بما يحذقه من تلك المباحث • ولقوة ثقته بنفسه واعتداده بمواهبه كان يعمد الى العويص منها ويناظر أهله فيه ويباحثهم حتى يكون له رأياً خاصا ينافح عنه ويناضل دونه • خذ مثلا لذلك رأيه في الدافعة فإنه مع علمه بما يرتكن اليه موضوع الجاذبية من المقدمات الرياضية والحقائق الطبيعية ذهب فيه مذهباً خالف فيه جميع علماء هذا الشأن ، فهو يرى أن المادة لا تجذب المادة ، بل تدفعها ، فليس في الكون جذب وانما هو دفع • ولشدة وثوقه بصحة رأيه هذا وضع فيه مؤلفاً خاصاً • وله آراء كثيرة من هذا القبيل انفرد بها ، وقد أودع خلاصتها كتاباً أسماه « المجمل مما أرى » ، ومن أغرب كتبه كتاب « الكائنات » عتب في مقدمته على أبيه أن جعله في مدرسة صومعية ولم يرسله الى احدى جامعات الغرب ليكون منه الفيلسوف الذي يفيد الانسانية ويقلل من شقاء البشرية • ومنها : « الفجر الصادق في إثبات الخوارق » وهو من كتبه الغريبة أيضاً • وأكثر ما برز فيه الشعر ، فقد كان ينتده ويكثر ، وله عدة دواوين • ويقول العارفون بالشعر : إن ما اقتبسه من الفارسية وضمنه شعره هو أحسن ما نظم ، وهو يعدفي شعراء الدرجة الأولى من أهل هذا العصر • وأحسن شعره ما نقحه وشذبه ، وقد أبان عن ذوقه في الشعر بما اختار للشعراء في مجموعة بلغت ألفي بيت •

وقال في وصف شعره المستعرب « ويدمر » الألماني : ان قدرة الشاعر ليست بنظرياته العلمية الطبيعية ، وانما هي في شعره من حيث المبنى أو المعنى ، وفي مدخل ديوانه « اللباب » صورة من آرائه في الشعر والشعراء • قال : ونجد في الشاعر أمراً جديدا غير مألوف في غيره ، وهو أنه مفتوح القلب لآثار الطبيعة ، وأنه لا يصغي إلا الى أصوات ذلك القلب • وبلغ الكثير من شعره غاية الرقة ، والشاعر

يترسم خطا المعري في كثير من آرائه الفلسفية • وقصيدته « الثورة في جهنم » تذكرنا برسالة الغفران ، وهي معقدة السبك لأن قيود القافية قد قيدت الشاعر فضاق ذرعا في التعبير عن عواطفه • وهو في شعره المنثور الطليق يعبر بسلاسة وبيان ، أما نثره فلغته بَيِّنة واضحة لا تشتمل على جمل مزخرفة فارغة مما يكثر في مؤلفات المقلدين لأساليب المتقدمين • ومن شعره [1] :

طعنوك يا وطني المفدى　　في الصدر حتى كدت تردى
والطاعنوك بنوك أنـ　　ـت كسوتهم لحماً وجلدا

تولى الزهاوي عدة وظائف علمية في بلده وفي استانبول • وفي هذه العاصمة درس الفلسفة والآداب العربية ، وفي بغداد درس الحقوق • والحق بالبعثة العلمية الإسلامية الى اليمن • وحدثني من سمعه يعظ في جامع صنعاء أنه كان يذكر مناقب أحد الدجالين من المنظور اليهم في حكومة السلطان عبد الحميد بما يتنافى وآراءه الحرة ، ولما قيل له انه في رده على الوهابية أبان عن غرض خالف به الحقائق قال : هكذا اقتضت السياسة •

وأرسل لي الى مصر عدة قصائد من شعره فيها حط" من الأديان وأرادني على أن أنشرها في « المقتبس » باسم المجلة ، فأجبته ان « المقتبس » إذا قال في مقدمته انه لا يتعرض للأبحاث الدينية ، فليس

(١) لم أجد هذين البيتين في ديوانه ، انما فيه قصيدة من نفس البحر والروي عنوانها (حقد أم نقد) ومطلعها :
ملأوا صدور الصحف حقدا　　والحقد قد سموه نقدا
ولعلهما من ابياتها • (انظر ديوانه : ٢٠٤)
كما وردت بعض أبياتها في ديوانه المسمى (اللباب) وفيه المختار من شعره في أدوار حياته

معنى هذا أنه يطعن بالأديـان ، ثم إن صاحب « المقتبس » لا ينظم الشعر فكيف له أن يدعيه ؟ !

وبعث لي من بغداد مجموعة من القصائد من نظمه ونظم غيره ، ومنها ما عزاه الى رجل من أهل التقى من علماء بغداد ، وخلاصـة هذه القصائد التي حوت ضروب الاقذاع والسفاهة أن شاعراً اسمه الطالقاني ورد على بغداد ، واشتبك مع أدبائها بالهجو السفيه ، وطلب الي أن اطبع هذه الجذاذات في مجلة من المجلات المصرية أو في كتاب برأسه ، فأجبته إن بغداد التي كان فيها الجاحظ وبشر المريسي (١) اذا نشرت هذه القصائد باسم علمائها لعهدنا تثبت انحطاطهم ليقول العارفون في هذا العصر: إن المسلمين أصبحوا عبئاً ثقيلاً على الارض ٠

الزهاوي مولع بالغرائب ومخالفة الجمهور ، اخترع حروفـاً عربية بدعوى أن حروفنا لا تصلح للكتابة ، فضحك العارفون منه ، وما قدر لحروفه الانتشار والذيوع وقال : إن الشعر العربي تقيده قوافيه فاخترع شعراً لا قوافي له ولا أوزان ، فسقط اختراعه أيضاً ٠ وقال أيضا باعتماد اللغة العامية دون اللغة الفصحى في التأليف فما سمع له ٠ وقال بمثل ذلك من الآراء يقصد بها مخالفة العرف والعادة والأديان والمذاهب ٠ وكان جسوراً في بث آرائه ، ويكتب كثيرا ، ويدون كثيرا ويطالع كثيرا ٠ وهو على جانب من الوفاء لأصحابه أحياء وأمواتاً ٠ وقد اشتهر بنكاته ودعابته ٠ ومن نكاته أنه حضر مجلس بعض كبراء الأتراك في بغداد ، فدار الكلام على الخرافة المشهورة ، وهي أن بعض

---

(١) هو بشر بن غياث بن عبد الرحمن المريسي ، فقيه معتزلي ، رأس الطائفية المريسية ، عاش نحو سبعين عاما وتوفي ببغداد سنة ٢١٨ هـ ، ٨٣٣ م (الأعلام ١/٢٧)

المبتدعة يمسخون خنازير بعد موتهم ، فأجمع الحاضرون على القول بذلك ، وتصدى بعضهم لسرد وقائع في هذا الشأن زعم أنه رآها عياناً . فالتفت صاحب المجلس الى المترجم وقال : ما رأيك في هـذا يا أستاذ ؟ فأجابه : هذا أمر مفروغ منه ، أنا رأيت بعيني بشراً أحياءً — وأشار إلى الحاضرين — مسخوا حميراً ، فكيف لا يجوز مسخ الميت خنزيرا ؟ ومن نكاته قوله في مجلس النواب العثماني ، وقد عرضت موازنة البحرية فكان من فصولها مبلغ لقراءة البخاري لسلامة الأسطول .فقام ورفع صوته وقال :ياسادتي إن الأسطول يسيربالبخار لا بالبخاري ، فضحك المجلس لهذه النكتة .

اتهم الزهاوي بالإلحاد والزندقة ، واضطهد من أجل ذلك ، وكان من أنصار حرية المرأة فسبب ذلك لهمشاكل حرمته بعض منافعه المادية، فعاش في آخر أيامه في ضنك.وربما كان شذوذه من اختلال في صحته، فقد ذكر من ترجم له من الغربيين أنه أصيب ، وهو في الخامسة والعشرين ، بمرض « عُقام » [1] وهو النخاع الشوكي Moelle épiniére وفي سن الخامسة والخمسين فلجت رجلهاليسرى فكان أعرج . وقال عن نفسه انه كان فيصباه يسمى المجنون لحركاتهالغريبة، وفي شبابه الطائش لخفته ورعونته ، وفي كهولته الجريء لمقاومته الاستبداد ، وفي شيخوخته الزنديق لمجاهرته بآرائه الفلسفية . أي أنه كان شاذاً من أول أمره الى خاتمة عمره . وما حداه على كل ذلك إلا ليقال عنه أنه فيلسوف مجدد . يشهد لذلك أنه ادعى في كتابه « الكائنات » أن للانسان رجعة الى الدنيا بعد مئة ألف عام بالصورة التي يختارها انسانا أو حيواناً . .

---

(١) مرض عقام (بفتح العين وضمها والضم أفصح) : لا يبرأ

ولو كُتب لــه الاعتدال في آرائه ، وقيض له من يرشده الـى الصواب ، ويربيه تربية على ما يتربى الرجال لجاء عالماً نافعاً من كـل وجـه ، وخلد بعملـه وعلمه بما خص بـه من الذكاء النادر والجرأة والدؤوب •

والزهاوي في حقيقته شـاعر فحل ، وبالشعر اشتهر ، والفلسفة عليه عارضة ، لم تعطه قيادها ، وما أثر بها إلا ما كان من القاء الشك في بعض الشبان • قال : إني تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم ترقني ، ومن علوم الآخرين فولعت بها • وقال في نزعته إلى الشعر : الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش في نفسه بأوزان موسيقية فيهز بـه السامع •

إذا الشعر لـم يهززك عنـد سماعـه
فليس خليقـاً أن يقـال له شعـر[1]

وقال : أرى الشعر بعد الوحي أكرم هابط
مـن الملأ الأعلى الى الملأ الأدنـى[2]

وقال : الشعر للروح مثل القوت للبـدن
وإنـه زينـة الأقـوام والمـدن[3]

وقال : أحسن الشعر ما يكون عن القلـب
وآلامـه لنـا ترجمانـا[4]

(١) ديوانه طبعة نجم ج ١ ص ٢٣٧ وروايته فيه : إن الشعر •• ولعله غلط •

(٢) ديوانه ــ ط المطبعة العربية : ٢٥٩ من قصيدة مطلعها :
ظننت بأن الشعر يغني فما اغنـى
وكم شاعر في موقفي اخطأ الغنـا

(٣) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية) : ٢٤٦

(٤) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية) : ٢٤٧

وقال : بل الشعر مغنى رائق يوقظ الهوى
ولفظ رقيــق مثلمـــا يطلــب الفـــن(١)

وقال : الشعر صوت الروح قد ذاق الأذى
وأنيــن مجــــروح مــن الآلام(٢)

قال : ولا أرى للشعر قواعد بل هو فوق القواعد ، حر لا يتقيد بالسلال والأغلال ، وهو أشبه بالأحياء ، وفي اتباعه سنــة النشــوء والارتقاء . يتجدد ــ وأحرِ به أن يتجدد ــ بحسب الزمان ، ويرتقي من الأدنى الى الأعلى ، ومن البسيط الى المركب .

قـــال : إنه ينزع في شعـــره الى سبيل الحياة الطبيعية متجنباً المبالغات وكل ما ليس حقيقياً ، ويخرق التقاليد التي ورثها الأبناء من الآباء فيقول ما يشعر به هو لا ما يشعر به آباؤه ،وأنه كلما رجع الى نفسه يحيد عن الطريق الذي يمشي عليه غيره معتقداً أن الطبيعة أولى بالتقليد .

وما زلــت في جــو من الفكـــر طائـــراً
ومن عادتـــي أن لا أطير مـــع السرب(٣)

وقد جرده ما استطاع من الصناعات اللفظية والخيالات الباطلة، وحرص على أن يكون منطبقاً على الواقع خلواً من الإغراق ، ماشياً مع العصر ، وحسبه أن توحي الطبيعة إليه فيقول ما يقول .

---

(١) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية) : ٢٥٥
(٢) من قصيدة في ديوانه (المطبعة العربية) : ٢٥٦
(٣) من قصيدة في ديوانه : ٣٣٤ مطلعها :
تبــاركت للتهذيب من منتدى رحــب
ومــن مورد صــاف لورّاده عــذب

قال : « ولا أرى مانعاً من تغيير القافية بعد كل بضعة أبيات من القصيدة عند الانتقال من فصل الى آخر لإراحة الشاعر من كد الذهن، فإن الإتيان بالقافية الواحدة متمكنة ليس في قدرة كل شاعر . وأجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء ، سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها . والجديد هو أحسن ما تنزع إليه النفس الوثابة ، ولو لم يتجدد الليل والنهار لملّهما الناظر » (١) .

سئمت كـــلّ قديـمٍ عرفتـه في حيـاتي (٢)
إن كان عندك شــيءٌ مــن الجديـد فهـاتِ

قال : وما أنا مادح شعري ، غير أني أعتقد أنه إذا صادف قلباً ذا شجون مدفونة فهو يثيرها ، ولا ادعي أنني أجدت ، بل غاية مـا هنالك أني قلت . وإذا ألفى أحد في شعري ما يمس شعوره أو معتقده فلا يغضبن علي فإني لم أتعمد إيلامه ، ولطالما سمعت ما يخالف رأيـي ولم اتدمر ، ولم أجد على كاتبه (٣) .

ومن شعره المرسل (٤) :

لمَوتُ الفتــى خيــرٌ لــه من معيشةٍ
يكون بهـا عبئاً ثقيـلاً على الناس

---

(١) من مقدمة ديوانه (المطبعة العربية) بقلمه ، بتصرف قليل الصفحة ب

(٢) من رباعياته ، انظر ديوانه ، المطبعة العربية : ٤٠٢

(٣) انظر مقدمة ديوانه بقلمه صفحة ز . ولم أجد : لم أغضب من (وجد يجد وجدا وموجدة) اذا غضب .

(٤) هذه الأبيات منتقاة من قصيدة من الشعر المرسل وردت في ديوانــه ص ٣١١ وقد غير بـعض عباراتها في طبعة أخرى للديوان

يعيش رخي العيش[1] عشر" من الورى
وتسعة أعشار الأنام مناكيد

أما في بني الأرض العريضة قادر
يخفف ويلات الحياة قليلا

أفي الحق أن البعض يشبع بطنه
وأن بطون الأكثرين تجوع [2]

أسائلتي عن غاية الخالق اسكتي
فما لي عن هذا السؤال جواب

إذا حيي الإنسان صادف منكراً
وإن مات لاقى منكراً ونكيرا

إذا قلت حقاً خفت لوم مخاطبي
وإن لم أقل حقاً أخاف ضميري [3]

أرى الناس إلا من توفر عقله
من الناس أعداء لكل جديد

تمنيت لو أني ــ وقد عَبَرَت"على
وفاتيَ أحقاب ــ رجعت إلى الدنيا

رغبت عن الدنيا كأني ميت
قريباً وفي الدنيا كأني لا أفنى

يقولون إن الملح يصلح فاسداً
فما حيلة الإنسان إن فسد الملح

---

(١) الرواية الاخرى : نعيم البال .
(٢) الرواية الأخرى : جياع .
(٣) الرواية الأخرى : وإن لم اقله خفت لوم ضميري .

من الناس من ان غبت عنه فإنه
عدو وإن لاقيته فصديق [1]

كذاك اختلاف الناس في كل حقبة
محاسن قوم عند قوم قبائح

إذا كان في الدنيا عدو يضرني
فذاك لساني ثم ذاك لساني

ومن رباعياته[2] :

ربَّ مالٍ هو لو شئـ	ـت اقتناء عند لمسي [3]
إنما تمنعني من	نيله عزة نفسي

. . .

إنما الشعر سيد	ليس يغضي على القذا
حبذا ذلك الإبا	ء من الشعر حبذا

. . .

أنت يا شعر خالد	أنا يا شعر هالك
أنت يا شعر كل ما	أنا في الكون مالك

. . .

أنا للشعر في العرا	ق أديب مجدد
أنا في جنب دجلة	عندليب يغرد

. . .

(١) هذا البيت حذف من احدى طبعتي الديوان . وهو موجود في طبعة المطبعة العربية .
(٢) ديوانه طبعة يوسف نجم ج ١ ص ١٧٨ و ٢٠٨
(٣) الرواية الأخرى : تحت لمسي .

قد مدحت الذين لم يستحقوا مدائحي
احسبوها على ضرورتها من قبائحي

* * *

فلسفة الزهاوي مبثوثة في شعره أكثر مما هي مبثوثة في كتبه ومقالاته ، وقد يقع له البيتان أو الأبيات الى قصيدة من قصائده يعجب بسلاستها ومعناها :

يريدون مني أن أغنيَ باسمهم
وأيُّ هضيم باسم أعدائه غنى (١)

* * *

وإني على شيخوختي وزَماتتي
أريد بشعري في الحياة التجددا (٢)
ولا خيرَ في شعرٍ مضى اليوم عهدُه
وفي شاعرٍ إن قالَ قالَ مقلدا
وما شاعر العصرِ الجديدِ سوى الذي
على دولة الشعر القديم تمرّدا
ومن كان ذا روحٍ مع العصر ثائر
فليس يريد الروح منه ليجمدا
أخو الشعر قد يَرْدَى ويُبقي وراءَه
على الدهر للأعقاب شيئاً مخلدا

---

(١) من قصيدة في ديوانه (ط . المطبعة العربية) : ٢٦٠ .
(٢) هذه الأبيات في ديوانه (ط . المطبعة العربية) : ٢٦٠ بعنوان (على شيخوختي)

فأكبرْ بشعرٍ كان حراً كرَبِّه
وأكبرْ بِحُرٍ لا يكون مُقَيَّداً

أرى العلم يرمي للبعيد بقصدِهِ
ولكنَّ منه الشعر أبعدَ مقصدا

يريد أناس منيَ الشعرَ جيداً
ويأبى الضنى أن أنظم الشعر جيدا

وقال من قصيدة عند نكبته في الدفاع عن المرأة [1] :

هي الحقيقة أرضاها وإن غضبوا
وأدَّعيها وإن صاحوا وإن جَلَبوا

أقولها غيرَ هَيَّابٍ وإن حَنِقوا
وإن أهانوا وإن سَبّوا وإن ثَلَبوا

إن يقتلوني فكم من شاعرٍ قتلوا
أو ينكبوني فكم من عالمٍ نكبوا

ولستُ أوَّلَ من أبدى نصيحته
لقومه فأتاه منهم العَطَبُ

لَهَفي على أمةٍ ما زلتُ أُرشدها
إلى سبيل هداها وهي تجتنبُ

نَصَحْتُ للقوم في شِعري وفي خُطَبي
فما أفادهَمُ شِعري ولا الخُطَبُ

طلبتُ إصلاحَهم في كلِّ ما كتبتْ
لهم بَناني ولمّا ينجحِ الطلبُ

. . .

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ط . المطبعة العربية ص ٣٠٦ بعنوان (هي الحقيقة)

وقال من قصيدة (١) :

اليومَ يا نفسُ لا بغدادُ منكِ كما
كانت ولا أهلُ بغدادَ كما كانوا
الناسُ للمال في بغدادَ قد عبدوا
كأنما المالُ في بغدادَ أوثانُ
يبغي القويُّ افتراساً للضعيف بها
وهكذا الناسُ ذُؤْبانٌ وحِمْلان
تَلْقَى على الشرِّ أعواناً قد اتفقوا
وما على الخير في بغدادَ أعوانُ
كلُّ امرئٍ مضمرٌ فتْكاً بصاحبه
يوماً فلا يرحم الإنسانَ إنسانُ
إن يكثرِ الجهلُ في أبناء مملكةٍ
تكثرْ هنالكَ أحقادٌ وأضغانُ
ألا شباباً أُولي عزمٍ ومعرفةٍ
فهؤلاء لفجرِ المجدِ عنوانُ
مِنْ كلِّ حرٍ فلا يرضى بذلّتهِ
ولا على الضيمِ تغضي منه أجفانُ
وإنَّ بغدادَ فيها أمةٌ صَدَقوا
وإنَّ بغدادَ فيها أمةً مانوا (٢)
الغربُ والشرق حتى اليوم ما استويا
هذا نشيطٌ وهذا بَعْدُ كسلانُ

---

(١) من قصيدة في ديوانه ط . المطبعة العربية ص ٣٦٣ بعنوان (بيروت ولبنان)

(٢) مانوا : كذبوا .

يفــوز مَنْ كان ذا عــزمٍ بمطلبــه
أما نصيبُ الكسالى فهو حرمانُ
تغيــرت بعد حــربٍ ثار ثائرهــا
علــى البسيطة أقــوام وبلــدانُ
الناسُ في الغرب بعد الحرب قد سعِدوا
والناسُ في الشرق بعد الحرب قد هانوا
والشرق أكثــرُه للحــق مهتضِمٍ
والغربُ أكثرهُ للحــقِ مذْعــانُ
وما الحروب بأطمــاعٍ كمــا زعموا
بــل الحروب انقلابات وأكوانُ
لا ترتقــي أمــةٌ حتى يكون لهــا
يومــاً على سيىء العادات عِصيانُ

★ ★ ★

- ١٧ -

حـافظ ابراهيم *

١٢٨٧ ـ ١٣٥١ هـ
١٨٧١ ـ ١٩٣٢ م

ولد حافظ ابراهيم حوالي سنة ١٨٧٢ م على سفينة كانت ترسو على شاطىء النيل أمام بلدة ديروط . وكان يسكنها أبوه ابراهيم فهمي المهندس وزوجته الست هانم ليشرف على قناطر دَيْروط .

وشاعر النيل ــ وقد لقب بهذا اللقب ــ ولد في النيل ، وأبوه

---

* ترجمته في الاعلام ٦/٣٠٤ ، المورد : ٦٣١ ، الادب العربي المعاصر في مصر : ٨٢ ، الشعر العربي المعاصر : ٩ـ٢٨ ، الرائد ٦٣١ ، شعراء مصر للعقاد : ١٠ ، تاريخ الأدب العربي للفاخوري : ٩٧٦ وانظر مقدمة ديوانه المطبوع واسمه الكامل محمد حافظ بن ابراهيم فهمي المهندس ، تاريخ الشعر العربي الحديث : ٨٦ ، عصاميون عظماء : ١١٩ ، حافظ وشوقي لطه حسين ، حافظ ابراهيم لعبد اللطيف شرارة ، حافظ ابراهيم الشاعر السياسي لروفائيل ، حافظ ابراهيم شاعر النيل للسندوبي ، حافظ ابراهيم كتاب المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر ، حافظ ابراهيم الشاعر الإنساني لمحمد المصري .

نشر الشطر الاول من هذه الترجمة في مجلةالمجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٢ ص ٧٤٤ـ٧٤٩ والشطر الثاني نشر في جريدةالاهرام القاهرية بتاريخ١٤/٣/١٩٣٧وهو كلمة القاها في مهرجان ادبي كبير اقيم في ٦ و ٧ آذار ١٩٣٧ بدار الاوبرا الملكية بالقاهرة تخليدا لذكرى حافظ ابراهيم ونشرت الى جانبه بعض القصائد التي القاها الشعراء في ذلك المهرجان .

مصري صميم ، وأمه من أصل تركي . مات أبوه وهو في الرابعة من عمره فكفله خاله ، وتعلم في المدارس الابتدائية في القاهرة . وقبل أن ينجز دروسه الثانوية انتقل مع خاله الى طنطا ، وكان مهندساً أيضا فظهرت عليه أمارات النجابة ، وأصبح يقول الشعر ، وكان يستظهر جيده منذ كان يافعاً .

واشتغل مدة في المحاماة في مكتب بعض المحامين في طنطا ، فلم يجد في هذه الصناعة أمنيته ، وانقلب الى القاهرة ، ودخل المدرسة الحربية فخرج منها ضابطاً في سن العشرين ، ثم سافر الى السودان فما طاب له المقام فيها ، وظل يحن حنين الواله الى عيش القاهرة ، ويتغنى بطيب نعيمها . وكان اللورد كيتشنر يكره حافظاً لعصيانه النظام . وكذلك رؤساؤه يشكون منه ، لأنه لا يقوم بواجب الجندي ، ولا يتذوق العمل الذي وسد اليه . وكان حافظ يتولى الدفاع عن رفاقه من الضباط إذا سيق أحدهم الى محكمة عسكرية فيرجح الدعاوى بفصاحته وفضل حيلته غالباً .

ولما نشبت ثورة سنة ١٨٩٩ في السودان اتهم بالاشتراك فيها ثمانية عشر ضابطاً كان حافظ من جملتهم فأحيل الى الاستيداع ، ثم طلب إحالته على التقاعد . ولولا أن صيته بدأ يستفيض ، ويرغب الأدباء والوجهاء أن يمدوا يد الصداقة له لسدت أبواب الرزق في وجهه .

وعطف مفتي مصر الشيخ محمد عبده على حافظ عطفاً خاصاً ، وأخذ يلقنه من طرف خفي ما يجب إدخاله في الشعر من تجدد ، ويريده على أن يطرق معاني جديدة في الإصلاح من حض المصريين على النهوض ، ودعوتهم الى تحسين الأخلاق والتربية ، والى الاعتصام بحب لغتهم ، والاعجاب بتاريخهم ، والمحافظة على شخصيتهم وشعائرهم ، وانكارهم

ظلم القابضين على أمرهم • الى ما شاكل ذلك من الآلام و الآمال •
معانٍ ما سبق لشاعر عربيٍ أن خاض عبابها إلا في النادر وفي مقاطيع قليلة •

صادفت قصائد حافظ في هذه المعاني الجليلة هوى في أفئدة القوم ، وتناولت الصحف قصائده ، ورددت المحافل والأندية صدى أدبه الحديث ، وحفظ الناشئة ما تجود به قريحته الوقّادة • ومن خصائص مصر أن من يستحق الشهرة تتاح له بسرعة ، كما يخمل ذكره بسرعة على الأغلب ، كالنبات في تربتها يسرع نموه لمكان الحرارة ، ولا يلبث قليلا حتى يصوّح[1] •

ما زال حافظ في ضيق من العيش ، يحسب نفسه بائساً ، وما بؤسه إلا نسبي ، لأن الخديوي وبعض أعيان مصر ما انفكوا يصلونه بما يرون أن يعيش به عيش المتوسطين المرفهين • ومن أصحابه من عاش في قصرهم ثلاث سنين على أحسن حال من الرفاهية ، يأخذ ما شاء من أموالهم ، ويفضل أيضاً على كثير من قاصديه من المتأدبين المفلوكين [2] • ولكن ما عرف به حافظ من عزة النفس كان يحدوه الى التأفف من هذه الطعمة ، ويريد أن يكون له رزق ثابت في أحد[3] الدواوين أو في الصناعات الحرة كالصحافة مثلاً فلم يتيسر له ذلك •

وفي سنة ١٩١١ عين رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية

(١) صوح : تشقق •
(٢) المفلوك : الرجل غير المحظوظ ، والمهمل في الناس لإملاقه ، أو الفقير •
(٣) الاصل : إحدى •

وما زال يتدرج في الدرجات حتى صار راتبه ثمانين جنيهاً في الشهر ، وأحيل الى التقاعد في سنة ١٩٣٢ أي قبيل وفاته بأربعة أشهر •

لحافظ دوران في شعره : دور الخصب ، ويبدأ بتركه خدمة الجيش في شبابه الى السنة التي عين فيها في دار الكتب ، وهي عشر سنين • والدور الثاني دور الجدب أو الإقلال ، وقد طال هذا الدور مع الاسف أكثر من عشرين سنة ، أي منذ عاد فصار موظفاً الى أن ترك الخدمة • وكان معظم قصائده في دور الخصب في الأغراض الوطنية والاجتماعية التي رقص لها الجمهور وأورثته شهرة • واقتصر في أيام جدبه على أغراض الشعر المتعارفة من رثاء ومديح وبعض القصائد الحكمية والتاريخية ، فما كان لشعره تلك الروعة والعبقة[1]، ولا تلك الوثبة والعاطفة ، ذلك لأن عمله يضطره الى السكوت عن بعض ما يغضب الحكام ، وهو الذي عرف منه غير هذا في شبابه •

ولو عاش حافظ بائساً كعهده الأول يوم استخدامه المرة الثانية لأتى في دوره الأخير من أنواع الإبداع ما لا يعرف مداه ، ولكن هكذا قدّر للأدب أن يفقد كثيرا من ثمرات تلك القريحة الجنية ، والنفس السمحة الحساسة • وقاتل الله الفقر وما يجنيه على صاحبه ، فقد يطأطيء رأسه لتحصيل رزقه مرغماً •

عظمت شهرة حافظ لأنه شعر بما شعر ، وقد تألمت نفسه من الظلم لأول نشأته فردد نغمة وقعت من النفوس موقعاً عظيماً ، وكان يحس مطالب الشعب لأنه ابن الشعب وربيبه • يستمع باختلاطه به لشكواه وبلواه • وما فتيء منذ تطوع في خدمته ينطلق بما يفرج عنه

(١) عبقت الرائحة بالشيء عبقاً وعباقة وعباقية : لزقت به •

كربته ، ضارباً على الوتر الحساس ، داعياً الأمة الى النهوض ، شاحذا منها العزائم • يريدها على اطراح سفساف الأمور ، والتذرع بما يبقي على ثروتها ، ويعيد اليها مجدها لتستوي شعباً فاضلا في المدينة الفاضلة • يكثر أبداً من هذه المعاني الشريفة • واتفق أن كانت الأمة المصرية في ذاك الدور تحاول بلوغ هدفها الأسمى في نشدان الاستقلال والخروج على الاحتلال • وكانت الحرية التي يتمتع بها وبني قومه من دواعي تصريحه بما كان يصرح به • ومما قال في ذلك (١) :

كاشف الكهرباء ليتك تغني
باختراع يروض منا الطباعا
آلة تسحق التواكل في الشر
ق وتلقي عن الرياء القناعا
قد مللنا وقوفنا فيه نبكي
حسباً زائلا ومجداً مضاعا(٢)
ليت شعري متى تنازع مصر
غيرها المجد في الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحـ
ياء فخراً في الخافقين مذاعا

ويقول يمدح الشاميين بتنقلهم في الأرض لطلب الرزق (٣) :

(١) من قصيدة في ديوانه ج ١/ ٢٥٩ عنوانها : الى رجال الدنيا الجديدة ، ومطلعها :

أي رجال الدنيا الجديدة مدوا   لرجال الدنيا القديمة باعا

(٢) بعده في الديوان :

وسئمنا مقالهم كان زيد   عبقرياً وكان عمرو شجاعا

(٣) من قصيدة في ديوانه ٣١٦/١ عنوانها:غلاء الأسعار، ومطلعها:

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ   ـش ولم تحسنوا علينا القياما

أيهـا المصلحون أصلحتـم الأر
ض وبتـم عن النفـوس نيامـا

أصلحـوا أنفسـاً أضرّبها الفقـ
ـر وأحيـا بموتهـا الآثامـا

ليس في طوقهـا الرحيـل ولا الجـ
ـد ولا أن تواصـل الإقدامـا

تؤثر الموت في ربـا النيل جوعـاً
وترى العـار أن تعـاف المُقامـا

ورجـال الشـآم في كـرة الأر
ض يبـارون في المسـير الغمامـا

ركبوا البحر ، جاوزوا القطب ،فاقوا
موقع النيرين ، خاضوا الظلامـا

يمتطون الخطـوب في طلـب العيـ
ـش ويبرون للنضـال السهامـا

وبنـو مصر في حمى النيل صرعى
يرقبون القضـاء عامـاً فعامـا

أيها النيل كيف تُمسي عطاشـاً
في بـلاد روّيت فيها الأنامـا

يرد الواغـل الغـريب فيـروى
وبَنوكَ الكرامُ تشكو الأوامـا(١)

إن ليـن الطبـاع أورثنـا الـذ
ل وأغرى بنا الجُنَاة الطّغاما (٢)

---

(١) الواغل: الذي يدخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون دعوى، والأوام : شدة العطش .
(٢) الطغام : أراذل الناس .

إنْ طيب المُنــاخ جــر علينــا
في سبيل الحياة ذاك الزّحامــا

ويقــول (١) :

متى أرى النيــل لا تحلو موارده
لغيــر مُرْتَهِــب لله مرتقبِ
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت
جادت جفوني لها باللؤلؤ الــرطب
كأننــي عند ذكري مــا ألمّ بهــا
قَرْمٌ تردد بين الموت والهربِ (٢)
إذا نطقتُ فقــاعُ السجن مُتّكأً
وإن سكنتُ فإن النفس لم تطبِ
والقوم فيمصر كالإسفنج قد ظفرت
بالماء لم يتركــوا ضرعــاً لمحتلب

وقوله وقد أبدع كل الإبداع (٣) :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهــذبت
حواشيه حتى بات ظلمــاً مُنَظّما
تمنُّ علينا اليوم أَنْ أَخْصَبَ الثرى
وأن أصبح المصري حراً مُنَعّما

---

(١) من قصيدة في ديوانه ج ١١٦/٢ عنوانها (الإخفاق بعد الكد)، مطلعها :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب   وطيك العمر بين الوخد والخبب

(٢) القرم : السيد العظيم والشجاع البطل .

(٣) مطلع قصيدة في ديوانــه ج٢/٢٥ عنوانها (شكوى مصر مــن الاحتلال) وهي من ثمانية أبيات

أعد عهد إسماعيل جَلْداً وسُخْرةً
فإني رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذُلّنا
فأغليتم طيناً وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها
فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما

وقال في الامتيازات الأجنبية[1] :

سكتُ فاصغروا أدبي ... وقلتُ فأكبروا أَرَبي[2]
وما أرجوه من بلد ... به ضاق الرجاء وبي
وهل في مصر مفخرة ... سوى الألقاب والرتبِ
وذي إرثٍ يكاثرنا ... بمال غير مكتسبِ
وفي الرومي موعظة ... لشعب جدّ في اللعبِ
يُقتّلنا بلا قَوَدٍ ... ولا دِيَةٍ ولا رَهَبِ[3]
ويمشي نحو رايته ... فتحميه من العطب

وقد نقص من الديوان في الطبعة الجديدة فيما أذكر بيتان وهما[4] :

وهذا بائع الزيتو ... ن والسردين في العلب
يراكم دونه شَرَفاً ... وأنتم بضعة العرب

---

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ج٢/١١٠ عنوانها (الامتيازات الاجنبية) وهي من ثمانية عشر بيتا .
(٢) الأرب : العقل .
(٣) القود : القصاص .
(٤) لم أجدهما في ديوانه طبعة دار الكتب .

ويلاحظ أن حافظاً إذا مدح الغربيين أو تبرّم بهم ، واذا مدح الدُخَلاء من الشاميين والأروام وغيرهم ، أو عرّض بهم فإنما يتوخى حث المصريين على النهوض وتطهير اخلاقهم وعاداتهم . وقد زاد اعجابه بالشاميين فذكرهم كثيرا في شعره . صحب طبقة مُثلى منهم التجؤوا الى مصر أمثال البستاني والعظم والجزائري وشميل والكواكبي وصروف وعمون ورضا ومطران وبركات ، وصحب أمثالهم من علماء المصريين وأدبائهم أمثال قاسم أمين،حسن عاصم،احمد فتحي زغلول،احمد زكي، عبد العزيز شاويش،محمد المهدي،حفني ناصف،أحمد ابراهيم ، عبد الوهاب النجار،علي أبو الفتوح،أحمد الاسكندري،عثمان غالب،محمد هلال ، توفيق البكري ، مصطفى المنفلوطي ، ابراهيم المويلحي ، محمد بيرم ، علي يوسف ، مصطفى كامل ، محمد فريد ، وأضرابهم من رجال مصر اختارهم أو اختاروه،دع الأمراء والأعيان ممن كانوا يعشقون قربه ويتلذذون بعشرته أمثال آل بدر ، وواسطة العقد الأستاذ محمد عبده، وكان منزله في عين شمس مجمع العلماء والأدباء يضم اليه أصناف الرجال وألوان أرباب القرائح والعبقرية .

حافظ في الواقع وليد النهضة المصرية ، حببه الى القلوب جرأته، فكان لسانها العذب وبلبلها الصداح . تمثلت الديمقراطية والشعبية في شعره ، فكان شاعر الاجتماع وشاعر الوطن والوطنية في مصر ، يهز أوتار القلوب بشعره ، ويفرّج بأنّاته ما حزّ في نفس أمته ، ويرجّع بنغماته ما تستطيب منه ترداده . ليس في كلامه تشاؤم كثير ، بل فيه دعوة شديدة الى الأخذ بأسباب الإصلاح ، وصرخة في وجه الظلم ، وتنفير من القاسطين ، واهابة الى التآلف والتعاطف . وشعره ان مدح أو رثى أو هجا أو تغزل أو تحزب أو تعتّب يرمي الى مقاصد نبيلة ،

ويحمل اجمل المعاني • سار به مع حاجات العصر ، فأثر به هذا التأثير القليل النظير ، واحتظى به هذه الحظوة •

لم يرزق حافظ حظاً كبيراً من صناعة النثر ، حاول أن يشـارك فيه فكتب « ليالي سطيح » وعرّب « البؤساء » لهوغو فكان منثوره جيد الألفاظ خاليا من روعة شعره •

كان في نثره نحاتاً ماهراً ، وما كان بناء مهندساً ، فما وفق الى الصنعة المتوخاة منه ، ولا نم عن تفوق في تذوق الجمال •

والبلاغة في الأسلوب والتركيب لا في اختيار جيد الألفاظ فقط وصعب على كل انسان أن يبرز في الصناعتين : صناعة الشعر وصناعة النثر •

ولئن عصى بيان حافـظ على التبريز في النثر فقـد كان لسانـه مطواعا له اذا حدّث وحاضر •

كان سحر المجالس اذا سمعته يتحدث ويتنادر ، وراوية العـرب اذا أخذ يعود بك الى الماضي لا يذكر لك شيئا من محفوظه • واسم حافظ لفظ وافق مسماه فهو يحفظ من شعر القدماء ، وأقاصيصهم ومجالسهم ما يبهرك حقاً ، ويدخل السرور الى نفسك • كان بحضور ذهنه وغريب بديهته على ما يندر في الأدباء مثله،ولا أذكر أن ادهشتني حافظة أديب كما أدهشتني حافظة حافظ ، ولا أخذ بمجامع قلبي حديث شاعر كحديثه • وقل أن رأيت مرحاً كمرحه وتنادراً كتنادره • يورد في الجلسة القديم من قصصه بالعبارات التي رويت بها ويردفها بمـا يوائمها من حاضر الوقت • أما أجوبته وعبثه فلا أعلم كثيرين في الأدباء

يستطيعون أن يشقوا غباره . ولذلك كان أهل مصر على اختلاف الطبقات مولعين بأدبه ، مفتونين بحديثه فتنتهم بشعره وزيادة . والدعابة وحب المرح وخفة الروح غالبة على طباع المصريين ، ومن أجدر منهم بتقدير من نبغ فيهم على هذه الصفات ؟

كان حافظ يتبسط في أحاديثه مع جلسائه ، يلقي على مسامعهم كل صنف في ساعة ما تجمد حافظة غيره عن ايراده في أيام ، وقد قارن زكي مبارك بين حافظ في حديثه وشوقي في صمته فقال[1] : « ولو أن شاعرنا حافظاً [2] كان يكتب كماكان يتكلم لكان سحره في اللغة العربية شبيها بسحر أناطول فرانس في في اللغة الفرنسية .

وبراعة حافظ في الحديث هي التي قضت بأن ينتصر عليه غريمه شوقي ... كان حافظ يتحدث الى أن تنفد قواه فلا تبقى له قدرة على الغناء . وكان شوقي يصمت ويصمت ليستجم فتبقى له القدرة على السجع والهتاف . والقوى الانسانية لها حدود ، والا فكيف جاز أن يكون المدرسون أعجز الناس عن الشعر والخطابة والتأليف ؟ ألا يرجع ذلك الى أنهم يضيعون نشاطهم في الدرس فلا تبقى لهم عافية يساورون فيها تلك المواهب الأدبية .

أراد حافظ أن يمتع أهل زمانه فأضاعوه . كان زينة الأندية والمحافل ، وكان حديثه أشهى من وعد الحبيب بعد طول الجفاء » .

إن طبع حافظ أن يخلص فيحبه أصحابه فاذا فجع بأحدهم رثاهم وبكاهم ، والى هذا الخلق إشارة في آخر قصيدة حيّا فيها الشام

(١) مجلة الرسالة السنة التاسعة،العدد ٤٤٣ ص ١٥٣٤ (المؤلف)
(٢) الأصل : حافظ .

وأهله قــال (١) :

ولى الشــباب وجازتني فتوّتــه
وهَدَّم السُّقْمُ بعدالسُّقْم أركاني
وقد وقفت على الستين أسألهــا
أسوّفت أم أعدّت حُرَّ أكفــاني
شــاهدت مصرع أترابي فبشرني
بضجعةٍ عندهــا روحي وريحاني
كم من قريبٍ نأى عني فأوجعنــي
وكــم عزيز مضى قبلي فأبكاني
من كان يسأل عن قومــي فإنهــمُ
ولّوا سراعاً وخلّوا ذلك الواني(٢)
إني مللت وقوفي كــلَّ آونــةٍ
أبكي وأنظِــم أحزانــاً بأحزانِ
إذا تصفحتَ ديــواني لتقــرأني
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

وحقيقة إن الرثاء يكثــر في ديوان حافظ لانه وفيّ لاصحابه ، ولذلك قال شوقي في رثائه (٣) :

قد كنت أوثــر أن تقول رثائي
يا منصف الموتــى من الأحيــاء

(١) من قصيدة في ديوانه ج١/١٣٣ عنوانها (تحية الشام)مطلعها:
حيا بكور الحيا ارباع لبنان وطالع اليمن من بالشام حياني
(٢) الواني : المتأخر عنهم .
(٣) مطلع قصيدة شوقي في رثاء حافظ (الشوقيات ٣/٣٢)

عرف حافظ بالوفاء والمروءة والاريحية إلا أنه كان ملولا لاثبات له .

تزوج مرة فما دام زواجه أكثر من أربعة أشهر اضطر بعدها الى الطلاق ، ولم يتزوج بعدها . وما كان يحرص على الكتب كما أنه لا يحرص على المال . ولذلك لم يشهدوا في بيته كتابا تاما بعد وفاته ولا ورقة ولا دواة ولا قلماً ، كأن صدره خزانة كتبه ، وحافظته قمطره . قرأ دواوين العرب ، وأولع خاصة بالأغاني والعقد الفريد وكليلة ودمنة، والمكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب. ولكثرة ماتعاورها بالقراءة استظهر أكثرها .

وكان يتمثل ما يقرأ ويهضمه ، ولم أعرف راوية يختار مروياته مثله . وكان يعاور شعره بالتصفية والتزويق ، ويقرؤه على أصحابه المرة بعد المرة قبل نشره ليعرف مبلغ رنته في آذانهم ، ومدى وقوعه من ألبابهم ، وليقوموا له إعوجاجاً ان كان ، ويوردوا عليه نقداً لغوياً أو بيانيا فيستفيد من أذواق من يقرأ عليهم ومن علمهم وأدبهم .

قلنا إنه كان غير حريص على المال ، ما حدثته نفسه بجمعه واستثماره ، وقد كان طول حياته كاسباً واهباً ، يسخو سخاء غني كريم ، وهو في الواقع مقل ، وقد يكون أحيانا مدقعا مقترا عليه في الرزق . وربما أعطى طالب نواله كل ما يملك خصوصاً اذا كان صاحبه من المتأدبين أو المتشاعرين . كان يسكن حلوان فركب القطار ذات يوم الى القاهرة ، وما ان نزل حتى استجداه أحدهم ، وكان لا يملك أكثر من ريالين فأعطاه الواحد وقال في نفسه : أبتاع بالآخر اللفافة (هافانا) وهي بنصف ريال وأجلس في القهوة ، وما كاد يعطي ما عنده حتى رآه أحد عمال البلاط متلهفا وقال له إنه يفتش عليه

منذ أيام ، وأنه يحمل له مئة جنيه ، وله من ذلك أشياء كثيرة لكم أن تجعلوها في باب التوكل ، أو باب المصادفات ، أو في أي باب إن أردتم •

وكما كان حافظ يسخو على البائسين كان لا يضن على نفسه بما يمتعها بمباهج الحياة ، وينعم بأطيب المأكول والمشروب ، ويدخن أثمن اللفائف ، وينفق إنفاق المرفهين المترفين • فهو مثال من بسطة اليد على نفسه وعلى طلاب صدقاته ، وله في ذلك قصص يطول المقام بسردها •

طبع كتابه « البؤساء » فربح منه نحو ألفي جنيه أنفقها في الشهر الذي جاءته فيه •

هذه بعض صفات حافظ ، وهذا أدبه • عاش كالمفؤود الموتور الى آخر أيام شبابه ، وما تهنأ الحياة ولا عرف سعادة البيوت وعطف البنين • عاش للمجتمع ، وشقي ليسعد الناس • قال لي مرة : أنا إذا مت لا تبكيني عين ، لأني لا أخلف ورائي لا أماً ولا أباً ولا زوجاً ولا ولداً فأجبته : أنت إذا مت يا حافظ تبكي عليك عيون العرب وكفى بهم أسرة كبيرة • وكذلك كان •

بلغت المدائح والتهاني في ديوان حافظ ١٥٨ صفحة ، والأهاجي ثلاث صفحات فقط ، والإخوانيات ٤٢ ، والوصف ٣٤ ، والخمريات ٧ ، والغزل ٤ ، والاجتماعيات ٦٨ ، والسياسيات ١٠٧ ، والشكوى ١٩ ، والمراثي ١١٨ صفحة • واذا اعتبرنا أن بعض الصفحات شغلت بضعة أسطر منها بالشرح اللغوي،وأكثرها شغل بالهوامش والحواشي يبقى حجم الديوان صغيراً • وقد ضاع بعض شعره لأنه ما كان يعنى بالتقييد في دفاتر أو جزازات ، وبعضه ، وهو قليل ، مما أغفله

الناشرون لبعض الاعتبارات • ولو لا أن أكثر ما نظم الشاعر العظيم نشرته الصحف في ابانه ورجع الناشرون اليه لضاع أيضا مقدار من شعره ، واذا اعتبرنا أن المدائح والأهاجي والوصف والخمريات والغزل والمراثي هي من المعتاد في ديوان كل شاعر عربي لا يبقى لنا الا الاجتماعيات والسياسيات ، وهذه هي قصائده الممتعة التي اشتهر بها في الحقيقة • فمقدار شعر الغزل قليل في شعر حافظ ، وقد أشار الى هذا المعنى عندما قال في تهنئة الأستاذ الإمام بمنصب الإفتاء (١) :

بَلَغْتُكَ لم أَنْسُبْ ولم أتغزلِ
ولمّا أقف بين الهوى والتذللِ
ولمّا أصفْ كأساً ولم أبك منزلاً
ولم أنتحل فخراً ولم أَتَنَبَّلِ
فلم يَبْقِ في قلبي مديحُك موضعاً
تجول به ذكرى حبيب ومنزل

وقوله يخاطب الشعر (٢) :

ضِعْتَ بين النُّهى وبين الخيال
يا حكيم النفوس يا بن المعالي
ضِعْتَ في الشرق بين قوم هجود
لم يُفيقوا وأمةٍ مِكْسالِ
قد أدالوك بين أُنسٍ وكأسٍ
وغرام بظبيةٍ أو غزالِ

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ١/٤ عنوانها (تهنئة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بمنصب الافتاء ١٣١٧ هـ ، ١٨٩٩ م)
(٢) مطلع قصيدة في ديوانه ١/٢٣٧ ، عنوانها (الشعر) في أحد عشر بيتاً •

ونسيبٍ ومِدْحَةٍ وهجاءٍ
ورثاءٍ وفتنةٍ وضلالِ

وحماسٍ أراه في غير شيء
وصغارٍ يجر ذيل اختيالِ

ولو كتب لحافظ احكام الآداب الإفرنجية لتأثر بها وأخذ من روح شعرائها • ولئن كان المديح في الشعر العربي من الأزياء القديمة التي لا يستحسنها أبناء هذا العصر كثيراً ، فإن حافظاً ببراعته لمااضطر الىأن يقول المديحفي أناسقد يستحقونه أو أكثره تلطف وابدى براعته في معالجة هذا الزي البالي وما خلت مع ذلك قصيدة له في هذا المعنى من حكمة أو موعظة أو دعوة الى عمل نافع •

تحمل المدائح في شعر حافظ منازع لطيفة ، وربما كانت المبالغات فيها أقل من أماديح غيره ، لكنها لا يقال عنها الا أنها تزيّد على كل حال • والمبالغة في المديح عرف بهاالعرب منذ أكثر من خمسة عشر قرناً •

قال حافظ في تحيته شوقي لما رجع من منفاه في الأندلس زمن الحرب العامة (١) :

واذكر لنا الحمراءَ كيف رأيتها
والقصرَ ماذا كان من بنيانهِ (٢)

---

(١) من قصيدة في ديوانه ج١/٩٨ عنوانها (تحية احمد شوقي) مطلعها :

ورد الكنانة عبقري زمانه — فتنظري يا مصر سحر بيانه

(٢) يريد قصر الحمراء فيغرناطة والذي كان يقيم فيه سلاطين بني الأحمر ، ولا يزال يعداجمل ما في الاندلس •

ماذا تحطم من ذراه وما الـذي
أبقت صروف الدهـر من أركانه
واهـاً عليـه وأهلـه وبنـاتـه
أيـام كـان النجم من سكانـه
إذ مُلكُ أندلس عريضٌ جاهـُـهُ
وشبابـه المبكيّ في رَيْعـانه
الفتح والعمـران آيـةُ عهـده
وكتائب الأقـدار من أعوانـه
لبست بـه الدنيا لباس حضـارة
قد كـان يخلعه على جيرانـه

الى أن قـال :

ولعـل نكبتَه هنـاك تفـرّق
وتعددٌ قد كـان في تيجانـه
عِبَرٌ رأيناهـا علـى أيامنـا
قد هوّنتْ ما نابـه في آنـه

وقال في مديح شوقي (١) :

قل للذي قد قام يشؤو أحمـداً
خَلِّ القريضَ فلست من فرسانه (٢)
الشعر في أوزانـه لو قسـته
لظلمته بالدرّ في ميزانه

(١) من القصيدة نفسها
(٢) يشؤو : أي يبلغ شأوه وغايته ، وأحمد : هو احمد شوقي.

هذا امرؤ" قد جــاء قبل أوانــه
إن لم يكن قد جاء بعد أوانــه (١)

ومما قال فيه من قصيدة وفيه اشارة الى أن شوقياً (٢) ارستقراطي وأن حافظاً ديمقراطي ، وهو يغبطه أو يحسده على حاله (٣) :

تَمَتَّكَ ظلال" وارفات" وأنعم
ولين عيشٍ في مَصيف ومَرْبَعِ
ومَنْ كان في بيت الملوك ثواؤه
يُنَشَّأْ على النعمى ويمرَحْ ويرتَعِ

وعلى الجملة فإن المديح في شعر حافظ فياض بالحكم والمعاني التي تعــم الناس ولا تخــص الممدوح فقط . خذ لذلك ما قالــه في قصيدته يوم مهرجان شوقي فيما يجب على شوقي أو على الشعراء أن يسيروا عليه (٤) :

وخذ بزمام القوم وانزعْ بأهلــه
إلى المجد والعلياء أكرمَ مَنْزِعِ
وقفنــا على النهــج القويم فإننــا
سلكنــا طريقاً للهدى غير مَهْيَعِ (٥)

(١) المرأد انه إما ان يعد من الفحول القدماء فيكون قد تأخر ، واما ان يعد ممن سيجود بهم الزمان في المستقبل فقد سبق.
(٢) الأصل : شوقي
(٣) من قصيدة في ديوانه ج١/١١٩ عنوانها (تهنئة احمد شوقي) **مطلعها** :
بلابل وادي النيل بالمشرق اسجعي بشعر أمير الدولتين ورجِّعي
(٤) من القصيدة نفسها .
(٥) المهيع : الطريق الواضح البيِّن .

ملأنا طباق الأرض وجـداً ولوعـة
بهندٍ ودعدٍ والرباب وبَوْزَعِ (١)
وأقوامنا في الشرق قد طـال نومهم
وما كـان نوم الشعر بالمتوقـعِ
تغيرت الدنيا وقد كـان أهلهـا
يرون متون العيس أَلْينَ مضجع
وكان بريدُ العِلم عِيراً وأينُقـاً
متى يُعْيها الإيجافُ في البيد تَظْلَعِ (٢)
فأصبح لا يرضى البخارَ مطيـةً
ولا السِّلكَ في تيّارِهِ المتدفعِ

ومن مديحه في تحيته جمعية المرأة الجديدة (٣) :

يقولون نصفُ الناس في الشرق عاطلٌ
نساءٌ قَضَيْن العمرَ في الحُجراتِ
وهذي بنات النيل يعملـن للنُّهى
ويَغْرِسْنَ غرساً داني الثمراتِ
وفي السنة السوداء كنتنَّ قُدوةً
لنا حين سال الموت بالمُهُجاتِ

---

(١) هذه رواية الديوان ، وفي الاصل :
ملأنا طبـاق الأرض مجدا ولوعـة
بهنـد ودعـد والـربـاب ولعلـع
(٢) اينقاً : جمع ناقة ، والإيجاف : الاسراع ، وتظلع : تعرج في مشيتها .
(٣) من قصيدة في ديوانه ج١/١٣١ مطلعها :
إليكن يهدي النيل ألف تحيـة معطرة في أسطر عطـرات

وقفتنَّ في وجه الخميسِ مُدَجَّجاً
وكنتنَّ بالإيمـان معتصمـات [1]
وما هالكن الرمحُ والسيفُ مُصْلَتاً
ولا المدفع الرشاش في الطرقاتِ
تعلَّمَ منكنَّ الرجال فأصبحـوا
على غمرات الموت أهل ثبـاتِ

يشير الى مظاهرة قامت بها السيدات في الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ في مدينة القاهرة .

وفي مطلع قصيدة له يصف ثورتهن قال [2] :

خرج الغواني يَحْتَجِجْـ ـنَ ورحت أرقب جَمْعَهُنَّه

ومن أبدع ما نظمه في الفترة الأخيرة قصيدة كبيرة في وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وصفاته وأعماله ، وأخرى في وصف رحلته الى ايطاليا في سنة ١٩٢٣ ومطلعها من أجمل المطالع يصف فيها سفينته وما لاقته من العواصف ، وما شاهد من مظاهر مدنية ايطاليا ، ثم وصف ما عاور ايطاليا من زلازل وثوران بركان فيزوف فقال [3] :

شمسهم غادة عليها حجـاب فهي شرقية حوتها الخدورُ

---

(١) الخميس : الجيش .
(٢) القصيدة في ديوانه ج٢/٨٧ عنوانها (مظاهرة السيدات) وهي في سبعة عشر بيتاً .
(٣) من قصيدة في ديوانه ج١/٣٢٧ عنوانها (رحلة الى ايطاليا) مطلعها :
عاصف يرتمي وبحر يغير أنا بالله منهما مستجير

شمسنا غادة أبت أن تــوارى		فهي غربية جلاها السفورُ
جَوُّهم في تقلب واختــلاف		غير أن الثبات فيهم وفيرُ
جَوُّنا أثبتُ الجِواء ولكن		ليس فيناعلى الثبات صَبورُ
ولديهم من الفنــون لبابٌ		ولدينا من الفنون قشورُ

الى أن قال بعد وصف ايطاليا وأهلها :

قد وقفنــا عند القــديم وساروا
حيث تسري إلى الكمال البــدورُ
والجواري في النيل من عهد نــوح
لــم يقــدَّر لصنعهــا تغييرُ
وَلِعَ القومُ بالنظــافة حتــى
جُنَّ فيهــا غنيُّهم والفقيــرُ
فإذا سرتُ في الطــريق نهــاراً
خِلْتُ أَني على المرايــا أسيــرُ
أفرطَ القــومُ في النظام وعندي
أن فَرْطَ النظــامِ أسرٌ ونيرُ
ولذيذ الحياة ما كــان فوضــى
ليس فيهــا مســيطر أو أميــر
فإذا ما سألتنــي قلتُ عنهــم
أمــةٌ حــرةٌ وفــردٌ أســيرٌ
ذاكَ رأيي وهل أشــارَكُ فيــه
إنــه قولُ شــاعرٍ لا يَضيرُ

وجود في زلزال مسينا سنة ١٩٠٨ ومما قال بعد أن ذكر ما فعله

الزلزال من الأهوال في الساكن والمساكن[1]

وشـكا الحوت للنسور شكـاةً
رَدَّدَتْها النسورُ للحيتـانِ

أسـرفا في الجسوم نقـرا ونهشاً
ثم باتـا من كِظَّةٍ يشـكوان [2]

لارعـى الله سـاكن القمم الشـمِّ
ولا حـاط ساكن القيعـان

قـد أغـارا على أكفٍ براهـا
بارىء الكائنـات للاتقـانِ

كيف لم يرحمـا أناملهـا الغـ
ـر ولم يَرْفَعا بتلك البنـان

وقال من قصيدة في حرب طرابلس الغرب :[3]

عَجَزَ الطّليـانِ عن أبطالنـا
فأَعَلّوا من ذرارينا الحساما [4]

كبّلوهـم قتّلوهـم مثّلـوا
بذوات الخـدر طاحـوا باليتامى

ذبحوا الأشياخَ والزّمْنى ولم
يرحمـوا طفلاً ولم يبـقوا غلاما [5]

---

(١) قصيدته في هذا الزلزال جاءت في ديوانه ج١/٢١٥ ومطلعها :

نبئـاني إن كنتمـا تعلمـان ... ما دهى الكون ايها الفرقـدان

(٢) الكظة : البطنة ، وما يعتري الانسان من الامتلاء من الطعام

(٣) من قصيدةفيديوانه ج٢/٦٦ عنوانها(حرب طرابلس) مطلعها:

طمـع القى عن الغـرب اللثاما ... فاستفق يا شرق واحذر ان تضاما

(٤) اعلوا : سقوا .

(٥) الزمنى : جمع زمن (بفتح ثم كسر) ذو العاهة .

أحرقوا الدور ، استحلوا كل مـا
حَرَّمَتْ (لاهاي) في العهد احتراما (١)
بارك المطـران في أعمالهـم
فسـلوه بارك القـوم عـلامَ
أبهـذا جـاءهم إنجيلهـم
آمـراً يلقي على الأرض سلامـا

ومن بدائعه يفضل الجاهلية على هذه المدنية التي دعت الـى اهلاك الإنسان بأساليب القتال التي لم تعرفها الأمم السالفة (٢) .

لا هُمَّ إن الغرب أصبح شُعْلةً
من هولهـا أم الصواعق تَفْرُقُ
العـلم يذكي نارهـا وتثيرهـا
مدنيةٌ خرقـاءُ لا تترفّـقُ
ولقد حَسِبْتُ العلمَ فينا نعمةً
تأسو الضعيفَ ورحمةً تتدفقُ
فـإذا بنعمتـه بـلاءٌ مرهِقٌ
وإذا برحمتـه قضاءٌ مطبقُ
عجز الرماة عن الرماة فأرسـلوا
كِسَفاً يمـوج بها دخانٌ يخفـقُ

---

(١) اشارة الى معاهدة لاهاي التي عقدت بين الدول سنة ١٨٩٩ للقضاء على أسباب الحرب بتقليل السلاح ، وحل الخلافات بالطرق السلمية .

(٢) وردت هـذه القصيدة في ديوانـه ج٢/٨٦ بعنوان (الحرب العظمى) .

تتعـوذ الآفـاق منـه وتنثنـي
عنه الرياح وينقيه الفيلـقُ (١)
وتنابلـوا بالكيميـاء فأسـرفوا
وتساجلوا بالكهربـاء فأغرقوا
وتنازلوا في الجو حين بـدا لهم
أن البسيطة عن مداهـم أضيـق
نَفِسوا على الحيتان واسعَ مُلكها
فتفننوا في سـلبه وتأنقـوا (٢)
ملكوا مسابحهـا عليهـا بعدمـا
غلبوا النسـور على الجواء وحلقوا
إن كان عهـد العلم هـذا شأنه
فينـا فعهدُ الجاهلية أَرْفَـقُ

وقد يضع حافظ في قصائده قواعد في بعض المسائل الاجتماعية المهمة • قال من قصيدة في احدى مدارس البنات في القطر (٣) :

الأمُّ مدرسـةٌ إذا أَعْدَدْتهـا
أَعْدَدْتَ شعباً طَيِّبَ الأَعراقِ
الأمُّ روضٌ إن تعهـده الحَيَـا
بالـرِّي أورقَ أيَّمـا إيـراقِ

(١) الفيلق : الجيش العظيم •
(٢) نفس عليه الشيء : حسده عليه •
(٣) الأبيات من قصيدة في ديوانـه ج١/٢٧٩ بعنوان (مدرسة البنات ببورسعيد) مطلعها :
كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق

الأم أستاذ الأساتذة الأُلى
شغلت مآثِرُهم مدى الآفاقِ
أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً
بين الرجال يَجُلْنَ في الأسواقِ
يَدْرُجْنَ حيثُ أَرَدْن لا مِنْ وازعٍ
يحذرنْ رِقْبَتَه ولا من واقي
يفعلن أفعال الرجال لَواهياً
عن واجباتِ نواعسِ الأحداقِ
في دورهنَّ شؤونُهن كثيرةٌ
كشؤون رب السيف والمِزراق[1]
كلا ولا أدعوكُمُ أن تسرفوا
في الحَجْب والتضييق والإرهاقِ
ليست نساؤكُمُ حُلىً وجواهراً
خوف الضياع تُصانُ في الأحقاقِ
ليستْ نساؤكُمُ أثاثاً يُقتنى
في الدور بين مَخادع وِطباقِ
تتشكل الأزمان في أدوارها
دُوَلاً وهن على الجحود بواقي
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشر في التقييد والإطلاقِ

ورأيه في السفور والحجاب متوسط ، وهو أشبه بالحجاب الشرعي • خاطب قاسم أمين[2] صاحب « تحرير المرأة » بقوله [3] :

(١) المزراق : الرمح .
(٢) انظر ترجمة له في هذا الكتاب
(٣) لم أجد هذه الأبيات في ديوانه .

أقاسمُ ان القوم ماتت قلوبهــم
ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهــم
فمن ذا تناديــه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم
لوضع نقاب لاستقامت رغائبــه
ولو خطرت في مصر حــواء أمنــا
يلــوح محياها لنــا ونراقبــه
وفي يدهــا العذراء يسفر وجههــا
تصــافح منا من ترى وتخاطبــه
وخلفهما موســى وعيسى وأحمد
وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا : رفــع النقــاب محلل
لقلنا : نعــم حق ولكن نجانبــه

وكثيرا ما تقرأ التشاؤم والأنين والبؤس في شعر حافظ أكثر مما كنت تقرؤه على وجهه ، أو تسمعه من فمه في مجالسه • ومــن ذلك قــولــه (١) :

سعيت وكم سعــى قبلي أديب
فآب بخيبــة بعــد اغتــرابِ
وما أعذرتُ حتى كان فعلــي
دمــاً ووسادتي وجــهَ الترابِ

(١) من قصيدة في ديوانه ج٢/١٢١(أرسلها من السودان الــى بعض أصدقائه) ومطلعها :
رميت بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب

وحتـــى صيّـرتني الشمس عبـــداً
صبيغاً بعدما دَبغَت إهـــابي
وحتـــى قلـّم الإمـــلاق ظفـــري
وحتى حطـّــم المقـــدار نابـــي

وقال في الشكوى أيضاً يصف سعيه المتواصل وبؤسه واباءه[1]:

سعيتُ إلى أن كِدْتُ أنتعلُ الدّما
وعُدتُ وما أعقبتُ إلا التندما
لحى الله عـهــد القاسطين الذي به
تهـــدمَ من بنيانـنـــا مـــا تهـــدما
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهـــم
فلا تـــك مصرباً ولا تك مسلما

الى آخر تلك القصيدة البديعة .

ومما يتصرف الى هذا المعنى قوله [2] :

إن قام منا منـــادٍ قال قائلهـــم
لا تصخبوا فهلاك الشعب في الصخب
أو نابنـــا حادث نرجو إزالتـــه
قال استكينوا وخَلـّوا سَوْرَةَ الغضبِ [3]

---

(١) مطلع قصيدة في ديوانه ج٢/١١٤ بعنوان (سعي بلا جدوى).

(٢) من قصيدة في ديوانه ج١/٢٦٥ بعنوان (الحث على تعضيد مشروع الجامعة) مطلعها :

إن كنتم تبذلون المال عن رَهَبٍ فنحن ندعوكم للبذل عن رَغَبِ

(٣) سورة الغضب : حدّته .

فما سمونــا إلى نجدٍ نحاولــه
إلاّ هبطنا الى غودٍ من العَطَبِ [1]
يا مصر هل بعد هذا اليأس مُتَّسَعٌ
يجري الرجاء به في كل مُضْطَرَبِ
لا نحن موتى ولا الأحيــاء تشبهنا
كأننا فيك لم نشهد ولم نَغِبِ

وقال في ختام قصيدته التي يخاطب بها سعد زغلول [2] :

أنــا لا ألــوم المستشــا ... ر إذا تعلــل أو تصــدى
فسبيلـــه أن يســتبـ ... ـدّ وشأننــا أن نســتعدا
هـــي ســنة المحتــل في ... كــل العصور وما تعـدى

وقال في تحية العام الهجري يخاطب نابتة البلاد [3] :

لا تيأسوا أن تستردوا مجدكــم
فلرب مغلوب هــوى ثم ارتقى
مــدت لــه الآمال من أفلاكهــا
خيط الرجــاء إلــى العـُلا فتسلقا
فتجشموا للمجــد كل عظيمــة
إني رأيت المجــد صعب المرتقــى

---

(١) العطب : الهلاك .
(٢) من قصيدة في ديوانه ج١/٢٦٤ بعنوان (الى ناظر المعارف سعد زغلول) مطلعها :
مالي أرى بحر السيا ... سة لا يني جزرا ومدا
(٣) من قصيدة في ديوانه ج٢/٥٨ مطلعها :
لي فيك حين بدا سناك وأشرقا ... أمــلٌ سألــتُ الله أن يتحققــا

من رام وصل الشمس حاك خيوطها
سبباً إلى آماله وتعلقا
عار" على ابن النيل سبّاقِ الورى
مهما تقلب دهره أن يُسبقا
أو كلما قالوا تجمّعَ شملهم
لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا

وقال في قصيدة الحرب اليابانية الروسية (١) :

تسوؤنا الحرب وإن أصبحت
تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقي حين إذا
ما ذكر الأحياء لا يُذْكَرُ
ومر بالشرق زمان" وما
يمر بالبال ولا يخطُرُ
حتى أعاد الصُّفْر أيامه
فانتصف الأسود والأسمر (٢)

وقال من قصيدة (٣) :

مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى
ففي مصر أيقاظ على مصر تسهرُ

(١) هذه الأبيات هي آخر ابيات قصيدة وردت في ديوانه ج٢/١٠ مطلعها :
أساحة للحرب أم محشر ومورد الموت أم الكوثر
(٢) بعده : فرحمة الله على أمة يروي لها التاريخ ما يؤثر
(٣) من قصيدة في ديوانه ج٢/٣٧ (تحية العام الهجري) مطلعها :
أطل علي الأكوان والخلق تنظر هلال رآه المسلمون فكبروا

وقد كان « مُرْفينُ » الدَهاء مخدِّراً
فأصبح في أعصابنـا يتخـدَّرُ
شعرنا بحاجـات الحياة فإن ونت
عزائمنا عن نيلهـا كيف نُعْذَرُ
شَعَرنا وأحسسنا وباتت نفوسنا
من العيش إلا في ذرى العز تسخر
إذا الله أحيـا أمـة لن يردهـا
إلـى الموت قهّار ولا متجبـرُ

وقال من قصيدة باسم آمالنا وآلامنا خاطب بها الأمير حسين كامل قبل أن يلي سلطنة مصر (١)

أيجمـل بالأديـب أديبِ مصرٍ
بكـاءُ الطفل أرهقه الفِطـامُ
ويصرفـه الهوى عن ذكر مصرٍ
ومصرٌ في يـد الباغي تُضـامُ

. . .

لعمركَ ما أَرِقْتُ لغيـر مصرٍ
ومـا لي دونها أملٌ يُرامَ (٢)

(١) من قصيدة في ديوانه ج٢/٥٣ عنوانها (الى البرنس حسين كامل) مطلعها :
لقد نصل الدجى فمتى تنام   اهـمٌ ذاد نومك أم هيـام
ونشرت في ١٩٠٩/١١/١٠ . والسلطان حسين كامل ولد سنة ١٨٥٣ م وتولى عرش مصر سنة ١٩١٤ م وتوفي سنة ١٩١٧ م .
(٢) الأصل : امد يرام .

ذكرتَ جلالها أيامَ كانت
تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ
وأيامَ الزمانُ لها غلامُ
فأقلق مضجعي ما بات فيها
وباتت مصر فيه فهل أُلامُ
أرى شعباً بمدرجة العوادي
تمخَّخ عظمَه داءٌ عُقامُ (١)
إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ
أطلَّ عليه بالبأساء عامُ
سرى داء التواكل فيه حتى
تخطَّفَ رزقَه ذاك الزحامُ
قد استعصى على الحكماء منا
كما استعصى على الطب الجُذامُ
هلاك الفرد منشؤه توانٍ
وموتُ الشعب منشؤه انقسامُ

وبعد فإن شعر حافظ في كل الضروب التي عاناها منه تتجلى فيه منازعه على حساب المناسبات ويبث آراءه من طرف خفي وجلي ، يوجه كلامه الى أمته والى ولاة أمرها والى نفسه ، وينتزع من كل فرصة حكمة . وقال في عيد تأسيس الدولة العثمانية (٢) :

(١) المدرجة : الطريق ، والعوادي : النوائب ، وتمخخ العظم : اذا أخرج مخه ، والداء العقام : الذي لا يرجى البرء منه . وفي الأصل : تمخمخ .

(٢) الأبيات الاخيرة من قصيدة في ديوانه ج٢/١٧ مطلعها :

أيحصي معانيك القريض المهذب على أن صدر الشعر للمدح ارحب

يقولون في هذي الربوع تَعَصُّبٌ
وأي مكانٍ ليس فيه تَعَصُّبُ

فيا شرق إن الغَربَ ان لان أو قسا
ففيه من الصهباء طبع مذوَّبُ

فخف بأسها في الرأس والرأس يصطلي
وخَفْ ضعفها في الكأس والكأس تطربُ

ويا غربُ إن الدهر يطفو بأهله
ويطويه تيار القضاء فيرسبُ

أراك مقر الطامعين كأنما
على كل عرش من عروشك أشْعَبُ

وما أحلى قوله في حادثة دنشواي ، وفيها قتل المحتلون بضعة أشخاص سنة ١٩٠٦ انتقاماً لرجل منهم قتل وهو يصيد الحَمَام في أرضهم [1] .

أكرِمونا بأرضنا حيث كنتم
إنما يكرم الجوادُ الجوادا

إن عشرين حِجَّةً بعد خمسٍ
علمتنا السكون مهما تمادى

أمةُ النيل أَكْبَرَتْ أن تُعادي
مَن رماها وأشفقت أن تُعادي

ليس فيها إلا كلامٌ والا
حسرةٌ بعد حسرةٍ تتهادى

---

(١) الأبيات من قصيدة في ديوانه ٢/ ٢٠ مطلعها :
أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا

وقـال (١) :

بنـاتُ الشعر إن هي أسعدتنـي
شكوت من العميـد إلى العميدِ
ولم أجحـد عوارفـه ولكـن
رأيت المـنّ داعية الجحـودِ
أذيقونـا الرجـاء فقد ظمئنـا
بعهـد المصلحين إلـى الورودِ
ومُنّـوا بالوجود فقد جَهِلنـا
بفضل وجودكم معنى الوجـود
إذا اعلولـى الصيـاح فلا تلمنـا
فإن الناس في جَهْد جهيـدِ
على قـدر الأذى والظلم يعلـو
صيـاح المشفقين من المزيـدِ
جِراحٌ في النفوس نَفَرْنَ نَفْراً
وكنّ قد اندمَلْن على صديـدِ

الى أن التفت وغير لهجته وقال :

إلى من نشتكي عَنَتَ الليـالي
إلى العباس أم عبـد الحميـدِ
ودون حماهما قامت رجـالٌ
تروّعنـا بأصنـاف الوعيـدِ

(١) من قصيدة في ديوانه ج٢/٣١ عنوانها (استقبال غورست) نشرت في ١٠/١٠/١٩٠٧ م ومطلعها :

بنـات الشعر بالنفحات جودي فهـذا يوم شاعرك المجيـد

ثم تذلل وأخذ يطالب بحقوق مصر بقوله :

فما جئنا نطاولكم بجاهٍ
يطولكم ولا ركنٍ شديدِ
ولا بتنا نعاجزُكم بعلمٍ
يَبين به القويُّ من الرشيدِ
ولكنا نطالبكم بحقٍّ
أضرَّ بأهله نقضُ العهودِ

وبعد أن ذكر كرومر بأعماله في سلب حق مصر وانحائه فيتقاريره على أهلها قال :

فليت كروماً قد دام فينا
يُطوِّقُ بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويتحف مصرَ آناً بعد آنٍ
بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لننزعَ هذه الأكفانَ عنا
ونُبعَثَ في العوالم من جديدِ

ثم ألمّ بما كان من مستشار المعارف دنلوب

هَبُوا (دَنْلوبَ) أَرْحَبَكم جَناناً
وأقدَرَكم على نزع الحقودِ
وأعلى من (غِلادَسْتونَ) رأياً
وأحكمَ من فلاسفة الهنود
فإنّا لا نُطيق له جِواراً
وقد أودى بنا أو كاد يُودي

مللْنا طول صحبته وملّت

سوابقُنا من المشي الوئيد

بحمد الله ملككُم كبيرٌ

وأنتم أهل مرحمة وجود

خذوه فأمتِعوا شعباً سوانا

بهذا الفضل والعلم المفيد

إذا استوزرتَ فاستوزِر علينا

فتىً كالفضلِ أو كابن العميد[1]

ثم ذكر غطرسة المحتلين على شيوخ مصر فقال :

شيوخٌ كلما هَمَّت بأمرٍ

زأرتم دونهم زَأْرَ الأُسودِ

لحىً بيضاءُ يوم الرأي هانت

على حُمْر الملابس والخدودِ

أترضى أن يقال وأنت حر

بأنك قَيْنُ هاتيك القيودِ

وهل في دار ندوتكم أناسٌ

بهذا الموت أو هذا الجمود

فنحّ غضاضة التاميز عنا

كفانا سائغ النيل السعيدِ

---

(١) الفضل : هو الفضل بن سهل ، وزير هارون الرشيد ، والملقب بذي الرئاستين لانه كان رب السيف والقلم توفي سنة ٢٠٢ هـ وابن العميد : هو ابو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة علي بن بويه . وكان محط رحال الشعراء والادباء والعلماء ، توفي سنة ٣٦٠ هـ .

أرى أمراءكم ملكوا علينا
بمصر موارد العيش الرغيدِ

وقد ضقنا بهم وأبيكَ ذَرْعاً
وضاق بحملهم ذَرْعُ البريدِ

أكلُّ موظف منكم قديرٌ
على التشريع في ظل العميدِ

فضع حداً لهم وانظر إلينا
إذا أنصفتنا نظر الوَدودِ

وخبّرهم وأنت بنا خبيرٌ
بأن الذل شِنْشِنَةُ العبيدِ (١)

وأن نفوس هذا الخلق تأبى
لغير إلهها ذُلَّ السجودِ

وقال من قصيدة (٢) :

وكم ذا بمصر من المضحكات
كما قال فيها أبو الطيبِ

أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يُمرّ
ونحن من اللهو في ملعبِ

وشعبٌ يفرّ من الصالحات
فرارَ السليم من الأجربِ

---

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة .
(٢) من قصيدة في ديوانه ج١/٢٥٦ مطلعها :
حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي

وقال يخاطب المصريين أيضاً (١) :

ينامون تحت الظلم والأرضُ رحبةٌ
لمن بات يأبى جانب الظلم جانِبُه
فيا ليتَ لي وجدان قومي فأرتضي
حيــاتي ولا أشقى بما أنا طالبُه

وقال مخاطباً مصر (٢) :

حَطَمْتُ اليراعَ فــلا تعجبــي
وعِفْتُ البيــانَ فلا تَعتبي
فما أنت يا مصرُ دار الأديــب
ومــا أنــتِ بالبلــد الطيبِ

وقــال للشرق (٣) :

متى أرى الشرق أدنــاه وأبعــدَهُ
عن مطمع الغرب فيه غيرَ وسنانِ (٤)
تجري المودة في أعراقــه طَلَقــاً
كجرْيَةِ الماء في أثنــاءِ أفنــانِ (٥)

---

(١) في ديوانه ج٢/٤٨ قصيدة من هذا البحر ومن هذا الــروي عنوانها (عيد الدستور العثماني) مطلعها :

أجل هذه اعلامه ومواكبــه هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه

وليس فيه غيرهــا بهذا الروي ، غيــر أني لم اجد هذين البيتين فيها .

(٢) مطلع قصيدة في زواج الشيخ علي يوسف صاحب (المؤيــد) في ديوانه ج١/٢٥٦

(٣)من قصيدة في ديوانه ج١/١٣٣ بعنوان (تحية الشام)مطلعها:

حيا بكور الحيا أرباع لبنان وطالع اليمن من بالشام حيّاني

(٤) الوسنان : النائم

(٥) الاصل : في أفناء أفنان . وهو تصحيف

لا فرق ما بين بُوذيٍّ يعيش به [1]
ومسلمٍ ويهوديٍّ ونصراني
ما بال دنياه لما فاءَ وارفُها
عليه قد أدبرتْ من غير إيذان

ومن أبدع قصائده قصيدة رثى بها نفسه ومطلعها [2] :

آذَنَتْ شمسُ حياتي بمغيبِ
ودنا المَنهلُ يا نفسُ فطيبي

الى أن يقول :

قد وقفنا ستةً نبكي على
عالِمِ المشرقِ في يوم عَصيبِ
وقف الخمسة قبلي فمضَوا
هكذا قبلي وإني عن قريبِ
وردوا الحوض تِباعاً فقضوا
باتفاق في مناياهم عجيبِ

* * *

وهؤلاء الستة الذين وقفوا على قبر الشيخ محمد عبده يؤبنونه هم : الشيخ أحمد أبو خطوة ، ثم حسن عاصم ، ثم حسن عبد الرازق ، ثم قاسم أمين ، ثم حفني ناصف ثم حافظ ابراهيم .

---

(١) الاصل : لا فرق بين بوذي . فينكسر البيت

(٢) ديوانه ج١/٢٠٣ بعنوان (ذكرى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده) وقد انشدها في الحفل الذي اقيم في الجامعة المصرية يوم الثلاثاء ١٩٢٢/٧/١١ وضمنها رثاء المرحوم حفني ناصف

وأتفق أنمات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم في الرثاء فلاحظ ذلك حفني ناصف فبعث الى حافظ بهذه الأبيات [1] :

أتذكر إذ كنـا على القبـر ستةً
نُعدِّدُ آثـار الإمام ونـنـدبُ
وقفنا بترتيبٍ وقد دبَّ بيننـا
ممات على وفـق الرثاء مرتَّبُ
أبو خطـوةٍ ولى وقفّاه عاصـمٌ
وجاء لعبد الرازق الموتُ يطلبُ
فلبى وغابت بعده شمس قاسـمٍ
وعما قليل نجمُ مَحيايَ يغرُبُ
فلا تخش هُلكاً ما حييتُ وإن أمتْ
فمـا أنت إلا خـائف تترقـبُ
فخاطرْ وَقَعْ تحت القطار ولا تخفْ
ونم تحت بيت الوقف وهو مخرَّبُ
وخض لجج الهيجـاءِ أعزل آمنـاً
فإن المنايـا عنك تنأى وتهـربُ

* * *

عرفت [2] حافظ ابراهيم سنـة ١٩٠١ • وكـان كلانا في ميعـة

---

(١) وردت هذه الابيات في المنتخب من أدب العرب ج٢/٥٠٤
(٢) من هنا يبدأ الشطر الـذي القاه المؤلـف في المهرجان الذي أشرت اليه في بداية الترجمة

الشباب نطلب الأدب ونولع به ، ونستمع الى ما يقال في مجالس أهله، وكان حافظ كثيراً ما يختلف الى قهوة (ماتاتيا) في الأزبكية ، يجتمع الى ثلة من العلماء والأدباء ، ومعظمهم من العارفين بأدب اللغة من متخرجي دار العلوم • وكان من كبار علماء تلك الحلبة اذ ذاك عثمان باشا غالب يرأسنا بحكم علمه ومنصبه وسابقته وباشويته •

فكان حافظ يأتي في أكثر الليالي يدخن (الشيشة) ويتلو علينا بعض ما أوحي اليه من الشعر فيطالعه اخوانه بما يَعِنّ لهم من الملاحظات، فاذا لم يكن لديه شيء جديد يقص علينا من قصص القدماء ما يسلينا به ، ويتنادر الينا ونتنادر اليه . ويرسل بعضنا النفس على سجيتها ، ونحن الى ذلك نعجب بجودة ذاكرته وحافظته وبديهته • ونسأل عنه اذا غاب ، وقد يسأل عن بعضنا اذا تخلف • وهو صَنّاجَة الأدب في ذاك المجلس وبلبله الغِرّيد ، وان كان بعض الحضور يبذونه في دساتير العلم وقوانين الثقافة فهو يبذهم بإلهامه وخياله •

وكانت مصر اذ ذاك تتحفز للوثبة مطالبة باستقلالها ، والنهضة الفكرية والعلمية بدأت(١) تنبعث انبعاثها الحضر ، فطالعها حافظ بنوع من الشعر الاجتماعي والسياسي هز به قلوب بنيها على ما لم يكادوا يعهدون مثله •

ولقد شهدت حافظاً في مجلس أستاذنا الشيخ محمد عبده في عين شمس مرة ، وفي المجلس عظيمان من عظماء مصر : محمود سامي باشا البارودي وبطرس باشا غالي،وقد قبض حافظ على ناصية الكلام في المجلس ، يورد على عادته من محفوظه ما يمزجه بفكاهات الأقدمين

---

(١) الاصل : على أن تنبعث •••

وأفاكيه المحدثين ، ببيان سحر به عقول الحاضرين . ولما أفاض على هذا النحو من معينه العذب ساعة وبعض ساعة التفت الى رب الدار معتذراً عن اكثاره ، فقال له هاشاً باشاً بلهجته العذبة : لا بأس ، زدنا من أدبك يا حافظ .

وعدت الى مصر أواخر سنة خمس وتسعمائة[1] فزادت صلاتي بحافظ ، وكانت أحكمت أواخي الإخاء بيننا سنة كاملة في المرة الأولى ، وأصبح لنا اذ ذاك منتديان : أحدهما قهوتنا القديمة (ماتاتيا) والثانية قهوة (سبلنديدبار) وفي هذه مثوى رجال الصحافة وبعض رجال القضاء والأدب والعلم .

وكان من جملة أصحاب حافظ في (اسبلنديدبار) جماعة من صفوة الشاميين ، ومنهم سليمان البستاني وشبلي شميل وطاهر الجزائري ورفيق العظم وعبد الرحمن الكواكبي وداود بركات ورشيد رضا وكلهم كانوا معجبين بأدب حافظ . وتزداد حلقة حافظ كل يوم سعة لضربه على الوتر الحسّاس في الناس ، ولتوفره على صقل شعره وتجويده وديباجته . وجاور حافظ رفيق العظم في عمارة البابلي بشارع خيرت ، وكنت أساكنهما في ذاك الحي مدة ، فكنا نلقى حافظاً على عزلة من الناس ، ثم أعود فألتقي معه أو هو يجمعني الى عظماء من أهل ذاك الوقت أمثال أحمد فتحي زغلول وحسن عاصم وقاسم أمين .

في هذا الدور كان اجتماعي بحافظ كثيراً . وهو كل يوم يجلي

---

(١) أي ١٩٠٥ م

للناس نبوغه العظيم ، وتفرده بإلقاء دروس على المصريين كان غيره يعرفها وتعوقه أحواله عن أن يبوح بها • وأصبحت أتبسط معه كثيرا في الأحاديث ، وهو يكيلني الصاع صاعين ، الا أنه وقع في نفسه شيء لما كتبت في جريدة « المؤيد » أن الشاعر العراقي معروف الرصافي مبرز في الاجتماعيات يصح أن يدعى شاعر الاجتماع أو الشاعر الاجتماعي • فآخذني حافظ على هذه الفكرة ، وكأنه يحرص على الاستئثار بهذا اللقب ، كما يحرص على لقب « شاعر النيل » • وناقشني لما انتقدت في « المؤيّد » كتابه « ليالي سطيح » بحضرة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وعزّ عليه أن أقول انه شاعر عظيم • فما باله يتطلب دعوى الكتابة وهو لم يخلق لها ؟ وكان صدره في هذا الباب أوسع من صدري ، فحاسنني بعد أن كان يخاشنني ، ولم يعر الصداقة فتور ، ولا حمل في نفسه حقدا علي •

أنشدني ذات يوم قطعة من شعره يشكو فيها بؤسه ، ويعرض لما يُبَذَّر من الأموال ويُتلى من الأدعية على قبر السيد البدوي ،فقلت له : الحقَّ أقول : ان القومَ ربما آذوك ، ومنزلة السيد من بعض النفوس منزلته ، فإياك وهذا التصريح في بلد كثر سواد القبوريين فيه• فأجاب جواب من لا يبالي • ولما طبع ديوانه أثبت الأبيات بنصها ، وكان حذف منها بيتين • وهذه بنصها التام (١) :

أحياؤنا لا يُرزقون بدرهمٍ
وبألف ألفٍ ترزق الأمواتُ

---

(١) وردت هذه القصيدة في ديوانه ج١/٣١٨ عدا البيتين الثاني والثالث •

للسيد البدوي ملك" دخلُه
خمسون ألفاً والحظوظ هباتُ

وأنا أعذّب في الوجود وليس لي
يا أمّ دفر مابه أقتاتُ (١)

من لي بحظّ النائمين بحفرةٍ
قامت على أحجارها الصلواتُ

يسعى الأنام لها ويجري حولها
بحرُ النذور وتُقرأ الآياتُ

ويقال هذا القطب باب المصطفى
ووسيلة تقضى بها الحاجاتُ

وكان ـ رحمه الله ـ اذا أصاب النكتة آثرها مهما كلفته من وجع الرأس ، فقد خاطب الاستاذ الإمام (٢) لما كانت تُشدّ الرحال الى طنطا لزيارة السيد البدوي بقوله (٣) :

إمامَ الهدى اني أرى القوم أبدعوا
لهم بِدَعاً عنها الشريعة تعزِفُ

رأوا في قبور الميتين حياتَهم
فقاموا الى تلك القبور وطوّفوا

---

(١) أم دفر : الداهية .
(٢) أي الشيخ محمد عبده
(٣) من قصيدة في ديوانه ج١/٢١ مطلعها :
صدفت عن الاهواء والحر يصدف
وانصفت من نفسي وذو اللب ينصف

وباتـــوا عليهـــا جاثمين كأنهـــم
علـــى صُنُمٍ في الجاهلية عُكّفُ

كنت أشعر أن حافظاً شاعر بكل ما في الشاعرية من معنى ، وأعرف أنه كاسب واهب . وكان يعاتبني على شدة تعلقي بأحد العلماء الموقرين ويقول لي : « مالك وله وهو شحيح ؟ » فأقول له : « ان صداقتنا بنيت على أني غير محتاج الى تناول شيء من ماله . » وكان في حكمه على صديقي مخطئاً ، لأنه كان للرجل صدقات في السر عظيمة لـــو أراد اعلانها لقَلّ له لقب « المحسن الكبير » الذي يعطى لمن يعطي التافه ، ويريد أن يشار اليه في الصحف وينوه به في المجالس .

شهدت حافظا مرات يعطي ما معه أو أكثر ما معه لطالب نوالـــه ولا سيما اذا كان من المتأدبين . والمتأدبون في عهده كانوا مفلوكين مغمورين (١) . وكانوا حقا أصحاب الصناعة المجفوّة . ومن جملة من كان يعطف عليهم عطفا خاصا الشاعر امام العبد (٢) وهو من جماعة قهوة « ماتاتيا » أيضا . وحدث مرة أن غضب امام على حافظ ، وكان يبره

(١) المفلوك : الفقير .

(٢) كتب المؤلف حاشيـــة بخط يده جعلها ملحقة بما نشر في جريدة الاهرام هذا نصها :

قيل إن امام العبد كان جالسا مع حافظ ابراهيم ذات عشية، فطلع عليهما نفر من الشبان فسألهم صاحبـــي : من ايـــن اقبلوا قالوا : من حفلة المدرسة التحضيرية حيث سمعنا اماما ينشـــد قصيدة له لم ينظم الشعراء قط مثلها بلاغة وسحر بيان . قال : فأنشدوني . قالوا : وكيف لنا بحفظ شعر نسمعه لاول مرة ؟ قال : كيف عرفتم مبلغ القصيدة من البيان ! قالوا : لانه نال من آيات الاستجادة ومن التصفيق ما لم ينل غيره ، وكانت في نفس حافظ ذلك اليوم لامر ما موجدة على امام . فقال: «والله ما =

كثيرا ، فقال في خلال حديثه ـ ونعوذ بالله من غضب السود ـ : ومن هو حافظ حتى يدل علينا بشعره ؟ أنا خلقته وأظهرته للناس . ومضت أيام واضاق امام العبد ، فاجتمع الى حافظ وطلب اليه أن يسلفه عشرة قروش فأجابه حافظ على الفور : « أنا والله يا مولاي كما خلقتني » فضحك إمام وانتبه للنكتة وضحك حافظ ، وهو الذي كان يعطي اماما بالجنيهات فكيف يضنّ بالقروش على شاعر لطالما ظرف وملح في شعره وحديثه وهو من الشعراء المتصعلكين البائسين ؟

وأعلنت الحرب وانقطعت كل صلة بين مصر والشام أربع سنين، فلما عاد التواصل الى مجراه قال لي انه كان يظن أني أقتل لا محالة في الحرب . فقلت له ولحفني بك ناصف : « ان أجلي حال دون ما أراد العدو الجافي ، ولو ساء ذلك أمثالكما » . ولما وضعت الحرب أوزارها ، وأنشأت المجمع العلمي العربي في دمشق ، انتخبه المجمع في جملة أعضائه ، فسُرَّ بذلك . وبعد مدة ألقيت في قاعة المجمع عدة محاضرات حللت بها شعر حافظ وما كان له من الأثرالطيب في الأمة المصرية خاصة والشعوب العربية عامة (١) ، فأبرق لي شاكراً وتهلل لماقلت فيه .. وكان كلامي مشوبا بروح الإخاء وأماراته ظاهرة على ما قلت .

ولما أقيم مهرجان شوقي (٢) قبل نحو عشرة أعوام في هذه

= صفق الناس لبلاغة امام ولا لجودة شعره ، وانما هو عبد « كان لما يعمر اللمبة كويس يقولوا له برافو يا امام » فكيف بهم اذا رأوه ينشد شعرا ؟ » .

(١) اصطلح فيمابعد على أن تكون الأمة اشمل في معناها من الشعب . والامة العربية جامعة للشعوب العربية في كل قطر .

(٢) يقصد مهرجان شوقي الذي بويع فيه بامارة الشعر عام ١٩٢٧ .

(الأوبرا) خرجت وحافظا نستجم وراء هذا المدرج فقال لي مازحاً : « إنك أثبت هذه الليلة أني من بني آدم » فقلت له : « ما كان أولاك بمثل هذا التكريم يا حافظ • » فقال : « اسكت • يسمعك شوقي •» وكان حافظ يحاذر من كل ما يتأذى به شوقي ، وان كان يعرف أنه ربما كان لشوقي يد في ابعاده عن القصر حتى يكون هو المستأثر وحده بنعم عزيز مصر يومئذ •

وجاء حافظ يرافقه صديقه وصديقي خليل مطران الى ربوع الشام فألقى قصيدة في الجامعة الأمريكية في بيروت • ثم سعى له مطران أن يمنح لقب وطني بعلبكي ، وبعلبك مسقط رأس أخينا مطران مشهورة بدبيها ودبسها ! ولما أقام المجمع العلمي العربي بدمشق حفلة تكريم لحافظ ومعه بالطبع دليله البعلبكي وقد فاز بلقب الوطني البعلبكي ! كان حافظ يبكي من تأثره من كلام الخطباء والشعراء فيه ، ويدرك أن مكانته خارج مصر لا تقل عن مكانته داخلها ، وسعيت بأن قُلِّدَ ورفيقه وسام الاستحقاق السوري • فقلت له ونحن نعلقه على صدره: «يحق لحكومة سورية اليوم أن تغتبط بأنها نَيْشَنَتك» • والنيشان هو الوسام أو الرمي الى الهدف بالرصاص ، فضحك وأنسيت ما ورد على لسانه من النكات •

وأحب أدباء دمشق أن يتعرفوا الى حافظ في جلسة خاصة ، فدعوته ودعوتهم كلهم الى داري • وكانت عبارة الدعوة (أرجو حضوركم لتناول قدح من الماء المثلج مع شاعر النيل) فاستبدع حافظ هذه الدعوة • فقلت له : ان الشهر أعظم شهور القيظ آب اللهّاب أي (أغسطس) ولأن يقال : « قدح من الماء المثلج » أغرى للنفس من ان يقال : « قدح شاي » • ولما جلس يشرب الماء المثلج جئته بطبق

فيه حلوى يسمونها « كل واشكر » فوضعته في حجره ، فضحك وقهقه ، وقلت له : « كل هذا واشكر » وقد قال ذاك اليوم في الماء المثلج وما ورد عن العرب في هذا المعنى ، ومعنى الحرارة والبرودة ما لو كتب لجاء بحثا من أمتع أبحاث الأدب • وكانت تلك الزيارة آخر عهدي بحافظ •

ان اعجاب أصدقاء حافظ بشعره، وأنا من أصغرهم ، لا يقل عن اعجابهم بحديثه وجمال روايته ، كان يلعب بالعقول والقلوب حتى ينسي سامعيه كل مهم لهم • وهو جدّ طروب، جِدّ لعوب ، لا يحزن الا لفقد حبيب • ولا تنقبض نفسه الا اذا حلت بأمته كارثة فيكون من طليعة من يواسيها ويعلمها •

نعم ، كان حافظ بهجةَ نفوس أصحابه ، وزين كل نادٍ حلّه ، ما عهد له شبيه ولا نظير في بابه فما رأيت ، وقد أعرب عن هذا المعنى شاعر العرب صديقي خليل مطران يوم رثاه بقوله (١) :

أين زين النَّدِي منهم وهم في الظ
رفِ ما هم وأين أنس النادي

كُلّ حفلٍ شهِدْتهَ كنتَ فيه
قِبلة السامعين والأَشهاد

يأخذون الحديث عنك كما يشـ
تفّ من يرتوي من الوُرّادِ

---

(١) من قصيدة في رثاء حافظ ابراهيم وردت في ديوان خليل مطران ج٤/١٣٥ من (١٧١) بيت مطلعها :

عظم الله فيك أجر الضاد وبنيها من حاضرٍ أو بادي

فـإذا مـا تنـادروا وتنـادر

تَ فأعجب بوَرْي تِلك الزنادِ

فِطَن" تشرح الصدور وما تُؤْ

ذي دُعاباتُها سوى الأَنكادِ

ربما كانت العظات الغوالي

في شظايا ابتسامها الوقّادِ

★ ★ ★

- ١٨ -

حسين والــي *

١٢٨٦ ـ ١٣٥٤ هـ

١٨٦٩ ـ ١٩٣٦ م

ولد ببلدة « ميت أبي علي » الملحقة بمركز الزقازيق من أعمــال الشرقية بمصر ، وكان أبوه من كبار علماء الأزهر • وفي مكتب قريته حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة والحساب ، وحمله والده الــى القاهرة فأدخله مدرسة ابتدائية ، ثم ألحقه بالأزهر طالباً ، و هو يناهز الثالثة عشرة ، فدرس فن التجويد والقراءات ، ثم أخذ بتلقي العلم على مشايخ مشهورين كالشيخ الأشموني والأنبابي والبشري • ونال شهادة العالمية وعين مدرســا في الأزهر ، وقد عرف بالتدقيق وطول الأنــاة في البحث ، وكان الشيخ محمد عبده مفتــي مصر يحيل عليــه استفتاءات مشكلة ترد عليــه من الأقطــار الإسلامية ، فيتحرى فيها الحقيقة والصواب ولما أنشئت مدرسة القضاء الشرعيعهد اليه تدريس علوم الأدب العربي والإنشاء والمنطق وأدب البحث والمناظرة ، وبعض العلوم الشرعية فأبان عن جلادة وتدقيق في مراجعة ما يكتب تلاميذه• وعين منشئاً عاماً للأزهر والمعاهد الدينيــة ، ورئيس الامتحانات في الأزهر ، ثم نصب وكيلا في معهد طنطا • ولشغفه بخدمة اللغة العربية، أراد أن يضع حداً لخطأ بعض العلماء والطلبة ، فكان يكتب بعض

* ترجمته في الاعلام ج٢/٢٥٤ ومعجم المؤلفين ٤/٤ والاعلام الشرقية ١٠٧/٢ وهــو حسين بن حسين بن ابراهيــم بن اسماعيل والي الحسيني •

الكلمات المتداولة على اللوح يبين وجه الصواب فيها ، وينبه على الخطأ ، ويعرض لوحته في فناء المعهد مرتين كل أسبوع ، فاستفاد العلماء والطلبة بهذه الطريقة ، ثم جُعل كاتب السر العام في الأزهر والمعاهد الدينية ، ولما عرضت الحكومة على الأزهر أن تمده بعشرين ألف جنيه في السنة مقابل اشرافها عليه سعى بلباقة بإبطال هذا المقترح حتى يبقى الأزهر على استقلاله •

وفي سنة ١٩٢٤ رشح الفقيد نفسه لعضوية جماعة كبار العلماء ببعض مؤلفاته المطبوعة مثل كتاب « أدب البحث والمناظرة » وكتاب « الاشتقاق » ، و « رسالة التوحيد » و « رسالة الإملاء » وله مؤلفات كثيرة لم تطبع ، وذلك في الفقه والتوحيد وأدب اللغة • وكان شاعرا يجيد الشعر التاريخي ، وينظم القصائد الطوال يرمز أحد مصراعي كل بيت للتاريخ الهجري ، ويرمز الآخر للتاريخ الميلادي • ثم اختير عضوا في مجلس الشيوخ مرتين ، فعمل على مقاومة التبشير وتحفيظ القرآن • وعين عضوا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية منذ أول انشائه سنة ١٩٣٢ ، وهنا صحبته وأعجبت بمناقشاته وجميل بديهته وسعة حافظته ، فكان يأتي بما ورد في مطولات النحو والصرف بألفاظه ، لا يتقدم عليه في هذا الباب أحد ممن كان معنا من كبار الأزهريين ، فظهرت في المجمع اللغوي مواهبه وسعة مادته في اللغة وقواعدها ، وكان رأيه فصل الخطاب في بعض المناقشات • وجمهرة أعضاء المجمع لأول أمره كانت من المصريين الذين درسوا في الأزهر ، ومنهم من درس بعده دراسات أخرى •

كان الشيخ والي صورة جميلة من علماء الأزهر ببيانه وجداله

وحماسته في عرض آرائه على رُصَفائـه [1] • وهو الى ذلك مفطور على ذوق جميل وأدب غض،يجمع الى الأناة إقداماً ، تقرأ في طلعته النبل والشرف ، غيور على اللغة ، داعية لتحبيبها والعناية بها • تحسُ اذا اجتمعت اليه ، سعة المادة وأدب النفس • ولاقتصاره على ما أخذه من مشايخه لم تكتب له شهرة في غير بيئته وبيئته ضيقة لا تتعـدى علم اللسان وعلم الدين •

حدثني أن له تآليف كثيرة في فنون مختلفة لم تطبع ، وله في هذا شركاء بين العلماء والأدباء أهمهم التأليف وما اهتموا لنشرها ، فكأنهم ألفوها لأنفسهم أو ليفرحوا فقط بوضعها في خزائنهم ، او كانوا على سنن من كان قبلهم من المؤلفين قبل أن يظهر الطبع ، فتبقى مؤلفاتهم مخطوطة • ومن ألّف وما طبع تعب بالغرس وما قطف الثمرة • ومـا كان صاحبي هذا ممن يعجزهم نشر تآليفهم في حياتهم ، وبعض رسائل في موضوعات سبق المؤلفون فألفوا فيها لا توازي علم عالم من عيار الشيخ حسين والي • حفظ الدساتير والقواعد ، وكان فيها أقعد من العلماء الذين استخدموا منها ما لا بد منه ، ولكنهم أجروا أقلامهم في ميادين العمل ، فكان الانتفاع من علمهم أضعاف الانتفـاع من علماء النظريات •

★ ★ ★

(١) جمع رصيف ، وهو الأليف المرافق .

- ١٩ -

خليـــل مطران *

١٢٨٨ - ١٣٦٨ هـ

١٨٧١ - ١٩٤٩ م

كتب الي ما نصه : « بعلبك مسقط الرأس وكتاب التهجي . بها كبا بي الجواد وتهشم وجهي ، فكانت الكبوة الأولى في ميـــدان الحياة ولما أناهز السابعة من سني ، زحلة كتّاب القراءة الأولى ومبدأ تنبه الفكر . بيروت المدرسة التي بلغت فيهـــا التأديب ، رضت قلمي فيها بالنثر والشعر ، وأستاذاي قبيل الإجازة هما المرحومان الشيخ خليل ثم الشيخ ابراهيم اليازجي ، وفضلهما وفضل أبيهما من قبل لا يجحـــد على قراء العربيـــة في عهدهم ، وخاصـــة على تلاميذ الكلية البطريركية للروم الكاثوليك .

أخذت من اللغات العربية والفرنسية أصلاً والانكليزية والتركية والاسبانية مشاركة ، واللغة المذكورة آخراً قد نسيتها إلا كلمات قليلة .

وفي بيروت بدأت عملي الصحفي فنشرت مقالات في « لسان

---

* ترجمته في الاعلام ج٢/٣٦٨ ومعجم المؤلفين ج٤/١٢٢ ونشار الافكار : ١٥٨/١ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١٠٣١ تاريخ الشعر العربي الحديث : ١٩٣ ، قدماء ومعاصرون : ٢١٤ الادب العربي المعاصر في مصر : ١٠٣ دراسات في الشعر العربي المعاصر : ١٢٢ ، أشهر مشاهيـــر الشـــرق : ١٣٠ من الادب المعاصر للكيالي : ١٩٨

الحال[1] » وأنا تلميذ ، واستكتبت في صحيفة « الأحوال[2] » من يوم تأسيسها الى أن هاجرت •

الاسكندرية موطني بعد رحلة رحلتها الى أوربة ، وفي ذلك الثغر انتظمني سلك تحرير «الأهرام» • ثم وليت مراسلتها من القاهرة حتى اذا نقلت هي من الاسكندرية الى هذه الحاضرة اضطلعت برياسة تحريرها الى أن أحللت محلي المرحوم داود بركات • وانصرفت الى شؤون أخرى أطلب منها في مجال أوسع رزقي ورزق من اكفل • وفي خلال اشتغالي بهذه الشؤون اصدرت « المجلة المصرية » عامين وبعض الثالث ثم أصدرت « الجوائب المصرية » اليومية أربعة أعوام وبضعة اشهر ، وأنا آنئذ لا أمنح المهمة الصحفية من وقتي الا أقله •

وفي أثناء ما ذكرت من عملي في القاهرة ، كنت أنظم الشعر أو اترسّل في شتى الأغراض حينا بعد حين • ولي ديوان تبلغ جملته الآن أضعاف ما احتواه «ديوان الخليل» [3] ولي من الكتب النثرية «مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام » و « الموجز في علم الاقتصاد » عاونني

---

(١) لسان الحال: جريدة يومية اسسها خليل سركيس، وصدر أول عدد لها في ١٨ تشرين الاول ١٨٧٧ في بيروت ، ولخليل مطران قصيدة في عيدها الخمسين في ديوانه ٣/٢٥٢ مطلعها :

خمسون لا تنسى من الاحوال ... مرت وانت بها لسان الحال

(٢) الاحوال : صحيفة لحبيب يوسف انشأها في القاهرة في ٢٨ /٦/١٩٠٨

(٣) وقف بنفسه على طبع الاجزاء الثلاثة الاول من ديوانه وعلى جانب يسير من الجزء الرابع والاخير ثم توفي فأكمل بعد وفاته

فيه محمد حافظ ابراهيم بك • وقصص اخبارية وتمثيلية مترجمة ، ومجلدات عدة في علم النفس وتقويم الأخلاق ، ومباحث اجتماعية وفنية كثيرة لم تنشر مجاميعها لضيق وقتي دون تمثيلها بالطبع •

وهذه جملة أمري وليست بالشيء الخليق بالتدوين في الكتب ، ولكني أطعت بإيرادها ارشاد الحكيم الذي قال : من سئل فليجب •»

ولخليل عدة تمثيليات نقلها عن الإفرنجية مثل « عطيل » و « هملت » و « مكبث » و « تاجر البندقية » و « السيد » (١) عدا مقالاته •

واشتهر بأنه من شعراء الطبقة الأولى في هذا العصر ، ولم يشتهر بأنه أيضاً من كتاب الدرجة الاولى ، فغطى شعره على نثره وهو فيهما آية وغاية • ومن أحسن ما كان مفطوراً عليه أريحيته ونجدته ، ما قصده قاصد إلا لبّاه وعاونه وواساه من ماله ومن مال غيره • وكان مقامه في مصر مقام سفير انتدبته الشام ليفرج كربة المكروب من أبنائها ، ويهب لإغاثة الملهوف ، فالكرم في طبعه ، والوفاء لا معدى له عن القيام بواجباته ، وكان المصريون يعرفون فيه هذه الصفات ، ومنهم ومن أغنياء السوريين من كانوا يحكمونه في أموالهم لكنه لا يأخذ منها الا للمحاويج بالقدر اللازم ، ولم يبق له كرمه في آخر أيامه ما يستند اليه في معاشه ، فقبل أن يكون كاتم سر النقابة الزراعية وأن يكون مدير الفرقة الوطنية في التمثيل • ذهب من الدنيا كيوم ولدته أمه ، وذهب أيضاً بسيرة زكية وأدب راقٍ أفاد كل من ثقفه ، وقد أدخل الى

(١) التمثيليات بلغة اليوم هي المسرحيات . والاربع الاولى لشيكسبير ، والاخيرة لكورني الفرنسي •

الشعر روحاً جديداً ، سرى اليه من اطلاعه على أدب الغرب اطلاعاً واسعاً عرف كيف ينتفع به .

كان كريم النفس يجود بماله وجاهه،وكان في شعره كريماً أيضاً، اذا جادت قريحة غيره بالمديح بالأبيات جاد هو بالعشرات ، ويمدح من يعرف ، وقد يمدح من لا يعرف الا بالسماع يجاري في ذلك المادحين ولا يمن بما يعطي ويهب . جاد على أصحابه وغير أصحابه من شعره بما لا يكاد يتسع له غير صدر الكريم ، وحلاهم بحلى أدبه ، ومنهم النكرة الذي لا يعرف بأدب ولا علم ولا اشتهر بما يشتهر به الرجال من الصفات التي ترفعهم .

وكما كان سمحاً بمديحه كان سمحاً برثائه ، والرثاء أخو المديح هذا للأحياء وذاك للاموات ، يقول كل ذلك يداعي الوفاء ورقةالشعور أو مجاراة لجمهرة الشعراء في عهده .

نظم وقائع كثيرة بشعره العذب وتوسع في بعضها وأطال ومنها ملحمته الفريدة في حياة نيرون بلغت نحو ثلاثمائة بيت جاء بها على قافية واحدة ممالم يسبق اليه شاعر عربي،وجرى فيها على مثال ملحمة هوميروس ودانتي وملتون . وفي ملحمة صديقي مطران أدب وحكمة وعبرة قدم لها مقدمة منثورة أثبت فيها أنه نابغة في الصناعتين كما أثبت بمحاضرته في الجامعة السورية « في اللغة العربية وخزائنها الأدبية » (١) وربما امتاز نثره عن شعره في الأحايين ، ولكن بالشعر اشتهر ، شهرته به الدواعي والبواعث ، وقديماً كان الشعر أسير من النثر، والشعر يستملحه الخاصة والعامة ، والنثر لا يقدره قدره الا الخاصة .

---

(١) الملحمة ومقدمتها في ديوانه ج٣ ص ٥٠ وما بعدها مطلعها :

ذلك الشعب الذي آتاه نصرا … هو بالسبة من نيرون احرى

ومن أبياتها (١) :

إن رومنا جعلت نيرونها
وهو شر القوم مما كان شرّا
بلغته الملك عفواً فبغى
كل ملك جاء عفواً راح هدرا
يقدرُ الشيءَ مُعاني كسبه
فإذا ما هان كسباً هان خُسرا
عاث فيها مستبداً مسرفاً
دائب الإجرام عَوّاداً مُصرّا
وهو لا يمنحها من باله
غيرهمٍّ الخطر المكسوب قَمْرا (١)
ليس في تشنيعه من بدعة
إن للخامل عند الذكر ثأرا
لا ولا في ظلمه من عجب
إن للظالم عند العدل وِترا
خاب من خال النصارى هلكوا
حين راح الموت فيهم مستحرّا (٣)
فالذي أولده الفتك بهم
أنهم قُلّ غدوا بالقتل كُثْرا
ثم أضحى ملك روما ملكهم
ومولاّهم على الأحبار حبرا

(١) ديوانه ج ٣ ص ٦٩
(٢) الخطر : الشرف، قمرا : باللعب بالقمار .
(٣) مستحرّا : مشتدا .

هكذا الفكرة من أرهقها
كمنت ثم علت وثباً فطفرا

من يلم نيرون إني لائم
أمة لوكهرته[1] ارتد كهرا

أمة لو ناهضته ساعة
لانتهى عنها وشيكاً واثبجرا[2]

فاز بالأولى عليها وله
دونها معذرة التاريخ أخرى

كل قوم خالقو نيرونهم
قيصر قيل له أم قيل كسرى

وقال في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام من قصيدة[3] :

ما أثمرت هجرة الهادي لأمته
من صالحات أعدتها لتخليد

وسودتها على الدنيا بأجمعها
طوال ما خلقت فيها بتسويد

بدا وللشرك أشياع توطده
في كل مسرح باد كل توطيد

والجاهليون لا يرضون خالقهم
إلا كعبد لهم في شكل معبود

---

(١) كهرته : عبست له وانتهرته .
(٢) اثبجر : ارتدع وتراجع .
(٣) ديوانه ج٢ ص ٣٩ وما بعدها ومطلعها :
هل الهلال فحيوا طالع العيد   حيوا البشير بتحقيق المواعيد

مؤلهــون عليهم من صناعتهــم
بعضَ المعــادن أو بعضَ الجلاميد
مستكبرون أباة الضيم غطارفة
ثقــالُ بطش لدانٌ كالأماليد (١)
لا ينزل الرأي منهم في تفرقهــم
إلا منــازل تشتيــتٍ وتبديــد
ولا يَضم دعــاءٌ من أو ابــدهم
إلا كمــا صيح في عُفْرٍ عباديد (٢)
ولا يطيقون حكمــاً غير ما عقدوا
لدى لواءٍ على الأهواء معقــود
بأي حلــم مبيد الجهل عن ثقــةٍ
وأي عزم مذل القــادة الصيــد
أعــاد ذاك الفتــى الأميُّ أمتــه
شملاً جميعــاً من الغُر الأماجيد
لتلك تاليــة الفرقان في عجــب
بل آيــة الله إذ يُبْغَى بتأكيــد
صعبان راضهما : توحيد معشرهم
وأخْذُهُمْ بعد إشراك بتوحيــد
وزاد في الأرض تمهيداً لدعوتــه
بعهــده للمســيحيين والهــود
وبدئــه الحكم بالشورى يُتم به
ما شاءه الله عن عدلٍ وعن جود

---

(١) لدان : جمع لدْن وهو اللين ،والاماليد :جمع املود وهو الغصن اللين .

(٢) العفر : ج أعفر وهو الظبي ، عباديد : متفرقة .

هـذا هو الحق والإجماع أيـده
فمن يفنّدُه أولى بتفنيد [1]
أيْ مسلمي «مصر» إن الجِدَّ دينكم
وبئس ما قيل : شعب غير مجدود [2]
طال التقاعس والأعوام عاجلة
والعـام ليس إذا ولّى بمردود
هُبّوا الى عمل يجدي البلاد فما
يفيدهـا قائل : يا أمتي سـودي

ومن قصيدة يصف قلعة بعلبك [3] :

هـمَّ فجـر الحيـاة بالإدبـار
فـإذا مـرَّ فهي في الآثـارِ
والصِّبا كالكرى نعيـم ولكـن
ينقضـي والفتى بـه غيـر داري
يغنـم المـرء عيشه في صبـاه
فـإذا بـان عـاش بالتذكـار
إيـه آثـارَ « بعلبك » سـلام
بعد طـول النـوى وبعد المـزار
ووقيتِ العَفـاءَ من عَرَصَاتٍ
مُقْويات أواهـلٍ بالفخـار [4]

---

(١) التفنيد : التخطئة والتكذيب .
(٢) مجدود : محظوظ
(٣) مطلع قصيدة في ديوانه ج ١ ص ٩٧
(٤) عرصات : ديار ، مقويات : خاليات من السكان ، واقوى المكان : خلا .

ذكرينـي طفولتـي وأعيـدي
رسم عهـد عـن أعيني متـوار
مستطاب الحالين صفـواً وشجواً
مستحب في النفـع والإضـرار
يوم أمشي على الطلول السواجي
لا افتـرار فيهن إلا افتراري (١)
نزِقـاً بينهـن غِـرّاً لعوبـاً
لاهيـاً عـن تبصر واعتبـار
مسـتقلاً عظيمهـا مستخفـاً
ما بهـا من مهابـة ووقـار (٢)
خِرَبٌ حـارت البريّة فيهـا
فتنـة السـامعين والنظـار
معجـزات مـن البنـاء كبـار
لأنـاس مـلءَ الزمـان كبـار
ألبستهـا الشموس تفويف درٍّ
وعقيـق علـى رداءٍ نُضـار
وتحلـت مـن الليالي بِشِـامـا
تٍ كتنقيط عنبـر في بَهـار
وسقاهـا الندى رشاش دمـوع
شربتهـا ظوامـىء الأنـوار
زادها الشيب حرمـةً وجـلالاً
توجتهـا بـه يـد الأَعصـار

(١) الافترار : الابتسام .
(٢) بعده ١٣ بيتا لم ترد هنا

رب شيب أتمَّ حسناً وأولى
واهنَ العزم صولةَ الجبّار
معبد للاسرار قام ولكن
صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب
فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يُجـ
ـنى ولكن بالعقل والأبصار
وضروباً من كل زهر أنيقٍ
لم تفتها نضارة الأزهار
وشموساً مضيئةً وشعاعاً
باهراتٍ لكنها من حِجار
وطيوراً ذواهباً آياتٍ
خالدات الغدوّ والإبكار
في جنان معلقات زواهٍ
بصنوف النجوم والأنوار
وأسوداً يُخشى التحفز منها
ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضابٍ
باديات الأنياب غير ضوارِ
في عرانينها دخان مثار"
وبألحاظها سيولُ شَرار
تلك آياتهم وما برحت في
كل آن روائعَ الزوار

ضمهـا كلهـا بديـع نظـام

دقّ حتـى كأنهـا في انتثـار

في مقـام للحسن يعبد بعـد ا

لعقل فيـه والعقـلُ بعدُ البـاري

منتهـى ما يجـاد رسـماً وأبهى

مـا تحج القلوب في الأنظـار [1]

★ ★ ★

(١) تتمة القصيدة تقع في ١٥ بيتا .

- ٢٠ -

رفيق العظم *

١٢٨٤ - ١٣٤٣ هـ
١٨٦٧ - ١٩٢٥ م

ولد في دمشق في حدود سنة ١٢٨٠ هـ ونشأ نشأة أبناء الأعيان الذين يهيئون أنفسهم للدخول في خدمة الحكومة ، واتصل بعالمين عظيمين : طاهر الجزائري وسليم البخاري [١] فأخذ عنهما ما استنار به عقله وخرجه للنزول في مضمار الجهاد لبث الأفكار الصحيحة وإنكار الظلم . وأخذ يكتب فصولا في الإصلاح وفي مسائل وطنية ينشرها في الجرائد والمجلات، ويقرض الشعر في أغراض . سرت اليه الشاعرية من والده محمود العظم . وصحب بعض أحرار الترك النازلين في بلده فأفاد منه روحاً جديداً وتلقح فكره بآراء حرة ، ومن أيسرها مقاومة

---

* ترجمته في الاعلام ٥٦/٣ ومعجم المؤلفين ج١٧٠/٤ حلية البشر ج٦/٢-١٠ ، قدماء ومعاصرون : ١٦٦ وانظر مقدمة الكتاب الذي جمع آثاره وعنوانه «مجموعة آثار رفيق العظم» بقلم محمد رشيد رضا ، ومعجم المطبوعات : ١٣ ، ١٣٤٣ .

(١) تنظر ترجمة طاهر الجزائري ص ٢٦٨ ، أما سليم البخاري فعالم دمشقي ، من طلائع الاصلاح الديني واليقظة الحديثة في سورية ، قرأ علوم الدين واللغة والادب على علماء عصره، وتولى منصب الافتاء في الفيلق الخامس من فيالق الجيش العثماني ، واستمر نحو ربع قرن ، وجاهر بآرائه في الاصلاح الديني والسياسي ، وكان مهيبا وقورا ، الف بعض الكتب والرسائل ، وجمع مكتبة حافلة بالمخطوطات النادرة ، وهو من أوائل أعضاء المجمع العلمي بدمشق ، كما تولى منصب رئاسة العلماء ، ثم اعتزل معتكفا الى أن توفي سنة ١٣٤٧هـ =١٩٢٨ م عن ٧٧ سنة (الاعلام ٢٧٦/٣)

الاستبداد والمستبدين والتنبيه على فساد الإدارة العثمانية •

دام ينقد ما كان في وسعه نقده من أعمال الأعمال [1] حتى اضطر الى الهجرة الى مصر في حدود سنة ١٣١٠ هـ ، وقد ورث من عمته حصة في وقف أهلي في مصر ، وكان أبوه بدد ثروته بالسفاهة ،ولم يبق له ولشقيقه الا ما لا بال له[2] ، فحسنت حاله بعض الشيء ،وانقطع الى العلم والكتابة ، واختلف الى مجالس الاستاذ الإمام محمد عبده وبعض جماعته النبهاء أمثال قاسم قاسم [3] وحسن عاصم وفتحي زغلول وكثير من أساتذة دار العلوم أمثال عبد العزيز جاويش ومحمد المهدي •

وكان من مؤسسي جمعية « الشورى العثمانية » الحرة ، وقد أصدرت جريدة تركية فتولى انشاء القسم العربي منها ، ومن هنا اتصل بجماعة حزب الاتحاد والترقي حتى صار موضع ثقتهم • ولما نشب الخلاف بين الجمعية وأحرار العرب كان الفقيد في جانب العرب وناهض الجمعية وكشف عن مساويها •

وحدت به وطنيته الصادقة أن يساهم في معظم ما يعتقد أنه يؤدي الى استقلال العرب أو ينيلهم بعض حقوقهم في ظل الهلال العثماني • وأنفق من وقته وماله في هذه السبيل جانباً لا يستهان به •

وكتب رسائل ومقالات كثيرة في الإصلاح ،وخطب في الموضوعات،

(١) لعل المراد (من اعمال العمال)
(٢) والده محمود بن خليل العظم ، شاعر ، نشأ في نعمة وترف ، واضاع ثروته وتصوف ، وكان ولوعا بالصناعات اليدوية . له مصنفات وديوان شعر (الاعلام ٤٥/٨)
(٣) كذا في الاصل ، ولعل المراد قاسم أمين .

ينبه الأفكار باعتدال وبعد نظر،جمع بعضها في كتاب • وأشهرمصنفاته كتاب « أشهر مشاهير الإسلام [1] » كتب منه أربعة مجلدات راجت وأعيد طبعها الا أنه لم يتم تأليفه ، وبه استفاضت شهرته في العالم الإسلامي •

ومن مصنفاته كتاب «الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية [2]» و « البيان في أسباب التمدن والعمران [3] » ، و « البيان في كيفية انتشار الأديان[2] » ، و « تنبيه الأفهام الى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام [2] » و « الجامعة الإسلامية وأوربا [2] » الى غير ذلك من الأبحاث التي تدل على بعد غوره في الشؤون الإسلامية [4] •

مثل صديقي الرفيق في جميع أدوار حياته الوطنية الصحيحة في نبلٍ خالٍ من كل غرض ، وأسمع صوت أمته في ديار العرب وغيرهم، وحذّر الأتراك عواقب الطغيان ، وحققت الأيام ظنه ، وخدم الجامعة العربية الإسلامية خدمة كان من أول من جالوا فيها مغتبطين • وقد عُرف بشممه وعزة نفسه وكرمه وصبره وجَلَده ، وكان عفَّ القلم واللسان ، لا يذكر من يذكر الا بالخير ، ويسكت عن المساوىء ويكتمها ، وفيه حسن وفاء وجميل عواطف يستميل القلوب ويسترق الأفئدة بحسن معاملته واخلاصه ، ويسير مع الرقي كيفما سار • تشبع

(١) في الحرب والسياسة .
(٢) طبع .
(٣) رسالة .
(٤) جمع شقيقه عثمان بعد وفاته طائفة من مقالاته في كتاب سماه (مجموعة آثار رفيق العظم) طبع وله أيضا (السوانح الفكرية في المباحث الطبية) ، ومن مآثره اهداؤه الى المجمع العلمي العربي بدمشق خزانة كتبه ، وهي نحو الف مجلد ، وتوفي بالقاهرة .

بروح التاريخ واستخراج عبره الماضية للانتفاع بها في العصر الحاضر ، ويتغنى أبداً بمجد رجال الإسلام ، ويبكي على ما صار اليه أهله من التدني بفعل الملوك وعلماء السوء ، ونخصّ بشعور عالٍ ، وشارك أمته في خطوبها منذ صدر الإسلام الى يوم الناس هذا . ولم يترك باباً يعتقد فيه اصلاحها الا ولجه ، وما بالى المصاعب . ولا تخلى عن استعمال كل قوة تنهض بها الا حرص على تحقيقها .

كتب اليّ من القاهرة يوم ٥ ذي القعدة ١٣٢٢ يقول : « وبودي أن لا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منثورة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك الى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللأمة نافعاً ، وأفضل ما يحتاجه قومك الآن التاريخ لا سيما تاريخ الأندلس ، فإذا رأيت نفسك في متسع من الوقت وارتياح لطرق هذا الباب فامض في هذه الوجهة ، وأعد لهذا العمل الشاق عدته من كتب إفرنجية وعربية وفهارس للعلوم من كل الخزائن الأوربية لتقف على ما كتبه الغربيون بشأن تلك المملكة الإسلامية ، اذ ما كتبه مؤرخونا لا يكفي لهذا الغرض ، والمطول من تاريخ الأندلس مفقود ، والمختصر مقتضب مبتور محرّف الأسماء معمى الأخبار . مثاله : اذا قرأنا في تواريخنا خبر غزوة عبد الرحمن الغافقي[1] في بلاد فرنسا نقرأ بخبر هذه الغزوة التي لو تم بها الفتح لقلب كيان العالم ، أسطراً قليلة مؤداها أن ذلك الفاتح الكبير غزا بلاد الإفرنج وقتل[2] الطاغية ، لكن ما هي البلاد ؟ وأين موقعها ؟ وما اتساعها ؟ ومن كان يحكمها ؟ ومَن ذلك الطاغية ؟ كل هذا مفقود من تواريخنا وموجود في تواريخ الغربيين . فإذا ضممنا

(١) غير واضحة في الاصل .

(٢) الاصل : وقتله .

هذه الى تلك ، وطابقنا (1) بين صوابهم وخطئنا ، وخطئهم وصوابنا أخذنا تاريخا جامعاً نافعاً لتلك المملكة التي كاد يأتي الزمان على تاريخها كما أتى على أهلها ودولها ... »

★ ★ ★

(1) الاصل : طبقنا .

- ٢١ -

سعيد الشرتوني *

١٢٦٥ – ١٣٣٠ هـ

١٨٤٩ – ١٩١٢ م

ولد المعلم سعيد الشرتوني – والمعلم لقب غلب عليه لأنه علّم ودرّس كثيرا – في « شرتون » من قرى الجرد في شوف لبنان .وبدأ بتعلم القراءة والكتابة وهو في الثالثة عشرة عقيب حادثة غريبة وقعت له . ذلك أنه شاهد فتاة في قريته متسلقة على شجرة تين ، فرشقها بحجر فذعرت وزلّت قدمها فسقطت على الأرض وماتت على الأثر ، فخاف مما جرى وهام على وجهه في الجبال حتى وصل الى عبيّة ، فَشَفَق عليه المرسلون الأميركان وأدخلوه في مدرستهم ، فمكث فيها عامين (١٨٦٢) ، ومنها انتقل الى مدرسة «سوق الغرب» الإنكليزية، ودرس مبادىء العربية والانجليزية وقضى خمس سنين معلماً في « عين تراز » ، ومنها انتقل الى التعليم في دمشق ، فدرس فيها حتى سنة ١٨٧٥ واخذ خلال مقامه الفقه الحنفي عن أكبر فقهاء عصره العلاّمة عبدالغني(١)

---

* ترجمته في الاعلام ١٥١/٣ ومعجم المطبوعات ١١١٢ ، وهو سعيد بن عبد الله بن ميخائيل بن الياس بن الخوري شاهين الرامي ، ومعجم المؤلفين ٢٢٦/٤ وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٣٤١/٤ ، تاريخ الصحافة العربية ج١٥٤/٢ .

(١) هو عبد الغني بن طالب بن حمادة بن ابراهيم الغنيمي الدمشقي الميداني (١٨٠٧ – ١٨٨١) م من فقهاء الحنفية بدمشق ، نسبته الى محلة الميدان ، له « اللباب » في الفقه ورسائل في الصرف والتوحيد (الاعلام : ١٥٩/٤ معجم المؤلفين ٢٧٤/٥)

الغنيمي الميداني ، تلميذ سيد الفقهاء المتأخرين العلاّمة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية [1] ، وكان يقصد من درس فقه أبي حنيفة أن يعود الى لبنان ويتولى القضاء فيه ، وكانت الشريعة نافذة الأحكام ، ولا سبيل الى تفوق القضاة في أقضيتهم الا بالبراعة فيها .

ومن دمشق انتقل مترجمنا الى بيروت فدرّس في كلية الآباء اليسوعيين خمس عشرة سنة ، ثم درّس في مدارس أخرى في بيروت، منها البطريركية الكاثوليكية ، ومدرسة الحكمة المارونية ، وتولى تصحيح مطبوعات اليسوعيين اثنتين وعشرين سنة ، وفي غضون ذلك عهدوا اليه تأليف معجم عربي مرتباً على طريقة تسهل بها المراجعة فألف كتاب « أقرب الموارد » في جزأين ضخمين ، وأتبعهما بذيل استدرك فيه ما فاته فيهما .

والشرتوني مدين بشهرته لأقرب الموارد . وله من التصانيف « حدائق المنثور والمنظوم » ، و « السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب [2] » ، و « الشهاب الثاقب في صناعة الكاتب » ، و « مطالع الأضواء في مناهج الكتاب والشعراء » ، و « المعين في صناعة الإنشاء » و « نجدة اليراع » وغير ذلك [3] .

---

(١) هو محمد امين بن عمر بن عبد العزيز عابدين ، فقيه الديار الشامية ، وامام الحنفية في عهده، مولده ووفاته بدمشق ، والحاشية المذكورة هي كتابه (رد المحتار على الدر المختار) وهو في فروع الفقه الحنفي ، وله كتب اخرى غيره كثيرة ، توفي سنة ١٢٥٢ هـ=١٨٣٦ م (الاعلام ٦/٢٦٧)

(٢) غنية الطالب ومنية الراغب كتاب في الصرف والنحو وحروف المعاني لاحمد فارس الشدياق (١٢١٩ – ١٣٠٤ هـ) = (١٨٠٤ – ١٨٨٧) م

(٣) وله ايضا : الغصن الرطيب

ترجم له الأستاذ رشيد عطية في « المقتطف » ومما قال فيه : «انه كان بحاثة مدققا فيما يجمعه ويعلقه على الحواشي ، بيد أنه تحدى في الجزأين الأولين من معجمه «أقرب الموارد» قاموس « محيط المحيط» فلم يزد على ما جاء فيه ، ولا أصلح ما بدر من الهفوات في شرح بعض الألفاظ ، بل أثبتها على علاّتها ، لم يغير فيها حرفاً . فكان في ذلك مقلداً أكثر منه مؤلفاً مدققاً . ولكن حسناته في الجزء الثالث الذي سماه ذيلا لأقرب الموارد ترجح على سيئاته في الجزأين الأولين ، فإنه استقصى فيه شوارد اللغة ، ولم يدع آبدة [1] الا قيّدها ، ولا شاردة الا ردّها اليه ، فبلغ في ذلك غاية ليس وراءها مذهب لطالب ، ولا مضرب لرائد »

« قال : ولو كان له حظ وافٍ من لغة أجنبية أو لغة شرقية سامية غير العربية لكانت مؤلفاته أتم فائدة.ولكنه أكبّ على العربية وخصّها ببحثه ولم يشأ أن يشرك معها لغة أخرى . وكان فوق ذلك كثير المحفوظ ، قوي الذاكرة بعيد النسيان ، لا يقرأ شيئاً الا يعيه على ظهر قلبه . وهذا ما أعانه على التفوق في اللغة العربية ، وجعله قوي الحجة ، سريع الاستشهاد في كتابته وحديثه » .

« وحكم على إنشائه فقال : «انه يتحرى فيه طريقتين: احداهما سهلة المأخذ ، واضحة المنهج ، رقيقة الألفاظ ، والثانية صعبة المرتقى، خشنة المركب . أما الأولى فكان يلجأ اليها في تآليفه ، وأما الثانية فكانت لغة المناظرة وما شاكلها يعمد اليها في مساجلة نظرائه وفي مقدمات مؤلفاته . وقال : إنه قضى أعواماً طوالا يزاول حرفة التعليم ، فلم

---

(1) ج اوابد وهي : الدواهي وغرائب الكلام والقوافي الشرد ، وما ينفر منه وهو مجاز .

يبلغ فيهـا الحد المطلوب ، ولا برع في التدريس كمـا برع في اللغة والإنشاء والتأليف . فكان يلقي على تلاميذه بلغة لا يفهمونها ، ولا تنطبق على درجة أفهامهم ،فيضيع الطالب بين إسهاب في الشرح ووفرة الإستشهاد . وما كان شاعرا نظم أبياتا قليلة دلت على أن صناعـة الشعر لم تسلس له قيادها » .

وقال في وصف أخلاقه : « إن بعضهم كان يزعم أنه لم يكن جميل الرعاية، ولا وفياً بالعهد. أما أنا فقد خاللته [1] وخبرته فوجدته كما وجده كثيرون من المنصفين وثيق الذمة ، حافظاً للعهد ، صحيـح الدّخْلة ، مأمون الضمير،اذا أبرم ميثاقاً مع شخص احتفظ به وأحكم عراه ، وإذا انقلب الزمان فبات الصديق معادياً له قابله بالحلم . ويقال على وجه الإجمال : إنه كان عفيف النفس ، شريف المقاصد حريصاً على صداقة أصحابه حرصه على ارضاع اللغة العربية ، متمسكاً بعُرا الدين ، طيب القلب ، وقلبه أصفى من مرآة الحسناء » .

قال ، وقد فجعه الدهـر بموت فتاتين له كانت لهمـا شهرة في الأدب فحزن عليهما حزناً شديداً ، وجمع ما كتبتاه في سفر سمـاه « نفحة الوردتين » قرّظه بعض العلماء والشعراء . وكان فقد ابنتيه مما عجل به ، وأصبح لا يستطيع الكتابة والتأليف ، واعتزل الناس في بيت ابتاعه في قرية الشياح من ضواحي بيروت ، وقلما كان يخرج منه حتى وافاه أجله .

صادفته مرة في ساحة البرج في بيروت يتأبط كتباً ، فسألته عما

(١) خالله : اتخذه خليلا ، والخل : الصديق .

معه قال : أما سمعت الضجــة القائمة هذه الايــام بدعوى أن الفقه الإسلامي مأخوذ من الفقه الروماني لا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؟ فقلت له : سمعت ذلك ، فقال : إني أنوي أن أدفع هذه الفرية عن الفقه ، ولا يتيسر لي ذلك الا اذا رجعت الى الفقه الروماني نفسه وعارضته بالفقه الحنفي،ولما كانت لغتي الفرنسية ضعيفة أحببت أن أقويها لأتمكن من نقــل قانون يوستنيانوس من الفرنسية الــى العربية ثم أقابل بين مواده وبين فقهنا • فأنا منذ أشهر اشتغل بإحكام اللغة الفرنسية • وبعد حين نشر في مجلة « المقتطف » سلسلة مقالات دفع فيها عن الفقه الإسلامي ما افتراه المتحذلقون عليه ، وكأنه بعمله هذا كافأ شيخه العلامة الغنيمي على تلقينه فقه الإسلام في زمن كان غيره من فقهاء دمشق يأبون أن يعلموه إياه جهلا وتعصباً •

وسألني عن سبب زيارتي بيروت فأجبته : أني سمعت أن عند أحد الأدباء نسخة من « دائرة المعارف » الفرنسية ويريد بيعها ،فأتيت أحمل خمسين ديناراً عثمانياً لأبتاعها ، فقال : إني ناصح لك ، اصرف النظر عن ابتياعها ، واشتر بهذا المبلغ نصف فدان أرض في بلدك فهو أعود عليك من الكتب ، ولطالما صرفنا فيها دراهمنا وما أتت بالثمرة التي كنــا نتوقعها منهــا • ولما عدت الى بلدي قصصت على صديقه وأستاذي الشيخ طاهر الجزائري صورة الحديث الذي دار بيني وبين المعلم سعيد فقال : كان عليك أن ترد عليه نصيحته وتقول له : أنت لولا الكتب هل كنت تقبض ألف دينار عثماني لتأليف معجم صرفت في تصنيفه أشهراً ؟ وهل كان لك في المصرف هذا المال الذي جنيته من التعليم والكتب ؟ أما أنا فأحسن ظني بالعلم ، وما أظن نصيحته الا صادرة عن سذاجة هي سذاجة أكثر العلماء •

خدم الشرتوني اللغة العربية خدمة عظيمة ، ولقنها تلاميذه في

كل مدرسة تولى فيها التدريس ، فتخرج به كتاب وأدباء ذاقوا لغة العرب ، وساروا بسيرته في تلقينها ونشرها ، فهو وان لم يأخذ اللغة عن إمام مشهور ، ولا دخل مدرسة عالية ، قد اتكل في احكامها على نفسه ، وجارى أقطابها الذين نشروها في لبنان وأحسنوا نشرها أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي ونجليه ابراهيم وخليل ، وابراهيم الحوراني ويوسف الأسير ، وابراهيم الأحدب ، وأحمد عباس ، وعبد الله البستاني وأضرابهم • ورأينا كتبه تنتشر في الأقطار العربية لحسن تنسيقها وسهولة الأخذ منها ، وجمال طبعها وإخراجها ، وهي جديرة بهذا الرواج •

وكان طيب السريرة ، مخلصاً في عمله ، دؤوباً عليه ، وكفاه مَنْقَبَةً أنه عاد فأحكم دراسة الفرنسية ، وما كانت سنه أقل من ستين سنةليرد على أعداء مدنية الإسلام • وأي همة أعظم من هذه الهمة ، وأي غرام في نصرة الحق أكبر من هذا الغرام ؟ •

صرف وكده — رحمه الله — في خدمة الأدب العربي،وجرى على طريقة معاصريه بالجمع في كتابته بين المرسل والمسجوع ، ونشر في المجلات العربية ما اعتقد فائدته في نشر هذه اللغة التي استولى حبها على أعصابه وشرايينه • ولئن خلت كتاباته من أفكار جديدة فما قصّرت في تربية ملكة العربية في أبناء هذه اللغة •

★ ★ ★

- ٢٢ -

سليمان البستاني *

١٢٧٣ - ١٣٤٣ هـ
١٨٥٦ - ١٩٢٥ م

بيت البستاني في لبنان بيت علم وأدب،جاء منهم العالم والكاتب والطبيب والمحامي ورجل الدين ، ومن نوابغهم سليمان هذا • ولد في بكشتين على مقربة من قرية الدّبية في أقليم الخرّوب من عمل الشوف ، وفي سن السابعة دخل المدرسة الوطنية لمؤسسها قريبه المعلم بطرس البستاني ، فقضى فيها ثماني سنين ، وبعد اتمام الدراسة انضم الى معلمي مدرسته ، فمارس التعليم فيها زمناً ، وهو يكتب في صحف نسيبه « الجنان » و « الجنة » و « الجنينة » ، ثم عاونه في انشاء « دائرة المعارف » ، وانتظم في سلك جمعيته « زهرة الآداب » ورأسها مرتين• ودعاه قاسم الزهير من أعيان البصرة لإنشاء مدرسة وجريدة في بلده فلبى الطلب ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وأنشأ في البصرة أول مطبعة وأول جريدة ، ثم انصرف الى الأعمال التجارية ، وقضى في العراق ثماني سنين ، زار خلالها بلاد العرب والعجم والهند ، وجمع معلومات مفيدة عن قبائل العرب وعاداتهم ، وإحصاء نفوسهم وشعرهم ، وقال ان عرب الصليب «الصلبة» النازلين بين بادية الشام والعراق هم من نسل الصليبيين أوغلوا في البادية بعد

---

* ترجمته في الاعلام ١٨٥/٣ ، معجم المؤلفين ٢٦٠/٤ ، تاريخ الصحافة ١٥٩/٢ والاعلام الشرقية ٨٤/١ ، رواد النهضة الحديثة : ١٣١ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١١٠٥

الحروب الصليبية وتعربوا وبقيت في عاداتهم وأخلاقهم خصائص تنبىء بأصلهم ، ومنها سحناتهم وبياض بشراتهم وزرقة عيونهم •

ومما قاله في مقالة له في الصليب نشرتها مجلة « المقتطف » : « إننا اذا خرجنا من دمشق الشام الى عرب عنزة والرولة ، وضربنا في البادية حتى اتصلنا الى شمر الجبل وانعطفنا يميناً الى العجمان ، وتوغلنا في البر حتى بلغنا الضفير ومطير ، وسرنا من الرقمتين شمالاً الى أن أدركنا المنتفق على الفرات ، وعبرنا دجلة الى بين كنانة وربيعة، وانعطفنا شرقاً وجنوباً الى بني أسد وبني لأم حتى اتصلنا الى كعب في بلاد العجم لما رأينا اختلافاً في أخلاقهم فوق ما نرى بين أهالي بيروت واحدى قرى لبنان ، وكأن في البداوة سراً ليس في الحضارة ، فإن الطبيعةقد قضت على الحضربالتقلب والتخلق وعلى البدو بالثبات على حالة واحدة • »

وفارق البستاني العراق راجعاً الى بيروت يؤازر في « دائرة المعارف » للبستاني ، ثم شخص الى الأستانة ، وتعرف الى ساسة تلك الأيام وعاشرهم وصاحبهم ، ثم عاد الى بغداد ثانية ، وقضى فيها مدة، ثم قفل راجعاً الى الأستانة فمكث فيها سبع سنين ، وجاء مصر يضارب بالأراضي•قال أحد أصحابه إنهمل من الأدب وطمعت نفسه أن يغنى، فضارب وغامر فخسر ماله • ومع هذا ما كان يغفل العناية بالعلم ، ومن ذلك انصرافه أعواماً الى تعريب الياذة هوميروس من اليونانية ، ولإحكام الترجمة درس اللغة اليونانية القديمة واليونانية الحديثة واستعان بترجماتها الإنكليزية والفرنسية والايطالية • عربها شعراً في أحد عشر ألف بيت ، وقدم لها مقدمة عظيمة في مائتي صفحة دلت على علو كعبه في أدب العرب والإفرنج ، وكانت أطروحة تنطق بطول نفسه في البحث والتنقيب •

ولما ظهرت الإلياذة صفق لعمله عشاق التجدد وأكبروه ونوهوا به ، قال فريق ممن يقدرون الأمور بما ينجم من نفعها : « ان الفائدة من الإلياذة لا توازي التعب في نقلها وصرف المؤلف الوقت الطويل في تأليفها ، ولو نقلها نثراً لكان يرجى أن تفهم • » وروى البستاني في مقدمة الإلياذة أن العلامة السيد جمال الدين الأفغاني رأس النهضة العربية قال له بمحضر الأدباء :« إنه ليسرنا جداً أن تنقل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف،ويا حبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا باديء ذي بدء الى نقل الإلياذة ولو ألجأهم ذلك الى اهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها •» ونرى أن هذا الرأي أشبه بآراء من يتشوقون لنشر ما ضمته خزائن الكتب من المخطوطات القديمة من دون أن يطالعوها،ككتب التصوف والفلسفة، حتى اذا ظهرت ألفوها أقل مما كانوا يتصورون ورأوا الا نفع منها في دين ولا دنيا • يقول أناتول فرانس الأديب المشهور : « إن الإلياذة شعر الطفولة ، وهي مع هذا أجمل شعر يُتلى • وأصفى الشعر شعر الشعوب في طفولتها • والشعوب كالبلبل يغني ما دخل السرور في قلبه ، فإذا شاخ أصبح على جانب من الرزانة والمعرفة والهم » •

ها قد ترجمت الإلياذة ، ونشرت بعدها « الشاهنامة » بِحلّتها العربية ، فهل أجدتا على الأدب ما ارتفع به درجة عما كان عليه ، وما كان من نشرها إلا اشباع شهوة أنصار الغرائب والمبهمات • أما نحن فقد رأينا مع طائفة من العارفين أن مقدمة الإلياذة أكثر فائدة من الإلياذة نفسها ، فهي كتاب أدب جامع بأسلوب رقيق وبحث دقيق • قالوا : إن مقدمات الكتب هي الجزء الذي لا يقرأ من الكتاب • ونحن نقول : إن مقدمة الإلياذة هي الجزء الذي يقرأ منها فيخرج قارئها بزبدة تنفعه وتفيده •

انتخب سليمان البستاني سنة ١٩٠٨ نائباً عن بيروت في مجلس النواب العثماني ، وأبان في مهمته الجديدة عن اقتدار وحسن سياسة وعناية بما ينفع العرب ويمتعهم بحقوقهم في دولة الترك ، ومنها ألا يوظف في ديارهم تركي لا يعرف العربية ، وله غير ذلك من المطالب التي يتوخى منها مصلحة أمته ، وتحقيقها لا يضر بالدولة . كان سفير خير وصلة وئام بين الدولة العثمانية ودول أوربا . وقد أقنع ساسة الغرب أن الدستور لا يناقض الاسلام إذا فهم على حقيقته . وكان شأنه في دار الملك أن يقرب بين قلوب الترك والعرب ، ويفهمهم أن لا سلامة لهم إلا بالتآلف والتعاطف ، وانتدبته الدولة في مهمات سياسية الى أوربا غير مرة ، فقام بحق السفارة أحسن قيام ، ثم عين عضواً في مجلس الأعيان . وفي سنة ١٩١٣ أسندت اليه وزارة التجارة والزراعة فأبان عن كفاءة وعلم وأنه رجل عمليات لا يعبأ بالنظريات كثيراً .

ولما قرر حزب الاتحاد والترقي صاحب الأكثرية المطلقة يومئذ في مجلس النواب إشراك الدولة في الحرب مع ألمانيا ، بين لساسة الترك فساد رأيهم ، واذ لم يسمع لنصحه استقال من الوزارة ، وانقلب الى سويسرا فأقام بها خمس سنين . وفي مصر لقيته واختلطت به وصادقته وأحببته وقد تمت أدواته وتجلت أخلاقه وما فطر عليه من الأناة والاعتدال[١] . وكان يحدثني بما شاهده من الغرائب في رحلاته الطويلة ، واستفدت منه فوائد عن جزيرة العرب والعراق وغيرهما قلّ أن كتب لغيره معرفتها . وذكر لي أنه زار الرقمتين المشهورة بتغزل شعراء العرب بها . وقال لي إنه اجتمع الى كثير من أكراد أهل بلد جدي « السليمانية » وأثنى على ما هم عليه من النظافة ،

---

(١) وتوفي بنيويورك ونقل جثمانه الى مسقط رأسه .

وعلى حرصهم على عاداتهم وأخلاقهم ، وعجب أن رأى جمهرتهم تغلب عليهم معرفة الرياضيات .

ومما نسب اليه ايجاده وضع أسلوب الاختزال (ستينوغرافيا) بالعربية ، كتب فيها مبحثاً في دائرة معارف البستاني . واخترع أداة لقلب أوراق النوطة على البيان وغيره وابتدع في الشعر « المثنى » وذلك ببناء القصيدة على قافية يرجع اليها في كل بيتين مرة وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على ما اصطلح عليه المتأخرون في « الرباعي » الذي سموه « الدوبيت الأعرج » وله قصائد وأبيات مفردة كثيرة ، وشعره لابأس به . ومن تآليفه « المطول في تاريخ العرب » ورحلاته في الأقطار العربية وغيرها . وأملى بالانكليزية مفكراته في ألف صفحة ، ولم يطبع له شيء من كل هذا،وكتب مقالات وأبحاثاً في كثيرمن المجلات العربية وفي الصحفالفرنسية والانكليزية، وألف الثلاثة الأجزاء الأخيرة من دائرة المعارف البستانية .

كان عارفاً بلغات كثيرة ، يحسن العربية والسريانية والفارسية والتركية ، ويكتب الإنكليزية والفرنسية كتابة جيدة ، وكان يلم بالألمانية والإيطالية واللاتينية والعبرية واليونانية القديمة واليونانية الحديثة ، ساعده على تعلم كل هذا جودة ذاكرته وحافظته وكثرة تنقله في الشرق والغرب ، فكان شأنه في هذا المعنى شأن بعض علماء المشرقيات من الغربيين،يتقنون لغتهم ويدرسون عدة لغات معها بالقدر الذي يهمهم منها ويعينهم على البحث والدرس ، والرجوع الى ما كتب فيها من ضروب المعارف والآداب ، فصح أن يوصف العلامة البستاني بأنه وحده « دائرة معارف » أي مَعْلَمة تامة .

كان صاحب هذه الترجمة طول حياته يدرس ويؤلف حيث نزل وينفع قومه بعلمه ودرسه . وكان لا يتوقف عن الأخذ من كل ما

يسقط عليه من فنون المعارف ، ودام في مدرسة العالم يعد نفسه تلميذاً حتى وافاه أجله . وبارك الله له بأيام عمره فقضاها في النفع والخير يزينه الصدق والجد .

ومن شعره :

شؤونُ ذوي الشأن مَرْعِيّة
ولو أَغْلت الأرضُ أَنذالَها
وللمرء ما كسبت نفسه
فإما عليها وإمّا لها
ولا يعرفُ الفضلَ إلا ذَووه
فلا تبخس الناسَ أعمالَها

وله تعريب معنى فارسي :

قضيتَ إلهي بالعذاب ويا ترى
بأي مكانٍ بالعذاب تدينُ ؟
فليسَ عذابٌ حيثما أنت كائنٌ
وأيُّ مكانٍ فيه لستَ تكونُ ؟

ومن قوله :

نظرتُ الى حبل الأماني فَخِلْتُه
مُنيلي الذي ما ناله أحدٌ قبلي(١)
تناولتهُ بالراحتين إذا به
تَبَتّك بالكفين وانقطع الحبلُ (٢)

★ ★ ★

(١) قبلي : لعلها (قبلُ) بضم اللام .
(٢) تبتك : انقطع .

- ٢٣ -

شبلي شميل *

نحو ١٢٦٩ ــ ١٣٣٥ هـ
نحو ١٨٥٠ ــ ١٩١٧ م

ولد شبلي شميل في كفر شيما من قرى ساحل بيروت • كـان أبوه أديباً وشقيقاه ملحم وأمين من أرباب الأقلام المثقفين ، ودرس الفرنسية واتقنها حتى أصبح يعد من كتابها المجيدين ، وعانى الأدب ونظم الشعر منذ عهد الصبا ، ثم دخل الجامعة الاميركية في بيروت ودرس الطب فنال شهادته سنة ١٨٧١ بتفوق عظيم ، وقضى في أوربا سنة خصها بالدرس ، ثم هبط مصر وصرف فيها عمره[١] كله وفيها ظهر فضل عبقريته •

كان يجري في معالجة مرضاه ووصف الأدوية لهم حسب القواعد المقررة ، وما أخذ بالمحتملات ، ولا استهوته المكتشفات الجديدة ••• كان نابغة في التعليل ، ألمعياً في اكتشاف الحقائـق ، وكـان من مشاهير الأطباء في التشخيص الطبي كأنما يوحى اليه وبلغت منه الفراسة أن علل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتي قبـل أن شاع هذا التعليل في

* ترجمته في الاعلام ٢٢٧/٣ وولادته فيه سنة ١٨٥٣ م ،وانظر تاريخ الصحافة العربية : ٧٤/٣ ورواد النهضة الحديثة : ١٩٨ ومعجم المطبوعات : ١١٤٤ ، اسم والده ابراهيم، وفي معجم المؤلفين ج٢٩٤/٤ ولادته سنة ١٢٧٦ هـ ، ١٨٦٠ م ، ووفاته موافقة للتاريخ المذكور أعلاه .

(١) توفي بالقاهرة فجاءة .

أوربا .. وخص بذاكرة ماضية وقوة استحضار فائقة ، فلم يكن يندر أن يقول لك إنني كتبت منذ ثلاثين سنة مقالة قلت فيها كذا وكذا ، ويسرد لك صفحة أو أكثر غيباً . أو نظمت قصيدة قلت فيها الأبيات التالية ، ويسرد لك عشرين بيتاً أو أكثر .

« وكان أنيس المحضر ، حسن المحاضرة ، فكه الحديث ، فات الستين واشتد عليه الرَّبو [1] وبقي بشوشاً طلق المحيا ، ويتعشقه خلانه وأصدقاؤه وكل الذين عاشروه لما يرونه من حسن الطوية وإخلاص الحب والإنصاف والانتصاف ، ولا سيما لشجاعته الأدبية المفرطة ، فلم يكن يخشى أن يقول للظالم يا ظالم ، ولو ملكاً ، ومع عزته على الظالمين المتغطرسين كان من أودع الناس مع الضعفاء والمساكين » .

« تقرأ كتاباته فتظنه مادياً من غلاة الماديين ، وهو في الحقيقة من غلاة الروحيين . حتى كان يعتقد بالسعد والنحس ، وحاول مرة أن يجد قانوناً للمصادفة ، ولو جمع الى مهارته في علم الطب شيئاً من المهارة في اكتساب المال من التطبيب لعاش في سعة وتوفي عن ثروة طائلة .

كان واسع الرواية ، قوي الحجة ، ولا سيما إذا كان بين قوم يدركون معانيه ، وكان الموضوع يتطلب الحماسة ، فإنه كان يتدفق كالسيل حتى يدهش منه سامعوه ، ولو كانوا من كبار الأطباء » .

« كان طبيباً وجرّاحاً ومولّداً ، ويمارس فروع الطب العملي ، أي الطب الباطني ، وطب العين والأذن والأنف والحلق والجلد ،ويعمل العمليات الجراحية على أنواعها ، ونشر يعض الكتب الطبية القديمة

---

(١) مرض يصيب الصدر .

كفصول بقراط وأرجوزة ابن سينا وشرحها ، وأنشأ اكبر مجلة طبية باللغة العربية ، وهي مجلة « الشفاء » وكان يحررها كلها » .

« واشتغل بمذهب النشوء ، وترجم كتاباً مفصلا فيه ، وهو شرح « بخنر » على مذهب دارون[1] ، ثم توسع في هذا الموضوع وطبقه على كل ما في الكون ، حاسباً إياه وسيلة لغاية سامية ، وهي اصلاح حال المجتمع الإنساني . ولو أتيح له أن يخدم بلاده في منصب لأدخل فيه إصلاحات كثيرة ، صحية وقضائية وتعليمية واجتماعية ، لأن مذهب النشوء لا ينحصر في تفسير تولد أنواع الحيوان والنبات بعضها من بعض ، بل يتناول تولد الأخلاق والشرائع والقوانين وكل أعمال البشر » .

« وكانت مزيته الكبرى التنديدبالظالمين وبالمصايبعلى أنواعها، والمجاهرة بما يعتقده حقاً ولو خالف به جميع الناس ، سواء كان في العلميات أو الأدبيات أو الاجتماعيات . قلمه ولسانه في ذلك سيان . وطالما حبَّر المقالات السياسية ونشرها في « البصير » و « المقطم » و « المؤيد » وغيرها من الجرائد السيارة ينتقد بها معايب الحكام بما لا مزيد عليه من الصراحة . وقد عاش عيشة الاجتماع الذي تمناه فكم آسى فقيراً بلا أجر ولا شكر ، وكم تناول الدرهم من الغني ليعطيه للفقير ، وكم حث على إنشاء مستشفى للفقراء وبذل في ذلك وقته الثمين » .

هذا بعض ما قاله فيه تِرْبُه العلاّمة يعقوب صرّوف ، لاجرم أنه كان من نوابغ العلماء الأحرار . دعا الى ما اعتقد فيه النفع ،

(١) هو الدكتور الالماني لويس بخنر ، وقد طبع

وعمل لخير الجماعة ، وخدم العلم والفكر والصحة والأخلاق . وأكد لي بعض عارفيه أنه كان من عادته إذا زار مريضاً ورآه على حالة رثة من الفقر الشديد لا يعتم أن يدفع اليه بضعة جنيهات ليبتاع بها طعاما مغذياً ، ثم يرسل له سريراً وفراشاً ولحافاً ومقعداً وما يلزم غرفته من الأواني ، ويداويه ويدفع له ثمن الدواء مدة تمرضه .

كان مرماه من طبه خدمة الإنسانية دون النظر الى ما يجنيه منه، فهو من الأفذاذ الذين عظمت الفائدة منهم .

قال لي العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي وأنا أودعه لأغادر القاهرة الى دمشق : قل لي من عرفت من رجال مصر . فذكرت له أسماء بعض من تعرفت اليهم، فقال : أما زرت الدكتور شميل؟ فقلت: لم يسعدني الحظ بزيارته . فقال : إن لم تجتمع اليه فكأنك لم تر مصر ، فهو أعظم دماغ أخرجته سورية ، فبادرت الى زيارته فقرأ عليّ ساعة التقينا لائحة بالفرنسية كتبها حديثاً ، وضمنها رأيه في إصلاح الدولة العثمانية ، وقد أجاد في عرض أفكاره ، وابان أنه آية في فهم أمراض الدولة ووصف دوائها ، وأنه طبيب أرواح واشفاح[1] . واتصلت به اتصالا وثيقاً بعد جلسة التعارف،آخذ عنه وأعجب بصفاته الغر .

يلقب الناس الدكتور شميل بالفيلسوف ، وما كان يرضى عن هذا اللقب . قال : « وأنا أقدر أن اتكلم في آرائي الدينية والاجتماعية والعلمية ، ولا أقول الفلسفية ، لأني لا أحب أن أعنى كثيرا بالفلسفة إلا ما كان منها من قبيل الاستقراء العلمي فقط ، ولِما تَجُرُّ اليه

(١) المشفح : المحروم .

غالباً من السفسطة البالغة إذا شردت عن العلم • بل أنا أكره جداً الانتساب اليها •• فآرائي الدينية والاجتماعية والعلمية ليست غريبة عن العلم اليوم وهي ليست من الآراء الفلسفية التي يتسع مجال التخريج فيها لكل مفكر مقيد بقيد علمي•بل هي نتيجة لازمة لأبحاث علمية خارجة من معمل الطبيعي وداخلة في موقف الكيماوي ، وواقعة تحت مشراط الجراح ، ولا سبيل للخروج عنها إلا بالوقوع في الغريب ، ولا يجوز أن ترمى بالغرابة الا اذا جاز أن تكون الأحكام الاجتهادية أصدق من الدليل الاختباري ، والنظر المجرد أصدق من الحس » •

قال : « إني لم أتعمد في مباحثي نفي الأديان لغرض في النفس ، ولم أنفها بكلام ألقيته جزافاً ، ورأي فلسفي خاص او مقتبس كما يتوهم أكثر الذين يسمعون بي ولم يقرأوا مني شيئاً ••• التزمت جانب العلم •• وأريد بالعلم العلم الطبيعي القليل الانتشار اليوم ، لا علم الجدل النظري الذي يستطيع أن يطرقه كل مفكر ، بل أنا أكره جداً كل بحث مبني على النظر المجرد • وفي اعتقادي أن وقوف العمران متباطئاً في السير ، متباطئاً في الارتقاء ومتقهقراً أحيانا كثيرة ، سببه الأكبر أن أكثر علومه حتى اليوم علوم مجردة ، ولطالما صرفته في الماضي عن القريب منه الى البعيد عنه • أليس من الغريب أن يكون الإنسان قد خبر غير المنظور ، وبحث في السماوات العلى وقاسها بالشبر ، وعرف طوائف الجن ، وعدد الملائكة والأبالسة قبل أن يتعرف أديم الطبقة الاولى من الارض التي تطؤها قدمه كل يوم ؟ والتي هي منشأ غذائه ومنبت كسائه ومنبع مائه ، والتي هي مهده ، والتي هي لحده » •

« أنا لم أنظر الى الاديان نظر المستخف ، بل بحثت فيها كما

بحثت في كل ما يتعلق بالانسان على أنه كائن طبيعي تقلب على أطوار مختلفة في نشوئه • ولاأظن أنه يوجد بين المؤمنين أنفسهم من هم اشد إعظاما مني لواضعي الاديان،وأنا أعتبرهم من أكبر رجال الاصلاح •• ان اليوم الذي ينصرف فيه الانسان عن تنسيق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تتقوم فيه طباعه ، فتقل سخافته ، ويكثر جدّه ويقل رياؤه ، وينشط من الذل ، ويرتقي ارتقاء حقيقياً ، ويحق له أن يعد نفسه إنساناً » •

والى الدكتور شميل يعزى نشر مذهب النشوء والارتقاء في الشرق العربي ، وقد وصف هذا المذهب فقال : « والحق أن فضل دارون العظيم الذي ليس في فكرة وضع أساس هذا المذهب ، بل بتأييده له بالادلة العلمية الطبيعية ، وجعله صالحاً لأن يطبق لاعلى الأحياء وحدها بل لأن يشمل الطبيعة كلها ، لا في الأرض ومواليدها : الجماد والنبات والحيوان فقط ، بل في السماء وأجرامها أيضاً »

ولم يرض أرباب الأديان عن خطة شميل في نقله مذهب داروين ، وجاراهم في إنكارهم عليه جماعة المقلدين أدعياء العلم ، أما هو فقد ثبت وما حاد عن اتزانه ، وما توقف عن نشر دعوته بالحكمة وطرق الإقناع • وظل الى آخر أيامه يبث أفكاره بمختلف أساليب النشر • كتب في ذلك كثيرا في الصحف والمجلات وفي رسائل وكتب • ومما نشره رسالة « المعاطس » على نسق « رسالة الغفران » للمعري ، و « شكوى وآمال » ومجموعة مقالاته • ونقل الى العربية كتاب « الأهوية والمياه والبلدان » لأبقراط •

كان ينظم الشعر في أغراض اجتماعية وفلسفية • وشعره دون نثره ، وحاول نشر مذهب التحول في الشعر العربي ، كما نشر مذهب التحول في الأحياء ، أي صرف الشعر عن الاساليب المتبعة من الغزل

والنسيب والإغراق في المدح والرثاء والبكاء على المنازل والأطلال الى وصف الطبيعةوما فيها،وتجريد المعاني من المكتشفات العلمية والمخترعات العصرية التي غيرت وجه الأرض وأحوال سكانها ، ونظم في هذه المعاني قصائد ومقاطيع .

وهو خطيب وصاحب بديهة ، ويزين بيانه صحة برهانه وصدق لهجته وتمثله مذهبه كل التمثل . ولما أعلن القانون الأساسي في السلطنة العثمانية كنا جماعة من أهل حلقته جد فرحين ، وهللنا للانقلاب الجديد فقال لنا : كان عليكم يا أصحابي أن تحزنوا وألا تعدوا هذه الثورة خيرا لنا فإنها ما خرجت عن الترقيع في جسم هذه الدولة ، والترقيع المؤقت لا يفيدها ، وهي المريضة والأمل منقطع من شفائها وكان مصيباً في رأي وتدبر .

كان الحكيم شميل صورة رائعة لعالم مؤمن بعلمه ، متفان في بثه والعمل به ، كان فرداً في طبقته قلّ أن نشأ للعرب في العهد الأخير رجل مثله في رجاحة العقل ، وغريب العلم ، وسماحة الخلق ، وعظم النفس ، اللهم إلا الإمامين العظيمين : طاهر الجزائري ومحمد عبده . ما صانع ولا اتقى ولا تسفّل ولا تذلل ، وكان ظاهره صورة من باطنه ، وماجعل للمال والمظاهر منزلاً من نفسه . وكان همه نشر دعوته العلمية والاجتماعية . لا لذة له بغير قول الحق ونشر النقّد ، وعمل الخير وتخفيف الآلام . كان صدره طاقة أزهار جمع فيه آخر ما أبدع العلماء وما هدته اليه قريحته ودرسه . رحمه الله .

ولو قدر للشرق القريب أن يكثر فيه أمثال شميل بعلمه ودؤوبه وإخلاصه لغيروا وجه حضارته ، وقضوا على خرافاته وضلالاته ، ولصانوا الأديان عما يحط من مقامها ، ويضيع الفائدة المرجوة من تعاليمها النافعة .

★ ★ ★

- ٢٤ -

شكيب أرسلان *

١٢٨٦ – ١٣٦٦ هـ

١٨٦٩ – ١٩٤٧ م

جاء الأرسلانيون الشام ،ويتصل نسب بني أرسلان بالمنذر بن النعمان المعروف بأبي قابوس[١] • جاء جدهم الشام في أول دولة الأمويين وتصرفوا اليهم •

ولد شكيب في الشويفات [٢] سنة ١٨٦٩ ، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن على شيخ من أهل قريته ، ثم دخل مدرسة الأميركان في حارة العمروسية ، وأخذ فيها مبادىء اللغة الانكليزية • وبعد ذلك دفعه أهله الى مدرسة الحكمة المارونية في بيروت ، ونال

---

* ترجمته في الاعلام ٣/٢٥١ ، ومعجم المؤلفين ٤/٣٠٤ و ١٣/٣٩٣ ، في الادب الحديث ٢/٢١٦ ومجلة المجمع العلمي بدمشق ٤/٢٧٥ ، ٥/٣٥ ، ٢٩٣ ، ٧/٥٤٩ ، ٩/٦٥ ، ١٧٨، ١٠/٤٣٩ ، ورواد النهضة الحديثة لمارون عبود : ١١ ، رواد القومية العربية : ١٥٧ ، تاريخ الشعر العربي الحديث :٨٧ والف في سيرته كل من عارف النكدي ومحمد علي الحوماني وهو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس ارسلان ، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة ، وينعت بأمير البيان ، ومن اعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق الراحلين .

(١) أول المناذرة ملوك الحيرة والعراق (تنحو ١٥٤ ق.هـ٤٧٣م) والنعمان ابنه ، أبو قابوس ، من اشهر ملوك الحيرة ، وهو ممدوح النابغة الذبياني . وقد توفي نحو ١٥ق.هـ ، ٦٠٨ م

(٢) بلدة في لبنان قرب (عاليه) تشرف على البحر .

شهاداتها سنة ١٨٨٦ • وقد أتقن فيها العربية والفرنسيـــة ، وتخرج بإمام اللغة الشيخ عبد الله البستاني ، وكان هذا كثيراً مـــا يقول : إن شكيباً أنبغ تلاميذي • ثم انتقل الى المدرسة السلطانية ، فاتصـــل بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وكان استاذاً فيها مدة نفيه مـــن مصر ، فلازمه وأفاد منه ، وفي الكهولة درس التركية ثم الالمانية ، وتولى في لبنان بعض الأعمال الإدارية في شبابه [١] ، ثم عين نائباً عـــن جبل الدروز في مجلس النواب العثماني ، ولمافصلت الولايات العربية عن الدولةالعثمانية رحل الى اوربا ، وأقام فيها نحو خمس وعشرين سنة حتى آخر سنة من حياته •

نظم شكيب الشعر وهو في منتصف العقد الثاني من عمره ، وظهر نبوغه في الكتابة فبدأ يراسل جريـــدة الأهرام المصرية بتوقيع « ش » وظل على ذلك سنين فاستفاضت شهرته ، وكان دؤوبا على العمل حتى آخر أيامه ، لا يحس الملل •

وأصيب وهو في سويسرا بمرض في عينه فاتخذ كاتباً يملي عليه أفكاره ورسائله حتى آذن الله بالشفاء • ومما يلاحظ أن كتاباتـــه عدل مطالعاته منوعة كثيرة ، وكان في الموضوعات السياسية المفـــرد العلم ، وفي الاطلاع على آداب العرب وتاريخهم وتاريخ الغرب الحجة الثبت ، يستشهد بالوقائع ويمليها كأنها مما مر به الساعة ، أو كأنه لا يعرف من علوم البشر غيرها ، حاضر الذهن ، قوي البديهة ، وقلمه أبداً مطواع لقريحته الفياضة •

---

(١) منها منصب قائم مقام (مدير منطقة) الشوف مدة ثـــلاث سنوات •

دارت سياسته طول حياتــه على خدمة الإسلام والعرب ، وكان يحاسن العثمانيين ويناضل عن دولتهم ، وما كان يصانع في دعوته ، بل يجامل مجاملة قد تضطره إليها حالة يتصورها • ولك أن تقول انها مداراة ومداورة • غضب على أحد اصحابه لطعنه في نسب صاحب الحجاز طعناً بذيئاً مختلقاً ، وعاد فطبع له كتاباً حمل آراءه السقيمة • وبقدر ماكان يكبو في تقريظ من لايستحقون التقريظ كان يجيد عندما يكتب من دون مؤثر ، كما وقع له عندما كتب مقدمة كتاب « نقــد الأدب الجاهلي » للعلاّمة محمد أحمد الغمراوي [1] • وله أشياء تعد عليه من هذا القبيل ، تتجلى فيها طريقة السياسيين ، وربما ماكان الداعي الى الوقوع فيها غير سلامة صدره ، وتحسين الظن في الخلق ، أما خطته في جهاده السياسي فلم يَعْرُها تبدلٌ محسوس ، اللهم الا ما دعت اليه سياسة الزمن ، وأي سياسي لم يغير سياسته طول عمره ؟ •

أذاق الفرنسيس والبريطانيــين من رشاشـــات يراعه بالعربيــة والفرنسية ما عرّض به نفسه لاضطهادهم وعداوتهم • وحمــل على الاستعمار والمستعمرين حملات معقولة • ولو جوّز مهادنتهم لكسوه الخز والديباج وأغرقوه بالمال والمظاهر •

ومن أجــل هذه الخطة كان المستعمرون يضمــرون له أشــد العداوة ، ويتابعهم أذنابهم في الشرق ، ويتحينون الفرص لإسقاطه • وكان خصوم سياسته ينالون منه ، ويقلبون ، لرداءتهم ، حسناتــه سيئات • وهو الذي تتجلى فيه أخلاق المسلم البار في عامة حالاته ، وتبدو أريحيته مع من يعرف ومن لا يعرف • يبادر الى اغاثة الملهوف ،

---

(١) الذي الفه للرد على كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) وعنوان كتاب الغمراوي (النقد التحليلي)

لا يفرق بين أهل المذاهب المختلفة ، وكان في الحرب العالمية الأولى يحمي أهل وطنه من اللبنانيين على اختلاف طوائفهم ، يحميهم وهو أمير من أمراء الدروز • مسلم" جماعي لا غبار عليه • واتهموه بأنه صانع موسوليني ملك ايطاليا ، وما كان ذلك منه الا ليرقق قلبه على مسلمي طرابلس وبرقة ، وبذلك أعاد ثمانين ألفاً منهم الى أوطانهم بعد أن شرّدوا عنها منذ الحرب العثمانية الايطالية •

كتب لي مرة « وبينا نحن على أهبة العمل في كتاب الاندلس ، إذ جاءتنا التزرية المعهودة ، فأخذت من وقتنا شهرين وزيادة ، لاعمل لنا فيها الا تحرير المقالات ، والدفاع [عن][1] أنفسنا في شيء نحن نعلم وأعداؤنا يعلمون هم أنفسهم أننا براء منه • وقد أحصيت ما كتبته من مقالات وكتب خصوصية في هذا الموضوع فبلغ ألفين وخمسمائة صفحة ، أي لو لم أقع في هذا الافتراء الذي افتراه عليّ من لا يخشى الله ، ولا يستحي من عباد الله لكنت أتممت جزأين وثلاثة من كتاب الأندلس » •

وقد تناول معاونات مالية من بعض ملوك العرب وأمرائهم • ومنها ما كان مقداره ذا شأن في الجملة ، ومنها ما كان تافهاً ، على أنها كلها لم تكفه ، وهو يجاهر وينشر آراءه • وباع بعض ما يملك في سورية ولبنان من أرض وعقار وأنفقه في الغرب • ومع هذا أضاق[2] أكثر أيامه •

اقترحت على الدولة المنتدبة وأنا في وزارة المعارف أن أنزل له

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من الاصل •
(٢) أضاق الرجل : ذهب ماله •

عن رئاسة المجمع العلمي العربي فلم تقبل مقترحي ، وأراد المجمع أن ينيب الأمير عنه في مؤتمر المستشرقين في هولاندة فما وافقت فرنسا أيضاً،وفي العهد الوطني أرادت الحكومة أن توسد اليه رئاسة المجمع فسعيت ليحرز أكثرية الأصوات ، وعينته الحكومة ، وكان على أن يشخص الى دمشق لتسلّم هذا العمل ، فأعلنت الحرب العامة ، ونادت فرنسا بأن مصلحتها أن تحكم سورية مباشرة فرجع الأمير من مصر ، ولم يتولَّ هذا المنصب ، وهو أقل ما يعهد به اليه بعد طويل جهاده .

رزق الأمير حظوة كبيرة في العالم الإسلامي ، وأكثر الشعوب تبجيلاً له واعجاباً بجهاده الشعوب المبتلاة بالاستعمار من أبناء الشرق والغرب ، دأب على نجدتها وكشف كربتها وتخفيف آلامها . وكان يضيع جانباً من وقته في مراجعة المراجعين والمستفتين والمستنجدين فيصدر عن مروءة ووفاء . وما فتيء أرباب الصحف الى آخر أيامه يطلبون اليه أن يؤازر صحفهم ، وهو يستحي أن يرد لهم طلباً ، وقلّ أن قصر في الإجابة على سؤال يوجه اليه ، لأنه أميل الى أن يرضي كل الناس ، كأن شهرته في المعاصرين من أرباب السياسة تقتضيه هذا الثمن الغالي ، وهو اضاعة وقته للنظر في شؤون كل من يلتمس منه غرضاً .

طلبت اليه مرة أن يجمع مقالاته التي تصلح للانتفاع بها في المستقبل ، وأن يطبعها في كتاب برأسه ، وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي العربي ، فأجابني من لوزان (٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي : « وأما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع العلمي فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ ولكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خَطْبٍ وأي خطب . كلما قرأ الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليَّ بالاقتراحات ، ولا أبالغ لك إذا قلت : ان الجرائد والمجلات التي

تبغينـــي أن أكاتبها تزيـــد على أربعين ... ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحياً ، ولا يقال لها كوني فتكون ... وأنا مضى عليَّ ٤٤ سنـــة وأنا أحرك قلمي وأكتب الى الجرائد مجاناً، لا أبتغي جزاءً ولا شكوراً، وأدفع أجرة البريد من كيسي،فلو حسبت لا ثمن وقتي بل أجر البُرُد من ٤٠ سنة الى اليوم لكانت مبلغا لا يستخف به ، فأنا أسامح بكـــل ما تعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي ، وأنا أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطىء ساحة الستين ، وصار محتاجاً الى الراحة وتشيرون بأن نجمع ماكتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحك في صدري دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك؟ اني أريد أن أجمع كل ماكتبته ، إنه يملأ أجلاداً وأجلادا ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا؟ ولكنني أفكر في انتقاء الأحسن وجمعه ، واعادة النظر عليه، وتصحيح شيء ، وحذف شيء ، واضافة شيء يسير إن وجد ضرورياً. وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع كل ما خطّه بناني فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فإني في أوربا منذ اثنتي عشرة سنة ، وفي الشهر الواحد من هـــذه المدة كنت أحرر لا أقل مـــن ١٠ مقالات في الشهر ، ففي السنـــة ١٢٠ مقالة ففي الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فإذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات مـــن قطع هذا المكتوب، فهذه فوق أربعة آلاف صفحة، أي ثمانية مجلدات كبار وهذا عن ١٢ سنة . وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب ، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتـــي عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل(١) . كلا هذا

(١) كتب بما يماثل هذا الى صديقه هاشم الاتاسي عام ١٩٣٥ وهو انه أحصى ما كتبه ذلك العام فبلغ ١٧٨١ رسالة خاصة و ١٧٦ مقالة في الجرائد و ١١٠٠ صفحة كتب (الاعلام ٣/٢٥١)

لن أقدر على طبعه ، وهذا كله ذهب في الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتي ، وكفنته بأجرة « البوسطة » [1] من كيسي ، وأجره على الله » .

وكتب الأمير بعد سنتين أنه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر فيه كل ما يكتبه من مكتوب خصوصي ، أو مقالة أو غير ذلك . وعندما انتهت سنة ١٩٣٢ جمع منتوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً ، و (١٠٨) مقالات ، وقصيدة واحدة ، ونحواً من ألف صفحة من علاوات على « حاضر العالم الإسلامي » ، وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى . قال : « وكانت المقالات السنوية تبلغ المئتين والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الألفين ، وقد كان يمكن أن تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير . وكذلك ما أزعمه من التأليف ، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع العالم الإسلامي ، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي ، ولا يمنعني ... عن الجواب ، لأني أعد رد الجواب كرد السلام ، وأرى عدم الرد نقصة في المروءة ، وإني لأتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية التي خمسين منها فقط تأتي على النهار كله .

هكذا اقتضت أخلاق مترجمنا أن يضيع أوقاته في إجابة رغائب الصحافيين المستنجدين والمراسلين والفضوليين ، ولطالما رجوته أن يخفف من هذه السخرات التي تعوقه عن إتمام مؤلفاته النافعة . أما هو فكان يهون عليه غمط حق نفسه ، يرضي من لا يرضيهم إلا الوصول إلى فائدة منه يستفيدونها هم ولو بإمراضه وإفلاسه ، ولذلك جاءت تآليفه أقل مما كان يرجى من عالم كاتب فياض مثله ، يكتب في شهر ما لا يكتبه غيره في سنين مع الإجادة في أكثر ما يخط يراعه .

(١) المراد البريد .

وزع قواه على أشياء لم يرحمه في الحصول عليها راحم ، وأهمل كتبه مضطراً ، وهو سيذكر في العصور الآتية ، ومنها ما لم يوفق الى إنجازه ، مع شدة الحاجة اليه ، لا أقول ان الفوضى كانت آخذة بأعماله ، فهو مثال التنظيم ، ولكنه حُبب اليه استمالة القلوب ، وجبر الخواطر ، والاستكثار من الأنصار والأحباب فخسر وقته ، وخسرت الآداب بعض نفثاته .

ويتصرف على مجاملته لأرباب الصحافة مجاملته لبعض المؤلفين ، ومنها مصانعته في تقريظ بعض كتب المعاصرين ، وهي لا تستحق التنويه ، لأنها منقولة من الكتب وليس فيها رأي للمؤلف . وبذلك أضعف أيضاً من مكانته الأدبية أو كاد . والعلم أشرف من أن يمسخ جماله في إرضاء من يتطلبون الإشادة بهم بالباطل .

ومن أنفع تآليفه تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الإسلامي » المنقول عن الانكليزية بقلم الأستاذ عجاج نويهض . وكان الأجدر بهذه التعاليق المفيدة أن تطبع في كتاب برأسه، فإن فيها أموراً من أخبار العالم الإسلامي صمتت عن ذكرها أكثر الكتب المتداولة .

ومنها « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » وهو تاريخ شامل للأندلس ، طبع منه مجلدان ، وهو في ثمانية مجلدات و « محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي » الأصل لزين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب ، صدره بمقدمة وعلّق عليه [1] .

---

(١) ذكر الزركلي في ترجمة الامام الاوزاعي (الاعلام ٤/٩٤) ان مؤلفه مجهول وقال : لعله لصالح بن يحيى

ومن المطبوع « الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف » وهي قصة رحلته الى الحجاز . والجزء الاول من « رسائل الصابىء »، و « الدرة اليتيمة لابن المقفع » . ومما ترجمه عن الفرنسية « أناطول فرانس في مباذله » .

وألّف : «غزوات العرب في فرنسة وشمالي ايطالية وفي سويسرة» . كتب لي بصدده ما يأتي : « وأما غزوات العرب في أوربا فهو كتاب لم يؤلف بالعربية مثله في بابه ، وقد توخيت أن أترجم فيه كتاب المستشرق الإفرنسي رينو ، وأعززه بتاريخ ألماني وتواريخ ايطالية حتى تزداد ثقة القراء ، ويعلموا أني نقلت من علماء الإفرنج، ولم أكتب من عندي ، لأن العادة اليوم عند ناشئة العرب أن لا يعوّلوا إلا على ما جاء في كتب الأوربيين . وعلى هذا فقد أوردت في هذا الموضوع بعض الروايات العربية المطابقة للتواريخ الأوربية » .

وله رواية « آخر بني سراج » شفعها بملخص تاريخ الأندلس . و « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » وهو من كتبه الممتعة .

وله مؤلفات أخرى مخطوطة منها : بيوتات العرب في لبنان ، ومذكراته .

ومما نشره : « الباكورة » ديوان شعره الأول ، و « ديوان الأمير شكيب أرسلان » ، و « السيد رشيد رضا » أو إخاء أربعين سنة ، و « شوقي » أو صداقة أربعين سنة ، و « تكملة تاريخ ابن خلدون » وتعليقاته على كتاب المبتدأ والخبر . و « الروض الشقيق » ديوان شقيقه الأمير نسيب . و « القول الفصل في رد العامي الى الأصل » ، والجزء الثاني من « رسائل الصابي » وكتيب عن البلاشفة،

ورحلته الى ألمانيا أيام الحرب • وهذان الكتابان نشرا في جريدة «الجهاد» المصرية ، ولم ينشرا على حدة •

وجميع هذه الكتب والرسائل التي ألفها تكاد تكون دون ما يتطلب من رجل عرف هذا الشرق الأقرب وقسماً عظيماً من أوربا وأميركا معرفة ثاقبة ، وعرف أكثر البلاد الاوربية ، ولم تبق مدينة منها إلا دخلها ، وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتل أحوالها درساً واختبارا ، ولم تفته إلا الأصقاع الاسكندنافية في الشمال ، كما قال عن نفسه •

كانت كتاباته مرسلة تصدر عن طبع لا تكلف فيه ، وفي بعض الحالات التي كان يرى أنها أليق بأن تصدر مزدوجة على طريقة الصابىء[1] والقاضي الفاضل [2] ، فكان في هذه الناحية من الأدب مقلداً ومحافظاً • وكان في الأحايين يعتمد على غريب اللغة ، وتحدثه نفسه أحياناً بإحياء بعض فصيحها فيقول « حَماطَة الجُلْجُلان » بدلاً من سويداء القلب،و « الإرث العَدْمُلي » بدلا من القديم • وفي كتابه « أناطول فرانس في مباذله » وديوان الروض الشقيق وغيرها نموذجات من هذه الألفاظ الحوشية القليلة الدوران في كتابة البلغاء •

بدأ شكيب يقول الشعر كما بدأ به شعراء عصره ومن كانوا قبل

---

(١) ابراهيم بن هلال (٣١٣ – ٣٨٤ هـ ، ٩٢٥ – ٩٩٤ م) نابغة كتّاب جيله ، تقلد دواوين الرسائل والمظالم أيام الخليفة العباسي المطيع لله وغيره ، (الاعلام ٧٣/١)

(٢) عبد الرحيم بن علي اللخمي (٥٢٩ – ٥٩٦ هـ ، ١١٣٥ – ١٢٠٠ م) وزير ومن ائمة الكتاب كان من وزراء صلاح الدين الايوبي ، ولم يخدم احدا بعده . (الاعلام ١٢١/٤) •

دفاعاً عن الأوطان ان دفاعها
لدى كل قوم كان أولى المكارم
تهيبهم فيها العدو مهاجماً
فجاء دبيبَ اللص في ليل قاتم
وليّن في إقباله من اهابه
وهل يُخدع الإنسان لين الأراقم
فثاروا وما كانت زعانف رومة
من العرب أكفاء الليوث الضراغم
وحسبك منهم كل قوم نمتهم
أرومة قحطان ونبعة هاشم
وكم وقفوا يستنصفون عدوهم
وهزوا من الاملاك جذع المراحم
فلما رأوا عجز الدليل تطلبوا
لدى الصارم البتار صدق التراجم
فلم يك مثل السيف كاليوم قاضياً
ولا العهد مثل الآن أحلام حالم
أخلاي" سوق" للمنايا مقامة"
تباع حفافيها غوالي الجماجم
فهل لكم في سوق بر ورحمة
تنالون فيها باقيات المغانم
غياثاً لمظلوم ونصراً لصارخ
وضمداً لمجروح وقوتاً لصائم

ومع أنه كان على يقين أن الدولة العثمانية دب فيها الهرم ، ومن المتعذر شفاؤه ، كان ينصح للعرب ألا يخرجوا عليها ، حفظاً لبيضة

الاسلام . فمما قال في ذلك (١) :

فيا وطني لا تترك الحزم لحظةً
بعصرٍ أحيطت بالزحام مناهلُه
وكن يقظاً لا تستنم لمكيدةٍ
ولا لكلام يشبه الحقَّ باطلُه
وكيدٌ على الأتراك قيل مصوَّبٌ
ولكن لصيد الآمنين حَبائلُه
تذكّر قديم الأمر تعلمْ حديثَه
فكل حديث قد نمته أوائله (٢)
إذا غالت الجُلّى أخاك فإنه
لقد غالك الأمر الذي هو غائله
ولو لم يُفِدْنا عِبْرةً خَطْبُ غيرِنا
لهانَ ولكن عندنا من نُسائله
سيعلم قومي أنني لا أغشهم
ومهما استطال الليل فالصبح واصله

وله في هذا الضرب قصائد حسنة تنادي بوطنيته وبعد نظره في مصاير الشعوب ، وتثبت أنه شيخ في الصناعتين . ومنها قصيدته في وقعة حطين وبحيرتها وصلاح الدين ، وهي أشبه بملحمة ، ومنها (٣) :

---

(١) هذه الابيات هي الاخيرة من قصيدة في ديوانه : ١٠٩ مطلعها :
اذا افتخر الشرق القديم بسيدٍ تميد بذكراه ابتهاجاً محافله

(٢) رواية الديوان : فكل اخير قد نمته أوائله .

(٣) القصيدة المشار اليها وردت في ديوانه ص ١١٣ ومطلعها :
احسن ما فيه يسرح النظر وادٍ بحيث الاردن ينفجر

يــا يــوم حطين كم حططت من الـ
إفرنـــج شأنــاً مــا كان ينكسرُ
هَبّوا من الغــرب كالجراد فلــم
يكــن لشــرقٍ بردّهــم قَدَرُ
واستفتحوا القــدس والبلادَ ولــم
يعص عليهــم بــدوٌ ولا حَضَرُ
وهددوا المسجــد الحــرام وكــم
دعــا مُلَبٍّ فيــه ومعتمــرُ
ومنهــا :
وقيل دار الاســلام قد حُصرت
وحَفّ باقــي بــلاده الخطــرُ (١)
يــوم تلاقى الجمعــان والتظت الـ
هيجاء حتــى كأنهــا سَقَرُ
الشرق والغرب بعــد طول وغــى
تواقفــا والبــراز مختصــرُ
فأمطرتهــم قِسِــيُّ جيش صــلا
حِ الدين نَبْلاً من دونــه المطــرُ
ذاق العِــدا من ســلاف طعنهــم
كأســاً بغير العنقــود تختمــرُ
لمــا بدا الأمر غيــر ما حســبوا
والناس من فــوق صبرهم صبروا
ولّوا ظبــا يــوسف ظهورَهــم
تأخــذ منها فــوق الــذي تَذَرُ

(١) هذه رواية الديوان . وفي الاصل : خطر .

قاصمة الظهر للفرنج غدت
وقعة قرني حطين مذ ظهروا
كأن علياء حطين مبتدأ
وكل فتح من بعده خبرُ

وكان في بعض السنين (١٣٢٣) نازلا ضيفا على ابن عمه الامير أمين أرسلان في دومة من غوطة دمشق ، فاتهمت بتهمة الطعن في والي سورية ، وفتشت داري وأخذوا أوراقي ، ثم تبين أني بريء مما قُرفت به ، فنظم شكيب قصيدته وهو ملتاث المزاج ، يصف بها الحال ، وقد جمع في قوله بين الهزل والجد ، بدأها بقوله [١] :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم
طلاب المعالي سمير الألمْ
ومن أرقته دواعي الهوى
فدون الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا تَخَبّا فتى
طريد الكتاب شريد القلم
يرى الأرض ضيقاً كشق اليرا
ع ويهوى على ذا الوجود العدم

(١) ديوانه : ٢٨ بعنوان (حادثة سياسية استحالت فكاهة ادبية)

وكم ذا بجسرين من ليلةٍ (١)
على مثل جمر الغضا في الضَّرَم
تمنى الأديب بها نُدْحةً
ولو بات يرعى هناك الغنم
وكم سروةٍ تحت جنح الظلام
كسرٍّ بصدر الأديب انكتم
يخاف بها حركات الغصون
ويخشى النسيم إذا ما نسم
وإن تَشْدُ وَرْقاءُ في أيكةٍ
تؤرقه في صوتها والنغم
وكم بات للنجم يرعى إذا
أديم السما بالنجوم اتسَّمْ
وطال به الليل حتى غدا
يظن عمود الصباح انحطم
ومن ذعره خالَ أنَّ النجو
م لتهدي إلى مسكه عن أَممْ
إذا ما السماك غدا رامحاً (٢)
توهمه نحوه قد هجم
ولولا الدجى لم يتم النجا
وقد أمكن الظلم لولا الظلم
ولله در القرى إذ خَفَتْه
فما بالسهولة يخفى العَلَم

(١) جسرين قرية من قرى غوطة دمشق الشرقية ، للمؤلف فيها أملاك .
(٢) الديوان : بدا رامحاً .

فجسرين ، زبدين ، والأشعري [1]
ديار بها قد أوى واعتصم
ونحو « المليحة » رام الخفا
وكم بالمليحة من متهم [2]

ديار أبى أهلها غدره
وآواه منها الوفا والكرم

ولا شك رقّوا لأحواله
طريداً يعاني الجوى والسَّقَم

ليالي كانون في الأربعين
وبرد العشيات أغلى الفَحم

بأرض تراها سماء وماء
ففوقَ السواقي وتحت الديم

يجول وقد صار مثل الخيا
ل ودقّ فلو لاح لم يقتحم

وفوق الخدود كلون البهار
وتحت المآقي كلون العَنَم [3]

وفي كل يوم سؤال وبحث
وأنى تولى وكيف انهزم [4]

---

(١) جسرين ، زبدين ، الاشعري ، المليحة : قرى في غوطة دمشق الشرقية .

(٢) تورية لطيفة ، لان المليحة قرية عبد الوهاب الانكليزي ، من نوابغ العرب، وكان من المتهمين في نظر الدولة العثمانية بسياسة تخالف سياستهم ، وصلبته مع من صلبتهم من شبان العرب الشاميين في الحرب العامة الاولى (المؤلف) .

(٣) العنم : شجرة حجازية لها ثمرة يشبه بها البنان المخضوب .

(٤) الديوان : وأين انهزم .

وقــد كان في كَبْسهم بيتــه (١)
بجلــق قــال" وقيــل" عـَمَمْ
فكانت علــى كتبــه غــارة
كغــارات عــرب الصفا بالنَّعَم (٢)
وقالــوا سينفــى إلــى رودسٍ
وقالــوا سيجزى بمــا قــد جــرم
وقالــوا سيحملــه أَدهــم"
بمرقــاة لا تستريــح القــدم
وقــد قيل « فرّان » من دونــه
وتلــك السموم وتلك الحمــم (٣)
وبعض بسجنٍ عليــه قضــى
وبعض بضربٍ عليــه حكــم
و « كــرد علي » غــدا عبــرةً
ففــات ومنــه الرجــاء انصرم
فياكرد لا تحزننــك الخطــو
ب فــإن الهمــوم بقــدر الهمــم
ومــن رام أن يتعــاطى البيــا
ن توقــع أن يبتلــى بالنّقــم
فذي حرفــة القــول حريفــة"
وكــم أدركت مــن لبيب وكــم

(١) كبس البيت : داهمه على حين غرة .
(٢) عرب الصفا مشهورون بالنهب والسلب .
(٣) هذا البيت لم يرد في ديوانه .

وكم كَتْبه أعقبت نكبة
وكم من كلام لقلبٍ كَلَمْ [1]

ومن بالكتابة أبدى هوى
فإن الكآبة منه القسم

فياكردُ صبراً على محنة
فكم محنة شيبت من لمَمْ

وصبراً على ورقات لها
عيون المعاني يبكين دم

وواهاً لباقات زهر غدو
ت لها جامعاً يا أخي من قدم

أزاهر تسهر في جمعها
فلا غرو إن فاح عرف فنم

وما نَمّ إلا بنشر ذكي
وطيبٍ يفوق عرار الأكم

فقولوا لواشٍ بكرد علي
نشرت الثنا حين حاولت ذم

الى آخر ما قال ووصف به الحال[2] :

★ ★ ★

(١) هذه رواية الديوان . وفي الاصل المخطوط : وكم نكتة .
(٢) تتمة القصيدة تقع في ثمانية ابيات فقط .

- ٢٥ -

طاهر الجزائـــري *

١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ

١٨٥٢ - ١٩٢٠ م

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري . هاجر والده من الجزائر الى دمشق في سنة ١٢٦٣ ، وكان من بيت علم وشرف ،وتولى بدمشق قضاء المالكية . دخل طاهر المدرسة الجقمقية الاعدادية ، وتخرج بالاستاذ عبد الرحمن البستاني ، أخذ عنه العربية والفارسية والتركية ، ومباديء العلوم ، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ، وكان فقيها عارفا بزمانه واسع النظر ، بعيدا عن التعصب والجمود ، على قدم السلف الصالح بتقواه وزهده. ودرس الشيخ العلوم الطبيعيةوالرياضية والفلكية والتاريخيةوالاثرية. ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركيـــة ، ونظم بالفارسية كما ينظم بالعربية ، وتعلم الفرنسية ومباديء السريانية والعبرانية والحبشية . وكان يعرف القبائلية البربرية لغة مواطنيه ، ويعنى عناية خاصة بعلاقة اللغة العربية باللغات السامية . وأولع منذ

---

* ترجمته في الاعلام ٣/٣٢٠ ومعجم المؤلفين ج٥/٣٥ وانظر كنوز الاجداد ٥/٤٦ ، تراجم أعيان دمشق ١٢٠ والاعلام الشرقية ٢/١١٤ ، معالم وأعلام ١/٤٢٣ وانظر محاضرة لمحمد كـــرد علي عنه في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المجلد ٨ ص ٥٧٧ ـ ٥٩٦ و ٦٦٦ ـ ٦٧٩ ونعاه المجمع في مجلته ، المجلد الاول : ١٧ ، وللشيخ محمد سعيد الباني الدمشقي كتاب عنوانه (تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر) طبع .

صغره باقتناء المخطوطات والدشوت،فاجتمع له منها مع الزمن مجموعة عظيمة أعانته في مقتبل أيامه على الارتفاق من ثمنها وقد تضاعفت أسعارها لما تنافس المستعربون من أهل الغرب في اقتنائها ، ولغرامه بالكتب المطبوعة والمخطوطة ، عرف الجيد وغيره من أصنافها ، وعرف طبقات المؤلفين وتراجم الرجال ، وأماكن المخطوطات والنسخ المتفرقة منها في الخزائن الشرقية والغربية ، ساعده على اتقان ذلك قوة حافظته ، فانه ما مر خاطره بشيء ونسيه •

تولى التعليم لاول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية ، وفي سنة ١٢٩٤ دخل في الجمعية الخيرية ، وهي التي استحالت بعد ديوان معارف ، فعين سنة ١٢٨٥ مفتشا عاما على المدارس الابتدائية المنشأة على عهد المصلح مدحت باشا والي سورية ، فاقتضاه ذلك تأليف كتب التدريس للصفوف الابتدائية في جميع الفروع ، وأخذ على نفسه تعليم المعلمين أصول التدريس ، يوهمهم أنه يتعلم منهم وهو يعلمهم • وأنشأ في هذه الاثناء دار الكتب الظاهرية (١٢٩٦) ، استعان ببعض المغمورين من العلماء ، فهددته أكلة أوقاف المدارس بالقتل ان لم يكف عن جمع الكتب في مكان واحد ، لانه استولى بسيف الحكومة على جميع ما أبقته أيدي النهب من الكتب المخطوطة ، وكانت مفرقة في عشر مدارس • وبعد مدة أنشأ في القدس خزانة سماها المكتبة الخالدية ، وهي كتب الشيخ راغب الخالدي ضمت اليها كتب أسرته •

قلت في الترجمة له [1] : « وإنه يندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله • وعى صدره من ضروب

---

(١) في صدر كتابنا « كنوز الاجداد » ترجمة حافلة لاستاذنا الشيخ طاهر الجزائري (المؤلف)

المعارف ما وعى ، وطبق مَناصل الشريعة على علوم المدنية ، فقد كان متضلعا من علوم الشرع وتاريخ الملل والنحل ، منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتراجم رجاله ، ومناظرات علمائه وتآليفهم ومراميهم . كان اماما في علوم الادب واللغة . اذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لا يعرف غير هذا العلم ، واذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على ما لا يتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه أياما ، وهكذا هو في علوم الشريعة ، ولا سيما التفسير والحديث والاصول . وكان يعرف السياسة ، وما ينبغي لها ، وحالة الغرب واجتماعه ، والشرق وأممه وأمراضه معرفة اخصائي لا معرفة نُتَف . ولا يكاد جليسه يصدق ــ اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات ، خصوصا اذا كان غريبا ــ أن محدّثه شيخ من شيوخ المسلمين ، يعيش في أمة قد لا تقيم وزنا لهذه المعارف .

كان لا يقول بالموسيقى والتمثيل ، ويتسامح بالتصوير والرسم والنقش ، ويقول : ان أجيال الفرنجة أفرطوا في الغرام بالتصوير والتعويل عليه في كل أمر فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير . ويدعو المسلمين الى تعلم أصول دينهم،والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الحسنة ، وأخلاقهم القويمة ، وأن يفتحوا قلوبهم لعلوم الاوائل والاواخر على اختلاف ضروبها . وكان يأخذ بأصح الادلة من الكتاب والسنة ، ويجتهد بعدها . ولطالما أعطى الحق للمعتزلة والإباضية والشيعة في مسائل تفردوا بها وضيق أهل السنة . ويعطف على الفلسفة أو الحكمة القديمة والحكمة الحديثة ، وينحي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقولَ .

كان ينكر على الظالمين ظلمهم ، ويقبح الظلم وان نالَ عدوه ،

وينصف الناس من نفسه ، والحكام يخشون سراية أفكاره في العامة .
وقد أخرجوه من منصبه في تفتيش المدارس ، وعرضوا عليه وظيفة لا يكون له [فيها][1] اتصال بالناس فأبى . وظل الى آخر أيامه يعيش من بيع كتبه ، ويبيعها الى من يرجو حفظها عندهم وعدم خروجها من القطر . وكم مرة استعان الفقهاء الجامدون على النيل منه بالحكومات، فكان يصدهم عن ايذائه بما له من التأثير في أهل الحل والعقد ، فيتمثل لهم عقله وضعف عقول المبغضين له . وكان سلاحه علما ، وسلاح خصومه دسائس يحوكونها وتعصبات ينفثونها .

كان يتفنن في بث الافكار الصحيحة في العامة والناشئة ، ويعلم رواد علمه بالعمل في جلسات قليلة حتى يفتح أذهانهم للتعلم بعد الجهل، وكم من جريدة ومجلة وكتاب ورسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده.

وكانت ثورته ثورة فكرية ، ويقول : ان هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار ، والسلامة محققة . ولا يكاد يفلت من يده فرصة لارشاد الكبراء اذا شاهد فيهم استعدادا لقبول نصائحه ، وهو منصرف أبدا الى النهوض بالامة ، وتثقيف العقول ، والاشتغال بالجد المجدي . ويحث الابناء على تعلم الصناعات ، ولو كان آباؤهم على شيء من السعة .

قال صديقه العلامة أحمد زكي في برقية أبرقها الى دمشق بالتعزية به : « كنت أرى فيه الاثر الباقي والمثال الحي والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية ، وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص ،واستثارة

---

(١) ليست في الاصل .

خباياها وابراز مفاخرها . هذا الى التفاني في توسيع نطاقها بقبول ما تجدد عندالامم التي تلقت تراث العرب باليمين ، والدعوة الى الاقبال عليه مضموما الى آثار الابناء ومآثر الاجداد . وهكذا قضى الشيخ عمرا طويلا أولا وثانيا وثالثا في خدمة العلم والدعوة اليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة ، حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الانداد والتلاميذ والمحبين والمريدين ، فهم مناط الامل ، وفيهم خير خَلَف . لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنو عليه » .

كان الشيخ عمليا في جميع أحواله . يصل الى الغاية من أقصر طرقها ، لا يبالي المصاعب ، يتصدق في سر ، ويتعبد ، ويقيم الصلوات لاوقاتها ، رقيق الشعور ، يأرق للبائسين والمفلوكين ، ويعطف على الفقراء والمساكين ، عفّ النفس ، عزيزها يصبر على الضيق ، لا يتأفف ، يؤثر الخمول على الظهور ، وشهرته تتبعه على غير رضاه ، يزهد في اعتبارات كثيرة مما اصطلح عليه القوم ، لا يبالي الابهة ، ولا يسفّ الى التمجد . يحافظ على عاداته وأخلاقه ، يتشدد في دينه ، ولم يتزوج حتى لا يشغل ذهنه بالزوج والولد ، كان يصحب أهل المذاهب المختلفة ، ويحسن ظنه بأهل الاديان السماوية ، لانهم يؤمنون بالله واليوم الآخر والبعث والنشور . قضى حياته يكافح الامية ، ويحارب التعصب ، ويحرص على تعليم أولاد الاغنياء خاصة ، لان عندهم المال والجاه ، فتحصيل العلم يفيدهم . ويجب أن يتعلم المتعلمون صناعة أهلهم ويتقنوها ، وكثيرا ما يقول : تعلموا العلم ، وتعلموا معه صناعة تعيشون بها حتى لا تقفوا على أبواب أرباب السلطان ، تستجدون الوظائف والجرايات ، فاذا احتاجت الحكومات اليكم أخذتكم

لخدمتها ، واعملوا بالنزاهة والاستقامة ، واخلصوا لها وللامة القصد.

وكان جيد الفراسة والحكم على الحوادث ، يشمئز من بعض أرباب المظاهر فأثبتت[1] الايام أنه كان على حق في بغضهم وتحامي مجلسهم ، ويحكم في المسائل السياسية حكما سليما لا يصدر أصح منه عن أعظم سياسي محنك .

كان معجبا بالمدنية الغربية مطلعا على أسرارها اطلاعا عظيما ، وأكثر ما يعجب به المدنية الانكلو سكسونية،(الانكليز ، والاميركان، والالمان ، والسكندنافيين) ويكره الاستعمار وأهله ، ويحذر من الوقوع في حبائله ، ويكره الحكم التركي ويعجب بتربية الاتراك وتدينهم وتمدنهم ، لا يحقد إلا على من يصدون عن الاخذ بمذاهب العلم والخروج من ظلمة الهمجية . لم أسمع من فمه كلمة ُهجر على طول اتصالي بخدمته في السفر والحضر . ولم أشهده يحسّن القبيح ويقبّح الحسن لهوى في النفس أو مصانعة ورياء .

وكان يحب الرياضة سيرا على قدميه ويسبح ويعوم في النهر والبحر ، ولا يعنى كثيرا بثيابه عنايته ببدنه وألبسته مما يستغربه الناس .

سمع يوما من جار له كلمة قاسية في المشايخ ، فأبدل من الغد العمامة البيضاء شعار الشيوخ بعمامة من الاغباني على زي التجار ، حتى لا يعرف ولا يناله شيء من طعن القوم على الفقهاء . وكان متقللا متقشفاً بدون تصنع ولا غلو ، ويدخّن كثيرا ويعرف أن الدخان يؤذيه ، وقد يحمل في عبابه[2] وجيوبه شيئا من النّقل والسكر والخبزوالجبن

(١) الاصل : فثبتت .

(٢) جمع (عب) بضم العين : الردن وهو الكم .

وغيرها مما يؤكل ، ويحمل معه موسى ومقصا وإبرأ وخيوطا وغير ذلك مما قد يلزمه وهو بعيد عن بيته ، ويرى كل ذلك فرجا له وامتاعا له بحريته ..

أَلِفَ الشيخ مدة أربعين سنة أن يسهر مع أصحابه الى الهزيع الثاني من الليل ، ثم ينقلب الى منزله يؤلف ويقرأ حتى يصلي الصبح وينام على الظهر . ولم ينقطع عن التأليف والكتابة منذ كان في سن الطلب حتى وافاه أجله في آخر العقد السابع من عمره . وكانت تآليفه في شبابه « الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية [1] » و « منية الاذكياء في قصص الانبياء » ، و « مد الراحة الى أخذ المساحة [1] ، و « مدخل الطلاب الى علم الحساب » و « الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام [1] » ، و « رسالة في النحو » وأخرى في البديع[2] ، وثالثة في البيان ، ورابعة في العروض [3] . وله كتاب « تسهيل المجاز الى فن المعمى والالغاز [1] » . ومما كتبه في الكهولة والشيخوخة « شرح ديوان خطب ابن نباتة [4] » . ومن كتبه « ارشاد الالباء الى تعليم ألف باء » وهو كتاب في علم التربية . وله « رسالة وجداول جدارية في الخطوط القديمة والحديثة » ، و « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » وهي المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره ، و«مقدمة الكافي » وهو معجم لغوي ضاع أكثره ، و « التقريب الى أصول التعريب [1] » ، و « توجيه النظر الى علم الاثر [1] ، و « مختصر

(١) طبع .

(٢) عنوانها : بديع التلخيص ، طبعت .

(٣) عنوانها : تمهيد العروض الى فن العروض . طبعت .

(٤) ابن نباتة : عبد الرحيم بن محمدالفارقي . أجمعوا على انخطبه لم يعمل مثلها في موضوعها . ولد في ميافارقين بأرض ديار بكر سنة ٣٣٥هـ = ٩٤٦ م . وتوفي بحلب سنة ٣٧٤ = ٩٨٤ م . وهو غير الشاعر المصري محمد بن نباتة (٦٨٦ ـ ١٢٨٧ هـ) .

أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و « مختصر أمثال الميداني » ، و «مختصر البيان والتبيين » للجاحظ ، و « المنتقى من الذخيرة » لابن بسام .

ومما تركه مخطوطا تفسيره الكبير ، ويدخل في أربعة مجلدات حفظ في دار الكتب الظاهرية مع ماعثر عليه من كنانيشه[1] وفيها خلاصة ما طالعه من الاسفار .

وله من المخطوطات « الالمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام » ، و « مقاصد الشرع » وغير ذلك .

وقد أحيا بالطبع عشرات من الكتب منها : « إرشاد القاصد » لابن ساعد الانصاري و « روضة العقلاء » لابن حبان البُستي ، و « الادب والمروءة » لصالح بن جناح ، و «الادب الصغير» لابن المقفع، و « أمنية الألمعي[2]» و « تفصيل النشأتين[3] » للراغب الأصفهاني ، و « الفوز الأصغر » لمسكويه ، الى غير ذلك من مقالاته وأماليه في المجلات والصحف ، ومنها بتواقيع مستعارة .

(١) الكنانيش : جمع كناش ، وهذا اللفظ تعريب لكلمة (كناشا) السريانية ، وتعني مجموعة أشياء وعلى الاخص الاشياء المكتوبة .

(٢) اسمه الكامل (أمنية الالمعي ومنية المدعي) لاحمد بن علي بن الزبير ، المعروف بالرشيد الأسواني المتوفى سنة ٥٦٣ هـ . وهو مقالة قصد بها الفكاهة وأملاها بلسان الدعابة على من استوجب الانبساط اليه ، وذكر فيها علوما جمة ، وقدم له بترجمة للمؤلف وختمه بخاتمة في العلوم واقسامها ومواضيعها وغاياتها .

(٣) اسمه الكامل (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) للحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، وهو كتاب لطيف جامع للنوادر اللطيفة ، والمراد بالنشأتين النشأة الاولى والنشأة الآخرة .

ومن أهم كتبه المطبوعة « شرح خطب ابن نباتة » و « إرشاد الألبا » ، و « التبيان » ، و « التقريب » و « توجيه النظر » حملت دررا من علمه وبحثه • وبلغني أنه دوّن بعض الوقائع ولم نعثر عليها بين أوراقه التي سرق بعضها عند عودته من مصر الى الشام ، وكان هاجر الى مصر لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي ، وسكنها من سنة ١٣٢٥ الى سنة ١٣٣٨ ، وفي القاهرة عرفه جلة علماء المصريين ، ونشأت له مع بعضهم صداقة[(١)] •

ويمكن اجمال حياةالشيخ بأنه كان مصلحا حكيما لم يدخر وسعا لبثّ العلم والمعارف في عقول كل من يرى فيهم استعدادا لقبول دعوته وارشاده • وهو أبدا يختصر المطولات من كتب الفنون ليسهلها على المبتدئين ، وقد تمت له هذه الامنيّة ولو لم يأخذ من وقته شطرا عظيما في المختصرات لكانت تآليفه أمتع وأوسع ، خصوصا ما كتبه في العشرين سنة الاخيرة من عمره ، ولئن كان في مذهبه الديني مجتهدا • لقد كان في تآليفه مقلدا يمشي على آثار القدماء ، ولا يحب التوسع في التعليق على آراء المؤلفين المجددين ، وكان يحتاط في مراسلاته الخاصة مخافة تعنت أصحاب السلطان ، واقتصر فيها على ما عرف من الرسائل التي دارت بيني وبينه على مسائل العلم ونشر الافكارالنافعة في تنوير الاذهان فقط • وكثيرا ما سمعته يقول : أنا شاذ فأرجو ألا يقتدي بي أحد ، ولا يحب لاصحابه أن يلقوا بالا لما يقال فيهم من المدح والقدح ، ويحرم عليهم تلاوة ما يكتب فيهم من ذلك ، ويوصي بالعناية العامة ، ويريد جماعته على أن يوهموهم أن ليس بينهم وبين الخاصة سوى درجات قليلة يمكنهم أن يرتقوا اليها ، اذا صحت عزيمتهم ،

(١) وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق كما سمي مديرا لدار الكتب الظاهرية ، وتوفي بعد ثلاثة أشهر .

وذلك بتعلمهم أشياء طفيفة بدون كدٍّ ذهن ولا صرف وقت ومال كان لا يعرف الهُجْر ، ولا يسب سبا قبيحا ، هذا مع حدة ظاهرة فيه ، واذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضرته ، والا فيعتريها شيء من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية ، ولم يجر لسانه بجملة واحدة باللهجة المصرية مع أنه أقام في مصر أعواما كانت تكفي لتقلب فيه اللهجة الشامية الى اللهجة المصرية ، وله تعبيرات خاصة وأساليب في مصطلحاته ، ونبراته لطيفة تحلو من فمه . وما أحصي عليه أن نطق يوما بفُحش أو هُراء أو سبّ ، أو استعمل ما ينافي الادب ويقدح في المروءة ، ويمزح ويتندر أحيانا . وكان ينهر من يوردون أحاديث تفت في عضد السامعين . ومذهبه القضاء على الرعب والوهم ، وتقوية القلوب ، وازالة غشاوة الاوهام ، والصبر وبذل الجهد في كل شيء ، وأن يُعنى المرء بمصالح غيره كما يُعنى بمصالحه الخاصة ، ولا يحب للمتكلم الاستنتاج غالبا حتى لا يؤدي التزيد والتفلسف الى عدم الانتفاع بالواقع . كان مغرما بمدنية الغرب ويحث على تعلم لغاته ، ويكره السياسة العثمانية ويقول : ان استيلاء الترك على العرب أزال مدنيتها وغيَّر أخلاقها . ويحب من أهل المدنيات الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة . ويؤثر بصداقته من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئا من وقته وماله . وقال وهو على فراش الموت : عزّوا رجالكم ، واغفروا لهم بعض زلاتهم ، ولا تنفّروهم لئلا يزهدوا في خدمتكم . هذا ، وهو الرجل الذي أخلص كل الاخلاص في خدمة أمته ، وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوسا وانقباضاً وتنغيضاً وغمصا وعصيانا على اصلاحه الا قليلا ، ذلك لان الحكام كانوا يحاذرون سراية أفكاره في الرعية ، والمشايخ يريدون ألا يخرج عن طرائقهم في تثبيط الناس والاستطالة عليهم بالجهل . وكان يساويهم في

كسلهم وقلة ذممهم وعلمهم ، وليس بينهم من يَعْشُره ولا نبغ فيهم فرد مثله . جمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، وامتاز بأنه أحب العلم للدين والدنيا ، والفريق المخالف له من الممخرقين بالعلم أو ببغض فروعه أرادوه للدنيا وللوصول الى مظاهرها ، وشتان بين الطريقتين . هم ذهب ذكرهم بذهابهم من هذه الديار ، وخلد ذكره لانه عمل لها وللآخرة . ذهب من الدنيا وقد أحسن في كل ما عمل ، وأولئك خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

★ ★ ★

- ٢٦ -

عبد الرحمن الكواكبي *

١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ

١٨٤٩ - ١٩٠٢ م

تنتسب أسرة الكواكبي للسيد ابراهيم الصفدي ، من أمراء أردبيل من أعمال أذربيجان . نزل حلب قبل أربعة قرون وتديّرها[1]، ونشأ أولاده وأحفاده على فضائل وعلم . وكان آخرهم الشيخ أحمد الكواكبي والد السيد عبد الرحمن مترجمنا هذا . ووالدته السيدة عفيفة النقيب ابنة مفتي انطاكية،ماتت وهو طفل فكفلته خالته ، وكانت مثقفة بثقافة عصرها ، تكتب وتقرأ ، فأخذته الى أنطاكية فقضى فيها ثلاث سنين ، ثم حمل الى حلب ، وعادوا به ثانية الى بيت خالته وهناك قرأ القرآن وتعلم التركية ، وبعد رجوعه منها دخل المدرسة الكواكبية مدرسة أجداده ، وكان والده مديرها وأحد مدرسيها ، فقرأ ما تيسر

---

* ترجمته في الاعلام ٦٨/٤ وهو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي ، ويلقب بالسيد الفراتي (ولادته في الاعلام سنة ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩ م ووفاته سنة ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م وانظر نهر الذهب ٨٥/٢ و ٤٠٤/٣ ورواد النهضة الحديثة ٢٠١ - ٣٠٦ معجم المؤلفين ج٥ /١١٥ وولادته فيه سنة ١٢٧١ هـ ، ١٨٥٥ م ولعله غلط وهوكذلك عند المؤلف .

وانظر تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١٠٧١ في الادب الحديث ٣٦٥/١ ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة : ٥٥ ، تراجم مشاهير الشرق : ٤٣٧/١ولعباس محمود العقاد كتاب (الرحالة كاف عبد الرحمن الكواكبي) ، الاتجاهات الادبية : ١٠٩ .

(١) اتخذها دارا ومحلا لسكناه .

من علوم الشريعة واللغة ، واتصل بأديب تركي اسمه خورشيد أفندي فعلمه التركية والفارسية ، ولقنه بعض العلوم العصرية ، وأخذ ينشىء بالتركية كما ينشىء بالعربية .

تولى في شبابه تحرير جريدة « الفرات » الرسمية خمس سنين ، وكانت مثل جرائد الولايات العربية تصدر باللغتين العربية والتركية . تمرن على الترجمة في اللغتين ، وأصدر خلال ذلك جريدة سماها « الشهباء » فأغلقتها الحكومة بعد مدة بدعوى أنها نشرت أفكارا لا يجوز نشرها ، ثم أصدر جريدة ثانية سماها « الاعتدال » وهذه أيضا كان نصيبها نصيب أختها الموؤودة .

واتفق أن أطلق شاب أرمني رصاصة من مسدسه على جميل باشا والي حلب ، فاتهم المترجم له وجماعة من الاعيان بأنهم هم المحرضون على اغتياله فبرأته المحكمة وعزل الوالي . وكان جميل باشا هذا من أفسد ولاة العثمانيين ويكفي في سفالة أخلاقه أنه تجسس على والده نامق باشا . وبعد سنتين تجددت مصيبة المترجم له بالولاة فاتهمه الوالي إذ ذاك بأنه ألف جمعية غايتها الخروج عن طاعة الدولة العثمانية فسجن . وكانت هذه الدعوى من تلفيقات بعض الاعيان ممن غضبوا عليه لإظهاره مبادئهم ، ونعيه عليهم استرسالهم في سلب الضعفاء ، فرأى السيد المتهم أن المحكمة ربما حكمت عليه بإيعاز الوالي فطلب نقل دعواه الى ولاية أخرى فنقلت الى بيروت ، وفي محكمتها بُرّىء مما عزي اليه وعزل الوالي أيضا لثبوت تزويره .

وعلى الاثر عين قاضيا على راشيا ، فأدرك أن ولاة الامر يتربصون به السوء فأسرّ في نفسه الالتجاء الى مصر ، ولم يُطلع على نيته حتى

أقرب الناس اليه من أهل بيته • ووافى مصر ، وكانت شهرته سبقته اليها • وأخذ ينشر في جريدة « المؤيد » مقالات في الاستبداد حازت استحسان العارفين ، ثم جمعها في كتاب سماه « طبائع الاستبداد » فصدرت ادارة السلطان عبد الحميد بالحكم عليه بالاعدام ومصادرة أملاكه •

تقلب الكواكبي منذ نشأته في وظائف الدولة في بلده ، ومنها رياسة بلدية حلب ، وناظر ادارة حصر الدخان [1] ، ورئيس غرفة التجارة والزراعة والصناعة • وكان اذا تنحى عن الخدمة يعمد الى المحاماة ، وما كان يتناول أجرا من الفقراء فدعاه القوم أبا الضعفاء •• وأسس عدة شركات وطنية ومنها شركة جر مياه الساجور الى حلب، وشركة الكهرباء ، وشركة تجفيف سهل العمق •

وما منعت هذه الاعمال الادارية والمالية مترجمنا عن مواصلة الدرس والبحث فكان كل يوم تزيد معارفه كما تزيد تجاربه ، ويقتنع بأن الدولة آخذة بالانهيار ، وبما قاساه في القضيتين المزورتين عليه وبهما حبس وكاد يحكم عليه بالقتل أدرك أمورا لا تتجلى لكل ناظر • فكان من الطبيعي أن ترشح كتاباته مما تشبع به روحه من بغض دولة الترك وفسادها وفساد أحكامها وحكامها •

كانت ثقافة الكواكبي الاولى ثقافة مشائخية عربية ، ثم مزجت ثقافة تركية ، وهو كل يوم يتعلم في مدرسة الحياة دروسا في الآداب والحقوق والسياسة والاقتصاد ، وكل أولئك أخرج منه رجلا عارفا

(١) أي مدير مصلحة الدخان (السجائر) والتبغ والتنباك ، وكان يطلق عليها اسم (الريجي)

بمصائب أمته وعللها وأدويتها وسوء قصد راعيها بمحاولته القضاء على شخصياتها ليدوم له حكمها بالظلم والجبرية • وقد استقى كثيرا من معلوماته من اللغة التركية ، ومن لقاء علماء الترك ، فما فاته من جهل لغة غربية جبره بعض الشيء بما قرأه في التركية من المترجمات عن الغربيين •

كان ما يعرض عليه من مشاكل المجتمع يعرضه على القانون والشرع فيشهد المباينة شديدة بين المكتوب في الصحف والمعمول به النافذ ، فيزيد ألمه وتضطرب نفسه ، وكان كيف تقلب في وطنه يرى من أعمال الدولة ما يخرج الحليم عن طوره • ويبكي حتى عيون أرباب القلوب المتحجرة • وما كتابه « طبائع الاستبداد » الا لمحة صغيرة مما أملته عليه بيئته ، وسجل ينطق بأخبار الظلمة وقبح أثرهم ، فلا عجب ان دعا ، على رزانة فيه ، الى نزع أيدي العرب من سلطان الترك وأشار الى ان العرب في الولايات العثمانية آخذون بالانقراض ، كما أن المسلمين في أقطار الارض على شفا الانحلال بصنعهم وصنع حكوماتهم، وارهاق مستعمريهم وملوكهم ، ومن كل هذا استقى موضوع روايته الخيالية « أم القرى » وما هي الا وصف أمراض الشعوب الاسلامية على اختلاف أقطارها وامصارها •

وهو اذ أصيب باليأس من انهاض أمته فما نسي أن الخير لا تزال جراثيمه كامنة في جسمها تحتاج فقط الى من يحركها • وهذا ما حمله على الهجرة الى مصر ، ومنها رحل الى سواحل افريقية الجنوبية والشرقية ، وزار الحبشة وهرر والصومال وجاوة وسواحل جنوبي الصين ، وعاد الى مسقط وجزيرة العرب • سهل له هذه السياحة أحد أصدقائه من رجال السلك الدبلوماسي الطليان ، وكان صديقه وعشيره في حلب •

وكان يجتمع الى رؤساء الاقطار التي ينزلها ويدخل في القبائل ، ويسبر بمسبار عقله مبلغ قوتها • وقطع صحراء الدهناء في اليمن فكشف جواسيس السلطان العثماني أمره ، ونجا من شرهم ، وعاد الى مصر ، وقد قاسى من المخاطر والمتاعب ألوانا وأشكالا •

قلت في مذكراتي : « وفي مصر صادفته وعاشرته وأخذت من تجاربه وحكمته • وجاءني ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم • ويستشيرني في أمر عظيم • قال : ان الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه الى الأستانة ليقدمه الى السلطان العثماني، ويستجلب رضاه عنه • فصعب عليّ وعلى رفيق بك ابداء رأي في موضوع جد خطير كهذا • لان ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا عن سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها • ومما قال لنا : انه حائر في أمره بين القبول والرفض ، وانه شعر بالامس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا • وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره فما هي الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول : قم ياكرد علي فان صديقك أبي مات • فاضطربت اضطرابا قلّ أن اضطربت مثله • ودخلت عليه وسجيته بيدي • ومن الغد دفناه بمشهد حافل ، أبّنته الصحف تأبيناً قدّرته فيه قدره • وراح بعضهم يذهب الى أن الكواكبي مات مسموماً • واستبعد قوم وقوع ذلك •

« وأراد السلطان القضاء على أفكار الكواكبي ، فبعث أحد عماله فأخذ أوراقه والمطبوع من كتبه ، وأرضى ابنه بمبلغ من المال •

فقدت الامة العربية بموت الكواكبي رجلا قوي الشكيمة ، نادر المثال في الرجال بعمله وبعد نظره ووطنيته • وقد رزق من الشجاعة

الأدبية ما عزّ نظيره . وكان يعتقد أصدق اعتقاد في عدالة دعوته ، ويتجلى النبل في حديثه والاخلاص في حركته » .

أكثر الكواكبي من الكتابة في أغراض سياسية وادارية وحقوقية واقتصادية . وألف اربعة كتب لم يبق منها الا « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . أما الكتابان الآخران « صحائف قريش » و « العظمة لله » ـ وهذا قرأ لي صفحاته الاولى ولم يتمه ـ فإنهما أخذا في جملة ما أخذ من اوراقه السلطان العثماني .

أعجب بالكواكبي كل من سمع باسمه ، أو قرأ له كلاما . لانه فادى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم . وتوفر على حمل النور اليهم . وكان منذ وعى على نفسه الى أن دفن في رمسه يدور في دائرة لا تكاد تتبدل ، وهي الاصلاح السياسي والديني . وله الفضل بتنبيهه الأفكار ، ووصف شقاء الامة فأبدع بدعوته بدعة حسنة لم يسبق إليها . وعمل بمحض اجتهاده الخاص ، ولم يلجأ الى الغرباء للوصول الى هدفه على ما كان شأن معظم من سبقوه ولحقوه من بني وطنه . وكانت الايدي الاجنبية تسيرهم وتدبرهم ، أما هو فكان صاحب دعوة مستقل خلقتها قريحته ولدت في رأسه وكبرت وترعرعت في قلبه وروحه . رحمه الله .

★ ★ ★

- ٢٧ -

عمـر طوسون *

١٢٨٩ ــ ١٣٦٣ هـ

١٨٧٢ ــ ١٩٤٤ م

لما وقـع اختيار اعضاء المجمـع العلمي العربي على ضم عمـر طوسون اليه ، وانتخب بالاجماع ، طلبت منه أن يتفضل ويكتب لـي ترجمة حياته فكتب الي ما يأتي :

« انا الامير محمد عمر طوسون ابن الامير محمد طوسون باشا والي مصر محمد سعيد باشا ابن محمد علي الكبير ، رأس الاسرة العلوية • ووالدتي الاميرة بهشت حور ، وجدتي لابي الاميرة ملك بير • ولـدت بمدينة الاسكندرية في يوم الاحـد ٥ رجب ١٢٨٩ هـ (٨ سبتمبر سنـة ١٨٧٢ م) ، ولما بلغت أربـع سنوات توفي والدي ، فكفلتني جدتي لابي وعنيت بتربيتي ، ودرسـت مبادىء العلـوم على أساتذة مختارين في قصر ابي ، فلما أدركت الحلم نزحت الى سويسرة حيث استكملت دراستي • وقمت بسياحة في فرنسا وانجلترا شاهدت في أثنائها أنواع التقدم الاجتماعي والعلمي والصناعي والزراعي،ثم عدت الى مصر وأنا اجيد اللغات التركية والعربية والفرنسية والانجليزية قراءة وكتابة ، وأشارك في العلـوم بعض المشاركـة • وحينما أوفيت علـى سن الرشد قبضت على زمام دائرتي وأدرت شؤونها بنفسي • ومـع اشرافي على ادارة اعمالي لم انقطع عن المطالعة والبحث في مكتبتي ،

---

* ترجمته في الاعلام : ج٥/٢٠٧ والاعلام الشرقية : ١/٣٦ ومرآة العصر:٥١ وترجمته بقلمه فيمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩/١٦٣

ولي ولع شديد بالاطلاع على كل ما له علاقة بتاريخ مصر والسودان وجغرافيتهما • وقد جبلت منذ الصغر على حب بلادي • واني لفخور بما قمت به في الحرب الطرابلسية وحرب البلقان ، وكنت أول من فكر في ارسال وفد من مصر الى مؤتمر فرساي في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ م، ثم للمطالبة باستقلالها ، ثم ما قمت به في حرب الحبشة التي دافعت فيها عن كيانها ضد الايطاليين ، وماساهمت به من نصيب في مساعدات الامم المجاورة لمصر في شتى المناسبات والجمعيات الخيرية في مصر وبناء المساجدفيالسودان والمعاهد الدينيةوالعلمية وأنديته الاجتماعية، وتشجيع المعارض الزراعيــة ، والعمل على توثيــق العلائق الاخوية والتجارية بين مصر والسودان » •

بلغت تآليفه بالعربية نحو ثمانية عشر مصنفاً ، وكلها تدور على تاريخ مصر والسودان وجغرافيتهما والنيل وما اليه • وبلغت تآليفه بالفرنسية ثمانية عشر مصنفاً ، وله كتاب آخر بالانكليزية في المسألة السودانية • ومن تآليفه العربية : « تاريخ مديرية خط الاستواء من فتحها الى ضياعها » (ثلاثة أجزاء) وهو ممتع جدا • « أربع رسائل»، في الصنائع والمدارس الحربيــة والبعثات العلميــة والجيش المصري البري والبحري • « مصر والسودان »، « مذكرة عن مسألة السودان بين مصر وانجلترا » ، « مالية مصر من عهد الفراعنة الــى الآن » ، « الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا » « البعثــات العلمية في عهد محمد علي باشا ثم عهدي عباس الاول وسعيــد » ، و « الاطلس التاريخي الجغرافي لمصر السفلى (أي الوجه البحري) منذ الفتح الاسلامي الى الآن » ، « الجيش المصري البــري والبحري في عهد محمد علي » ، « تذكرة بما صدر عنه منذ فجر الحركة الوطنيــة من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٢٨ ، « اراضي الدومين والدائرة السنية »،

« بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك » ، ومما كتبه بالفرنسية : « مذكرات على فروع النيل القديمة » (مجلدان) ، « مذكرات في مالية مصر منذ عهد الفراعنة الى أيامنا » ، « مذكرات في تاريخ النيل » ، « مذكرات جغرافية في عصر العرب » ، « مذكرات في مسألة السودان » ، « مذكرات في صحاري مصر » ... الخ .

وفي هذه الصورة المصغرة من أعمال صاحب الترجمة تدرك مبلغ تفانيه في خدمة مصر والسودان ثم في خدمة القضية العربية الاسلامية، وأنه ما كان يتوقف عن الجهد في كل ما يرفع قومه خاصة ، ويرفع شأن المسلمين عامة، فقضى في هذه المهمة التي أخذها على نفسه خمسين سنة ، يصرف من وقته وماله وجهده ، ولا نعرف أميرا من أمراء الاسلام لعهدنا ، والمسلمون لا يقلون عن ثلاثمئة مليون ، صرف ماله ووقته في مثل هذا السبيل ، ولا أميرا آتاه الله سعة من المال فأنفق ريعه في نهضة مصر والسودان ولو أن بعض من وفر الله لهم قسطهم من الذكاء والغنى من العرب والعجم مثل الامير عمر طوسون لكان المسلمون أرقى أمم الارض بلا نزاع .

النيل حياة مصر والسودان ، فهل سمعنا بغني مثل الامير عمر أنفق جزءا من ماله في سبيل استقلال مصر والسودان ، وأضاف اليه ما صرفه لحفظ بيضة الاسلام وانقاذ الشرق من براثن الغرب .

علّم الامير خمسين شابا سودانيا التعليم العالي عدا ما أنفقه في السودان في اقامة جوامعها ومدارسها وخدمة قضيتها . ولا أراني مبالغا اذا ادعيت أنه لم يخدم مصري السودان بأجلّ من خدمة الامير عمر . وكانت داره في الاسكندرية أشبه بسفارة للسودان ، وبيوته فنادق لاهلها ، يطعمهم ويكسوهم ويعطيهم نفقاتهم ويعلم أبناءهم .

ولا أعرف ثروة عظيمة صرف ريعها طوال حياةصاحبها على أعمال البر والتعليم كما صرف عمر طوسون ثروته ووقته وجاهه لا يقصد الا وجه الله وخدمة وطنه . ذلك لانه ماكان يعرف الاالخير ، وما تعرف الى غيره . وحدث مرة أن كادت مدارس العروة الوثقى وهو رئيس مجلس ادارتها أن تقف لقلة المال،وكانت مصر في أزمة وكذلك الامير، فقررت الجمعية اغلاق مدارسها ريثما تنتهي الازمة ، فلم يرض عن هذا القرار ، واقترض لحسابه مبلغا أمد به الجمعية ، حدثني من اختلط بالامير وعرف جوانب من أخلاقه الطاهرة قال : كانت موائد الافطار في قصره بالاسكندرية أيام شهر رمضان تجمع الموسرين والمعسرين ، والمعسرون [1] أكثر سوادا ، فكان يترك أرباب المظاهر يتناولون افطارهم وحدهم ويخفّ لمشاركة الفقراء في الطعام ، فتنطلق ألسنتهم بالدعاء له . وله من هذا أشياء لا يؤثر أكثر منها في باب اكرام الفقراء.

ما كان لي شرف التعرف الى عمر طوسون الا بالمراسلة ، ولما فقدت أخي أحمد ابرق الي يعزيني على مصابي [2] ، ويذكر بلاء شقيقي في جريدة « المقتبس » ،وما خدم به العرب بقلمه، فكانت بذلك صداقة ليس أشرف منها . وما زال يتفضل أكثر السنين اذا وصلت الى القاهرة يهنئني من الاسكندرية على سلامتي ، ويرجو لي طيب المقام في بلاده ، فكان بذلك يهتم للخصوصيات اهتمامه بالعموميات ، ويعنى بجبر خواطر الناس،كما يعنى بتنمية ثروته والقيام على زراعته وأملاكه.

سألني — رحمه الله — يوم اجتماعي به أول مرة سؤالين كان يُظهر الاهتمام بالجواب عليهما : وهما : كيف قسمت الديار الشامية

---

(١) الاصل : والمعسرين .
(٢) دمال : عزاه بمصابه .

بعد الحرب العالميـة الاولى ، وهل صح ما ذكرتـه في كتابي «خطط الشام» عن عهد ابراهيم باشا في الشام وأعماله العظيمة وحسن ادارته وسياسته . فأجبته عن الاول بما حضرني ، وعن الثاني أكدت له أن كل ما رويته عن ذلك العهد كان ممحصا ، لم أقصد بـه الا تقرير حقيقة تاريخية . واني لست مصريا حتى أجامل آل محمد علي ، وأذكر لسليلهم ابراهيم باشا صفات خيالية ، فحمد الله كثيرا على ذلك ،وكنا كلما اجتمعنا يكشف لي عن ذات نفسه ، ويطلعني من أسرار السياسة العليا في مصـر ما أنا في أشد الحاجـة الى معرفته ، ولا يتيسر لي أن أعرفه على وجه الصحة الا من طريق الامير المؤتمن الصادق . ولعلـه كان يقصد من أحاديثه حمل الفائدة اليّ والانتفاع بها يوما في خدمة مصر وتقرير تاريخ مصر .

ويطول الكلام اذا أردت أن اصف ما جبل عليه الامير العظيم من مكارم الاخلاق وبعد الهمة وفرط الادب وصدق الوطنية والجـد في أموره ووضع الاشياء في موضعها .

كان استاذنا الامام محمد عبده يقول : الامة الاسلامية مصابـة بالعقم . يعني اذا مات منها سيـد لا يخلفه أحـد من عياره يمشي على آثاره . وهذه كلمة تصدق على عمر طوسون فإنه لم ينبغ للامة العربية من يوازي نصف مكانته ، رحمه الله .

★ ★ ★

- ٢٨ -

قاسم أمين *

١٢٨٢ – ١٣٢٦ هـ

١٨٦٥ – ١٩٠٨ م

لم يعرض من ترجموا لقاسم أمين للكلام على أوّليَّتِه،وأشاروا فقط الى أنه من أصل كردي ، كان ابوه من اولاد امراء الاكراد ، أخذته الدولة العثمانية رهينة ، فأفلت منها وجاء مصر ودخل في الجيش ، ورقي فيه الى رتبة أميرلاي . وقاسم بِكْر أبيه ، وأمه مصرية من أسرة معروفة . وتعلم في المدارس الوطنية في القاهرة ثم ذهب الى فرنسا على نفقة الحكومة . فدرس الحقوق ، وأبان عن كفاءة عظيمة وذكاء نادر وتدرّج في مناصب القضاء حتى غدا قاضيا في محكمة الاستئناف الاهلية .

امتاز باستقلال الفكر ، وجودة الرأي ، وصفاء الذهن ، وسعة الخيال ، وقوة الارادة ، والعدل في الحكم ، والوفاء في الصداقة ، والاخلاص للبلاد . وكان الى هذا من علماء الحقوق والاخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية...كان كنزا مخفيا لايعرفه الا أصدقاؤه، وأول شيء عرف به في عالم الادب رده على الدوق « دركور »[ماجاء] في

* ترجمته فيالاعلام ١٩/٦ وولادته فيه سنة ١٢٧٩ هـ ، ١٨٦٣ ، معجم المؤلفين ١١٤/٨ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١٠٧١ وانظر تاريخ الآدابالعربية لزيدان ١٣٥/٤ ورواد النهضةالحديثة ٢٠٧ ،ومعجم المطبوعات ١٤٨١ ، الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر : ٢٧٧ والاعلام الشرقية ٥١/٣ ، تراجم مشاهير الشرق : ٤٢٠ .

كتبه من الانتقاد على البيوت بمصر ، لا سيما مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات . كتب الدوق في ذلك كتابا باللغة الفرنسية ، فرد عليه قاسم أمين باللغة الفرنسية ، وكانت عبارته في رده كعبارة كتّاب فرنسا . وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرة وحماسة ، وقد بيّن فيه ما للحجاب من الفائدة ، وشنّع على ما في أوربا من التبذل والتهتك وتجارة الاعراض... واندفع الى الرد بوجدان الغيرة. وبعد أن شفى غيظه وأرضى غيرته بذلك عاد الى نفسه وفكر في الأمر ، فرأى أن كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في ذاته ، فبعثه ذلك الى درس هذه المسألة قائلا في نفسه انه لا ينفعنا اذا كان العيب فينا أن نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه ،وانه يجب علينا أن نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى في ازالته .

وطفق يبحث ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتبه الإفرنج في شأن النساء ، وانتهى به البحث والتنقيب الى تصنيف كتاب « تحرير المرأة » الذي هز مصر هزة شديدة ، وشغل جرائدها في تقريظه ونقده زمناً طويلا ، وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعاً الى التصنيف في الرد عليه (ألفوا نحو ثلاثين كتاباً في لعنه وتزييف رأيه) ، وبذلك طار صيته في الآفاق ، وعرف اسمه في الشرق والغرب ، وعدّ من المصلحين الاجتماعيين . ثم ألف كتاب « المرأة الجديدة » لتعزيز رأيه وتفنيد آراء خصومه ، و « المرأة الجديدة » كالكتاب الاول ويفوقه في قوة الحجة ووضوح الدليل[1]. ومن مقالات هذا الكتاب فصل « التربية والحجاب » قال فيه صاحب « المقتطف » : « ولو لم يكتب غير هذا الفصل لكفى وحده لشهرته ، ولقرن اسمه بأسماء أشهر المصلحين . ولقد كان همه في كل

(١) ونشر له كتاب سمي « كلمات قاسم أمين »

كتبه وخطبه وفي أحاديثه النظر الى الزمـن السعيد الـذي تتعلم فيه المرأة الشرقية فيصير كل نساء الشرق مثل فضليات نساء الغرب مـن حيث العلم والتهذيب » .

« ولم يكتف بكتابيه ، بل جعل همه الاكبر ، الى أن وافته منيته، تهذيب النساء وتمدينهن ، وتمنى مشاركة الفتيات المصريات للفتيـان في محافل العلم والادب . قال ذلك في خطبة بالفرنسية ألقاها في نادي المدارس العليا قبل وفاته بساعة أو بساعتين » .

« كان اجتماعياً لا كبعض الاجتماعيين الذين يجعلون رؤوسهم محافظ لآراء غيرهـم ، فإذا حضرتهم المناقشـة ، ودعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعي أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم مـن المؤلفـين السابقين ، من غير أن يكون لعقلهم في الموضوع نصيب من الرأي . لا، لم يكن كذلك أبداً ، بل كان مفكرا بالاصالة ، نقّادا لا يستغني عـن أفكار غيره ، ولكنه لا يقبلها الا اذا اعتقدها ، وصارت له بما قام في نفسه عليها من الادلة اليقينية » .

« وكان رأيه في المسائل الاجتماعية أنها خاضعة دائما للقوانـين الطبيعية ، قوانين التحليـل والتركيب والنمو التدريجـي والانتقال . وبحث في المسألة الاجتماعية لمصـر علـى الخصوص فوجد أنها كلها تتوقف على نظام الاسرة المصرية ، ووجد أن المرأة هي الاساس الاول لبناء الاسرة » .

« ولقدتجلى فيما كتب وخطب العلم الواسع والاخلاص التام والبعد عن الدعوى . وكان من أكبر المهتمين بإنشاء الجامعة المصرية».

---

(١) الاصل : ينظر

اختمر موضوع المرأة في ذهن محرر المرأة أعواما فقال عن نفسه: ان الحقيقة التي نشرها شغلت فكره مدة طويلة كان من خلالها يقلبها ويمتحنها ويحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر فيه وزاحمت غيرها ، وتغلبت عليه ، وصارت تشغله بورودها ، وتنتهي الى مزاياها ،وتذكره بالحاجة اليها • فرأى أنلا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر • قال : « ولا يركن الى حب السكينة الا أقوام على شاكلتنا ، فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات ، وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده أهل الوقت حديثا غير مألوف ، سواء كان من السنن الصالحة الاولى ، أو قضت به المصالح في هذه الامة » •

« وكثيرا ما يكتفي الكسول وضعيف القوى في الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدمغه ، فيقول : تلك بدعة في الاسلام ، ولا يرمي بهذه الا حبا بالتخلص من مشقة العلم ، أو الخروج من عناء العمل في البحث والاجراء ، كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم ، وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية » •

قال : « سيقول قوم : إن ما أنشره اليوم بدعة فأقول : نعم اني أتيت بدعة ، ولكنها ليست في الاسلام ، بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها » (١) •

---

(١) القى بطرس البستاني في اربعينات القرن التاسع عشر محاضرة بعنوان (خطاب في تعليم النساء) تجرأ فيها وقال بدعم شخصية المرأة وحريتها ، ويعده بعضهم المدافع الاول عن المرأة قبل قاسم امين وفارس نمر وجرجي نقولا باز •

قال : « والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في اباحة الكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيّرنا المرأة أداة من الادوات ، أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها كل المزايا العقلية والادبية التي أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية ، وبين هذين الطرفين وسط هو الحجاب الشرعي ، وهو الذي أدعو اليه » .

نعم هذا هو الحجاب الذي دعا[1] اليه قاسم أمين . وقلّ أن قام مصلح ينادي بدعوة ، وحمل عليه من يعرف ومن لا يعرف من المصريين، فما زادوه إلا ثباتا على ماتصدى له .

وصف ما صادف كتابه الاول من الحملات ، وما غايته من دعوته فقال : « نحن لا نكتب طمعا في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس الذين اذا سمعوا كلام الله وهو الفصيح لفظه ،الجلي معناه ، لا يفهمونه الا اذا كان محرّفا عن وضعه ، منصرفا عن قصده ، برأي شيخ هو أجهل الناس بدينه . ولايحبون الوطن الا اذا تمثل لأعينهم في صور قبيحة وأخلاق رثة وعادات سخيفة ، وإنما نكتب لأهل العلم ، وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل » .

« كان قاسم يعلم حق العلم أن الامر ذا خطر ، وأن الناس لن يقبلوا منه ذلك راضين عنه ، مطمئنين إليه ، ولكن ماذا يهمه من الناس اذا كان مقتنعا مؤمنا بأنه محق ، وماذا يعنيه أن يسخط الناس عليه اذا كان يعلم أن الواجب راضٍ عنه ، وأن الحق مطمئن اليه وأن هذا العمل

---

(١) الاصل : دعاه .

يكلف سخط الناس وغضبهم ولقد أوذي الرجل في نفسه وكرامته ومكانته ومات وسخط الناس عليه أشدّ من رضاهم عنه ، والمنكرون له أكثر من العارفين لـه » .

« لقد أساء الناس فهم قاسم ، فظنوا أنه يبيح المحرمات ، وينكر ما قدس الناس ، ولكن الغشاوة قد زالت الآن ، فالناس يشعرون أن قاسماً لم يبح حرمة ولم يعرف منكراً ، ولم ينكر معروفا ، وانما دعا الى الخير وحثّ على الرقي ، وأراد أن تكون مصر كلها قوة عاملة » .

هذا ما اقتطفناه من كلام من حكموا على قاسم أمين حكما صحيحا خاليا من الشهوات . وما أهمهم كسب رضى العامة والجامدين من المهيمنين على الدين ، وكان بعض العلماء يودون لو لم يمزج دعوته بشيء من الدين ، حتى لا يجد خصومه منفذا الى التغلب عليه ، أما هو فأتى ببراهينه من الدين ، وشفعها ببراهين من العقل والاجتماع . وكانت مجموعة أفكاره مسددة .

ومن قرأ كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وهما صغيران بجرمهما ، كبيران بما ترتب من النفع منهما يدرك أن الرجل عظيم بعلمه وتفكيره . جمع في كلامه طرفي الدين والدنيا ، وفي كليهما جدد وأحسن . هو عظيم بشجاعته واقدامه ، لاتهمه الظواهر بقدر ماتهمه الحقائق . هضم علمه حق الهضم ، وعرف كيف يبرزه في قالب مقبول معقول . وقلّ جداً في المعاصرين من وفقوا توفيقه واستخدموا عبقريتهم في انارة العقل ، والدعوة الى العمل . وكان قصاراه أن ينقل المسلمين من دور انحطاط مبكٍ ومخزٍ[1] الى طور رقيٍّ يدخلون به في زمرة الامم المدنة .

---

(١) الاصل : مبكي ومخزي .

وكم من المؤلفين من كتبوا ألوفاً من الصفحات فما أغنت بعض ما أغنت جمل قليلة دونها قاسم على الورق فأبدع وأرشد • خاض موضوعه بعد درس طويل وتفكير جزيل • وقد وطن النفس على تحمل كل ما ينجم عن دعوته من الأذى • وأعظم من هذا أن حميته للدعوة ما كانت سطحية • أليس هو القائل : « من اختباري لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم ظهر لي أن الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد في القلب • حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباءً لا تترك أثراً بعدها» • وهذا هو الفارق الاعظم بينه وبين معاصريه •

لم يبق قاسم ما يذكر بعد وفاته سوى كتابيه اللذين لن تخلق ديباجتهما الايام ، وترك حِكَماً ومواعظ نشرت بعده في كراسات • وكلامه عذب يقرؤه الحر والمتعصب فيستفيدان منه ويلذهما ويعجبان بما انطوى عليه من السلالة والجزالة • ولا يستطيع متعنت مهما بذل من الجهد أن يحذف من كلامه مقطعا واحدا يظنه مما يمكن الاستغناء عنه •

مات قاسم أمين في الثالثة والاربعين من عمره [1] ، ولا يعلم الا الله ماذا كان منه لو ذرف [2] على السبعين والثمانين •

كان فخرا للعرب والمسلمين ، وبحقٍ ما أحرز هذه المكانة العظيمة، عليه الرحمة وما أصدق ما قاله في رثائه حافظ ابراهيم[3] :

---

(١) عند الزركلي في الاعلام توفي عن ٤٥ سنة .

(٢) ذرف ذرفانا : مشى مشيا ضعيفا .

(٣) من قصيدة في رثاء قاسم أمين من اثنين وأربعين بيتا مطلعها :

لله دَرُّكَ كنت من رجلٍ لو أمهلتك غوائل الاجلِ

ديوان حافظ ج٢/١٥٦ .

إنْ رَيْتَ رأياً في الحجاب ولم
تَعْصَمْ فتلك مراتبُ الوسُلِ [1]
الحكم للأيام مَرْجِعُهُ
فيما رأيتَ فَنَمْ ولا تسَلِ

وكذا طُهاةُ الرأيِ تتركه
للدهر يُنْضِجُهُ على مَهَلِ

★ ★ ★

(١) إن ريت : تخفيف (رأيت)

- ٢٩ -

كارلو نلينـــو *

CARLO ALFONSO NALLNO

١٨٧٢ — ١٩٣٨ م

كان الدكتور كارلو الفونسو نلينو شيـــخ علماء المشرقيـــات في ايطاليا ، وصاحب التآليف والابحاث الممتعة بالعربية والايطالية .

ولد في تورين[١] يوم ١٦ شباط ١٨٧٢ ، وفيها درس دراسته الاولى ، وأخذ مبادىء اللغات الشرقية واعتمد منذ نشأته الاولى على ذكائه ودرسه الخاص أكثر من اعتماده على المعلمين والاساتيذ . وبما فطر عليه من قوةالملاحظة ودقة النظر على ما لم يكتب لغير أفراد قلائل في الناس جاء منه عالم تام الأدوات ولما يبلغ سن الرشد على حـــين يظهر من كانوا في مثل سنه من صغار العلماء أنهم مبتدئون اذا بحثوا وكتبوا ، وأنهم في أول مراتب التحقيق العلمي اذا ألفوا وصنفوا .

عين أستاذا للغـــة العربية في المجمع العلمـــي العربي الشرقي في نابل[٢] وهو في الثانية والعشرينمن عمره ، وغدا في سن الثلاثـــين أستاذا في جامعة بلرم عاصمة صقلية وفي سنـــة ١٩١٣ أنشأت له دولته

---

* ترجمته في الاعلام ج ٦/٦٥ والمستشرقون ١/٣٧٧ ، وانظر معجم المطبوعات : ١٨٧٠ ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العـــربيـــة بدمشق المجلد ٢٧ ص ١٠ — ١٦ .

(١) Torino مدينة في شمال ايطاليا .

(٢) Napoli : احدى كبريات مدن ايطاليا ومرفأ هام من مرافئها .

كرسيا لتدريس التاريخ والابحاث الاسلامية في جامعة رومية • وكان منذ سنة ١٩٠٩ يعهد اليه المرة بعد المرة التدريس في الجامعة المصرية ، وكان قضى في مصر في صباه أشهرا لاحكام اللغة العربية •

وكان في آخر أمره نائب رئيس مجمع لنشاي في رومية ،وعضوا في المجمع العلمي الايطالـي وفي عدة مجامـع وجمعيات ايطالية وغير ايطالية ، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ بـدء تأسيسه ، وعضوا في مجمع اللغة العربية الملكي في القاهرة منذ أول عهده •

وعهد اليه النظر في القسم الشرقي من المعلمـة الايطاليـة ، أي دائرةالمعارف الايطالية فكتب معظم مقالاتها الخاصة بالاسلام • وأنشأ مجلة الشرق الحديث تصدر بالايطالية مرة كل شهر في رومية بعناية المجمع العلمي الشرقي ، باحثة في السياسة وتقويم البلدان وأصـول السكان والثقافة الحديثة • وبفضل عنايته أصبحت هذه المجلـة من أهم المجلات المشهورة في العالم • وقد أدارها سبع عشرة سنة بمـا عرف فيه من دؤوب وثقوب ذهن • و آزرته في عمله في العهد الاخير كريمته الفاضلة وتابعته في دروسه ورافقته في أسفاره •

كتب نلينو أبحاثا جليلـة ، وأكثر ما كتب مقـالات ومحاضرات دلت علىبعد غوره ونظره ، وأنه مفرد في بحثه العلمي يتجلى انصافه وأدبه مع مخالفيه وموافقيه كـان ــ أجزل الله ثوابـه ــ شديدا على نفسه ، وشديدا في مناقشاته ، لا يحلم عن جهل جاهل ، ولا يسكـت عن غرور مزهو معجب بنفسه • رأيناه يناقش خصومه بحماسة وقوة وقد يصليهم نارا حامية من نقده ، فلا يخرجون من حواره سالمين ، لكنه لا

يجوز لنفسه أن يجهز عليهم ، ولا أن يتعدى نطاق الأدب والنصفة في حوارهم . وكان اذا وسد اليه النظر فيما عمل فيه غيره يصلح هفواته ويقوّم منآده وينقده ويصفّيه ، ويتلطف ويقدر كل عمل أيقن أن الجد لحمته وسداه .

من أبرز صفات نلينو غرامه الشديد بجلاء الحقائق ، وقد أفرط في ذلك الى حد الوسواس والتردد . كان يحلل كل عبارة مهما كان مصدرها تحليلا مجهريا ، ويفحص بمعرفته الثاقبة كل كتاب مهما أم غير مهم ، ذلك لانه كان يريد أن يكون في العلم كما هو في الحياة على مثل اليقين فيما يقول به ويؤيده من أنظاره .

كان اذا جرى أمامه بحث في بعض المسائل التي لم يعطها من الدرس حقه ينصت مستمعا لما يقال استماع تلميذ جبان أمام معلمه العظيم ، واذا كانت المسألة المعروضة مما يحسن معرفته لا يحول أحد بينه وبين الكلام ، ولا يحجم عن قول كل ما يعرفه .

قال من ترجموا له انه لم يكتف من العلم الاسلامي بدراسة علم الفلك فقط ، بل أخذ نفسه بدرس كل ما لهذا العلم من فروع وشعب ، وكان مثالا مفردا في معناه بين المؤلفين ، وحجة قاطعة في الدروس الاسلامية والعربية ، وقد قال مرة لأحد أصحابه : أنا لا أود أن أدع الخروج من درس العرب دراسة خاصة الا اذا عرفت كل شيء على حساب العرب .

ودعاه اتساع نطاق الحضارة العربية وطول مداها وترامي أطراف الاقطار التي نشأت فيها أن يخرج عن دائرة الاحصاء الضيق الى ساحة النظر المطلق في كل ما له علاقة بهذه المدنية ، فكان نحويا مؤرخا

جغرافيا فقيها فيلسوفا حقوقيا طبيعيا رياضيا • ونظراته سديدة في هذه المدنية الغنية وارثه تراث الشرق السامي والفارسي الطويلة العمر (أربعة عشر قرنا) •

رأى نلينو في العصر الذي عاش فيه ، وتجرد للعمل في ميدانه أن العلم العربي الاسلامي حاد عن طريقه اللغوي واتجه وجهة جديدة في بحث الافكار والاوضاع فتخلى عن درس الاصول ، وعن أخذ ما خلفته الاجيال القديمة من تراث أدبي ورجع الى القرون الوسطى الاسلامية ، ثم بدأ بدرس الاسلام الحاضر دراسة علمية، وما كان الاول ولا الوحيد الذي قاده عقله الى سلوك هذه الطريق الجديدة ، وكان بما رزق من ملكة لاستخراج مادة مبعثرة ، ومعالجة موضوع عسير ، فردا في صبره وأناته ، لم يشاركه ـ فيما نعلم ـ غير أفراد قلائل من علماء المشرقيات ، فهو لم يترك قضية عربية اسلامية الا وجعل لها قسطا من عنايته ، وتوفر على دراستها دارسة كفءٍ محقق ، ودقق في فروعها وأصولها كاشفا عن غوامض الحوادث المجهولة ، ومصلحا أغلاطا فاحشة قديمة •

تناولت دراساته اللهجات العصرية ، والتاريخ السياسي حديثه وقديمه ، والتنقل بين التاريخ والجغرافية ، والنظر في الاساليب المختلفة في كل مظاهرها ، والبحث في عاديات اليمن قبل الاسلام ، وفي أسماء بلدان ليبية (طرابلس وبرقة) وفي وضع فهارس المخطوطات ، وفي تراجم الرجال ، وحلّ الكتابات الاثرية ، وكتب أكثر تآليفه بالايطالية وبعضها بالعربية ، ونشر أبحاثا بديعة في التاريخ والجغرافية والفلك عند العرب ، وأبحاثا في القرآن ، وفي قبائل العرب وأصولها • وطبع في صباه زيج البتاني الفلكي العربي مع ترجمته بالايطالية ، وبه اشتهر

بين العلماء • ولما دعي في سنة ١٩٠٩ ــ ١٩١٠ الى التدريس في الجامعة المصرية القديمة ألقى على تلاميذه محاضرات في تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى وطبعها على حدة ، فكانت من أجلّ الكتب التي نشرت في هذا العصر بالعربيــة ، وبه وقفنا على أشياء كنا نجهلها من عناية أجدادنا بهذا العلم • ومن الكتب التي صحح أغلاطها كتاب « تاريخ المسلمين في صقلية » لآماري المستشرق الصقلي ، وهو في مجلدين بالايطالية ، فاستدرك نلينو ما فــات المؤلف • ومنها كتــاب « دولة عمورية » لفاز يلبييف المستشرق الروسي : نظر فيه نظرة بليغة مع من نظر فيه من العلمــاء وله عدة أبحــاث في مجلة المجمع العلمي العربي ، وفي مجلة « الهلال » ، وبعض مقالات في مجلات أخرى ، يضرب فيها كلها على سندان واحد ، وهو تصحيح أغلاط المعاجم ، وتنقية العلم من الزغل والزؤان ، الذي وقع فيه بفعل القــرون الطويلة وجهل الجاهلين •

وقد نشر في سنة ١٩٠٨ بحثا في مجلة المجمــع العلمي المصري صحح فيه ما وقع للمترجمين من تحريف في أسماء البلدان العربية • • لما اطلع على ما كتبته في جريدة « المؤيد » ومجلة « المقتبس » بشأن موضوعه بعث يشكرني ويقول : ان غرضه تنبيه أولي الشأن مــن الشرقيين الراغبين في صون لغتهم من أيدي الضياع ، ووقاية الكتب والمصورات والجرائد من التحريف الشنيع ، وبقي يطيل النظر في هذا الموضوع الى السنة التي طلب بها مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة تصحيح أعلام البلدان الاسلامية ، فصحح القسم الاعظم منها ، ما خلا الديار الشامية وجزيرتي الاندلس وصقلية • وأبرز جداول محكمة في هذا الموضوع دلت على علو كعبه وطول درسه ، فأقر الاعضاء جداوله معجبين ، وقد كان المجمع يريد ارجاء هذا البحث الى دورة الانعقاد

المقبل فأصر نلينو على تلاوة جداوله واقرارها ، كأنه كان يلحظ من جانب الغيب أن المنية ترصده ، وأن تلك الجلسة آخر جلساته ، وهو يريد أن يقر المجمع عملا له تعب سنين في اعداده ، وأن ينشر هذه الكلمات الصحيحة على الشعوب العربية والاسلامية ينتفعون بها في تقويم أسماء ديارهم .

وكتب الاستاذ مقالات ممتعة في معلمة الاسلام وأكثرها في علم الفلك والآلات الفلكية وتراجم بعض الفلكيين وغيرهم . وكانت مقالاته في مجلة المشرقيات الايطالية في غاية الامتاع ، ومنها خلاصة ما تنشره مجلات الشرق العربي من الكتب والرسائل والابحاث النادرة . أما الاسئلة التي كانت تعرض عليه ويجيب عنها بالتحقيق المعهود فيه فكانت وافرة جدا ، وربما تألف منها مجلدات ، لان الفقيد العزيز كان كريما بعلمه ، ما سأله سائل في أمر يعرفه الا بادر الى اطلاعه على ما عنده منه ، سألته أن يجلو لي بعض الانحاء الغامضة من تاريخ الفتح العربي في جنوبي ايطاليا ماعدا صقلية، فكتب الي كراسة بالفرنسية فيها زبدة تاريخ تلك الديار ، فانتفعت بها في كتابي « الاسلام والحضارة العربية » ، وطلبت منه أن يتفضل ويكتب لي نبذة مختصرة في حياة صديقيّ وصديقيه جُوِيْدي[1] وكايتاني[2] ، من أكبر علماء المشرقيات في ايطاليا ، فاغتبط وابتسم ووعدني بأن يكتب .

---

(١) مستشرق ايطالي (Ignazio guidi) (١٨٤٤ – ١٩٣٥ م) شيخ المستشرقين في عصره . عالم بالعربية والسريانية والحبشية انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ، له كثير من الابحاث بالعربية وأربعون محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية بعنوان (محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوربا ، خصوصا ايطاليا) ونشر بعض الكتب العربية القديمة (الاعلام ١/٣٤١)

(٢) مستشرق ايطالي له ترجمة في هذا الكتاب رقمها ٣٣ . انظر ص ٣٢٢ .

والسر في كل هذه الاعمال الجليلـة التي تمت على يـد زميلي الكبير شدته في نظامه ، وتدقيقه في عمله ، ومارزق من ارادة قوية • فهو رجل ما عرف الفوضى ولا الإحجام •

أحرز درجة عالية في الابحاث التي نظر فيها ، قلما تطالّ الـى مداناته فيها العلماء • وهو بالنسبة لبيئته وتربيته ولما يريد بحثه مـن الموضوعات قد يستهدف لغضب قصار النظر ، لان أبحاثه لا تخلو ــ لاختلاف الدار ــ من أشواك وحسك ، ومما يغبط عليه أنه قالما يرضي وما يغضب ، فأرضى وماأغضب ، وهذه نعومة قلما يصل اليهـا باحث • ولذلك كثر المعجبون به في الشرق العربي ، ولا سيما في مصر ، وكان يحبها لانها عرفت قدره شابا فوسدت اليه التدريس في جامعتها ، وما نسيته كهلاً وضمته الى أعضاء المجمع اللغوي •

كان نلينو فردا في أخلاقه وسمته ، عُرضت عليه أرفع المناصـب السياسية في ايطاليا فما أراد أن يخرج عن هدي العلماء ، وما وجدت المظاهر الخلابة سبيلاً الى قلبه ، كان يحسن بضع لغات غربية ، ويحذق العربية تخاطباً وتكاتباً كأحسن أبنائها • وقد فقد العلم الاسلامي بـه عالما غيوراً وعاملا مخلصا ، فيه شجاعة وأريحية ، وفيه المروءة وعـزة العلماء • ويحق لايطاليا أن تباهي بابن لها أورثها مجداً لا يبلى ، وخليق بعلم المشرقيات أن يبكيه ، وبنا معشر العرب أن تتأمل طويلا في سيرته ، وأن نعرف أنه خدم امته وما كره غيرها ، وأنه نفع طول حياته وما أضر • ومن حق الشعـوب العربية من أقصى بحـر الظّلـُمات[1] الى الخليج الفارسي أن لا تنسى عظيما صرف عمره في درس كل ما له علاقـة بها وبتاريخها وباجتماعها وأرضها ، وعطف عليها وأحبها •

---

(١) هو ما يعرف اليوم بالمحيط الاطلسي •

كانت صلاتي بصديقي الراحل وثيقة مدة ثلاثين سنة ، وكنت اذا حدثته أو كاتبته أشعر بأني مع عالم قريب منا بذهنيته وآدابه ، ذلك لانه كان يحب العرب والعربية محبة صادقة ، وما ألقاه من المحاضرات وكتبه من المقالات باللغة العربية حببه الى أهلها ، وحبب أهلها اليه • وكان هو وجويدي وساتلانا (١) من أول من ألف من علماء المشرقيات الغربيين باللغة العربية • ثم تبعهم العلماء ريتّر وكْرِنْكو وبرتزل ومايرهوف وينبرج وغيرهم(٢) وكانت العادة أن يكتب المستعربون من علماء المشرقيات مقدّمات الكتب العربية القديمة التي ينشرونها بلغاتهم أو باللغة اللاتينية ، فأصبحوا يكتبونها بالعربية ، وبهذا عرف أبناء العرب صورة من بحث علماء المشرقيات وعنايتهم بالعلم وتحقيقهم المتع • وعسى أن يكون من سيرته لناشئتنا درس نافع ، وأن يعلموا أن العلم بغير درس لا يحصل ، وبدون عمل لا يستفاد منه ، وأن الشهادات العالية والالقاب العظيمة لا تنبيء عن الرجل ، وأن أوربا

---

(١) Santillana , David مستشرق ايطالي ذو معرفة شاملة بالمذهبين الشافعي والمالكي عمل أستاذا لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ فبرز في الفلسفة الاسلامية واليونانية والسريانية وله فيها محاضرات باللغة العربية ، ثم درّس القانون الاسلامي في جامعة رومة ، له بحوث ودراسات وترجمات توفي سنة ١٦٣١ م (المستشرقون ٣٧٤) . وجويدي شيخ المستشرقين في اللغات السامية (المستشرقون ج١/٣٧٥) .

(١) الاول Ritter , H ألماني ولد عام ١٨٩٢ والثاني فريتس كرنكو Freitz krenkow (١٨٧٢ — ١٩٥٣) ألماني أيضا ومن اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والثالث (Pretzl , O) ١٨٩٣ — ١٩٤١ م مستشرق الماني أيضا والرابع ماكس مايرهوف Meyerhof , max ١٨٧٤ — ١٩٤٥ طبيب الماني والخامس سويدي Nyberg , H ولد سنة ١٨٨٩ .

لم تتقدم الشرق الا بعملها ، وأن دعوى التمجد بالقديم من دون عمل لاقتباسه والزيادة عليه مضيعة للوقت واشتغال بباطل ، وأن الواجب على طلاب العلم أن يجعلوا حياة أمثال نلينو نصب أعينهم ، ولا غضاضة على من اعترف بقصوره ، وسعى الى بلوغ درجات الكمال .

★ ★ ★

- ٣٠ -

كليمانت هوار *

HUART , CLÊMENT

١٢٧٠ ــ ١٣٤٥ هـ
١٨٥٤ ــ ١٩٢٦ م

ولد كليمان هوار في باريز ، وتخرج في مدرسة اللغات الشرقية فيها ، ونال شهادة مدرسة الدروس العالية (شعبة العلوم التاريخية واللغوية) ، ثم دخل في سلك الترجمة والقنصليات ردحا من الدهر . وانصرف الى التأليف والتدريس فعين أستاذا في مدرسة اللغات الشرقية ، وعميدا لها ، ومديرا للدروس في مدرسة الدروس العالية العملية ، ورئيسا للمعهد العلمي ، وعضوا في عدة مجامع ومنها المجمع العلمي العربي(١) ، وكان على اتصال به منذ تأسيسه ، وكتب في مجلته بحثا جميلا في الاستعراب عند الفرنسيس : وأحيا بالنشر كتاب « البدء والتاريخ » للمطهر بن طاهر ، وترجمه بالفرنسية ، ونشر « مقامات ابن ناقيا (٢) » ، و « ديوان سلامة بن جندل » ، وألف بالفرنسية كتاب « الآداب العربية » في مجلدين ، و « تاريخ العرب »

---

* له ترجمة في الاعلام ٦/٩١ ووفاته فيه سنة ١٩٢٧ وانظر المستشرقون : ٢٣٠ ومعجم المطبوعات : ٢٤٢

(١) المقصود مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٢) في الاصل : ابن باقية ، والتصحيح من وفيات الاعيان ١/٢٦٦ والاعلام ٤/٢٦٧ ، وقد ذكر معجم المؤلفين ترجمتين لابن ناقيا الاولى ج٢/٧٥ والثانية ٦/١١٦ الاولى باسم عبد الله بن محمد مثل ما جاء في المصدرين السابقين والثانية تحت اسم عبد الباقي بن محمد وهو شاعر ، لغوي ، مترسل ، من أهل بغداد ، ماجن ، متهم بالطعن على الشريعة ، له مصنفات وديوان شعر . (٤١٠ ــ ٤٨٥ هـ = ١٠٢٠ ــ ١٠٩٢ م .

و « تاريخ بغداد »و« كتاب الخطاطين والمذهّبين في الشرق الاسلامي» وكتابا في دين الباب و « مختصر نحو اللغة الفارسية » وغير ذلك من الابحاث التي تتعلق بالاسلام وآدابه وفنونه • وكان يدرّس بالعربية والفارسية والتركية ، وهذه هي اللغات التي كان يحسنها من لغات الشرق • واستهوته العربية فكان يفضلها على غيرها ويصرف فيها جهوده لاعتقاده بما لها من التأثير المستمر في منازع الشعوب الاسلامية وآدابهم وفنونهم ولإيقانه أنه لا يتيسر لاحد معرفة اللغة التركية أو الفارسية معرفة جيدة الا اذا كان ضليعا في العربية • وكان لهذا يلقي درسه في تفسير القرآن في مدرسة العلوم العليا باللغة العربية ، على قلة المستفيدين من درسه لقلة معرفتهم بلغة الكتاب العزيز ، وله كتب ورسائل ومقالات وتقاريظ وانتقادات نشرت في مجلة العالم الاسلامي والمجلة الآسياوية ، ومجلة تاريخ الاديان ، ومجلة النقد ، والمجلة السامية والمعلمة الفرنسية الكبرى ، ومعلمة الاسلام ، وفي هذه المعلمة نشر تراجم بعض علماء المسلمين الاقدمين بأسلوب مقتضب لا نسبة بينه وبين ما نشره غيره من المحققين المستعربين في تلك المعلمة • وكانت تراجمه كالفهارس الموجزة لا تراجم رجال تملأ حياتهم صفحات وما ترجمه لهم يتيسر لأي طالب أن يكتب أمتع منه • ولعل السبب في قصوره هذا حرصه على الإكثار من التأليف ومبادرته الى نشر ماألف• هذا الى ما تتطلبه الوظائف الادارية والسياسية التي تولاها من الوقت والجهد •

ولقد رأينا الفرنسيس على شدة ذكاء علمائهم يخوضون أبحاثاً لا تظهر عليها العناية كما تظهر عناية الالمان والانكليز والهولانديين فيما أحيوا من آثار العرب •

ولهذا وقعت للسيد هوار في كتاب « البدء والتاريخ » أغلاط

كثيرة ما كان يسقط فيها لو تروى في نشره ، ولو رجع الى عالم عربي لصحح معظم هفواته وصدر الكتاب سليما من العيوب في الجملة . وكذلك كان شأنه في تاريخ العرب اقتضبه اقتضاباً مخلاً ، وما كان في انصافه العرب وعطفه على مدنيتهم الا دون ابن وطنه سيدليو [1] عندما كتب تاريخ العرب ، وحكم على مدنيتهم حكمه الخالي من النزعات الشعوبية .

تجلى روح السياسة في بعض ما كتب هوار أكثر من روح العلم المجرد ، وبدت العصبية الدينية القديمة زائدة على النزعة المدنية الحديثة أو تكاد ، مما يترفع عنه المحققون .

ومن الصعب أن يخدم المرء سياسة معينة ، وهي تتقاضاه أن لا يحيد عن ناموسها وأن يزعم الى ذلك خدمة العلم مبتعدا عما يشوه وجهه الجميل .

ومن العدل أيضا أن لا نطلب من الغرباء عناانصافنا فيمانعتقد أن القول بخلافه ينافي الحق ، وينم عن تعصب وعصبية . وقد تبدو سلامة القصد في أحكام بعض علماء المشرقيات على الاسلام اذا كانوا بعيدين عن السياسة ، واذا حاد بعضهم عن الصراط السوي فيكون ذلك منه عن اجتهاد أو قلة معرفة .

وهوار كان همه على ما يظهر إرضاء زعماء الاستعمار على حساب العرب والغض منهم بما يلائم مصلحة السياسة الاستعمارية [2] عند

---

(١) عالم بالمشرقيات اسمه الكامل (Loui , pierre , sédillot) (١٨٠٨ ـ ١٨٧٥) م الف (تاريخ العرب) واشرف على ترجمته الى العربية مهذبا علي مبارك باشا ، ثم ترجمه عادل زعيتر (الاعلام ١١١/٦) (المستشرقون ١٧٧ . في ترجمة والده)

(٢) الاصل : بما يلائم المصلحة السياسة الاستعمارية .

الفرنسيس ، ومن لا يخدم هذه السياسة من عمالهم بما يلائم دعوتهم يطرد من الخدمة ويقطع رزقه ، وعندنا على ذلك أمثلة غير قليلة .

وكل هذا لا يمنعنا من التصريح بأنه لولا عناية علماء المشرقيات بالنظر في مدنيتنا لتأخر أصحاب هذه المدنية أنفسهم زمنا عن معرفتها . ولما أخذنا بطرائق علماء الغرب في البحث لتيسير القناع عن حقائق الاسلام وعظمة مدنية العرب كشفاً ظهرت به أغراض رهبان القرون الوسطى ، وكان دأبهم ستر مدنيتنا بلباسهم الاسود ويدسون سمومهم القتالة وتعصبهم الذميم في كل ما يرفع شأن الاسلام وينادي بعظمة المدنية العربية .

★ ★ ★

- ٣١ -

كورنيليوس فانديك *

VANDYEK , CORNELIUS

١٨١٨ - ١٨٩٥ م

من عادة البرتستانت الاميركان أن يخصّوا الاقطار المتمدنة بالدعوة الى مذهبهم،وأن يبتعدوا عن نشره بين المتوحشين،ولما صحت عزيمتهم على نشر نحلتهم في الديار الشامية رموها بعلماء فضلاء قاموا بما عهد إليهم من نشر البرتستانتية ونشر العلوم والمعارف معها ، ومن هذه الفئة الصالحة كرنيليوس فانديك[١] .

---

* ترجمته في « المستشرقون : ٩٩٣ » والاعلام ج٦/٧٧ رواد النهضة الحديثة : ١٧٥ تراجم مشاهير الشرق ٢/٥٢ .

(١) من هؤلاء الاعلام من اغنوا الخزانة العربيه بما الفوا لها من كتب جيدة حملت العلوم الحديثة الى الافكار كالدكتور يوست ، الف لنا « قاموس الكتاب المقدس » في مجلدين، وكتاب «نباتات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها » ، و « الاقرباذين او المادة الطبية » وغيرها .
ومنهم الدكتور ورتبات Wortsbet نشر « أصول الفسيولوجيا» ، و « أصول التشريح » ، و « قواعد حفظ الصحة » و « كفاية العوام في حفظ الصحة وتدبير الاسقام » ، ومنهم الدكتور بورتر ، وضع « القاموس الانكليزي العربي » و « العربي الانكليزي » ، و « النهج القويم في التاريخ القديم » وغير ذلك (المصنف) وابن المترجم ادوار عالم أيضا،ولد في لبنان ، وتخرج من الجامعة الاميركية في بيروت ، وعين أستاذا للانجليزية في القاهرة . ومن آثاره : « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » وهو فهرس الكتب قديمها وحديثها التي صدرت عن مطابع الشرق والغرب ، كما نشر ترجمة لكتاب كليلة ودمنة في أوكسفورد سنة ١٨١٩ وترجم « مقالة في النفس » لابن سينا بعنوان : هدية الرئيس للامير وغيرها (المستشرقون : ٩٩٣ - ٩٩٤)

ولد في الولايات المتحدة من أب هولاندي وأم هولاندية ، ونشأ نشأة أميركية ، وتفقه بعلوم عصره فأحكم الطب والصيدلة والرياضيات، وبرع في الكيمياء حتى صار يلقب بالخطيب الكيميائي ، وأتقن من اللغات عشراً ، منها خمس لغات قديمة وخمس لغات حديثة .

واختاره مجمع المرسلين الاميركان مرسلا طبيا الى سورية فنزل بيروت ، ودرس العربية واجتمع بالمعلم بطرس البستاني وساكنه وأتلف معه ، وأخذ العربية عن العالمين الكبيرين الشيخ ناصيف اليازجي (١) والشيخ يوسف الاسير (٢) ، ودرس السريانيه والعبرية ، ولما أنشئت الجامعه الاميركية في بيروت سنة ١٨٦٦ عهد اليه تدريس علم الفلك والظواهر الجويه والباثولوجيا وشرع يترجم الى العربيه ما يلزم الجامعة الجديدة من كتب الطب والعلوم باللغة العربيه ، وما برح على ذلك حتى بدا لرؤساء الجامعة أن يجعلوا اللغة الانكليزية لغة التعليم بدلا من العربية فاستقال هو وزميله الدكتور ورتبات (٣) احتجاجاً على

(١) عميد بيت اليازجي،وركن من أركان النهضة العلمية فيسوريه. له القدح المعلى في اللغة والشعر والادب ، ولد في كفر شيما بلبنان سنة ١٨٠٠ ، استكتبه الامير بشير الشهابي وقربه نحو ١٢ سنه ولما نفي الامير سنة ١٨٤٠ انتقل مع اسرته الى بيروت وتفرغ للمطالعة والتأليف، وتخرج عليه طبقة من الادباء ، له عدة دواوين وكتب منها :مجمع البحرين (مقامات) ، فصل الخطاب (صرف ونحو) توفي سنة ١٨٦١ (زيدان ٢٣٤/٤)

(٢) من أعلام الفكر في القرن التاسع عشر . درس في الازهر ، وتقلب في مناصب الافتاء فيسورية وعلم في أشهر مدارسها اللغة والفقة . وله كتاب « الفرائض » طبع في بيروت ، و « شرح أطواق الذهب » للزمخشري . (تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٥/٤) .

(٣) هو الدكتور يوحنا ورتبت Wortsbet (١٨٢٧ ـ ١٩٠٨م) ولد في لبنان من أصل ارمني ، وتعلم في الجامعة الامريكية ، ونال شهادة الطب من ادنبرة ، وعين استاذا لعلم التشريح والاحياء والباثولوجيا في =

من رجّحوا الانكليزية على العربية قائلين : إنهما ما نزلا أرض الشام الا ليخدما العرب بتدريس العلوم بلغتهم •

كتب فانديك باللغة العربية عشرين كتابا في العلوم والفنون ومنها تتمة ترجمة التوراة التي كان بدأ بها قبله عالي سميث المرسل الاميركي، ومنها : « أصول الباثولوجيا الداخلية » ، و « أصول التشخيص الطبي » ، و « الاصول الجبرية » ، و « أصول الكيمياء » ، و « الاصول الهندسية » ، و « اصول علم الهيئة » ، و « الانساب » ، و « تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر » و « رسالة في مرض الجدري والحصبة » ، و « محيط الدائرة في علمي العروض والقوافي» ، و « النقش في الحجر » وهو في ثمانية أجزاء صغيرة كلها في مبادىء العلوم كالعلوم الطبيعية والكيمياء والجغرافية الطبيعية والجيولوجيا والهيئة والنبات وأصول المنطق • وكتب مطولا في الجغرافية ، أكثر فيه من الاستشهاد بالشعر العربي ، فمزج العلم بالادب • وله كتاب « إرواء الظماء في محاسن القبة الزرقاء » وهو آخر تآليفه وقف على طبعه ، صدّره بقول ابن حسن التاجي

انظر الى حسن تكوين السماء وقد لاحت كواكبها والليل ديجورُ
كأنها خيمة ليست على عَمَدٍ زرقاء قد رُصِّعَتْ فيها الدنانيرُ

أنشأ فنديك مدارس كثيرة في لبنان وكان اذا سأله سائل وهو ذاهب في مهمة له من هذا المعنى ، الى أين يا دكتور ؟ كان يقول : اني ذاهب الى القرية الفلانية لأنشىء مدرستين ، مدرسة لنا ومدرسة

= الجامعة الامريكية ببيروت ، من آثاره بالعربية : التشريح وعلم الاحياء، وله بالانجليزية « اديان سورية ، حكمة العرب » •

ينشئها اليسوعيون بعدنا ، وأنشأ المرصد الفلكي في الجامعة من ماله الخاص ، وكان العامل الاكبر في إنشاء مستشفى مارجرجس في بيروت، وأنشأ مجلة « النشرة الاسبوعية » ولا تزال تصدر الى الآن . الى غير ذلك من أعماله العلمية والدينية والخيرية ، وعرف الإحسان لكل انسان فأحبته جميع الطوائف ، واحتفلوا بعيده الخمسيني ، وعددوا مآثره في خدمة العلم والعربية في القطر الشامي خاصة وديار العرب عامة .

وتخرج به كثير من رجال النهضة ،ومنهم العالمان يعقوب صرّوف وفارس نمر ، وهو الذي رسم لهما خطة انشاء مجلة « المقتطف » وسمّاها لهم ، وعلمهما كيف تكتب المجلات العلمية ، وآزر فيها بنفسه مدة . فكانت خير أداة لنشر العلوم في الشرق العربي . ولو اطرد التعليم بالعربية في جامعة بيروت كما كان يهوى لغنيت لغتنا بالمؤلفات العظيمة في العلم والفن ، ولما اضطر الباحثون منا الى الآن اذا أرادوا التعمق في موضوع علمي أو أدبي ، ان يعمدوا الى مراجعة كتب الافرنج . ففضل فانديك على ديارنا وأهلها يذكر بالحمد على الدهر . وقلما عُهد غريب من أهل لسان يتحمس للسانهم تحمسه ، ويخلص في خدمتهم إخلاصه ، اللهم الا أهل فارس في القديم يوم أخلصوا في خدمة الاسلام والعربية بما لم يصل الى بعضه غيرهم من العناصر .

ولعلنا لا نعدو الصواب اذا حكمنا على فانديك أن دعوته الدينية ذابت في شخصه وغلبت عليه النزعة العلمية ، وبها ظهر في هذه الديار ظهورا رائعاً ، وأفاد جمهور المتعلمين على اختلاف مللهم ونحلهم . كان بسيرته الزكية وعطفه على الفقراء والمساكين المثال الجميل الحي الذي ينبغي لرجال الاديان أن يقتدوا به ، وبوضعه مع رفاقه أساس

العلوم في الجامعة الاميركية الإنجيلية ، وضع الحجر الأساسي الذي قام عليه صرح العلم في الشرق الادنى • وخدم بذلك الانسانية أجلّ خدمة ، خدم العرب ولغتهم خدمة عاقل حكيم ، وكان من أول الغربيين الذين أحسنوا إلينا بإخراجنا من العامية ، وانارة عقولنا بقبس من نور الحضارة ، وقبلهم كنـا في عَماية ، ونعدّ ما عندنـا من علوم الدين واللغة هو غاية ما يجب تعلمه في الحياة ، كنا في غفلة وأي غفلة ، فلما عالجونـا بدرياق العلم تجلى الفرق بـين صحتنا الحاضرة[1] وسقمنا الغابر • ولولا أخذنا بما حملوا إلينا لظللنا وراء الامم ، على ما نرى أكثر سكان جزيرة العرب الى اليوم •

أحبّ فانديك العرب ، وأحب كثيرا من عاداتهم الحسنة ، فقلدهم في لباسهم وطعامهم ، وفي كل جميل من مظاهرهم • وكان يعنى بالصغير قبل الكبير • وقد يأخذ برأي بعض طلبته اذا رأى الحق في جانبه ، ويجيب على كل ما يُسأله من تلاميذه ، ويكاتب من لا يعرفهم مـن طلاب الاستفادة من علمه وتوجيهه •

علّم الناس بالقدوة الصالحة ، وكانت عملياته أكثر من نظرياته ، ودام يدأب على تربية النفوس وإنارة العقـول حتى اختاره المولى ، فذهب حميد الاثر ناجح المسعى •

كُتب لي شرف المثول بين يديه ، وأنا مع أبي في السادسة عشرة من عمري، وقد قصدناه في منزله في رأس بيروت ليفحص عيني والحسر بادٍ فيهما ، فكتب لي بعد الفحص درجة النظارات التي تناسبني ،فقلت له : يا سيدي الدكتور • كيف لي أن أضع نظارة على عيني فإن أهل

(١) الاصل : الحاضر •

بلدي سيضحكون مني ؟ فقال الدكتور : استعمل النظارات ولا تلتفت الى كلام الناس ، فأنت محروم نصف لذة الدنيا . فصدعت بأمره[1]، ولا أزال الى هذه الساعة كلما وضعت النظارة على عيني أذكر نصيحته الثمينة ، وأذكر فضله عليّ وعلى امتي . أجزل الله ثوابه .

★ ★ ★

(١) صدع بالامر : جاهر به ، ولعل المراد هنا الامتثال .

- ٣٢ -

لويس شيخو *

١٢٧٥ - ١٣٦٦ هـ
١٨٥٩ - ١٩٢٧ م

ولد في ٥ شباط ١٨٥٩ في ماردين بالجزيرة ، وتوفي في مدينة بيروت سنة ١٩٢٧

اتصل منذ نعومة أظفاره بالآباء اليسوعيين ، ودرس في مدرستهم في قرية غزير من جبل لبنان العلوم الدينية والمدنية ، وأخذ العربية والفرنسية واللاتينية وغيرها ، ثم انتظم في سلك الرهبانية اليسوعية . متجرداً من متاعب المعاش والاسرة ، عازفا عن بهارج الدنيا ، مأخوذا بما أخذ به من خدمة الدين والآداب . وتنقل في فرنسا وانكلترا وألمانيا وايطاليا وغيرها من مراكز العلم في الغرب ، فدرس طريقة الغربيين في البحث والتأليف ، واطلع على ما في خزائنه من كتب العرب . واستنسخ لحساب جمعيته أمهاتها النادرة ، وحضر بعض المؤتمرات التي عقدها علماء المشرقيات في الغرب ، وساح في بعض أرجاء الشرق .

انصرف شيخو لاول أمره الى تعليم الآداب العربية في كلية القديس يوسف في بيروت ، ونشر عدة كتب مدرسية ودينية أهمها

* ترجمته في الاعلام ج٦/١١٣ ومعجم المؤلفين ٨/١٦١ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١١٢٥ وانظر معجم المطبوعات ١١٦٦ ، رواد النهضة الحديثة : ١٧٦ والاعلام الشرقية ٣/١٥٤ ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٢٧ الجزء ٢ ص ١٦١ - ١٦٤ .

« مجاني الادب » في عشـــرة أجـــزاء ، استخرجها من كتب العرب ، وشرحها شروحا لغوية أدبية، وقد أصبحت معتمدة في المدارس الطائفية والتبشيرية في الشام وغير الشام • ونشر مقالات«علم الادب» وكتابا في الانشاء والعروض والخطابة ، وأحيا بالطبع كتاب « الألفاظ الكتابية » للهمذاني ، و « فقه اللغة » للثعالبي ، وذلك بحذف الآيات الكريمة والاحـــاديث الشريفة ، فلاحظ عليـــه الغارفون من علمـــاء المشرقيات المستعربين فاضطر بعد الى الرجوع عن هذه الطريقة في الكتب التـــي أحياها من أسفار العرب •

وأهم مانشـــر من كتب المتقدمين والمتأخريـــن « كتاب الهمز » ، و « كتاب المطر » للانصـــاري وكتاب « الكتاب » لابن درستويـــه ، و« تهذيب الالفاظ » ومختصرهلابن السكيت ، و « حماسة البحتري » و «طبقات الأمم»لصاعد، و «ديوان الخنساء»،و «ديوان أبي العتاهية»، و « ديوان الخِرْنِق » أخت طرفة ، و « ديوان السموأل »،و « ديوان المتلمس » ورواية جديدة من « كليلة ودمنة » ، و « تاريخ بيروت » لصالح بن يحيى ، و « تاريخ شاكر بن الراهب القبطي » ، و « تاريخ سعيد بن بطريق ، وملحقه لسعيد بن يحيى الأنطاكي ، و « تـــاريخ محبوب المنبجي » و « فضائل الكلاب » لابن المرزبان ، و « آصـــف نامه » و « مقالة في الضوء » لأرسطو ، و « الآلات المنغمة » لمورستس، و« الآلات المزمرة » لبني موسى ، و « المكحلة » لأبي محمد الصقلي ، و « شواعر العرب » ومجموعة أربع رسائل لفلاسفة اليونان وغيرهم • يضاف الى ذلك عدة رسائـــل في الفلسفة والدين مما خلفـــه القدماء ، نشرها بالاشتراك مع بعض أفاضل الآباء من أهل رسالته • وقد خدم بهذه الكتب الآداب العربية أجلّ خدمة ، وزاد فيها مجاميعنا المطبوعة ، وأحسن بما علق عليها من الفوائد ، وخدمها به من الشروح •

ومما ألفه مباشرة « المخطوطات العربية لكتبة النصرانية » و « معرض الخطوط » و « شعراء النصرانية في الجاهلية » و« شعراء النصرانية بعد الاسلام » ورسائله وكتبه في تزييف الماسونية والحملة على رجالها. وكتابه في المدارس العلمانية واللادينية و« تاريخ الرهبانية اليسوعية » و « تاريخ الطائفة المارونية في القرنين السادس عشر والسابع عشر » و « بيروت وآثارها وتاريخها » وغير ذلك من رسائله ومقالاته الدينية والادبية والعلمية في مجلة «المشرق» عدا خطبه الدينية ومواعظه الروحية . وقد كتب هذه المجلة منذ إنشائها فأصدر منها بقلمه خمسة وعشرين مجلدا ، ونشر فيها أولا أمهات تآليفه ، ثم استخرجها منها ، وراعى في كتبه نظام رهبانيته ، فجاءت كتاباته إلا قليلا أشبه بالدعايات المذهبية منها بكتب علمية مشتركة ، تنشق ريح دينه في كل ما كتب ونشر ، ولو خلت بعض أسفاره وبخاصة « شعراء النصرانية » قبل الاسلام وبعده ، و « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » وبعده ، من هذه النزعة لكانت في الغاية من جودة التأليف لكثرة مادته وحسن تنسيقه .

قال الاستاذ مارون عبود : سمعنا بكتابه « شعراء النصرانية » فاستقدمناه فاذا كل من عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى . كان التعميد بالماء فإذا به قد صار بالحبر .

لم يرزق الفقيد ذوقا عاليا في الادب العربي ، وظلت كتابته الى أخريات أيامه كما كانت لاول عهده نمطاً واحداً ، لا تناسب مقدرته على التأليف ووقوفه على أدب العرب والافرنج وبعض علوم العصر ، أي ان الانشاء العربي لم يسلس له قياده على ما كان يجب ، وغريب ممن عاش بين كتب الفصحاء من العرب أن يظل بعد درس خمسين سنة ضعيفا في الانشاء على كثرة ما قرأ وكتب ، وأن تبقى ملكته الاولى في

الأداء تتناوشه أحياناً ، ولا يتطال إلا الى الاخذ من الينبوع الاول الذي استقى منه في مدرسته الاولى • وهكذا يقال في ذوقه في الشعر ، فقد نشر في مجلته قصائد لادعياء القريض كان الاولى أن تطوى على غرّها (١) ، وألّف كتاب « أطرب الشعر وأطرب النثر » مجموعاً من أدب من حاول تخليد ذكرهم على حين هم فيما يخطون أحط مما ينظم أو يكتب اليوم تلاميذ المدارس فيمصر والشام • وما أدري إن كان يقصد من ذلك التنويه بمن نوه بهم فقط ، أو أنه مقتنع بأن شعرهم ونثرهم حقيقة من أطيب الشعر والنثر يجب تخليده في بطون الصحف حرصا على بلاغته وفصاحته •

وقضتعليه البيئةعلى مايظهر أن يغمط حق العربفي مدنيتهم،وكان على الاغلب ينظر اليها من الوجه الذي لا يستحسن ، ولذا يعد شعوبيا وشديدالشعوبية بأفكاره ، لا صلة بينه وبين العرب الا بما نشره من آثار علمهم وحذق من آداب لسانهم وآخر أثر له من هذا القبيل أنه ذكر جملة من أدباء المسلمين ـ وهو مولع في التفريق بين المسلمين والمسيحيين ـ في الربع الاول من القرن العشرين ، لم يتجاوز في عدهم العشرات في الامة العربية ، مع أن من وضعوا المصنفات والتآليف الجيدة ولهم مكانة في الشعر والادب لعهدنا هذا لا يقلون عن ثلاثمئة رجل ، واعتذر بجهله أسماءهم ، مع أن من اشتهر بين قراء العربية بمصنفاته وفيها الممتع لا يصعب السؤال عنهم • ويستغرب أن لا يطلع مثله على أعمالهم •

قال الاستاذ مارون عبود : للأب شيخو أجلّ فضلٍ على النهضة

---

(١) من معاني الغر : كل كسر منثن في ثوب أو جلد ، والمراد تترك علي فسادها

الحاضرة ، فهو الذي مهد لنا الطريق في كتبه ، فكتابه « علم الأدب » تناول كل حديث من ألوان الادب وهو يعلم الطالب الاصول من فن القصة والرواية والتاريخ الى النقد ، وكل ما استحدث من ضروب ، وفي مجلته « المشرق » [1] التي تعد حجة في المشرقيات عرّفنا على الروايات الاصولية والابحاث الدقيقة ، ودلنا على ما في بلادنا من آثار، وعلمنا تاريخنا وطبقات أرضنا ، وأحيا ذكر نوابغنا على اختلاف الملل والنحل ، وأوحت اليه غيرته غلى الكتب الخطية القديمة التي كانت مبعثرة في الأديار [2] والبيوت انشاء المكتبة الشرقية ، وهي من أشهر خزائن الشرق ، بل هي أغناها في المخطوطات ، ليس هو ذاك المنشىء المنمقة عبارته ، ولكنه الباحث المدقق ، والمناضل العنيف عما تجند للدفاع عنه ، بحاثة جريء حمل على الماسونية حملات غواشم •

★ ★ ★

(١) التي انشأها سنة ١٨٩٨

(٢) الأديار : ج دير النصارى •

- ٣٣ -

ليون كايتـــاني *

CAETANI , LEONE

١٨٦٩ - ١٩٢٦ م

منذ نحو ألف سنة كان بيت الامير ليوني كايتاني في رومية يخرّج عظاما في الدين والسياسة ، وكان منهم الباباوات والقواد والولاة .

ودرس الامـير الآداب في جامعـة روميـة ، وأتقن الايطاليـة واللاتينية والالمانية والانكليزية والفارسية والعربية .

وبدا له وهو في الخامسة والعشرين من عمره أن يضع بلغتـه مطوّلا في تاريخ الاسلام ، فجمع لتأليفه خزانة عظيمة بلغات مختلفة ، وأكثرها بالعربية ، واستنسخ وصور مخطوطات في التاريخ العربي مما كان مبعثرا في خزائن أوربا وغيرها . ورحل الى الهند وفارس ومصر والشام ، وقصد الى وادي اليرموك ليرى بعينه مكان الوقعة الفاصلة بين العرب والروم[١] ، ألف تاريخه وأسماه « تاريخ الاسلام » .

ANNAL DELLA ISLAM

تناول فيها حوادث عشرين سنة[٢] ، وكان يود لو يطول أجله فيصل به الى خمسة وعشرين مجلدا تأتي على تاريخ القرن الاول للاسلام .

* انظـر ترجمته وآثـاره في « المستشرقـون : ٣٧٢ » ، الاعـلام ١١٨/٦

(١) المراد وقعة اليرموك التي جرت سنة ١٣ هـ ، ٦٣٦ م

(٢) في « المستشرقون » : كتابه هذا أرخ فيه من العام الاول للهجرة الى ٩٢٢ هـ في ٥ مجلدات .

ولم يطبع من تاريخه سوى مئتين وخمسين نسخة وزعها على المجامع العلمية والجامعات ، وعلى هذه الطريقة في أرستقراطية العلم جرى الامير يوسف كمال المصري في المجموعة الكمالية جغرافية مصر والقارة الافريقية ، وأنفق في تأليفه وطبعه نحو خمسين ألف جنيه ، ولم يطبع سوى مائة نسخة ، صدر منه اثنا عشر مجلدا •

كان كايتاني يعد من الاغنياء في أمته ، خمنوا ثروته ، عدا ثروة قرينته الاميرة ، بخمسة ملايين دينار ايطالي ذهبي ، كان ينفق منها على العلم في السنة عشرة آلاف جنيه • وفي مكتبه ثلاثة من المستعربين من علماء المشرقيات الايطاليين ، ينقلون له ما يتعلق بموضوعه ، ثم هو ينظر فيما ينقلون •

كان نائبا عن مدينة رومية في مجلس النواب ، فلما احتلت دولته ليبيا ، ونزعتها من الدولة العثمانية بدون مسوّغ شرعي ندد بعملها في المجلس • وقيل : إنه قال : ان عمل ايطاليا باكتساح أرض قوم كانوا آمنين في ديارهم (طرابلس وبرقة) هو عمل قرصان بحر ، لا عمل دولة قامت في ربوعها النهضة الغربية الحديثة • وعزز قوله بما كتبه في الصحف من الانكار على حكومته،فاستغل خصومه السياسيون حملته، وبذل منافسه في النيابة خمسة وثلاثين ألف دينار ففاز ، وصرف هو نحو عشرين ألفا فأخفق •

حملتُ الى الامير الايطالي في سنة ١٩١٣ كتاب وصاة من صديقه العلاّمة أحمد زكي باشا المصري ليقبلني في خزانته حتى أدرس مجموعاته في التاريخ الاسلامي ، عساني أجد فيها نصوصا أنتفع بها في تأليف كتابي « خطط الشام » فأهّل وسهّل ، واعتذر عن مقابلتي بألبسة عمله في مكتبه ، أي انه لم يلبس اللباس الواجب اكتساؤه عندما تدعو الحالة لاستقبال شخصية محترمة • وعيّن لي وقت حضوري

للبحث في خزانته ثلاث ساعات قبل ظهر كل يوم ما عدا أيام الآحاد •

وكان الامير يتفضل ويسألني عما عساني عثرت عليه من المواد التي أتطلبها لموضوعي ، فاذا قلت له اني وجـدت أشياء مهمة تبرق أسارير وجهه ، ويعود يدلني على مظانّ لم أصل اليها ، لان فيهـا بعض ما يشفي غلتي • ولما تمت مراجعاتي قدمت له بضعة مجلدات من مجلـة « المقتبس » واستأذنته في السفـر الى سويسرا شاكرا لفضله وأريحيته • فبدا عليه الارتباك ورجاني أن أؤخر سفري فاعتذرت • والغالب أنه ذكر ساعة الوداع أنه قصّر في إكرامي فلم يدعُني مثلا الى داره ليعرفني علـى بعض أصحابـه ، على ما يقضي بذلك عُرف الشرقيين والغربيين وكان في الشهر الذي قضيته في حماه مشغول الذهن بمسائل الانتخابات ، وهذا ما ربما حمله على التقصير بإكرامي على ما أظن ، وعاد فتفضل وكتب لي الى لوزان يقول : انه يسرّ جدا أن يراني أبحث في خزانته عما يهمني درسه ، وعزم عليّ أن أعود لاكمل بحثي على ما يلزمني •

وقف الامير خزانـة كتبـه علـى المجمـع العلمـي الايطـالي Accademia naziole De Sincei ونشر القائمون بتنفيذ وصيته في كتـاب الوقف ما كتبه في كتابي « غرائب الغرب » في وصف الامير العـالم ، ونشروه بنصـه العـربي مع ترجمته بالايطالية ، ولم ينشروا سوى شهادتي فيه •

وكان مثال العالم النبيل الحر في قوله وعمله ، ظهر ذلك منه عيانا بتصريحه يوم غضب للحق في مجلس نواب أمته يوم احتلت ايطاليا طرابلس وبرقة[1] • وكنت أود لو ترجم كتابه بلغة أفهمها حتى أقف على رأيـه في معضلاتنا التاريخية •

كان كايتاني في قصره الفخم مثال العظمة والتواضع معا ، تقرأ

(١) أشار المؤلف الى ذلك قبل قليل

في سيماه العلم والعمل الدؤوب والأناة والتجرد من الغرض • وكنت أشهده يحضر الى مقر عمله في وقت معين لا يتعداه ، في الصباح وبعد العصر ، كأنه بعض المستخدمين في مكتبه • كان هذا دأبه منذ تخرج في كلية الآداب ، أي نحو عشرين سنة ، وكان في الخامسة والاربعين يوم نزلت عليه ، وقد جعل شعاره في مقدمة كتابه بيت الشاعر العربي :

كفاف عيش كفاني ذل مسألة   وخدمة العلم حتى ينقضي أجلي

كان يتعهد مزارعه الواسعة ، وأكثرها في ضواحي رومية ، كما يتعهد رياض العلم والادب •

هو جدّ في أموره ، ما عرف بغير القيام بالواجب ، وما فاته شيء من الكمال مما تزدان به حياة العظماء أمثاله •

صورة من صور الرجال المتازين في الامم ، ومثال ناطق بما انطوت عليه مدنية الغرب حتى نبغ فيها من عيار كايتاني •

لا جرم أنه جمع الى شرف المحتِد العلم ، والى التواضع شخصية مجموعة من حسنات ، وأجمل ما فيه أنه ما كان يقول إلا ما يعلم ، يعطف على الضعيف والمظلوم ، ولا يتعرف الى غير الحق والعدل ، وكان « يتمنى طول عمره ، تفاهم الشرق والغرب وتعاونهما في سبيل الحضارة والتمدن » • ولو سمعت دول العرب الى من هم على شاكلة هذا الامير من أرباب النظر العالي ، لما تكررت الكوارث في ديارها ، ولما أصيب رعاياها بالخطوب الجسام ، ولما كانت وبالا على من استحلت اغتصاب ديارهم واذلال نفوسهم •

ولما دخلت ايطاليا في الحرب العالمية الاولى ترك كايتاني أشغاله

العلمية ، وتطوع جنديا في خدمة وطنه ، وما أجدت تلك الحرب عليه ، كما لم تجد أمته ، وتبخرت ثروته ، وأصيب بوحيده ، فساءت حاله ، وهلك بعيدا من وطنه .

نشر كايتاني نصوصا عربية يُنتفع بها في تاريخ العرب ، ومنها « تجارب الامم » لمسكويه ، ونشر بالفرنجية أشياء كثيرة تعاون على تسهيل الرجوع الى مواد التاريخ . وكان يعدّ للنشر تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب من أهل الاندلس [1] وضعها في جزازات المستعرب الاسباني ريبيرا[2] وتركها بعده لتلميذه آسين بلاسيوس [3] ليشتغل بها ، ثم يعطيها لمن يتوسم فيه حب العمل من علماء المشرقيات الاسبان، وان لم يجد الكفء يجعلها في خزانة أحد المجامع [4] العلمية في اسبانيا ، وقد اطلعت عليها في مجريط عند آسين بلاسيوس .

★ ★ ★

(١) بالتعاون مع جوزيبي جابريلي (عالم بالمشرقيات ايطالي توفي سنة ١٩٤٢) ، وهذا المعجم يتضمن تراجم الاشخاص ومؤلفاتهم والمصادر التي تحوي ذكرهم ، وحال الموت بينه وبين اتمامه فوقف عند الجزء الثاني نشر في روما سنة ١٩١٥ (المستشرقون : ٣٧٣)

(٢) ريبيرا اي طراجو Ribera y tarrago (١٨٥٨ – ١٩٣٤) ولد في كركخنته من اعمال بلنسية ، وتعلم العربية على كوديرا ، وتخرج من جامعة سرقسطة ، وعين استاذا للعربية فيها ، (١٨٨٧) ثم استاذا لتاريخ حضارة اليهود والمسلمين في جامعة مدريد ، ثم اعتزل التدريس وعكف على التأليف في بلنسية ، وانتخب عضوا في المجمع اللغوي الاسباني وغيره (المستشرقون : ٥٩٢)

(٣) آسين بالاسيوس Asin palacios عالم بالمشرقيات اسباني (١٨٧١ – ١٩٤٤ م) ولد في سرقسطة ، وتلقى العربية على ديبيرا ونال الدكتوراة من جامعة مدريد سنة ١٨٩٦ وآثاره كثيرة منها : العقيدة والاخلاق والتصوف عند الغزالي ، وترجم الى الاسبانية كتاب الاخلاق والسلوك لابن حزم القرطبي (المستشرقون : ٥٩٥) .

(٤) الاصل : احدى المجامع .

- ٣٤ -

مارتين هوتســما *

HOUTSMA , MARTIN , THEODOR

١٨٥١ – ١٩٤٣ م

هو تسما مارتينوس تيودوروس الهولندي . ولد سنة ١٨٥١ ، وأتم دراسته في ليدن ، واتصل منذ سنة ١٨٦٨ بالعلامة دي خوي من كبار علماء المشرقيات الهولنديين [1] وبعد أن قدم أطروحته في تاريخ العقيدة الاسلامية في القرون الاولى للهجرة عهد اليه النظر بالمخطوطات الشرقية في خزانة ليدن حتى سنة ١٨٩٠وقد وسد اليه تدريس العبرانية والعربية في جامعة أوترخت ، وفي سنة ١٩١٧ استقال .

عني بنشر عــدة نصوص عربية وفارسيــة وتركية منها كتــاب « الأضداد » لابن الأنباري ، و « تاريخ ابن واضع اليعقوبي[2] » ، و « زبدة النصرة ونخبة العصرة »للعمادالكاتب[3] ومجموعة نصوص في

---

* ترجمته في المستشرقون ٦٦/٩ ، الاعلام ١٢١/٦ . وانظر معجم المطبوعات ١٩٠١

(1) Goeye , M , J , DE (١٨٣٦ – ١٩٠٩) م تلميذ المستشــرق دوزي ، له كثير من الابحــاث ونشر كثــيرا من الكتب العربية القديمــة كوفيات الاعيان لابن خلكان وتهذيب الاسماء للنووي (المستشرقون ٦٦٣)

(٢) احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ .

(٣) الاصفهاني ، محمد بن محمد المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

وهذا الكتاب اختصار لكتاب العماد الكاتب الاصفهاني « نصرةالفترة وعصرة الفطرة » في اخبار الدولة السلحوقية ، اختصره الفتح بن علــي البنداري . (الاعلام ٢٥٤/٧) .

تاريخ السلاجقة (في أربعة مجلدات) ومعجم قديم عربي وتركي ، واشترك في نشر « تاريخ الطبري » الكبير . وفي سنة ١٩٠١ دعته جمعية المجامع العلمية الدولية لتولي رئاسة تحرير المعلمة الاسلامية فقام بأعبائها حق القيام ، ولما زرته في أوترخت كانت تطبع الاجزاء الاخيرة من معلمة الاسلام ، وذكر لي [أنه] [1] متلهف اليها . كان أقصى أمانيه أن لا يموت قبل اتمامها . وحقق المولى رجاءه فرآها تامة ، وذكرت له ما فيها من النقص والتعصب في بعض المقالات كمقالات لامنس وهارتمان وغراتشوفسكي وهوار ، واغفال من هم جديرون بالترجمة لهم من رجال الاسلام في القديم والحديث ، وأرادني على أن أؤازر في تأليفها ، فاعتذرت بأن معظم مقالاتها أخذها غيري ، وهي من الكتب التي كتبت في الحقيقة قبل جيلي .

وهذه المعلمة على ما فيها من الهفوات والتعصب هي أصدق ما كتب عن الاسلام وأقطاره في زماننا ، حاولت مصر أن تنقلها الى العربية فما أفلحت كثيرا ، وقد صدرت بلغات العالم الثلاث : الالمانية والانجليزية والفرنسية ، وأكثر أبحاثها ممتعة اشترك في تأليفها نحو خمسين رجلاً من علماء المشرقيات ، وما كان فيهم غير هندي واحد ، وجزائري مسلم واحد ، وتركي واحد ، وخلت من المصريين والشاميين والعراقيين والاسبانيين والبرتغاليين على كثرة الابحاث المتعلقة بديارهم .

★ ★ ★

(١) ليست في الاصل .

- ٣٥ -

الدكتور محجوب ثابت *

١٣٠١ - ١٣٦٤ هـ
١٨٨٤ - ١٩٤٥ م

كان الدكتور محجوب ثابت صورة فريدة من صور الرجال ، بعلمه وبيانه وعمله ووطنيته ، فطر على صفات نادرة سيرته في مراحل عمره سيرا حفل معه بالطيبات ، واتجهت قواه منذ صباه لخدمة المصلحة العامة ، وعمل على هينته في تواضع خال من التمجد والتبجج ، ومـا طلب العوض والمكافأة عن ما أجهد نفسه فيه . ذلك أنه كان متشبعـاً بروح النهوض ، ويعرف كيف يرضي ضميره بأداء فرض لا بد مـن قضائه .

كان مثال العامل الصالح في شيخوختـه على نحو ماكان زمـن

* طبيب مصري ومن الكتاب وله مواقف خطابية ، اشتهر بمناصرته قضية السودان السياسية وبدعوته الى تنظيم حركة العمال بمصر سنـة ١٩٣٠ وادخال التدريب العسكري في الجامعات والمدارس المصرية أصله من دنقلة ولد سنة ١٨٨٤ م وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥ وعمل في النهضة المصرية مع سعد زغلول فكانمن خطباء الثورة سنة ١٩١٩ ونفي ثم أصبح من أعضاء المجلس النيابي وعين استاذا للطب الشرعي في الجامعة فكبيرا لاطبائها . صدر عن حياته كتاب تذكاري تاريخي ، وكذلك كتاب الاسرار السياسية وآراء الدكتور محجوب . الاعلام ٦/١٧٠ وفيه اشارات عـن ابحاث كتبت عنه ومعجم المؤلفين ٨/١٨٠

الحق المؤلف بهذه الترجمة ما يلي : طلب اليّ ان اترجم للدكتـور محجوب ثابت ترجمة يصدر بها كتاب في حياته ألفه أديب مصري ، فكتبت ما رأيت أنه يكفي في الترجمة له . وهذا ما قلته فيه .

كهولته وفتوته ، وهذا مما يندر في رجالنــا • ومن قانونهم أن ينتج أحدهم ما دام في حاجة الى الانتاج ، ويخفت صوته وتبطل حركته بعد سن الخمسين ، اذا فاز بنصيب من العلم أو المال ، أو أحرز جاها وحظوة وشهرة فهم يقفــون على الاغلب حيث يتراءى لهم أن يقفوا ، لا حيث يجب عليهم أن ينتهوا ، وبخاصة اذا وهموا أن حياتهم أمينــة من العوز في الوظائف والاستخدام •

قلّ أن رأيت من أهل صناعة هذا الفقيد العظيم من هضم علمه مثله ، أو جمع الى علمه معارف تمثلها • وهي ليست بحسب الظاهر من اختصاصه،أو شارك في مسائل كثيرة مشاركة المستقصي الحصيف، لا مشاركة النُتَّـفَة • ولو قد كتب له أن يعنى بالتدوين لكانت مدوناته من أجمل الكتب العلمية ، يتعلم منها من يحب أن يتعلم ، ويتفكه بها من ينزع الى أن يتفكه •

كنت تراه اذا جد الجد نسي كل مصلحة خاصة فتمثل لك شخصا لا يحسن غير فنــه ، واذا هزل ظننتــه رجلا شغل حياته في الضحك والإضحاك ، لا يحفــل بمصطلحات [1] الناس واعتباراتهم ، ولا يبالي بالوقت يصرفه في غير فائدة • • ويا ما أحيلاه اذا خطب باللغتين ، وما أطرب حديثه اذا كان راضيا أو غاضبــا ، وما أشد عنايتــه بشؤون المجتمع وتخيره ما ينفعه •

كان على حظ عظيم من عزة النفس ، وعلى جانب من جمــال العهد ، وفيا الىأقصى حدود الوفاء ، وفيا لوطنه ، يسهل عليه بذل كل نفيس ليحقق له بعض سعادته ، وفيا لعلمه ، يزيد أبدا في معلوماتــه

---

(١) الاصل : لا يحفل مصطلحات .

وتجاربه ، ظل على ذلك الى آخر أيامه ، وفيا لمرضاه ، يعنى بصحتهم وتخفيف آلامهم عنايته بكل مطلب من مطالب أمته ، وفياً لاصحابه لا يدخر جهدا في مرضاتهم وادخال السرور على قلوبهم • ولو قدر له أن يبذل في خصوصياته بعض ما بذل في خدمة الجماعة لعدّ في الموسرين • ولو كان يسف الى استثمار كل شيء لحسابه لكان من السمو والبسوق في الذروة العليا بين رجال الدولة ، ولكنه ما خلق الا ليخدم المجموع على ما توحي اليه قريحته ، ولم يخلق ليخدم مصلحته • ويتفانى في جلب المنافع ، فهو رجل القوم لا رجل في القوم ، هو لقومه حساً ومعنى •

يُردّ تاريخ صلتي به الى أزيد من عشرين سنة ، وكانت علاقتنا في غضونها أوثق من علاقة صديق بصديقه ، تمازجت روحانا وقضينا في القاهرة أياما وليالي كانت حلوة لذيذة زانها ثلة من الاصحاب هم حلية الزمان وبلا بل مجالس الإخوان ، ثم فرق الدهر بيننا وبين بعضهم (ومنهم الأحمدان العظيمان أحمد زكي باشا وأحمد شوقي بك عليهما الرحمة) [١] • وصرفت مع صديقي في دمشق أشهرا أيضا ، وكان اعتصم بها في محنة سياسية وقع فيها فشاهدته واحدا في نعمته وفي محنته ، يتجلد ، لا يتضعضع ، قوي الثقة بالله ، لا يشك بحسن عاقبة المخلص الصادق • وكان من الرعيل الذي لا يتكل على غير نفسه ، ولا يطلب معونة حتى ممن يوالونه ويعجبون به ، ويستعذب كل عناء اذا عاد ولو بفائدة ضئيلة على بلده ومواطنيه •

دعا الى السودان وحببه الى كل مصري ، وعرّف أهل القاصية والدانية مكانة السودان من وادي النيل حتى كاد يظن من لا يعرف

(١) انظر مقالتيه عنهما صفحة ٤٨ و ٥٩

ترجمته أنه من صميم السودانيين ، مأخوذ بسودانيته ، متيّم بحب أرضها وساكنيها . والجميل في حياته أنه بعيد عن التصنع ، يرسل النفس على سجيتها ، وقد رزق بديهة مؤاتية فكان يملأ بها الصدور إعجاباً .

رأيته مع ناخبيه من عامة مينا البصل يعلمهم كما يعلّم الاب أولاده ، ويرشدهم الى معان [1] جميلة في الحياة لو هدوا الى تحقيقها لارتفع مستواهم ، وشاهدته مع النوبيين يدربهم ويلقنهم ما يفيدهم في بيئتهم ، وحضرته في مجالس العظماء والادباء يفيض من حكمته ، ويلعب بالعقول في محاوراته ومسامراته .

وكان عقله أوسع من أن يحصره في حدود مصر ، فقام في ذهنه أن من المروءة أن يصرف جانبا من جهوده في أهل الاسلام والعرب والترك منهم خاصة ، ويقول أبدا : « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

كان أديبا بكل ما في الادب من منازع شريفة ، ما سمعته يطعن على أحد ، ومن آذوه غير قلائل أما هو فقد علمه نبل شيمته أن يصفح الصفح الجميل ، ويقيم من نفسه الاعذار لأرباب الشذوذ والنشوز ، ولا يبادر الى تخطئة المخطيء الا اذا نفد صبره ورآه قد عبث بمصلحة عامة ، وكل ذلك من دون اقذاع وتحامل يقدر الجرم بقدره فهو طبيب شرعي حقاً وصدقاً .

وكان الى التفاؤل أميل منه الى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، ويصمد للحوادث [2] في أحرج ساعاته ، لا يتأفف

(١) الاصل : معاني

(٢) اصل معنى الصمد : القصد والنصب ، وقد درج القوم اليوم على استعمالها بمعنى المواجهة والثبات

ولا يتسخّط مهما ألحت عليه الاوجاع،ويحمد الله على ما ابتلاه وأنقذه مما تجنه الطبيعة من آلام أشد مما وقع فيه • وكأن نفسه كانت مؤلفة من عدة شخصيات ومن كثير من الاختصاصات تفوق في صناعته الى أسمى درجة ، وطبه طب العالم الدقيق الحس المفطور على الشفقة لا طب المتطبب ، وكذلك هو في الادب،وكذلك هوفي الخطابة والسياسة• وما أحصي عليه أنه اتجر بشيء مما علم وفهم ، وما اتخذ من علمه سلما الى الظهور ، وما جوّد في طبه وغير طبه الا لأن طبيعته تحب التوسع في بحث الاشياء والوصول الى غوامض ما عالجها كثير مثله • وهو الى ذلك يعلو عن المادة خلافا لاكثر معاصريه •

وعطفه على الفقير ، وعطفه على الأعلّة وأصحاب العاهات ، وعطفه على الناشئة ، وعنايته بمستقبلهم واستقلالهم، وعطفه على وطنه، وتصديه لتهيئته له بعض ما يحفظ عليه صحته ، كل أولئك كان فيه لا يجارى ولا يبارى •

نعم هو مثال نابغة ، لا يلهيه عن تحقيق أمانيه عائق ، ولا يدهشه تعقد المشاكل ، ولا يهنؤه العيش الا اذا تم له الممكن لانجاز ما شغل قلبه •

سار في ناحية عينها لنفسه ، ولم يجر في خططها على مثال سابق ، فامتاز بلون خاص من ألوان الحكمة والادب وحب الخير • وكان رضي النفس قوي الإيمان ، واذا لم يوافق بعضهم على حركته ففي العادة ألاّ يعرف الحق من المصلحين الا يوم رحيلهم من هذه الفانية الى غير رجعة • ولو جاء أخي محجوب في أمة تقدر الرجال أكثر مما تقدرهم أمته لكان له فينا شأن غير شأنه ، ولانتفع ببعض ما أسداه من جميل الى أمته ، ولعظمت الفائدة العامة منه الى أقصى حدود الانتفاع • رحمه الله •

★ ★ ★

- ٣٦ -

محمد رشيد رضــا *

١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ
١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م

ولد في قرية القلمون على ثلاثة أميال من طرابلس الشام ، من بيت نُسب أهلــه الى الشرف ، وعرفوا بالعلم والارشاد والرياضـــة ، ويلقبــون بالمشايــخ • ونشــأ مثل أهلــه على الصــلاح والتقــوى والتنســك ، وتعلم في كتّاب القريــة قراءة القرآن والخط والاعمال الاربعة في الحساب ، ثم دخل المدرسة الرشيدية في الحاضرة فقضى فيها سنة ، والتحق بعدها بالمدرسة الوطنية الاسلامية ، وكانت تد رس العلوم الشرعية والعربية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية ، فأخذ عن مديرها الاستاذ حسين الجسر الازهري ما وسعه أخذه،وبه تخرّج بعد أن أغلقــت المدرسة • وكــان ينظم الشعر قبل أن يحذق العلوم العربية ، تعلم بالسليقــة ، وأخذ الحديث وفقــه الشافعي عن الاستاذ محمود نشابة ، وكان هذا أقام في الازهر متعلما ومعلما ثلاثين سنة ، وحمل شهاداته بثمانية عشر علما منها الجبر والمقابلة • وصحب الاستاذ عبد الغني الرافعي فاستفاد منه في الادب والتصوف ، ودخل في الطريقة النقشبندية • وحبّب اليه التصوف إكثاره من مطالعة « احياء علوم

---

* ترجمته في الاعلام ٣٦١/٦ ومعجم المؤلفين ٣١٠/٩ ، المجددون في الاسلام : ٥٣٩ ، حاضــر العالم الاسلامــي ٢٨٤/١ ولشكيب ارسلان كتاب في سيرته عنوانه (السيد رشيد رضا ، أو اخاء أربعين سنة)
قدماء ومعاصرون : ١٧٣ ـ ١٨٠ وانظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٥ ص ٣٦٥ ـ ٤٧٤ ، رجال عرفتهم : ١٦٩

الدين » للغزالي ، وغدا يجاهد نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والتزام التقشف .

ودخل فيما دخل فيه المتصوفة،فمارس رؤية الاراوح واستحضارها والمكاشفات والمنامات والكرامات ، وأصبح يَرْقي النساء بالعصا أو السواك ، يضعه على رأس المرأة وهي مقنعة . وخاض في أكثر ما يخوض فيه المتصوفة وحاسنهم وأحسن الظن بهم ، ولما ارتوى من كل ذلك فيبلده رأى أنه مستعد للاستزادة من العلم والاختبارمما لايجدهما في وطنه ، وأنه قادر على خدمة دينه وأمته مما لا تبيحه سياسة الحكومة العثمانية فهاجر الى مصر سنة ١٣١٥ هـ ، ١٨٩٧ م وفيها لحق بالاستاذ الامام محمد عبده ، وأنشأ مجلة « المنار » جعل موضوعها الأول « الإصلاح الإسلامي » وطلّق التصوف ، ونزع الى مذهب السلف ، وفي هذا الدور كان ممن استفاد من كتبهم ونقل عنهم واهتدى بآرائهم شيخ الاسلام ابن تيميّة وتلميذه ابن قيّم الجوزّية (١) .

انتشر « المنار » في العالم الإسلامي ، وكان له أنصار وخصوم ، وأكثر خصومه مشايخ الأزهر ، لأنه لم تأخذه بهم هوادة ، وزيّف طرائقهم ، وبحدة أحيانا . وأخذت السياسة نفسه فراح يكتب فيها صفحات طويلة في مجلته ، والسياسة يومئذ سياسة الدولة العثمانية

(١) ابن تيمية : هو العالم المشهور احمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي الحنبلي (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) مولده في حران ووفاته بدمشق كان داعية اصلاح الدين وآية في التفسير والاصول ، وتزيد تصانيفه على أربعة آلاف كراسة . واما ابن قيم الجوزية فهو محمد بن ابي بكر (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ ــ ١٣٥٠ هـ) تلميذ ابن تيمية السابق ذكره واحد كبار العلماء في عصره ، مولده ووفاته بدمشق ، له تصانيف كثيرة .

والسياسة البريطانية في العالم الاسلامي ، ويشارك الجمعيات السياسية التي دأبت على اصلاح الدولة والسعي لاستقلال العرب عنها ، وكان له ــ كما يقول العوام ــ في كل عُرسٍ قُرْص [1] ،ورائده الاخلاص والغيرة على مصلحة الجماعة،يجاهر علماء الحشو والقبوريين والمبتدعين بالإنكار عليهم بشدة حتى قال له استاذه محمد عبده : « إنك كثيرا ما تذر الحق عريانا ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين ، ويهون قبوله على المبطلين ، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي اليه صديق ، وأنه لابد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كي لا يزداد إعراضهم عنه » • ويقول : ان « المنار » في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص • فينبغي أن تتحرى فيه سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه منأفهام جميع القارئين حتى العوام • وكان ينكر عليه أيضا الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الاحيان •

وما كان السيد رشيد يصغي إلا لما وقع في نفسه واعتقد صحته واقتنع أن الخير في بثه • ولطالما قلت له ــ وهو يعلم صدقي وصداقتي له ــ أن يعري مجلته من التعرض لامور السياسة ، ويقصرها على التفسير ونشر السنة الصحيحة ونقل فتاواه الجيدة وكل ما فيه انارة أفكار القارىء المسلم • • أريده على معالجة ماهو فيه قوي ، والبعد عما هو ضعيف تبدو فيه مقاتله•فكان جوابه أنه اذا اقتصر على الابحاث الدينية فقط لا يقرأ مجلته أحد ، وفات صاحبي أنهلم يتخرج بالسياسة ولا تمرس بها ، لا علمها ولا عملها ، ولذلك كان ما يكتبه فيها فجا جاسيا وقد يدمج فيما يكتب تصوراته الخاصة وعواطفه قبل عقله •

أتى « المنار » في أبحاثه الدينية بنغمة قلماسمعت، فكان مناصروه

(١) مثل عامي يقال فيمن له في كل مناسبة دور .

قلة ، ومشاكسوه كثرة ، وأكثر المنكرين له جماعة الازهر • يريد أن يقضي على جهودهم ، وهم لا يرضيهم إلا من يطبّل لهم ويوافقهم على كل ماكانوا عليه من بدع وأشياء تخالف الشرع • ولو أنه استعمل الرفق بهم ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة لكان موقعه منهم غير موقعه ، ولكثر مع الزمن أنصاره ومريدوه ، كان أبداً حرباً عليهم يصليهم من نقده ناراً ، معتزاً بنفسه وبمنزلته من الاستاذ الامام ، مزهوا بعمله وعلمه لا يتوقف عن التنويه بهما في كل فرصة في مجالسه ومجلته • يروي أحيانا روايات عن نفسه لا تكون لها ضرورة ، فيقول مثلا : هذا حققناه في « المنار » ، وهذا ما تعرضنا له غير مرة في « المنار » •وهذه مشكلة لم يسبق لغير « المنار » أن حلها •

لا جرم أن المترجم له كان عالما دينيا تشبع بروح الاسلام ، وعرف استخراج أحكامه وتطبيقها على ما يوافق روح العصر • وكان الى ذلك كاتبا مجيدا ، سريع الخاطر ، حاضر البديهة • وقد رزق حافظة جيدة وقوة محاكمة • وان الخمسة والثلاثين مجلدا التي كتبها من « المنار » ليصح أن تدعى معلمة اسلامية لولا ماشابها بآرائه السياسية وبمدح نفسه ومدح من رضي عنهم من أهله وأصحابه • مدح أمه في صفحات من المجلة ، حتى كاد يصوّرها من أقران السيدة عائشة بفضائلها ، وهي ماكانت أكثر من امرأة قروية أمية صالحة• وبالغ وأكثر في شيخ حمصي ووسمه بالعلم ، ونشر له مقالات لا يكتبها إلا محموم أو مبرسم (١) ، وذلك لانه كان يحسن مصانعته ، وحطّ من عالم كبير أجمع علماء عصره على تفرده بالعمل والعلم ، لانه كان ينتقده •

★ ★ ★

(١) المبرسم : المصاب بعلة تؤدي به الى الهذيان •

- ٣٧ -

محمد بن أبي شنب *

١٢٨٦ - ١٣٤٧ هـ
١٨٦٩ - ١٩٢٩ م

الاستعمار شر وشؤم ، ويزيد شره وشؤمه اذا طالت لياليه السود بضعة أجيال كما طال في القطر الجزائري ، وما كان الظن في أن تخرج هذه الارض المستعرة رجلا من عيار محمدبن أبي شنب . يتقن الفرنسية و لايغفل عن الاخذ من علوم العرب والاسلام . أخذ عن المستعمرين طريقتهم في الدرس ، وأساليبهم في البحث ، ونسج في آداب قومه على منوال أساليبهم ، شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين في أوكسفورد وهو في لباسه الوطني : عمامة صفراء ضخمة وزنار عريض وسراويل مسترسلة ومعطف من صنع بلاده،فأخذت بسحر بيانه واتساعه في بحثه ، وظننتني أستمع عالماً من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة اسلامية . أو عالما من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان ، ووفر له قسطه من العلم والبصيرة . وقد فطر على ذكاء وفضل غرام بالتحصيل ، وقيض له أن يجمع بين ثقافتين ينبغ ويفصح بكل لغة يعانيها .

كنت أقرأ لصديقي ما نشره بالعربية من كتب العرب وما وضعه

* ترجمته في الاعلام ١٤٨/٧ وطبع في الجزائر كتاب في ذكراه سنة ١٣٥٣ هـ عنوانه (ذكرى الدكتور محمد ابن ابي شنب) وانظر معجم المطبوعات : ١٦٢٦ وله مقالات في مجلة المجمع ١٦٠/٢ ، ٢٨١/٣ ، ١٦٤/٤ ، ٢٢٤/٧ ، ٦٩٢/٨ ، ٩٩/٩ ، ٢٣٨/١٠

من أفكاره مباشرة ، وأتصفح ما نشره بالفرنسية في أسفار أو مجلات او معلمات في موضوعات اسلامية عربية فكان اعجابي بفضله واكباري لعلمه يزيد مع الايام ، فلما سمعته يفصح بالفرنسية وهو لم يغير من عاداته ولا من روحه أمام أئمة البيان بهذا اللسان ، وهم يدهشون مثلي بما يلقي على مسامعهم من تحقيقاته، بهذا الامتاع تضاعف اكباري له • ولما فجعت الآداب بفقده ، فجعت به فجيعة الصديق بصديقه ، وودت لو أني لم أعرفه مواجهة كما كنت عرفته بالمراسلة لكثرة ما نالني من الحزن عليه ، ورجل من عيار ابن شنب هو فخر أمة ، قمين أن يرفعها في نظر العالم الممدن الى مراتب الامم الصالحة للبقاء ، فقد تهيأ بما وهب وماكسب من العلم بأن يظهر العلم العربي في ثوب قشيب من نسج القرن العشرين • وأظهر أمته في مظهر أمة تسلسل فيها العلم ثلاثة عشر قرنا ، وعلى كبت الحرية في بلاده قام حق القيام بما أراده وأراده له وطنه ، فبيض الوجوه في المواطن كلها •

ترجم لنفسه فقال(١) : محمد بن العربي بن محمد أبي شنب ، ولد يوم الثلاثاء في العاشر من رجب سنة ١٢٨٦ هـ (٢٦ أوكتوبر سنة ١٨٦٩ م) بقرية المدية في جنوب الجزائر على تسعين كيلو مترا منها ، وقرأ شيئا قليلا جدا من القرآن ، ثم قرأ اللغة والعلوم الفرنسية في مدرسة المدية الثانوية ، وانتقل الى دار المعلمين الفرنسية بأبي زريعة بقرب الجزائر ، وبعد عام خرج منها مجازاًبإجازة تعليم اللغة والعلوم الفرنسية في المدارس الابتدائية الوطنية ، وبعد عشرين سنة قضاها كلها في التعليم ودرس علوم العربية وشيئا من التوحيد والفقه أجيز بإجازة مدرسة الآداب العليا فتقلد خطة تدريس آداب العربية في

(١) انظر مجلة المجمع ٢٣٨/١٠

مدرسة قسنطينة في غرة المحرم ١٣١٦ ، ثم انتقل الى مدرسة الجزائر في غرة المحرم سنة ١٣١٩ ، وبعد أربع عشرة سنة ارتقى الى القسم الاعلى من هذه المدرسة ، وأقرأ النحو والادب والمعاني والبيان والمنطق، وفي أواخر السنة (١٩٢٢ م) منح لقب دكتور في القسم الادبي من كلية الآداب بالجزائر ، بعد أن قدم اليها تأليفاً في حياة أبي دلامة شاعر بني العباس ، وتأليفا آخر في الالفاظ التركية والفارسية الباقية في لغة الوطن الجزائري وفي أول يناير ١٩٢٤ انتقل مدرسا الى كلية الآداب في الجزائر .

له إلمام ، كما قال عن نفسه ، بالايطالية والالمانية والاسبانية والفارسية ، ومعرفة ضعيفة بالتركية واللاتينية . وقد ألف بالعربية « تحفة الادب في ميزان أشعار العرب » ، وشرح « نظم مثلثات قطرب » . ومن تآليفه باللغة الفرنسية : مجموع أمثال العوام بأرض الجزائر والمغرب في ثلاثة أجزاء . طبع بباريز . « البستان في علماء تلمسان » لابن مريم [1] ، « رحلة الوثيلافي » ، « الممتع في شرح المقنع » لابي سعيد السوسي ، « تحبير الموشين ، للفيروزابادي » ، « فهرست كتب الجامع الاعظم »،« عنوان الدراية في علماء بِجَاية»[2]، « تدميث التذكير في التأنيث والتذكير» للجعبري،طبع في استراسبورغ، « أصل كلمة تلّيس » . (بالفرنسية) : « طبقات علماء افريقية » لابي ذر الخشني مع ترجمة افرنسية (جزآن) (طبع بباريز) ، « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » ، « فهرست مطبوعات فاس » « أبو دلامة : حياته وشعره » بالفرنسية ، « الالفاظ التركية والفارسية في

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد ، التلمساني منشأ ووفاة مؤرخ من علماء تلمسان،كان حيا بعد سنة ١٠١٤ هـ،١٦٠٥ م (الاعلام٧/٢٩١)

(٢) بجاية : بلدة في الجزائر على ساحل البحر الابيض المتوسط .

اللغة الجزائرية » ، « ديوان علقمة الفحل » مع تقريرات ، « ديوان عروة بن الورد » مع تقريرات،« كتاب الجمل » للزجاجي مع تقريرات، هذه كتبه المطبوعة ، وأكثرها مما طبع في الجزائر •

ومن أجمل كتبه بالفرنسية ما أخذه دانتي شاعر الطليان من الاصول الاسلامية ودسه في كتابه « المهزلة الإلهية » •

ولما ناداه ربه كتب الينا زميله في جامعة الجزائر العلامة ماسيه يقول : ومن الواجب أن نشير الى جميع أعماله في الجملة حتى يتجلى لنا نشاطه العلمي ، فقد كنا نرجع اليه ونستضيء بضيائه ، وكنا نناديه بياشيخنا••كان يجمع الى صفات العلم والعالم الحقيقي صفات الصلاح والطيب •

مشى في جنازة ابن ابي شنب النصارى والمسلمون ، يؤلف بينهم الأسى والحزن عليه • وقد أبّنه على ضريحه الاستاذ مارتينو مدير كلية الآداب في جامعة الجزائر وصديق الفقيد • ومن جملة ما قال : ان المنهج الذي نهجه ابن أبي شنب يدل دلالة واضحة على مقدار ما يستطيع أن يعمله العقل والإرادة والعمل في الارتفاع من أصغر المناصب الى أعظمها واني أود أن يوقر هذا المنهج شباب هذه البلاد وشباب فرنسا نفسها •

كان السيد ابن أبي شنب صورة الاديب المسلم الذي عرف كيف يطلع على الاساليب الاوربية في العمل ، من دون أن يفقد شيئاً من صفاته وعاداته ، وكان يتولى هدايته في العمل أستاذه باسّه ، فقد تعلم اللاتينية والانكليزية والاسبانيولية والالمانية والفارسية والتركية ، وعرف لوازم النقد العلمي ، واعترف العارفون بقدره ، ففي سنة ١٩٢٠ انتخبه المجمع

العلمي العربي بدمشق عضوا مراسلا له ، وفي سنة ١٩٢٢ قلدته حكومة الجمهورية الفرنسية وسام فارس جوقة الشرف .

وكان ذا صفات تغرس له المحبة في الصدور ، وهي كرم النفس ، وميزة العقل ، والعفة في الإفصاح عن العواطف والاستقامة التامة ... اذا دنا الانسان منه لا يكاد ينساه ، فكانوا يذكرونه ذكرى الصداقة . وله ميل الى مساعدة الناس لا ينضب معينه . . وأظن أنه من اليوم الى سنين قليلة سينهض عالم من فرنسا أو من الجزائر ويكتب تاريخ تآلف الفرنسيين والمسلمين في افريقيـة ، فسيكون ابن ابي شنب رمز هـذا التآلف ، وحينئذ يمكننا أن نقول أحسن مما قلته أنا اليوم ، إذ يكون من السهل يومئذ على رجـال العلم والعمل مهما تباعدت أفكـارهم أن يتآلفوا ويتعارفوا ويتحابّوا .

★ ★ ★

- ٣٨ -

محمد عبـــده *

١٢٦٦ ــ ١٣٢٣ هـ
١٨٤٩ ــ ١٩٠٥ م

ولد محمد عبده سنة ١٢٦٦ هـ ، وأبوه عبده « خيرالله »من سكان قرية « محلة نصر » بمركز « شبراخيت » من عمل « البحيرة » في مصر ، وأمه السيدة جنينة •

كان والده من صغار الفلاحين ، وبذكائه وحسن تدبيره ملك بأخرة أربعين فدانا • وكان كريماً يقري الضيوف ويؤوي الغرباء ، وكانت منزلة أمه بين نساء القرية لاتقل عن منزلة زوجها ، عرفت بذكاء الفؤاد ورقة القلب ، وبر المعوزين والبائسين •

تعلم محمد القراءة والكتابة في منزل والده ، وأتم حفظ القرآن على حافظ خاص في عامين ، ولما يتجاوز العاشرة ، وأراد أبوه أن يتعلم

---

* ترجمته في الاعلام ج٧/١٣١ ومعجم المؤلفين ١٠/٢٧٢ ، زعماء الاصلاح : ٢٨٠ في الادب الحديث ١/٢٧٩، حاضر العالم الاسلامي ١/٢٨٣، تراجم مشاهير الشرق ١/٢٨٠، تاريخ الادب العربي للفاخوري : ١٠٧٠، أعـلام الصحافة العربيـة : ٦٨ ، دراسات تاريخيـة في النهضة العربية الحديثة : ٥١ ولمصطفى عبد الرازق (سيرة الامام الشيخ محمد عبده) ولعثمان امين (محمد عبده) ، ولقدري قلعجي (محمد عبده بطل الثورة الفكرية) وغيرها كثير ، رواد النهضة الحديثة : ١٥٥ وانظر معجـم المطبوعات : ١٦٧٨ ، ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربيـة بدمشق المجلد ٢٨ ج ٢ ص ١٦١ ــ ١٨٠

ولده تجويـد القرآن فأرسلـه الى الجامع الاحمدي بطنطا فقضى في تجويده سنتين ، ثم بدأ في هذا المسجد يتلقى النحو ، فصرف في تعلمه سنة ونصف سنة فما أفلح ، وعزم أن يترك طلب العلم ، ويرجع الـى بلده يعمل في الزراعة ، لكن والده أدرك ما عليه ابنه من الذكاء فلم يرض إلا أن يعود الى الاخذ عن مشايخ طنطا ، فأطاع والده وأضمر الهرب ، وذهب يختفيعن خؤولة أبيهفي «كنيسة أورين» منقرى «شبراخيت» •

ومن الغد جاءه أحد أخوال أبيه الشيخ درويش ، وكان على شيء من العلم ، يجيد حفظ القرآن وفهمه ، ويحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ، وينتحـل التصوف ، فما زال بالفتى أياماً يقرأ له في كتـاب تصوف ، ويشرح له حتى تألفه وردّه الى حظيرة العلم • « ولم يـأت على الفتى اليوم الخامس من صحبة الشيخ الصوفي الا وقد انشـرح صدره وأنست نفسه ، وانقلبت في عشرته قيم الاشياء ، فأصبح اللهـو والزهو أبغض شيء اليه ، وأضحت المطالعة والمدارسة أحب شيء اليه» • وتزوج الشيخ وهو في السادسة عشرة،وبعد أربعين يوماأتت على زواجه أرسله أبوه الى القاهرة ليأخذ العلـم في الازهر • وكان من علمـائـه الجامدون ومنهمالمنوّرون في الجملة،فآلى التلميذ علىنفسه أن لايحضر درس من لايفهم شرحه وتقريره • ولعل هذا التلميذ كان أول شيـخ اعترض على طريقة مشايخ الازهر في التدريس ، وظل على رأيه حتـى أصلحها عندما بلغ أشده وأصبحت كلمته مسموعة •

كان الشيخ في المسامحة الصيفية يعود الى محلة نصر فيجد الشيخ درويشا قد سبقه اليها فيأخذ في مدارسة الشاب ومحاسبته على مـا حصّل من العلوم ، ويحثه على النظر في المنطق والحساب ، فـاذا قال له الطالب : هذه علوم لا تقرأ في الازهر ، قال له الشيخ : طالبُ العلم لا يعجز عن تحصيله في كل مكان • فيؤثر فيه بآرائه وارشاده •

قرأ الشيخ في الأزهر جميع الكتب المقررة في ثلاث سنين ، ومضت سبع سنين رأى بعدها الشيخ الصوفي أن مريده كلت نفسه فأخذ يحثه على لقاء الناس ووعظهم ، وكان من قبل يشير اليه بالابتعاد عنهم ، فقال له بعد ذلك : « الى متى هذه العزلة ؟ وما الفائدة من العلم ومن تحصيله اذا لم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك ، وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس النعمة ، فعليك أن تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة » .

ودّع المجاور الأزهري شيخه ومرشده في بعض السنين ، وبكى هذا بكاء شديدا ، ومات في السنة الثانية ، وعاد محمد عبده الى القاهرة وفي نفسه أشياء من طريقة شيوخ الازهر وشروحهم ومتونهم وحواشيهم وتقاريرهم على الشروح ، رآها مماتضيع فيه الاعمار ، ولا ينتج عن تعليمها فائدة حتى قال : « كنت أسمع الشيخ وهو يدرّس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية » والطلاب يحفظون ما لا يفهمون ، وربما كان الأساتذة يلقون ما لا يصححون ولا يعلمون .

وصف تلميذه الشيخ المراغي عصر محمد عبده وما فيه من انحطاط في السياسة والعلم والاخلاق فقال : « نشأ الشيخ في عصر من العصور القاتمة ، كل شيء فيه ممضٌ مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة : الامم الاسلامية تنحدر علميا وسياسيا واجتماعيا الى أحط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة . ذهبت ريح المسلمين ، وتفلّت من أيديهم زمام الحياة العامة ،

وتداعت عليهم الامم كما تتداعى الأكلة على القِصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل . » .

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواشٍ[1] وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدته على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذي يطمئن اليه العاقل، ويقنع الخصم المتحدث في الاجتهاد وتخير الاحكام لتطابق حاجة العصر . ولتلائم أصول الامم وأحوال الازمنة . مبتدع مخالف لما اجمع عليه المحققون ، والداعي الى سيرة السلف داعٍ الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعي الى كتب الاولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادي بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة ، وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الإسرائيليات ، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها » .

« عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر ، مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هديا وفيه شفاء، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه ، ويشفي أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟ » ثم قال : « عاملان من

(١) الاصل : وحواشي .

أقوى العوامل وقفا في طريق الشيخ : عامل الحسد ، وعامل البيئة ،ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد ، ولو أنه لم يحسد ، ولو أنه لم يرم بالكفر والضلال ، ولو أنه لم يشتد حساده ، ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئا يتحدث عنه ، ولما كان رجلا من رجال التا ريخ » .

قال : وسبب ثالث له خطره ، وهو بأن جهة من جهة ذات نفوذ (الخديوي) أظهرت عدم الرضا عن الشيخ ، وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر (المحتلون) ساعدته وشدت أزره ، فظن القوم أنه رجل يريد إفساد الدين وافساد العلم . ومن أشد مظاهر الحسد اذ ذاك أن عالما من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الازهر ، لان الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الازهر . « وكاد العناد يكون كفراً » .

قال المراغي : ترك الشيخ بذور إصلاح التعليم الديني وتعليم علوم العربية ، وبذور اصلاح القضاء الشرعي ، وبذور اصلاح المجتمع الاسلامي والامم الاسلامية ، وليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيقه آي القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدي القرآن ، وفي فهم أغراض الدين عامة ، وقال : وودعته ليلة سفري الى السودان لتولي قضاء مديرية دنقلة (نوفمبر ١٩٠٤) فمما قال لي : أنصحك أن تكون للناس مرشدا أكثر من ان تكون قاضيا ، وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم ، فان الاحكام سلاح يقطع العلاقات بين الاسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح ، قال : وداعبني مرة إثر خروجي من امتحان شهادة العالمية قائلا : هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم،

وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : اسمع مني تعريفا مفيدا : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس • ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له لا ، قال : إذاً أنت لست بعالم ، فانفع الناس بعلمك لتكون عالما •

بقي محمد عبده في هذه البيئة العلمية المنحطة مضطرب البال حتى وافى مصر الإمام جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٦٩ ثم ذهب الى الأستانة، وعاد الى القاهرة سنة ١٨٧١ فلازمه وتتلمذ له ، وقرأ الأفغاني لتلاميذه بعض الكتب العربية القديمة والكتب الاوربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع ، فتفتحت عقولهم ، ومزقت حجب الاوهام عن عيونهم ، وأخذ يحثهم على الكتابة والخطابة ، ولما قرأ محمد عبده « الحاشية على شرح العقائد العضدية [1] » مال الى رأي المعتزلة دون رأي الاشاعرة ، فشاع ذلك في شيوخ الازهر • وفي يوم الامتحان لأخذ شهادة العالمية قاوموه مقاومة ظالمة،ومنهم الشيخ عليش ، والشيخ الجيزاوي ، ومع أن رئيس لجنة الامتحان شيخ الازهر يومئذ الشيخ العباسي ، وكان على جانب كبير من العلم وحب التجدد ، قال لأعضاء اللجنة أثناء المداولة : انه لم ير في حياته أحدا في ذكائه وتثبته من علمه وأنه يستحق الدرجة الاولى ، بل لو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها • ومع ذلك لم تسمح له اللجنة إلا بالدرجة الثانية ،وبعد

---

(١) العقائد العضدية ، لعضد الدين عبد الرحمن بن احمد الايجي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ شرحها ووضع لها الحواشي كثير من العلماء منهم جلال الدين محمد بن اسعد الصديقي الدواني المتوفى سنة ٩٠٨ هـ قال عنها : لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية الا وأتت عليها ، ولم تترك من امهاتها ومهماتها مسألة الا وقد صرحت بها أو أومأت اليها (الكشف ١١٤٤)

ست وعشرين سنة من نيله شهادة العالمية عادت مشيخة الازهر فصححت خطأها ونقلته الى الدرجة الاولى (١٩٠٤) •

ولم تحل درجات العالمية دون تدريس الشيخ في الازهر ، وأكثر ما كان يدرس كتبا في المنطق والتوحيد والاخلاق ، وفي أواخر سنة ١٨٧٨ عين مدرسا للتاريخ في « دار العلوم » ومدرسا للغة العربية في « مدرسة الالسن » • وبعد قليل عزل عن التدريس في هاتين المدرستين على أن يقيم في قريته لايبرحها الى الحواضر المصرية ، وذلك لتغيير خاطر أمير البلاد عليه ، ثم عفا عنه (١٨٨٠) وعين محررا في جريدة « الوقائع المصرية » الرسمية ، ثم رئيس تحرير فيها ، فاستعان بقوة الحكومة على تحسين لغة الكتابة ولغة الجرائد ، وأخذت الجريدة الرسمية تخوض في موضوعات تثقف وتعلم ، فكان في هذه الصحيفة معلما ومصلحا • قضى على الطريقة القديمة العقيمة في الإنشاء وأبطل السجع والازدواج ، وعلّم الكتّاب السلاسة في التعبير وعدم التكلف •

كان الشيخ يرى في شخص رياض باشا رئيس الوزارة [1] صورة حسنة للمستبد العادل « مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الاهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، ان لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة » •

وكان رياض يعاون الشيخ على مقاصده في الاصلاح ، ويستعين برأيه في بعض الشؤون، وسقطت وزارته بقيام الثورة العرابية [2] ،وكان

(١) هو رئيس مجلس الوزراء •
(٢) أي ثورة احمد عرابي التي قام بها سنة ١٨٨٢ م •

الشيخ يومئذ لا يقول بالثورة ، ويصرح أن الامة غير مستعدة للحكم الدستوري ، وأن الواجب تعليمها وتهذيبها أولا ، ويرى استشارة الامة في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات فقط تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، قال : « وليس من اللائق أن تفاجأ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشيء قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ، ويفضي الى الهلكة » ، وقال : أخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبيا يستدعي تسجيل اللعنة على مسببيه الى يوم القيامة •

واحتل الانكليز مصر ، وأرادوا القضاء على الحركة الوطنية ، وشلوا سلطة دار الندوة ، وعملوا على التفريق بين الخديوي والامة ، فتحول حينئذ مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر ، وحينئذ أصبح محمد عبده ومصر قاطبة من أتباع محمد عرابي ، ورأى الشيخ ما كان يراه كل وطني صادق أنواجبه يقتضيه أن يكونمع الامة على الانكليز، وعلى الخديوي الذي أصبح آلة في أيديهم ينفذون به أغراضهم• واصبح الشيخ كما قال عميد الاحتلال روحا ومدبرا للحركة، وأصبح العرابيون يلجؤون اليه في كثير من أمورهم ، لا يبرمون أمرا دون استشارته ، فكان موقفه من الثورة العرابية كماقال الرافعي المؤرخ : « موقف الوطني الذي يثور لكرامة البلاد واستقلالها ، فدافع عنها بكل ما لديه من حول وقوة واخلاص » •

اضطر الشيخ الى ركوب مراكب السياسة ، وما كان يود أن يدخل فيها • زُجَّ فيها رغم ارادته ، لذلك رأيناه يتخلى عن السياسة بعد أن صفا له الجو ، ولم يرض الدخول في غمارها ــ بالفعل والقلب ــ معلماً ومرشدا ، أي أنه شارك في السياسة بالقدر الذي أراده ، ثم نفض يده منها إلا قليلا •

ولما قبض على من عرف لهم أثر في الثورة كان الشيخ في جملتهم ، اتهموه بأنه أفتى بوجوب قتل الخديوي لخروجه على اجماع الامة ، فغرّب من القطر المصري الى الشام ثلاث سنين ، ثم غادرها الى باريز لنشر مجلة « العروة الوثقى » مع صديقه وأستاذه السيد جمال الدين الافغاني ، وكانت « العروة الوثقى » جمعية سرية يقصد بها محاربة الاستعمار والمستعمرين ، وفي مقدمتهم الانكليز ، والغرض البعيد من الجمعية « إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول ، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا . ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم ، وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » .

وضاق صدر المستعمرين من مقالات مجلة «العروة الوثقى» فمنع الانكليز دخولها الهند ومصر والسودان ، فلم تعش أكثر من ثمانية أشهر . كانت مقالاتها، ويكتبها محمد عبده بقلمه الساحر، ويملي بعض آرائها السيد جمال الدين الافغاني أشبه بدساتير للامة اذا جرت على بعضها نجت مما هي فيه من الانحطاط ومن الذل الذي صارت اليه بفعل ملوكها وأمرائها وزعمائها ، وذهب متنكرا من باريز الى تونس فمصر ثم عاد الى بيروت (١٨٨٥) واستدعي للتدريس في المدرسة السلطانية فوضع لها برنامجا جديدا أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي ، وظهرت آثار تعاليمه في التلاميذ آخر السنة،وأرشد المعلمين الى الطريق القويم في التدريس وتهذيب ملكات الطلاب وتثقيف أخلاقهم . وزار خلال ذلك بعض مدن الشام وأفاض على كل من لقيه غرفة من علمه

وبيانه . وبورك له بوقته فعلّق على كتاب « نهج البلاغة » وعلى « المقامات » للهمذاني وغير ذلك .

وعفي عن الشيخ فعاد الى وطنه فعين قاضيا في المحاكم الاهلية الابتدائية فقال حين سمع خبر تعيينه : ما خلقت لاكون قاضيا بل لاكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت . وقيل : ان عميد الاحتلال بعد مدة أراده على أن ينزع العمامة فيكون رئيس وزراء مصر فقال له : خلقت معلما وأريد أن أموت معلما . وترقى في القضاء حتى صار مستشارا في محكمة الاستئناف ، وكان يود أن لا يدخل فيه وينقطع الى التدريس مع أنه كان يعلم أنه يرتقي في هذا السلك الى أعلى الدرجات ، وان مجال التدريس ضيق محدود ، وطلب أن يعود الى مدرسة دار العلوم فأبى الخديوي أن يجيبه الى طلبه مخافة أن يلقن تلاميذه من أفكاره السياسية . ولما نصب الخديوي عباس على امارة مصر داخله الشيخ وأقنعه بضرورة إصلاح الازهر ، ولكن دسائس شيوخه وغيرهم حالت دون إنفاذ هذه الأمنيّة .

وفي سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتيا للديار المصرية فأصبح بحكم منصبه الجديد عضوا في مجلس ديوان الاوقاف الاعلى الذي أنشأه عميد الاحتلال للحد من تصرفات الخديوي في أموال الاوقاف ، وعين في الشهر الذي تولى فيه الافتاء عضوا في مجلس الشورى ، ولم يلبث أن ظهرت المشادة بين الشيخ والخديوي ، فإن هذا أراد أن يبدل مزرعة له بأراض للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة ، ووضع الثمن الذي راقه فأبى الديوان بإشارة الشيخ الا أن تثمن أرض الخديوي وأرض الوقف ، فكان من ذلك ان خسر الخديوي خمسين ألف جنيه ، وبذلك انتقلت العداوة التي نشأت بين مترجمنا والخديوي توفيق من أجل تقلبه في

سياسته يوم الاحتلال الى ابنه عباس ، وظل هذا يحرض سفهاء الأفاقين على الشيخ ، ويحمل زبانيته من الجواسيس والكتّاب على تسويد صحيفته في نظر الامة، ولكن الشيخ وجد له معتصما من عميدالاحتلال، فكان هذا يبعد نظره يدفع العوادي عنه ، ويوقيه غضب الامير •

وكان أول ما قام في ذهن الشيخ تفتيش المحاكم الشرعية ففتش كل أرجاء القطر ، ولم يدع محكمة مديرية أو مركز إلا شاهدها بنفسه ، وبحث أعمالها بحثا دقيقا، وتعرف حال قاضيها من قوةاو ضعف، وضبط العمل والاهمال فيه فوضع تقريره وصادف من وزارة العدل معاضدة على إنفاذ أكثره ، فأخرج القضاء من دركات التدني التي كان غائصاًفيها، ثم استقال من ادارة الازهر ، وظل على العناية بما يصلحه ، ورضيت الحكومة أن تفتح مدرسة يتخرج فيها القضاة والكتّاب والمحامون الشرعيون ، وبذلك أبقى للشريعة بعض بهائها الذي كان المشايخ الفقهاء السبب في ذهابه، واضطرار الخديوي اسماعيل الى العمل بقوانين فرنسا بعد أن اقترح على أهل الازهر أن يؤلفوا كتابا في الحقوق والعقوبات موافقا لحال العصر فرفضوا لا تدينا بل عجزا • ووضع لائحة لاصلاح المساجد ليكون أئمتها وخطباؤها من أهل العلمبالدين فعارضه الخديوي أيضا لحنقه على الشيخ يوم عرض علىالاوقاف استبدال أراضي البناء التابعة للاوقاف في الجيزة بمزرعته المعروفةباسم مشتهر• قاوم الخديوي الشيخ في هذا المشروع أيضا ، وغفل عن مصلحة المسلمين في تقريره وإنفاذه ، وبذلك صح ما قاله : ان مصيبة هذه الامة بفساد أخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله : انه لم يعمل عملا لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لا من الافرنج ، ولا من القبط ،ولا من السوريين •

كانت طريقة الشيخ السير الى جانب الدين مع مراعاة أحوال

الدنيا ، أو تطبيق أمور العالم على الشريعة ، ولذلك كان في فتاويه يفتي على وجهين : الوجه الاول الفتوى الرسمية يتقيد فيها بمذهب الحنفي • وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى ، وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصا أو اقتضاء • وكانت عادة المفتين في مصر الوقوف عند حد فتاوى الحنفية ومذهب أبي حنيفة مذهب السلطان الذي كان يخفق علمه على القطر •

وكان للشيخ بحكم منصبه ما جعل منه أحسن أداة يستخدم في النهوض بالامة ، شأن كل كفء من الرجال ، لا يفلت من يده فرصة لنفع غيره • ومن ذلك أنه لم يكتف باصلاح الازهر واصلاح المحاكم الشرعية ، بل توفر مع أصحابه على انشاء جمعية سموها الجمعية الخيرية الاسلامية ، غرضها التعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين ، واعانة العاجزين منهم على الكسب • قال في احتفالها السنوي مرة : لم تنشأ الجمعية لاخذ الشهادات والاستعداد للوظائف ، بل من أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لافائدة فيه الا الاستخدام في الحكومة ، والجمعية توطن نفوس التلاميذ في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ، ويعيش مع الناس بالامانة والاستقامة ، فولد النجار يكون نجارا ، وولد الحداد يكون حدادا ، وولد الفرّاش يكون فرّاشاً • والتربية والتعليم يساعدان كلاًّ على اتقان عمله وصناعته ، فيكون أكثر كسبا لانه أكثر اتقانا للعمل مع الامانة والاستقامة • وأصبح الشيخ في سنة ١٩٠٠ رئيسا للجمعية الى يوم وفاته ، فجمع لها من كرام المصريين أموالا عظيمة ، ووقف عليها مزارع

وأراضي ،وأنتجت ما كان يعقد عليها امله من الخير فيتربية أبناء الفقراء تربية حرة طاهرة •

وهو الذي ألف شركة طبع الكتب فطبعت أسفارا مفيدة ، واشترك في تصحيح عدة كتب قديمة ، ومنها « المخصص » لابن سيده•

فطر الشيخ على بث العلم ، وكان معلما في كل مكان دخله ،معلما في الجريدة الرسمية ومعلما في دار العلوم ، وفي مدرسة الالسنة ومعلما كل يوم في دروسه في الازهر منذ حداثته الى آخر أيامه ، ومعلما في القضاء على اختلاف الدرجات التي تولاها،ومعلما في الافتاء وفي مجلس الاوقاف الاعلى ، وفي مجلس شورى القوانين ، وفي الجمعية الخيرية الاسلامية ، وفي غير ذلك من الاعمال بهمة تعلو على الهمم العالية •

اتتبه من نفسه الى فساد طريقة التعليم الازهري ، وهو في العقد الثاني من عمره ، وظل طول حياته يحارب تدريس الحواشي والشروح والهوامش والتقارير ، ويقول : ان أهل الازهر يتعلمون كتبا لا علما ، وغرامهم في حل عبارات المؤلفين والمهمّشين والمحشّين •

قاوم الجامدون من مشايخ الازهر الشيخ ، وما كفوا عن مقاومتهم حتى أصبح غرة شادخة في الاسلام ، وعندها خافوا على مناصبهم منه فصانعوه وتألفوه •

قال له الشيخ البحيري مرة في مجلس ادارة الازهر مدافعا عن نفسه : « اننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » • فقال الاستاذ : « وهذا الذي اخاف منه » • قال البحيري مستنكرا : « ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العَلَم الفرد ! ؟ » •

فأجاب الامام : «ان كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره فإنني لم أحصله الا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق بـه من وساخة الازهر ، وهو الى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » •

وشرح مرة طريقته في التدريس فقال : ان الكتب لا تفيد القلوب العمي الا اذا صادفت قلوبا متيقظة عالمة بوجه الحاجة اليها ، واذا وصل الى أيدي هؤلاء العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يعقلون المراد منه ، واذا عقلوا منه شيئا يردونه ولا يقبلونه ، واذا قبلوه حرّفوه الى مـا يوافق علمهم ومشربهم •

قال : ان الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء ، لان نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام ، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه ، وأيضاً يمكن السامع من أن يسـأل المتكلم عما يخفـى عليه من كلامه فاذا كان مكتوبـا فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ، والقارىء لكلامه يفهم منـه ٢٠ في المئـة على ما أراد الكـاتب • وعلى ذلك كنت أقـرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيرا من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم لها أحـد فيما أعلم ، مع انها كان من حقها أن تكتب ، وما علمت أحدا كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعانـي في بعض ما يكتبان ، وأما المسلمون فلا •

وقال الاستاذ المراغي :: كانت دروس الاستاذ كالغيث ، وكانـت مثلا عاليا في طريقة الالقاء والتفهيم ، وفي العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة الى القلوب ، وكانت دائرة معارف يجد اللغوي فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيـق آي القرآن على معارفهم •

لم تترك واجبات المناصب وقتا كافيا للاستاذ ينقطع فيه الى التأليف، واضطرته حالة الامة الى الدخول في غمار الثورة العرابية ، وكذلك كان حاله بعد أن عاد الى مصر يتولى أعمال القضاء والافتاء • كان يكره السياسة ويقول : انها ما دخلت في شيء الا أفسدته • وفي كتابه « الاسلام والنصرانية » « فإن شئت ان تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو العلم او الدين فأنا معك من الشاهدين • أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » •

وبعد فإن تآليف الشيخ صغيرة الحجم ، جمة الفوائد ، وله تقارير في الاصلاح كان يقدمها الى الحكومة فتنفذها أو أكثرها • وكتب أكثر ما كتب لدواع وبواعث دعته الى وضعها وما كان ينشرها الا بعد درس وتحقيق ويتمثلها في صدره أولا ، شأنه في دروسه •

نشأ نشأة صوفية على يد شيخه ونسيبه الشيخ درويش في قريته ، فكان من الطبيعي أن يكون أول تآليفه « الواردات » رجع عن بعض ما كان قرره فيها ، ورسالة في وحدة الوجود ، بيّن فيها مراتب الوجود وتعددها من وجوه نظامها العام ووحدتها من وجه آخر • و « تاريخ اسماعيل » لم يطبع ، « وفلسفة الاجتماع والتاريخ » ، و « حاشية على عقائد جلال الدواني » ،و « شرح نهج البلاغة » ،و « شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني » ، و « شرح البصائر النصيرية » ، و « نظام التربية والتعليم » ، و « رسالة التوحيد » ، و « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » ، و « تفسير سورة العصر » ، و « تفسير جزء عم »، وأمتع تآليفه التي تجلى فيها علمه وبيانه « رسالة التوحيد » • هذا

الى تقريره في اصلاح الازهر ، وفي اصلاح المحاكم الشرعية ، ودفاعه عن الاسلام اذا طعن الطاعن عليه ، ومنها ما كان ينشره في الصحف في آخر أيامه خِلْواً من توقيعه ، أو يوعز الى خاصته ليكتبوا فكره ويقرّهم عليه فينشرونه بأسمائهم .

حفلت حياة الشيخ بأمور كلها تدور على النهوض بالمسلمين ، وتثقيفهم ثقافة تجعل منهم أمة متحضرة ، ولذلك كان في بعض فتاويه يسير مع العقل ، ولا يحيد عن طريق السلف. بدأ صوفيا وانتهى مجتهدا لا يقول الا بما يقول به علماء الظاهر أمثال الامامين ابن تيمية وابن قيّم الجوزيّة . ولكم بورك له بساعات عمره وبحق ما وصفه قاسم أمين عندما قال : « يطالع ويتعلم ويعلّم ، ويفتي ويجلس في جلسات مجلس شورى القوانين ومجلس الاوقاف الاعلى ، ويترأس على الجمعية الخيرية الاسلامية ، ويضع التشريعات للازهر والمحاكم الشرعية ، ويمتحن طلبة العلم وتلامذة المدارس ، ويؤلف الرسائل الدينية ، وينشر المقالات الفلسفية ، ويدافع عن الدين اذا طعن عدو عليه ، ويراسل علماء المسلمين في جميع الاقطار التي يسكنونها ، ويعارض رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتا ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم » . قال : انه وصل الى مقام الامامة بأوسع معانيها .

وقالوا : انه اذا دعي الى حفلة عامة أو مأدبة خاصة وحالت صحته أو قلة وقته دون الاجابة اليها يبعث بكتاب بقلمه ، فكان صاحب الدعوة بين عاملين في قبول دعوته أو الظفر منه بكتاب اعتذار يقرؤه على أصدقائه وأهله . وان فاته الاستمتاع بحديثه اذا حضر . وكان ما يكتبه في شكر المؤلفين الذين يهادونه بكتبهم سببا في رواجها ، لان الشيخ لا يقول جزافا ، وكتبه من هذا القبيل كثيرة يتألف منها جزء لطيف .

حضرت دروسه في الرواق العباسي في الازهر ، ومجالسه الخاصة في داره في عين شمس أو في دور بعض مريديه ، وسمعت بعض خطبه في الجمعية الخيرية الاسلامية فكنت أقول : سبحان من خصه من بين معاصريه ببلاغة اللسان وبلاغة القلم .

وصفه العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي في مجلة « الضياء » بقوله: « كان متوقد الفؤاد ، ثاقب البصيرة ، قوي الحجة ، ذرب اللسان ، بليغ العبارة ، اذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه ، فلا يتوقف ولا يتلكأ ، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيبا سخيفا ، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداهة وجدته كأحسن ما ينشىء المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول ، حتى انه تعلم اللغة الفرنسوية وهو فوق الاربعين ، فلم يأت عليه الا أشهر حتى كان يجيد فهمها ، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها ، ولم يرو مثل ذلك الا عن استاذه السيد جمال الدين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

كان الامام يتوخى في دروسه ألا تكون جافة اذا طال بحثه وتقريره فيشفعها في الحال بشيء من دعابته الحلوة ، يفرغ عليها من روحه الصافي ما يحبب الى النفوس الرجوع الى سماع ما يحاول القاءه عليهم من المسائل والمشاكل . وما حضرت له درسا ولا مجلسا ولاخطبة الا تمنيت لو يطول القاؤه أكثر مما طال ، ووددت أن أكون كلي آذانا تسمع وقلوبا تعي وتفهم . وما شككت قط أن كل ساعة من ساعات حياته كانت نفعا وخيرا ، وأن كل من كتب له الاتصال به أفاد من علمه وتجاربه ونصائحه وهديه وتأثر به عقله وروحه .

عطف عليّ منذ تشرفت بالاجتماع اليه في القاهرة فقال في الملأ

من أصحابه انه قرأ ما كتبته الصحف في مشروع السكة الحجازية فما قدر جلالة الموضوع حتى نشرت في مجلة « المقتطف » مقالة فيه فاطلع فيها على ما لم يطلع عليه من قبل • فهيأ لي بهذه الشهادة سبيل التعرف الى طائفة من رجال مصر في العلم والقضاء والإدارة والسياسة والادب وهذا جُلّ مايتطلبه ناشىء مبتدىء من العون والتنويه •

قالوا : ان الاستاذ تعلم اللغة الفرنسية وهو في الرابعة والاربعين لما اشتدت حاجته اليها أيام تقلد القضاء ، وشاهد رفاقه يستعينون في أحكامهم بالقانون الفرنسي فما وسعه الا تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها من دون كبير عناء في وقت قصير فكان يحضر في الصيف دروسا في هذه اللغة في كلية جنيف، ويتمرن على الكلام فيها والفهم في السياحات، وقد ساح في اوربا وافريقية وآسيا كثيرا ، واذكر أني صحبت أحد علماء المشرقيات من الالمان لزيارته في داره ، وكان الحديث بالفرنسية في موضوع التربية والتعليم ، فما غلط الاستاذ غلطة واحدة في الساعة التي قضيناها في حديثه ، وأبان عن بديهة مؤاتية ، دهش لها صاحبي الالماني ، وبقي أياما يحدثني بأثر تلك الزيارة في نفسه •

ذكر السبب الذي دعاه الى تعلم الفرنسية قال : ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت أنه لا يمكن لاحد ان يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن منه من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة أوربية • وكيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض • وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الاشرار منهم • واخترع الاستاذ لنفسه طريقة تلقف اللغة الفرنسية ، فكان يتلو أمام أستاذه

قصة لاسكندر دوماس والمعلم يصلح له النطق ويفسر له الكلم ، ثم تعلم نحوها بالتدريج •

وكان الشيخ عمليا في تلقن العلم وتلقينه منذ حضر درس النحو في الجامع الاحمدي في طنطا ، وتأفف من طريقة تعليمه • كان في القضاء قاضي العدل بالانصاف ، لاقاضي القانون والرسوم • قال عن نفسه : « انني كثيرا ما أنظر في قضية فاستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالإدانة مثلا • حتى اذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوّض كل ذلك البناء الذي كنت بيّنته في ذهني من وجوه ترجيح الادانة ، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتما فأحكم بالبراءة » •

وكان يفضل أبدا أن يجري الصلح بين المتخاصمين حتى لا تتأصل العداوات بين الناس اذا فضّت المحاكم الشجار بينهم •

كان الشيخ رأسا في كل ما عانى من أعمال المجتمع لا يلبث أن يظهر فضله الباهر في الايام الاولى من توليه عملا من الاعمال ، وتتخاذل قوة الامراء والطغاة أمام عقله • كان الخديوي عباس يبغضه لانه لم يوافقه على مد يده الى الاوقاف ويشتد في مقاومته بكل ما تصل اليه قوته من ضروب المقاومة، فاذا وقع في مأزق لا يتأخر عن دعوته لارشاده الى الطريق الواجب سلوكها علما منه بسعة عقله وسعة علمه • كان يهيج عليه العلماء والادباء كل حين ، ويوم الجد لا يعتمد على غير رأيه وحكمه • والشيخ بما عرف من كرم أخلاقه يتجاهل كل ما يصيبه من أذى مبغضه •

كان الشيخ كريما يتصدق في السر وقد خص بعض المحاويج المستورين برواتب يقبضونها من راتبه الكبير من الاوقاف • وكان

ينفقه كله في هذه الوجوه من البر . كان نصير المظلومين والضعفاء ، ولطالما سعى لجلب الخير الى من كان يقذف فيه ويعاديه من دون سبب، يقصد بذلك أن يعلمه ويعلم غيره كيف تكون الاخلاق الطاهرة ، وأن هذا هدي الاسلام وطريقة صاحبه .

قيل انه نظم أبياتا في مرضه الاخير أبان فيها عن غرضه من الحياة وهـي [1] :

ولستُ أبالي أن يقـال محمـدٌ
أبَلَّ أم اكتظَّتْ عليـه المآتـمُ
ولكنَّ دينـاً قد أردتُ صلاحه [2]
أحاذِرُ أن تقضي عليـه العمائمُ
وللناسِ آمـال يُرَجّون نَيْلَها
إذا مُتُّ ماتت واضمحلت عزائـمُ
فيارِبِّ إن قَدَّرْتَ رُجعى قريبةً
إلى عالم الأرواح وانفضَّ خاتَمُ
فباركْ على الإسلام وارزقه مرشداً
رشيداً يضيء النهج والليلُ قاتمُ [3]

(١) أشار الى هذه القصيدة جرجي زيدان في تراجم مشاهير الشرق وأورد البيتين الاولين منها كما اوردها محمد رشيد رضا في كتابه « تاريخ الشيخ محمد عبده» ص ١٠٢٦-١٠٢٧ وذكر انه انشده اياها ابان مرضه، وقال أيضا : وله قصيدة قالها في الثورة العرابية وهما وحيدتان مطلعها :
مالي يعنف قلبي من تفاضيه   دهر يبالغ في عجب وفي تيه

(٢) هذه رواية الاصل ، وتراجم مشاهير الشرق ، اما رواية رشيد رضا فهي : ولكنه دين .

(٣) بعد هذا البيت في تاريخ محمد عبده بيت سادس هو :
يماثلني نطقـا وعلما وحكمـة   ويشبه مني السيف والسيف صارم

قالوا : ان لسانه لم ينطق بقول الشعر الا في آخر أيامه ، وفي الحبس لما سجن مع العرابيين .

أجاب الشيخ رجلا من الشاميين هنأه بمنصب الافتاء ، ومما جاء في جوابه يصف موقفه من الامة المصرية: أما قومي فأبعدهم مني أشدهم قربا مني ، وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعا منهم في الاحكام ، وذهابا مع الاوهام ، وولعا بكثرة الكلام ، وتلذذا بلوك الملام . أقول فلا يسمعون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل . حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :

لكنّ قومي وان كانوا ذوي عَدَدٍ
ليسوا من الشرِّ في شيء وإن هانا [1]

وأقول : ولا من الخير .

« وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته ، أو أب عقّته ذريته ، او ابن لم يحنّ عليه ابواه وعمومته، مع حاجة الجميع اليه، وقيام عَمَدهم عليه ، يهدمون منافعهم بإيذائه ، ولو شاؤوا لاستبقوا باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ، ليطعم من يلهو ويلعب . على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر ، اذا ضاق الامر ، وقوة العزم ، وثبات الحلم ، وان كنت

(١) هذا البيت من مقطوعة لرجل من بني العنبر وردت في عيون الاخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٨ مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ونسبها أبو تمام في حماسته لقريط بن أنيف .

في خوف من حلول الاجل قبل بلوغ الامل • خصوصا عندما أرى العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطرا لما أنبتت زرعا ، ولا أطلعت شجرا ، أفزع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبي يتقطع ، ثم أرجع الى الله فأعلم أنه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين فيثلج صدري ، وأمضي في جهادي الدائم ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ... » •

« ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين ، وحمق المعلمين في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي لمحو أحكامها وازالة أيامها • تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيدا ، ولكن كان فهم القوم جديدا ، لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه • كان القرآن يصوغ أفئدتهم فيلين من شدتهم ، ويفلّ من شرّتهم ، ويفجر عن صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة ، وما كان أهل العناد فيهم الاقليلا، عرفوا الحق فأنكروه،وطائفته كانوا يفرّون منه خوف أن يعرفوه ، ولو سمعوا لفهموا ثم لم يجدوا بدا من أن ينصروه• وان الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم ، كلاهما قليل في بني آدم • أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ، ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية ما يطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وان لم يعقلوا ،وأن تقضى حاجاتهم اذا سألوا ،وأن ترفع مكانتهم وان تنزلوا ... » •

وهذه من أجمل الصفحات التي كتبها الاستاذ الامام في النعي على قومه فساد الخلق والعناد على سماع الحق•ولو كتب له أن يكتب كتابا في حاضر المصريين لكان أجمل كتاب يصدر عن مثله •

رسم الاستاذ الامام ، وهو اللقب الذي أطلق عليه في أواخر أمره، خطة لنفسه في الحياة منذ كان في العشر الثاني من عمره ، وبقي على تحقيقها لا يثنيه شيء عنها ، وماحاد عما رسم في الدرس والتدريس ، ولم يبرد غرامه بحمل النور الى العقول الى آخر ساعة . وهذا قلّما عُهد في الشرق الاسلامي . ولا غرو ان اضطلع وحده بعمل مئات من أمثاله من المشايخ مجتمعين ، ذلك لان أكثرهم يحصّلون العلم ليعيشوا في الدنيا ويتولوا المناصب في الدول . أما هو فتعلم العلم ومارسه لينفع به الناس في دينهم ودنياهم ، ويخرج من هذا الجسم المنحط ناشئة قوية تفيد الاسلام والمسلمين . كان مفردا في أمته ، لم ينبغ فيها مثله منذ قرون ، ولعل القرون تتوالى حتى ينشأ رجل فذ من عياره يستوفي شروط الإمامة ، وتعزف نفسه عن المطامع والمظاهر .

والسر في تفوقه على غيره أنه كان من أول نشأته يستعمل عقله ، ويكره الجمود والعنجهية ، ويعرف وقته معرفة ثاقبة ، ويسير بما يلائمه وييسّر على أمته . وعرف أن الشريعة مرنة تصلح لكل زمان ومكان فانتفع ونفع بهذا الرأي ، وكان اذا جاءته المعضلات جرّد لها من عقله مخارج فحلّها بقانون الشريعة وقانون العقل معا . فقد سئل في ذبيحة النصارى فأحلّها ، واستُفتي في جواز لبس القبعة فأجازها ، وسئل في ايداع المال في صناديق التوفير فأفتى به . وفي تفسيره القرآن فسّر أمورا غامضة لا يفهمها كل الناس وقرّبها من الاذهان فأقنع غير المتعنتين ، كمسألة الجن والملائكة ، فسّرها بما لم يسبق لمفسّر على ما نظن ، ومن قرأ دروس تفسيره يدرك أنه عالم لا كالعلماء ، يقول أبدا : « لا إمام سوى العقل » .

كان في المعضلات الفقهيــة اذا لم يجد في الفقــه الحنفي ما يبلّ

الغلة يعمد الى الاخذ من أحد مذاهب أهل السنة كما فعل في حل معضلة من غاب أزواجهم من النساء غيبة طويلة كأن يحكم على أزواجهن بالاشغال الشاقة مؤبدا أو بالحبس مدة طويلة ولا عائل لهن ، واستخرج من فقه المالكية احدى عشرة مادة كان فيها الحل المعقول . والمهم في نظره رفع الحرج عن الناس وتخفيف آلامهم وإمتاعهم بحقوقهم ، والزامهم واجباتهم .

لم يخلّف مالاً تعيش به أسرته من بعده . « عاش عظيماً فقيرا ، ومات فقيرا عظيما » . خلّد اسما يذكر بالاعجاب والتقديس كلما ذكره الذاكرون .

★ ★ ★

- ٣٩ -

محمد المبارك *

١٢٦٣ - ١٣٣٠ هـ
١٨٤٧ - ١٩١٢ م

أصل أجداد الشيخ المبارك من عرب الجزائر ، نزلوا بين البربر يتولون ارشادهم وتلقينهم الطريق ، فتعلموا لغتهم ، واختلطوا بهم بالصهر والنسب • وهاجر أبوه الى الشام • ولد ابنه محمد في بيروت سنة ١٢٦٣ ، ولقبه أبوه بالشيخ ، ثم انتقل به الى دمشق ، وفيها قرأ القرآن وجوّده ، واخذ يطلب العلم ، وكان له من جودة حافظته ما اتسع به محفوظه • قيل : انه حفظ مقامات الحريري في خمسين يوما ، وما عاقه اشتغاله بالتصوف على ما كان أجداده عن الاشتغال بالادب وعلوم التفسير والحديث والسيرة • قرأ أمهات كتبها وأقرأها تلاميذه ، وعلق عليها وشرحها ، وما خلّفه من الكتب التي نظر فيها في هذه العلوم ، ومنها نموذجات في دار الكتب الظاهرية ، دليل بعد نظره ووفرة تحقيقاته اللغوية والادبية •

اتصل في صباه بالامير عبد القادر الحسني فعهد اليه تعليم أولاده• وأراده أن يلقنهم القرآن بقراءة وَرْش (١) ، وهي القراءة المشهورة

* ترجمته في معجم المؤلفين ج١١/٢٦٣ ، حلية البشر ج٣/١٧٦ ، تراجم أعيان دمشق : ١١٨ ، وانظر هدية العارفين ج٢/٣٩٨ ، وايضاح المكنون : ج١/١٣ ، ٢٠٠ ، معجم المطبوعات ج١/٦٩٥

(١) هذا لقبه ، واسمه عثمان بن سعيد ، ولقبه احب اليه من اسمه ، وفي سبب تلقيبه اقوال منها انه اختصار لاسم طائر يقال له الورشان ، لقلة اكله وخفة لحمه . وقد لقبه به استاذه نافع . وهو شيخ القراء المحققين ، وانتهت اليه رياسة الاقراء في الديار المصرية ، ولد بمصر سنة ١١٠ هـ وتوفي بها سنة ١٩٧ هـ (طبقات القراء للجزري ج١/٥٠٢ ومفتاح السعادة ج٢/٢٨) .

في الجزائر ، ولما كان يقرأ القرآن بقراءة أخرى قصد الى الاستاذ الحلواني الكبير [1] شيخ قراء دمشق فأخذها عند وألف له رسالة فيها حتى عَلَّم بها مَن عهد اليه تلقينهم اياها .

وبينما كان يقرأ على تلاميذه من كتب التصوف « الفتوحات المكية » [2] ، « والرسالة القشيرية [3] ، و « قواعد التصوف » لابن رزوق [4] كان يقرأ في فقه مالك الرسالة للقيرواني [5] والسيرة النبوية لابن هشام ، ومقامات الحريري ومقامات الهمذاني وأطواق الذهب للزمخشري ، والمثل السائر لابن الاثير . وما أعرف ان كان نظر كثيرا في دواوين عظماء الشعراء ، ولعل ذلك دعا الى تخلفه في ميدان الشعر الجزل .

أما نثره فنثر أبناء جيله . سطا السجع والترصيع والازدواج على سداه ولحمته فأفقده السلاسة والعذوبة ، وعالجه في رسائل قليلة له مثل : رسالة « نضرة البهار »[6] و « بهجة الرائح والغادي »[7] وغيرها

(١) هو محمد بن سليم بن احمد الحلواني (١٢٨٥ ـ ١٣٦٢ هـ = ١٨٦٨ ـ ١٩٤٤ م) حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، واتقن القراءات وهو ابن اربع عشرة سنة تخرج به كثير من قراء دمشق الجامعين للقراءات العشر والسبع (الاعلام الشرقية ج٢/١٦٣) .

(٢) للشيخ محيي الدين بن عربي .

(٣) للامام عبد الكريم بن هوازن القشيري (٣٧٦ ـ ٤٦٥ هـ) شيخ خراسان في عصره .

(٤) هو احمد بن رزوق (معجم المطبوعات ج١/٣٨٦) وفي الاصل : رزق .

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن رشيق القيرواني المتوفى نحو سنة ٣٨٠ = ٩٩٠ : فقيه ، مؤرخ ، حافظ للحديث ، شاعر ، صنف كتبا في فقه المالكية (الاعلام ج٤/١٠٠) .

(٦) في محاورة الليل والنهار .

(٧) في أحاسن محاسن الوادي . وهي في وصف وادي دمشق . طبعت في بيروت سنة ١٣١٣ هـ .

ست رسائل كانت له مطبوعة دون مايرجى من أدبه(١) كأنه ما كان يعنيه من الانشاء غير قوالبه ، يتحــرى الصحيح من الالفاظ والتراكيب ، وقلما يحفل بالمعاني ، وكان ذوقه في النقد الادبي أرقى من ذوقه [في](٢) نسج الكلام •

قال لي مرة : « انك لسعيد بتطليقك السجع والأخــذ بطريقــة الكتابة المرسلة بدون سجع ، وأنا ما زلت مقيدا بقيوده ، وما استطعت أن أنجو منه ، واني لأعجز عن كتابة سطرين لبائع البقول ، لانــي لا أريدهما الا مسجوعين والمقام لايحتمله » ، وأنا أخذت عنه طريقتــه في السجع لأول أمري • وما زلت اجاهد نفسي حتى نجوت من أسلوب الحريــري والهمذاني ، وتذوقت مذهب الجــاحظ وابن المقفــع في الانشاء •

نعم كانت مادة الاستاذ من مفردات اللغة واسعة جدا ، ويكبــو في بيانه شأن أكثر اللغويين في الاعصر الغابرة ، لا يبرزون في الشعر ولا في النثر ونسج الكلام غير الاحاطة بالالفاظ•والبناء غير المهندس•

اتصلت به سنين آخذ الادب عنه فكتب لي شرف الاطلاع على تواضعه وتقواه وكرمه وعزوفه • وقلّ فيمن غلب عليهم التصوف أن جاء منهم عالم وأديب على هذا المثال البارع الذي كان عليه أستاذنا المبارك •

لا جرم أنه أخذ من التصوف أحسن ما فيه ، وهو باب الاخلاق، واطّرح ما فيه فضول وكسل وقلة عمل وتخريف لا يقول به الشرع •

(١) منها : « غريب الانبا في مناظرة الارض والسما »، «ابهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والاقامة » ، « لوعة الضمائر ودمعة الناظر في رثاء الامير عبد القادر » •

(٢) ساقطة من الاصل •

قلت له مرة : ان الحكومة آخذة بتوزيع أراضٍ على المغاربة ، وبلغني أنهم عرضوا عليك أن يملكوك جانبا مهما منها فأبيتَ فما سر رفضك ؟ فقال : لا أريد أن أشغل ذهني في شيء لا احسنه ، أما ابني فله ان يأخذ ان شاء • وقال له بعض المختلفين الى مجلسه : ان ابنك يصحب « كرد علي » ويخشى عليه أن تسري أفكاره اليه • فقال له : اذا بلغك أني غير راض عن صحبتك فلانا فلا تصدق ، وأنت حر أن تصادق من تريد وأنا راضٍ عن هذه الصداقة •

وجهت اليه الدولة رتبة علمية من دون أخذ رأيه فاستاء جدا ولم يقبلها ، ولم يسع الى الوالي ليشكره على الاقل على توجيهها اليه ، وكان ينقبض اذا ذكرت له ، وما رأيته يغضب قط الا عند ذكر الرتبة ، وهو الذي عاش حياته بعيدا عن أصحاب السلطان ، واختار لصحبته اناسا من طبقة التجار والباعة ، يعلمهم البسائط ويوسّع مداركهم حتى يشاركوا في العلم ولو مشاركة خفيفة • وما أخذ بعض أبناء طريقته منه إلا بقدر استعدادهم وذكائهم • وكان يتبرم بأصحاب الفضول منهم ، ويصبر الصبر الجميل على سماع أحاديثهم •

كان الشيخ مثالا صالحا من التوكل على الله ، وما كان يضنّ على من يقصده لمعاونته وتفريج ضائقته •

رأيته غير مرة يعطي مستجْديه كل ما يحمل في كيسه من دراهم ، يصبه له في منديله • وربما كان ساعتئذ لا يملك غير ما وهب ، ولا يدري من أين يطعم عياله في المساء • وهذا من الزهد الذي لم يؤثر مثله الا عن كبار الزهاد والنساك في الدهر الغابر •

كنت أعجب بزهد شيخ عرفته ، فلما مات سقطت الحكومة في

غرفته في المدرسة على مقدار كبير من الدنانير والريالات خبأها بين الحطب والفحم والفرش والغسيل فأين تقشّف مَنْ تقشف ؟

كان الشيخ يدعو كل مدة الى طعامه ، على أكلة للمغاربة فاخرة بعض أحبابه وأناسا من فقراء أهل طريقته ، ويوليهم من لطفه ما لا يستكثر ممن كانت له مثل أخلاقه وبسطة يده • وأعظم ماكان يتألم له قِحَةُ بعض تلاميذه واجترائهم على الغيبة والنميمة في حضرته ، فينقبض الشيخ انقباضا يظهر في أسارير وجهه • وهم يعلمون أنه لا يرضيه أن يذكر أحد بسوء في مجلسه ومن عادته أن يسكت حتى عمن يؤذيه •وكان يتجهم لمن كان يغشى مجلس اخوانه من دون معرفة سابقة، كان تصوفه ممزوجا بروح السنة وحكمة الحكماء • وما سمعته يحمل على من لا يتابعونه على آرائه ، ويكتفي بتجنب مجالسة من لا ترضيه حالتهم •

حدثني حفيده أن جده كان مرة مارا من شارع فقال له أحدهم : ان موكب امبراطور المانيا سيمر من هنا الآن ، فما كان من الشيخ الا أن أدار وجهه الى الجدار ووقف لا يتقدم ولا يتأخر حتى اجتاز الموكب •

وكان بعضهم يدعي للشيخ أنه يشفي من الصرع ، شهدت جلسة منها في داره ، وقال لي لما صحا المصروع : ان هذا لاجل المعاش ، مشيرا الىأنه هو ممن لا يعتقد ذلك ، ولكن المصروعين يعتقدونه • ومثل هذه المسائل هي فيه قليلة جدا • أتته من طريق الوراثة • ومثلها مما يتعاطاه قومه المغاربة •

كان المترجم له في دائرة ضيقة في التأليف ، لما كان في عشرة الناس على مثل ذلك • ولو قدر له أن يتنقل في الاقطار ، ويخالط

الناس أكثر مما خالطهم لتبدل حكمه على بعض مسائل الدنيا .

أخذ العلم عن أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري في جملة من أخذ عنهم ، وحصل الفروع التي استهوته . أما الفروع الاخرى كالتاريخ والاجتماع فلم يُقْسَم له حظ منها . فلنا أن نَصِفَه بأنه أديب على طريقة أدباء القرن الماضي ، ومتصوف يشبه قدماء المتصوفة بهَدْيِه وخُلُقه . نفع من أخذوا عنه الى حد معين ، وما تطالّ الى ما ليس في طاقته .

كان الجِدّ يغلب على الشيخ في معظم حالته . أنشأ في شبابه مدرسة في محلة الحُوياطية من محلة الشويكة في أرباض دمشق [1] . وفي ذاك الحي كان يسكن جالية الجزائر . ثم درّس مدة قليلة في قرية داعل في حوران ، وبعد ذلك أنشأ مدرسة ابتدائية في قرية الريحانية[2] ومنهاجها على الطريقة القديمة في التعليم ، الا انها ما كانت تعارض علوم المدنية . وكان اعتماده في كسبه على عمله والغالب أن الامير عبد القادر الحسني كان رتب له مشاهرة ، ويوليه من عطفه على ما كان شأنه مع جميع من اختار معاونتهم على شقاء الحياة من أهل دمشق ، فكانت لهم عليه رواتب يتقاضونها رأس كل شهر .

ذكر الامير مرة في مجلس الشيخ فبكى وأجهش بالبكاء وترحّم على الامير كثيرا فأبان عن رقةٍ في شعوره واعتراف بعوارف أميره .

★ ★ ★

(١) الربض (بفتح الراء والباء) : الناحية وما حول المدينة من ارض فضاء ، ومحلة الشويكة اليوم من احياء مدينة دمشق الجنوبية .

(٢) الاصل : في مدرسة الريحانية ، وهو سبق قلم . والريحانية في ظاهر دمشق من الناحية الجنوبية قرب القدم .

- ٤٠ -

محمد مصطفى المراغي *

١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ
١٨٨١ - ١٩٤٥ م

لم تنبغ أمة من الرجال في العلم والادب بقدر ما نبغ من العرب ومن دخل في جملتهم من الاجناس والعناصر . حقيقة اعترف بها من تجردوا من الغرض في الحكم على تاريخنا من الافرنج بيد أن من كان لهم طابع خاص ، وأثروا تأثيرا لم يؤثره غيرهم كانوا قلائل في كل جيل ، ولا سيما في القرون الاربعة الاخيرة . فلو فرضنا أن من استحقوا أن تدون سيرتهم في هذه الملة لايقلون عن مئة ألف ، لايتجاوز النوابغ المتازون منهم المئات ، ظهروا خلال عمر هذه الامة الطويل ، وخدموا بأبحاثهم وتآليفهم ودروسهم ومواعظهم .

وقد وضع العلاّمة ريبرا[١] من علماء المشرقيات من الاسبان جزازات في تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب أخرجتهم الاندلس من رجال

---

* ترجمته في الاعلام ٣٢٤/٧ ، معجم المؤلفين : ٣٤/١٢ الاعلام الشرقية ١٧٦/٢ المجددون في الاسلام : ٥٤٥ ، ولانور الجندي كتاب في سيرته عنوانه (الامام المراغي) .

(١) لعله ريبيرا اي طراجو (ت ١٩٣٤) ولد في كركختة من اعمال بلنسية ، وتعلم العربية على المستعرب كوديرا ، وتخرج من جامعة سرقسطة ، وعين استاذا للعربية فيها ، ثم اعتزل التدريس وعكف على التأليف .

ونشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢١ ص ٢٨٩.

العرب في ثمانية قرون،وليسوا كلهم بالطبع من عيار ابن رشد وابن باجه وابن حزم وابن زُهر وابن الخطيب وابن خلدون ، كما أن من ظهروا في الشرق ليسوا كلهم من طبقة الرازي وابن سينا والفارابي والبيروني وابي حنيفة والجاحظ والنظّام والخليل وابن المقفع وابن تيميَّة .

ظهر في الاسلام ألوف من المحدّثين ، والطبقة المختارة منهم عشرون أو ثلاثون ، وظهر عشـرات الالوف من الفقهـاء ، وأهل الطابع الخاص منهم الممتـازون بإبداعهم ليسوا كثـرة ، وخرج مئات من الحكماء ، والمشهورون منهم لا يعدون العشرات . ان الدساتير يحفظها أكثر من يعانون أعمال العقل ، والعبرة بما يتم على أيديهم ، وبما يحملون الى أمتهم من جديد يجدي عليهم .

كان العلم في العصور الماضية يصدر عن العواصم الكبرى ، يهرع اليها أرباب الكفايات لما يجدونه فيها من استعداد لسماع أقوالهم والانتفاع بمواهبهم، وكانت المدن الذاهبة بهذا الفضل بادىء بدء البصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والفسطاط والري وشيراز وأصفهان ونيسابور، ثم النجف والموصل وصنعاء وصعدة وفاس والقيروان وتونس والقاهرة. ولما تحيف الخراب معظم هذه العواصم بقيت القاهرة وتونس وفـاس والنجف تخرج علماء للامة ، فعدت لذلك مراكز علم . وكان الجامـع الازهر أشهرها وأعظمها لتوسط مصر بين مدن الاسلام . ولأن أهل الخير من سكانها وقفوا على هذا الجامع من الاحباس ما يضمن الانتفاع به على الدهر . ولان مصر كانت في الاسلام دولة برأسها ، أو شبه دولة متمتعة بحكم ذاتي ظل الازهر يخرّج رجال الدين منذ أقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولة السنّة ، وقضى على دولة الشيعة الباطنية. وكان أصحاب الفضل الواسع المتخرجون في تلك الدار أقل من القليل،

والمتوسطون كثرة ، على ما هم في كل زمان ومكان ، والمتوسط في العامة يُنسى ، والمبرز هو الذي يفاخر به تاريخ الامة ، ولا تبرح الالسن تردد ذكراه، والصحف تنقل آراءه وأخباره، والناس يستفيدون من كلامه ما انعقدت للعربية سوق ، وأقيمت شعائر الاسلام في أرض •

وممن نبغ في مصر من المتأخرين شيخ الازهر محمد مصطفى المراغي ، اشتهر لا لأنه تولى أعظم منصب في الاسلام ، فقد يتولى المتوسطون بعلمهم أسمى الرتب ، وهم لايَعْدون حفظ ما جرت العادة بحفظه ولا تمثلوا ما قرؤوه • اشتهر لأنه جمع الى الفقه والاصول ما تعوز العالم معرفته من أصناف العلم،فما أتقن علوم الدين، وقال قَطْني[1] ، بل تعلقت همته بمطالب أخرى،فشارك مشاركة لابأس بها في المعارف التي كان رجال الازهر ينفرون منها • وهذا من النادر في العلماء المعاصرين ، ونعني بالعلماء هنا علماء الدين ، وكان العلم اذا أطلق يراد به على الكتاب والسنّة فقط • والقاعدة عند من انصرفوا الى هذا الضرب من العلم أن صاحبه لا يشغل قلبه بغيره من أصناف المعرفة التي كانت في القديم العامل الاول في تميز العرب على من عاصروهم من الامم ، وهي في العهد الحديث من أعظم الاسباب في قيام الحضارة الغربية •

ومن أهم ما ساعد المراغي على تفوقه على أقرانه أن امتاز بذاكرة قوية ، يذكر ما مر به من أربعين سنة لا يخرم منه معنى • وقد جمع الى ذكائه الفطري استقلال الفكر وحب الاطلاع ، فما سد أذنيه وعينيه عن سماع الجديد والنظر فيه ، وكان على مثل اليقين أن مجد الاسلام لن يكتب له الظهور ان لم يقرن بالعلم الجديد ، استظهر القرآن وتدبّره ،

(١) قطني : حسبي

وحفظ بضعة دواوين لشعراء معروفين من أهل الجاهلية والاسلام ، وحظه الحظ فتخلص من القيود التي وضعها أهل كل مذهب ، وقضوا أن تؤخذ أقوال صاحبه قضايا مقررة يحظر على العقل أن يجول فيها . وعزم منذ تمت أدوات ثقافته أن يستقي من ينابيع الشريعة الصافية ، ولم يُغفل ما وضعه أهل المذاهب الجماعية من الآراء والاحكام ، وما تشدد فيما رخّص به الشرع أو أقرته المذاهب الاخرى ، ودعا للعمل بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضييق . وما كان فيه جمود من أخملتهم التقيّة ، وما اتسعت صدورهم الا لما رووه عن مشايخهم ، أو وقفوا عند حد ما قرؤوه في الكتب ، وما عبؤوا بسواه . نظر ، وهو في سن الطلب، في علوم لم تدخل برنامج الازهر ، وشعر بفساد طريقة المشايخ في تدريسهم ، وشارك في الشكوى من الشروح والحواشي والهوامش ، ولطالما كانت تربك ذهن الطالب وتقصيه عن معرفة اللغة وعن روح الشريعة ، ليخرج كالببغاء ، يحفظ ما يلقنه دون أن يفهم معناه ، وكان ، بقدر ما يُعنى بالاخذ عن شيوخه ، يعتمد على درسه الخاص ، وبقدر ما كان يدأب على تحصيل دروس الازهر يسمو به الشوق الى الاطلاع على ما في علوم الغربيين من متاع الروح والعقل . وقد قيل انه تعلم اللغة الانكليزية أيام كان في السودان قاضيا ، وأصبح يفهم الكتب العلمية فيها ، وانه قرا ترجمة مير علي للقرآن باللغة الانكليزية ، وكان يصحح ما وقع من غلط في الترجمة الانكليزية . نعم لم يقيد الشيخ نفسه باعتبارات الازهريين كثيرا ، شأن بعض النوابغ يشذون أحيانا عن مصطلح قومهم . ويكون الخير في هذا الشذوذ .

استطال الشيخ أعوام الدراسة على ما يظهر ، وهمته تحفزه الى الاسراع بالخروج الى ميدان العمل ، فتقدم لامتحان العالمية ، وجاز السنتين الاخيرتين في سنة واحدة ، كما قال لي عن نفسه ، معتقدا أنه

ما دام قد تعلم مايُطلب منه معرفته ، فالواجب أن يتقدم ولا يضيع وقته في الانتظار • وبهذا أثبت أن الطالب قد يتعلم في بيته ما يوازي مايأخذه من حضور الدروس في أوقات مخصوصة على معلمين بعينهم • أما هو فقد جمع بين الفضيلتين • ما زهد في التلقي ، ولا اقتصر عليه ، وروى العارفون أنه حضر على المشايـخ قراءة الكتب المطولة المعروفة عنـد الازهريين ، الا أنه ما أتم قراءة كتاب منها ، ذلك أنه كان يرى ان من العبث صرف الوقت في حل معميات هذه الاسفار •

تولى القضاء قبل أن ينتصف العقد الثالث من عمره ، وأبـان عن مقدرة على معاناته ، وظهر أنه عارف بسياسة العلم وسياسة الخلق ، فكأن والده ، وهو رجل شرع مثله ، أورثه خير صفات من يعدلون بين الناس ، وكانت داره في الصعيد الاعلى مفتحة الابواب لحل مشاكـل قومه وفض خصوماتهم ، وقدأخذ القاضي الشاب من بيته من الاخلاق عِـدْلَ ما تعلمه في الازهر من علم ، فسعد أبوه به وبإخوته ، وهم بضعة علماء وقضاة ، على رأسهم ابنه الاكبر شيخ الازهر الذي تولى هـذه الرياسة العظيمة في حياة أبيه • أما بنوه فقد ربوا تربية مدنية ليس فيهم من لاث العمامة[1] على رأسه •

أصبح المراغي شيخا للازهر في التاسعة والاربعين من عمره ، وندر من تولى هذهالمشيخة وهو في هذه السن ، فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ ، اهتم الاهتمام كله لاصلاح الازهر الذي كانواضع أساس الاصلاح فيه شيخه وشيخنا الاستاذ الامام محمد عبده ، ولما شعر بأن لائحته في اصلاح الازهر لن تقبل ، استقال ولزم بيته محتفظا باستقلال فكره وعزة نفسه ، وخلفه في الرياسة الشيخ الظواهري ، وكان أشبه

(١) لاث العمامة : عصبها ولفها .

بشيخ زاوية منه بشيخ علماء • وانحصر عمله في الاصلاح بطرد سبعين عالما من خيار علماء الازهر • وعاد الشيخ المراغي الى الازهر ثانية بعدما تركه الشيخ الظواهري بإهانة لم يُهن مثلها شيخ قبله • يشمر عن ساعد الجد في اصلاحه ، وأتم وضع أساس كليات التخصص ككلية علوم اللغة العربية وكلية أصول الدين وكلية العلوم الشرعية ، وكان يعتقد ان الازهر يحتضر منذ طلبت وزارة الاوقاف ، وهو من مفتشيها خطباً منبرية فجاءها خمسمئة خطبة لم تصلح واحدة منها لأن تلقى على المصلين •

قال في مذكرته الاصلاحية : ان كل الجهود التي بذلت لاصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة في نهضة التعليم ، وأقرر أن نتائج الازهر والمعاهد تؤلم كل غيور على امته وعلى دينه • وقد صار من المحتم لحماية الدين – لا لحماية الازهر – ان يغير التعليم في المعاهد ، وأن تكون الخطوة الى ذلك جريئة ويقصد بها وجه الله تعالى فلا يبالي بما تحدثه من ضجة وصراخ ، وقد قرنت كل الاصلاحات في العالم بمثل تلك الضجة • والى هذا شجع الشيخ ايضا البعثات الازهرية ، ومتى كان الازهر يقول بأكثر العلوم الحديثة حتى يذهب نوابغ طلابه يستزيدون من العلم في جامعات الغرب ، ومتى كان طلاب الازهر يدرسون اللغة اليابانية وغيرها ليكون منهم دعاة يدعون الى الاسلام على نحو ما يدعو المبشرون الى النصرانية • وفي أي عهد قرئت الفلسفة في هذا الجامع وشرحت قضاياها بحرية كما كان في زمن المراغي ؟ هذا الى غير ذلك من الامور التي كان يريد بها اطلاق عقول الازهريين من عقالها وادخالها في طور جديد ينفع •

حاول الشيخ النهوض بالازهر بتثقيف خريجيه ثقافة جديدة ،

وكان يحز في قلبه تخلف أهله في علمهم وعملهم وهو القائل في وصفهم: انهم استكانوا في القرون الاخيرة الى الراحة وظنوا ان لا مطمع لهم في الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورغبوابالتقليد ، وعكفوا على كتب لايوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وجهلوا ما جدّ في الحياة من علم ، وما جدّ فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ،ونقموا هم على الناس،فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له وأصبح الاسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين •

في احدى جلساتنا في دار الشيخ المراغي في حلوان ايام كونه معتزلا الازهر — وكثيرا ماكانت تدوم الجلسة ثماني ساعات — تفضل وقرأ عليّ بعض تقاريره الدينية ، ومنها تقريره في الاحوال الشخصية الذي صدر القانون المصري عليه ، وهو التقرير الذي لم يتقيد فيه بالمذاهب الاربعة ، وأخذ من اكثر المذاهب المعتمدة ، وكتبه ببيان يقلّ نظيره في الكتابات الرسمية ، رجوته أن يطبع ما كتب ، فما رايت منه ميلا الى النشر • وكان عمله في هذا الباب لا يقل نفعا عن فتواه في الحد من الطلاق ، وقبله كان باب الطلاق مفتوحا على مصراعيه ، وقد طلب فاروق ملك مصر أن يفتي في مسألة زوجته بما يخالف الشرع فأبى ، مع علمه أن امتناعه قد يغضب المستشير •

ومما دل على علو كعبه في حرية البحث فتواه في جواز ترجمة القرآن ، وله في هذهالمسألة الصعبة بحث ممتع نشر في مجلة الازهر • وفي هذه المجلة طائفة من تفسيره بعض سور الكتاب العزيز ، وبعض خطبه وآرائه ، وفيها فتواه في المعضلات ، وهي تدور على تقريب الناس من الشرع ، والتوفيق بين الدين والمدنية •

وقد حملت تقاريره وتفاسيره من أساليب البلاغة ما يستكثر من شيخ أزهري ، وفي الرسائل القليلة التي دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته ، وكان يكتب ــ لا يتكلف ــ بألفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها، وعبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع والخامس ، وتغلب عليه ألفاظ القرآن ، وتحس أن كاتبها متشبع الى الغاية بألفاظه ومعانيه . اما طلاقة لسانه فكانت كبلاغة قلمه ، وربما ظن السامع وهو يتلو درسه أو عِظَتَه أو خطبته انه يقرأ من كتاب أو من حفظه ، لانـه يشاهده وقد نسق كل فكر الى جانب اخيه ، ووضع ما يروي وما يريد أن يعلق عليه في مواضعه .

كان الشيخ حنفي المذهب ، ويأخذ من المذاهب الاخرى مايناسب العصر والمصلحة ، وكان في اطلاعه على المذاهب الاخرى آية ، وكثيرا ما قال للجنة الاحوال الشخصية عند البحث في الهبة والوصية والوقف : ضعوا من المواد ما يبدو لكم انه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الاسلامية يطابق ماوضعتم .

ومن رأيه توحيد المذاهب . وقال في احدى مذكراته : « يجب العمل على ازالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فـإن الامة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق » . ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيـدة عن التعصب المذهبي يهدي الى الحق في أكثر الاوقات ،وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلّقت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية ، وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز الا على مـا يصوغه الخيال وما افتـراه أهلها . وهذه المذاهب فرقت الامة التـي

وحّدها القرآن الكريم ، وجعلتها شيعا في الاصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف ، مثل مايقال في فروع الفقه : ان ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم ، وطول اللحى ، حتى ان بعض الطوائف لا يستحي من ترك مساجد جمهرة المسلمين ، ويسعى لانشاء مساجد خاصة » .

وقال : يجب أن يدرس الفقه الاسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الادلة ، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالاحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنّة ، والاحكام المجمع عليها ،والنظر في الاحكام الاجتهادية بجعلها ملائمة للعصور والامكنة والعرف وأمزجة الامم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وقال بشأن دراسة التفسير والحديث : يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنّة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية ، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية .

وصرّح أن الكتب الازهرية معقدة لها طريقة خاصة في التأليف ، لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية ، وانما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها ، وعرف اصطلاح مؤلفيها . وقال : كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب، وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم ، وما كان يوجد فيهم من يستطيع أن يحاضر في موضوع

علمي ، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن ان تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الادلة ومقارنة المذاهب ونقدها ، بل كانوا يعنون بالالفاظ ، فلم تكن الدراسة شهية مثمرة .

نعم ، هو يرى أن الشريعة جاءت لخير البشر ، وما دسه فيها بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب ان ينقى منها ويطرح . ويعتقد اعتقادا جازما أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه ، من ذلك ما صرح به في جريدة الاهرام (غرة رمضان ١٣٦٣) في الصوم والافطار مما لا يقوله الا عالم فيلسوف .

« هناك أمور ينبغي أن يترفق الفقهاء فيها بالناس ، وان يراعوا قواعد اليسر التي هي اخص صفات الاسلام ، يراعونها في العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم فيقربون الناس من الاسلام، ولايوقعونهم في الحرج . وعندي أن من يفطر بعذر ويصرح بذلك أطهر ممن يفطر من غير عذر أو بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى ، يرائي الناس ولا يخشى الله ، والترخص في المرض ، او الترخص للمشقة في العمل يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم ، وهو اباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم ، أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه » .

وما انفك الشيخ يدرّس ويعظ ، ويكتب ويفسر القرآن ويدعو الى الاخذ بالكتاب والسنة ويسهل على قاصديه وسامعيه فهم الشريعة السمحة ، ويطبق أحكامها على العصر ، أو يطبق احكام العصر عليها ، واعترف مرة أننا لم نوجد جديدا نافعا في علم من العلوم حتى الآن . قال مرة : « ولدى الامة الاسلامية قضايا كثيرة معقدة ، قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين . وقضية التعليم

الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة، وماأخرجته العقول من ثمرات ناضجة ، وقضية حماية الدين من العدوان ، والدعوة اليه كما أمرالله بالحكمة ، وقضية نظام الامم الاسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ، وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم » .

وهناك قضية هي أهم القضايا ،وهي مقومات الامم الاسلامية التي يجب أن يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها ، وهي قضية دقيقة يثور من أجلها عن قصد أو غير قصد خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين والمتمدنين وغير المتمدنين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ونظام التقاليد والعادات .

ولدى الامم الاسلامية ماض يجرر أثواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة : في ميدان العلم وفي ميدان الفنون وفي ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضي والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لايكون بين الحاضر والماضي صلة .

يحاول بعض الناس هذا مع ان الامم التي ليس لها ماض تحاول أن تخلق نسبا بماض مجيد ، وبعض الافراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون أن يخلقوا لهم أنسابا معروفة بالمجد والشرف ليحدثوا في نفوس الابناء شعوراً بعظمة من حقها أن يحافظ عليها » .

وصف ما حمله القرآن من التعاليم ، وردّ دعوى بعضهم أن فيه

علوم الاولين والآخرين بقوله : « انه كلما حدثت في العالم فكرة طريفة اجتهدوا في تلمسها في القرآن ، وفرحوا ان استطاعوا الاهتداء الى اشارة بعيدة اليها ، يفعلون هذا في جميع النظريات المرتبطة بالكون وأسراره ، وقواعد الاجتماع والسياسة • ومن حقهم أن يفهموا أن المعارف البشرية غير مستقرة ، وانها تتغير ويتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها أو تناقضها ، وأنه ليس من الحكمة ان تربط هذه المعارف غير القارّة بكتاب الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • ومن الخير أن ندع كتاب الله يقرر لنا احكام التشريع ويهدم الوثنية ويجتثها من اصولها ، ويرفع العقل البشري الى المستوى اللائق به ، ويأخذ بيد الانسان الى المقام الاسمى اللائق بخلافته في الارض ، ويبين لناالعبرة والعظة بأحوال الماضين ويغرس في نفوسنا تلك الاخلاق الفاضلة من الصبر والقناعة والرضى والشجاعة ، ويفتح امامنا أبواب العلم والهداية بما أشار الله من وجوب النظر فيما صنعه الله ، خير لنا أن نفعل ذلك وندع العلماء يقررون معارفهم ويستدلون عليها ويحملون نتيجة خطأهم اذا تغيرت معارفهم وأثبت العلم نقيضها » •

قال : نعم ان في الكتاب الكريم آيات لا تفهم حق الفهم الا بمعارف فلكية وطبيعية ، ولكن تلك لم تُسَق لتقرر تلك المعارف ، وانما نزلت للهداية والعبرة • فليس القرآن الكريم كتاب حساب وفلك وطبيعة ، وانما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الانسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض •

أجمع انصار السيد المراغي وخصومه على أنه كان من خير من تولى رياسة الازهر لصفات كثيرة اجتمعت له ، وقلّ أن تجتمع لغيره • ذلك لانه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين بأزمانهم

معرفة ثاقبة •وطلب اليه أن يترك رئاسة الازهر ويعطى ماشاء من الافدنة والمال فأبى • وطلب اليه أن ينضم الى جهة معينة في الرأي ويكون له ولاولاده وذوي قرباه ماشاء من الكرامة فأبىوقال. ان أولادي واخوتي في نظري أقلّ من أبيع لهم كرامتي •

كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه ، وتفعل في نفوسهم نبراته اللطيفة ، وان كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها • تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين ، اذا عاشرته تتحقق أنه بلغ الغاية في التهذيب الحديث ، مضافا الى ما تحلت به نفسه من فضائل الاسلام ، ولا تلبث أن تقول : ان الشيخ يصلح لامامة الدين كما يصلح لامامة الدنيا ، أي أن يكون شيخ الاسلام يدعو الى عقيدة وايمان ، وأن يكون رئيس وزارة يعاني من أحداث الزمان ما يعاني • ولا نكون الى الغلو اذا ادعينا أنه قلّ في أمثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية• ولهفي بابالاريحيةأشياء عرفت عنه بالعرض تدل على صفاء روحه وفضل نجدته • كان يتصدق في السر وهو ليس بغني ، ويأخذ العهد على من يعطيه أو يكتم ما وصل اليه منه • وحدث أن أحد اصدقائه من اهل العلم هدد بالافلاس ان لم يؤد ما استحق عليه من مال للحكومة ، ففتح الشيخ دواوين الازهر ليلا ليبتاع منه مقدارا من الكتب ويدفع له ثمنها في الحال لينقذ شرفه واعتباره •

ولقد انتخبه المجمع العلمي العربي عضوا مراسلا فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلا: انه استقال من المجمع اللغويفي مصر للسبب ذاته ،ودعوته لأنينزل عليّ ضيفاً فيدمشقويصطافي ربوعنا فتعذّر عليهالبرّبوعده لأن حالته لم تمكنه من مغادرة القطر ، خصوصا بعد عودته ثانية الى مشيخة الازهر •

أخذت الاعمال الادارية والسياسية والقضائية من وقت الشيخ الاكبر فكان شأنه شأن أستاذه الشيخ محمد عبده لـم يخلف مؤلفات كبيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه ، وما خطته يمينـه دعت الـى تسطيره أمور اقتضتها حالةعمله ، وعندي أن تقاريره ومذكراته ومقالاته كافية في الحكمعليه ، وافية في تخليد اسمه اذا تيسر لها من يجمعهـا ويطبعها •ورب صفحة تعادل بفائدتها رسالة مطولة • وكـم من رسالة أنفع لقارئها من تلاوة المجلد الكبير • وللشيخ مذكرات يومية شرحفيها مواقفه مع رجال السياسة من المصريين والاجانب ولما تطبع • ولم تحل المناصب الخطيرة التي تولاها دون عمل ما ينفع الاسلام والمسلمين • وما كان يستهويـه غير النهـوض بالمصـريين ، يتلطف ، وهو الدّراكـة النّطاسي [1] ، في وصف الدواء الناجع لأسقامهم • وما كان يغفـل عن معاونة كل مسلم يهبط مصر من القاصية ليرشف من معين العلم في الازهر • مع أنه لم يزر بلادهم ولم يختلط كثيرا بأهلها •

وأهم ظاهرة بارزة في أخلاقه تجرده من المطامع التي قد يتلوثبها بعض أهل صناعته ، فما أتى ما يشين سمعة العالم ، وعلى طول تقلبـه في درجات القضاء وآخرها رياسة المحكمة الشرعية العليا ، وما أحصيت عليه زلة تنال من مروءته وشرفه • وكانت أحكامه مثال العدل، يتحدث المتحدثون بها • لا يصانع في الحق ولا يداجي •وفي قضية الإرث الكبير الذي كان يقدر بملايين من الجنيهات ، وما أبداه الشيخ من المتانة فـي احقاق الحق مثال من تقواه • حتى لقد قـُذف بماء الفضة في عنقه يوم صدور الحكم وهو في طريقه الى المحكمة في القاهرة ، ليتعذر عليـه الحضور ، فأصر على الذهاب وأصدر حكمه • ولو كان حب الدنيا

---

(١) الدراكة : صيغة مبالغة لاسم الفاعل من الفعل (ادرك) والنطاسي: العالـم •

مستحكما فيه أكثر من حب الدين لجوّز لنفسه تناول ما يغنيه من المال يدفعه المدعي راضيا ، ولكنه كان يحسب حساب يوم الحساب •

ولما استقال من قضاء الخرطوم وعاد الى القاهرة أخذ يتبلغ بوظيفته مفتش مساجد في الاوقاف ، وصلى الخديو الجمعة في مسجد من مساجدها فلاحظ على المفتش ان الامام أعمى فأجاب ان الامام وهو الشيخ الدجوي من جماعة كبار العلماء ، واستوفى شروط الامامة ، والعمى لا يمنعه من القيام بما يطلب منه ،فغضب عزيزمصر، ولما عرضت عليه حكومة السودان منصب قاضي القضاة اشترط أن يكون تعيينه بمرسوم خديو ، فقيل له : إن مشاهرتك ستزيد بضعة اضعاف راتبك الحالي ، وأنت تشترط مثل هذا الشرط ، فكان له ما أراد • أما الخديو فرجع عن رأيه في المراغي ، وأدرك أنه قوال بالحق يهتم لدينه ، ولا يعبأ بالظواهر كثيرا • ولماثارت مصر — وهو قاضي قضاة السودان — كان في مقدمة المتظاهرين ، فلم يسع حكومة ذاك القطر الا أن تمنحه اجازة طويلة ، فأضاع منصبه • وجرى في مجلسه ذكر هلاك من لم يسلموا من الافرنج فأورد أسماء عظماء خدموا الانسانية منهم وقال : انهم ناجون لان الدعوة الى الاسلام لم تصلهم ، ونحن قصرنا في هدايتهم، فلو كنا عرضنا عليهم الدين وما استجابوا له ربما ساغ لنا أن نقول انهم هالكون • وقال لي : انه حرض احدى الفتيات — لما خاف عليها الفتنة عند طلاق زوجها لها — على تعلم اللغة الفرنسية ، فشغلوقتها بما سلاها في محنتها • وكان من نصيحته أن تعلمت اللغة من حيث لاتشعر • ولما مر ملك انكلترا بسواكن ، وكان قاضي قضاة السودان ، استقبله مع الحاكم العام وصافحه كما يتصافح المتماثلون، فقال بعض الانكليز : كان يصح أن ينحني للملك كما انحنى المستقبلون فقال : ليس في ديننا سجود لغير الله • واجتمع يوما الى سفير بريطانيا العظمى في مصر فقال

له هذا : ان السمكة تفسد من رأسها ، مشيرا الى بعض المقامات العليا، فقال الشيخ : ان السمكة تفسد من بطنها . قال السفير : هذا غير صحيح ، وأنا صياد أعرف السمك معرفة جيدة . قال : الغالب أنك تحسن الصيد في نهر التيمس ، والصيد في النيل غير الصيد في التيمس .

ولما قيل له وهو في مشيخة الازهر : انه كان الاولى به أن يبتعد عن السياسة ويبعد الازهر عنها ، وأن يشغل به أوقاته قال : ان الاسلام دين السياسة ، ولا يسعه أن يتخلى عنها . وفي ايامه انقسم الازهر قسمين بتأثيرات الحزبية فاضطر شيخه الى أن يقف الى جانب الفريق الذي اعتقده على الحق ، فسبب له ذلك اضطرابات نفسية ما حمدت مغبتها على صحته . ولو سئل عن سلوكه هذا ما عدم حجة يبرىء بها نفسه من الونِاء[1] المشهود في انهاض الازهر على عهده الاخير . والداخل يعرف ما لا يعرفه من وقف وقفة المتفرج في الخارج .

ولو انتفع الناس ببعض ما تفيض به قرائح المصلحين ما بقي في الناس جهول ولا ضال . وواجب دعاة الاصلاح أن لا يتوانوا فيما تمحضوا له مهما قل المستفيدون منهم .

كان المراغي على أوفر نصيب من العلم والعمل ، فهو شخصية نادرة بين أهل جيله .

★ ★ ★

(١) الوناء : الفتور والتعب .

- ٤١ -

محمود سامي البارودي *

١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ
١٨٣٩ - ١٩٠٤ م

كان البارودي أول من أخرج الشعر في القرن الماضي من ركاكته وابتذاله • خرج به عن بعض قيود الاقدمين ، وسما به الى الذروة بين المعاصرين • ولقد كان أحد كبار أساتذتي يقول : ان الشعراء الاربعة في هذا العهد : البارودي وصبري وحافظ وشوقي • لم ينبغ في الشعر أمثالهم منذ عهد أبي تمام والبحتري والمتنبي والرضي •

لمحمود سامي البارودي شخصيتان : شخصية سياسية حفظت ذكراها في تاريخ مصر السياسي ، وشخصية أدبية يعجب بها كل من شارك في أدب العرب • وما طغت الاولى على الثانية ، وبالعكس ، بل جرى بينهما تفاعل وتعاون على ما يظهر •

ولد البارودي في مدينة القاهرة سنة ١٢٥٥ هـ من أب جركسي اسمه حسن حسني بك ، كان مدير دنقلة وبربر على عهد محمد علي والي

---

* استرشدنا في الترجمة للشعراء الذين عاصرناهم بآراء من وصفوهم ، ونحن نبني حكمنا أو بعضه على آراء من هم أعرف منا في هذا الباب (المؤلف) وانظر مقدمة ديوانه المطبوع في دار الكتب الوطنية بمصر سنة ١٩٤٠ بقلم محمد حسين هيكل وترجمته في الاعلام ٤٧/٨ ، ومعجم المؤلفين ١٦٥/١٢ تراجم مشاهير الشرق ٣٩٢/٢ ، رواد النهضة الحديثة : ١٠٩ ، في الادب الحديث ١٦٧/١ ، الاعلام الشرقية ١٦٣/١ شعراء مصر : ١١٩ ، تاريخ الشعر العربي الحديث : ١٨ محمود سامي البارودي لعمر الدسوقي ، ولخليل مطران ، الادب العربي المعاصر : ٧٣ ، الرائد ٦١٥

مصر • والبارودي نسبة لأيتاي البارود من عمل البحيرة ، كانت في التزام أحد أجداده في عصر الالتزامات ، وكان الملتزم يومئذ يدعى باسم القرية التي التزمها ، وكان شاعرنا جدّ حريص على أن ينسب الى المماليك سلاطين مصر والشام ، وقد وضع جُعْلا لمن يأتيه بما يثبت نسبته الى هؤلاء المماليك • وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فهو ولا شك من بيت مجد وسعة ، وفيه فضائل وآداب ، وكفت عشرات من عقود السنين لأن تجعل منه عربيا بتربيته ووطنيته ومنازعه •

درس في المدرسة الحربية ، وأتقن التركية والفارسية على عادة أبناء الكبراء في الدولة العثمانية على عهده ، وأخذ العربية والآداب عن الاستاذ الشيخ حسن المرصفي ، ونشأت معه صداقة دامت حتى فرق الموت بينهما ، وكان المرصفي أول من دل على مكانة البارودي في الشعراء باقتباس قصائد لتلميذه في كتابه « الوسيلة الادبية » •

نشأ للبارودي منذ الصبا غرام باستظهار جيد الشعر فقاله بالسليقة أولا قبل أن يتعلم النحو والصرف والعروض • بمعنى أنه تعلم الادب بالعمل أكثر مما تعلمه المعاصرون بالنظر حتى اذا بلغ العشرين استوى شاعرا فحلاً بذّ أعظم شعراء جيله • ولكثرة ما استظهر من شعر القدماء تكاد تحس في بعض أبياته أنه أخذ البيت الفلاني من الشاعر الفلاني ، وما اخذ منه في الواقع الا كلمة أو كلمات ، واقتبس معنى سبق اليه ، أو أسلوبا من أساليب القول أثر عن غيره •

هكذا اتم البارودي شاعريته بفطرة سليمة جهّزها بخير جهاز ، وكان يعاور شعره بالتصفية والترويق المرة بعد المرة • وفي رأيه أن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر فتنبعث أشعتها الى

صحيفة القلب فيفيض لألاؤها نورا يتصل خيطه بأسلة اللسان[1] فينبعث ألوانا من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بدليلها السالك • وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئا من عشوة التعسف ، غنيا عن مراجعة الفكرة • وقد حقق قوله هذا في شعره فكان المبدع الاول حقا •

نشأ البارودي نشأة عسكرية ، وخرج من المدرسة برتبة صغيرة ، وما زال يتدرج في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة أميرالاي ، وانتدبته حكومته على رأس فرقة لإطفاء ثورة كريت • وفي هذه الجزيرة ظهرت بواكير شعر البارودي ، وتطلعت اليه النفوس ، تتعرف الى شاعر ولا كالشعراء ممن قصروا شعرهم على المديح والرثاء والهجاء والغزل • شاعر ينظم في مطالب جديدة وقديمة من الشعر • ينظم في الغزل والفخر والوصف وهموم النفس والحياة على غير تلك الطريقة البالية ، وقد جرد كلامه من أنواع البديع الذي أفسد اللغة وسار به في طريق الجزالة وتجويد الديباجة وتخيّر المعاني واستجادة الالفاظ •

طريقة كانت معروفة للقدماء فعراها الضعف منذ قرون فعُدّ البارودي بإحيائها مجدد الشعر العربي ، ولم يأت البارودي بشيء جديد في شعره من حيث الاسلوب ، وأخذ بطريقة فحول الاقدمين وشذّبها وهذّبها وأحياها حياة جديدة • وقرض الشعر كما قرضه المفلّقون من شعراء الجاهلية والاسلام على ما عجز الشعراء منذ قرون أن ينظموا مثله •

وما زال البارودي يتدرج في الرتب والمناصب على عهد اسماعيل ،

(١) الاسلة : الرمح والنبل ، وكل عود لا عوج فيه •

وينتدب للمهمات في الآستانة وأوربا حتى كانت حرب الدولة العثمانية مع روسيا سنة ١٢٩٤ فسافر الى البلقان وأبلى بلاء حسنا في قتال الاعداء، وعاد الى مصر برتبة لواء • وفي حرب المورة هذه نظم أجمل القصائد ، ثم عين مديرا للشرقية ومحافظا للعاصمة ومديرا للاوقاف ووزيرا للاوقاف ووزيرا للحربية ثم عهد اليه تأليف الوزارة فتولاها مع وزارة الحرب • وفي غضون هذه الفترة نشبت الثورة العرابية فاتهم البارودي بأنه مالأ العرابيين فجرت محاكمته معهم وحكم عليه بالنفي الى سيلان • وبرأ البارودي نفسه من تهمة الاشتراك مع العرابيين • والغالب أنه عطف عليهم فقط كما يعطف السياسي في الظاهر على من يتوقع خيره ويخاف شره ، وقال : انه نصح لرجال الثورة ، ولكن لما وقعت لم يسعه الا السكوت ، فمما قال في ذلك وفيه صورة نفسه العظيمة (١) :

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة
وربما ناح أمر غير مظنون (٢)
فخالفوني فشبوها مكابرة
وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على ما ليس في خَلَدٍ
ويخطىء الظن في بعض الأحايينِ
حتى إذا لم يَعُدْ في الأمر مَنْزَعةٌ
وأصبح الشرُّ أمراً غير مَكنونِ
أجبتُ إذ هتفوا باسمي ومن شيَمي
صِدْقُ الولاء وتحقيقُ الأظانينِ

(١) وجدت هذه الابيات في كتاب عمر الدسوقي عنه ص ٧٩ عدا البيت الثالث . ولم أجدها في طبعتي ديوانه .
(٢) رواية الاصل : نصحت قومي قلت ..

ومما قال (١) :

نصحتُ فكذّبتم فلما أتى الرّدى
عَمَدْتمُ لتصديقي وقد قُضي الأمرُ
فلم يبقَ في أيديكُمُ غيرُ حَسْرَةٍ
ولم يَبْقَ مني غيرُ ما عافه الصدرُ
فجاء الذي كنتم تخافون شرّهُ
وزال الذي لم يبق من بعده شعرُ (٢)

ومما قاله في عاقبة الثورة (٣) :

كنا نود انقلاباً نستريح به
حتى إذا تم ساءتنا مصائرُهُ
فالقلب مضطرب فيما يحاوله
والعقل مختبل فيما يحاذرهُ
إن دام هذا أضاع الرّشْدَ كافلُهُ
فيما أرى وأطاع الغيَّ زاجرُهُ
تنكرتْ مصر بعد العُرْف واضطربتْ
قواعد الملك حتى ريع طائرهُ
فأهمل الأرضَ جرّا الظلم حارثُها
واسترجع المالَ خوف العدم تاجرهُ

(١) الابيات من مقطعة تتألف من اربعة ابيات ديوانه(ط.المنصوري): ١٨٦/١ مطلعها :
لعمري لقد ايقظت من كان راقدا وانذرت لكن تنفع النذر
(٢) هذه رواية الديوان ورواية الاصل المخطوط : من بعده شر
(٣) من قصيدة في ديوانه ١٢٦/٢ مطلعها :
من خالف الحزم خانته معاذره
ومن أطاع هواه قلّ ناصره

واستحكم الهولُ حتى ما يبيت فتى
في جَوْشن الليل إلا وهو ساهرُهُ (١)
شهران أو بعضُ شهرٍ إن هي احتدمت
وفي الجديدين ما تُغني فواقرُهُ (٢)
فإن أصبت فعَن رأي ملكت به
علمَ الغيوبِ ورأي المرءِ ناظرُهُ

نظم البارودي في معظم أغراض الشعر ، وأبرز ما برز فيه الوصف والحماسة والفخر برز في الوصف لانه كان مرهف الحس الى أبعد مدى، والحماسة من شأن التربية الجندية وعلى هذا نشأ وتدرب ، وكان له في الفخر يد طولى لقديمه الذي يمت اليه ، ويتناغى به على الايام .

قال يصف الحرب الروسية (٣) :

أدور بعيني لا أرى غيرَ أمةٍ
من الروس والبلغارِ يُخطِئُها العدُّ
جوّاثٍ على هامِ الجبال لغارةٍ
يطير بها ضوءُ الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرّح الشرُّ باسمه
وصاح القنا بالموت واستقتلَ الجندُ

---

(١) جوشن الليل : وسطه أو صدره .
(٢) الجديدان : الليل والنهار ، والفواقر : ج فاقرة وهي الداهية التي تحطم فقار الظهر .
(٣) هذه الابيات من قصيدة وردت في ديوانه ج١/١٦١ وما بعدها ومطلعها :
هو البين حتى لا سلام ولا رد ولا نظرة يقضي بها حقه الوجد
وقبلها ٤٠ بيتا وبعدها ١٦ بيتا .

فأنـت تـرى بين الفـريقين كُبـةً
يحدث فيهـا نفسه البطـل الجعـد [1]
على الأرض منها بالدمـاء جـداول
وفـوق سراة النجم من نقعها[2] لبـد
إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم
بحـوراً توالـى بينها الجـزر والمـد
نشلهم شـل العطـاش ونت بهـا
مراغمة السقيا وما طَلَهـا الورِد [3]

ومن جميل قوله يصف أجناس جيش الاعداء [4] :

بـلاد بهـا مـا بالجحيـم وإنمـا
مكـان اللظى ثلـج بهـا وجليـد
تجمعت البلغـار والـروم بينهـا
وزاحمهـا التاتـار فهـي حشـود
إذا راطنوا[5] بعضاً سمعت لصوتهـم
هديـراً تكـاد الأرض منـه تميـد

(١) الكبة : الدفعه في القتال والحملة في الحرب ، والجعد : الكريم الجواد .
(٢) النقع : الغبار .
(٣) نشلهم : نطردهم ونسوقهم ونفرقهم ، والورد : النصيب من الماء .
(٤) من قصيدة في ديوانه ج ١ /١٧٢ مطلعها :
اراك الحمىٰ شوقي اليك شديد وصبري ونومي في هواك شريد
(٥) الرطانة : الكلام باللغة الاعجمية ، وراطنه : كلمه بها ،

قباح النواصي والوجوه كأنهم
لغير أبي هذا الأنام جنود
سواسية ليسوا بنسل قبيلة
فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صور ليست وجوهاً وإنما
تناط[1] إليها أعين وخدود
يخورون حولي كالعجول وبعضهم
يهجن للحن القول حين يجيد
أدور بعيني لا أرى بينهم فتى
يرود معي في القول حيث أرود
فلا أنا منهم مستفيد غريبة
ولا أنا فيهم ما أقمت مفيد

ومما قال في قصيدة مطلعها [2] :

سِوايَ بتحنان الأغاريد يَطربُ
وغيريَ باللذات يلهو ويَعْجَبُ

. . .

حمامة نفس أصغرت كلَّ مأربٍ
فكلفت الأيام ما ليس يوهَبُ
ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذي يلقاه فيها محبَّبُ
إذا أنا لم أعطِ المكارمَ حقَّها
فلا عزّني خال ولا ضمَّني أبُ

(١) تناط : تعلق .
(٢) ديوانه ج ٣٨/١

خُلِقْتُ عَيوفاً لا أرى لابن حُرَّةٍ
لديّ يداً أغضي لها حين يغضبُ
فلست لأمرٍ لم يكن متوقعاً
ولست على شيء مضى أتعتّبُ
أسير على نهج يرى الناس غيره
لكل امرىء فيما يحاول مذهبُ
وإني اذا ما الشك أظلم ليلُه
وأمست به الأحلام حيرى تَشَعَّبُ
صدعت حِفافَي طُرَّتيه بكوكبٍ
من الرأي لا يخفى عليه المغيَّبُ

وختمها بقوله :

ولو علم الإنسان ما فيه نفعه
لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها
علينا وأمر الغيب سر محجب (١)

ومما أثر له في الحث على الاغتناء (٢) :

إذا افتقر المرءُ استهانَ بفضلهِ
ذوو قربه واستهجنته الأباعِدُ

---

(١) بعد ذلك بيتان :
نظن بأنا قادرون واننا
نقاد كما قيد الجنيب ونصحب
فرحمة رب العالمين على امرىء
اصاب هداه أو درى كيف يذهب
(٢) ديوانه (ط . المنصوري) ج١/١١٩ .

فإن قال حقاً كذّبوه وإن أبَى
مجاراتهم في الغَيّ قالوا مُعانِدُ
فحجته مطلولةٌ وهي حَقَّةٌ
ومنطقه مستكرَهٌ وهو قاصِدُ
فحافظ على ما نِلْتَ بالسعي من غنىً
فبالمال لا بالفضل تعنو المقاصدُ

وقال من قصيدة (١) :

لقد ذل من يبغي من الناس ناصراً
وقد خاب مَن يجني من الأرقم الشهدا (٢)
فإياكَ أن تُخْدَع بشيمةِ صاحبٍ
فمن ظن خيراً بالزمان فقد أَكْدَى (٣)
فقد طالما جَرَّبْتُ خِلاً فما رعى
وحِلْفاً فما أوفى وعوناً فما أجدى
وما الناس إلا طالبٌ غيرُ واجدٍ
لما يبتغي أو واجدٌ أخطأ القصدا
فلا تحسبن الناس أبناءَ شيمةٍ
فما كُلُّ ممدودِ الخُطا بطلاً جَعْدا (٤)

وقال (٥) :

(١) من قصيدة في ديوانه ١/٢٢٠ مطلعها :
اري نفحة دلت على كبدي الوجدا فمن كان بالمقياس اقربكم عهدا
(٢) الارقم : أخبث الحيات ، او ما فيه سواد وبياض .
(٣) اكدى : اخفق .
(٤) الجعد : الكريم والشديد الاسر والخلق .
(٥) مقطوعة في ديوانه ١/٧٧ .

ترفق فإن الرفق زَيْنٌ وقلّما
ينال الفتى بالعنف ما كان طالبا
إذا لم يكن للمرء عقل يردّهُ
إلى الحِلْم لم يبرح مدى الدهر عاتبا
وإن هو لم يصفح عن الخِلِّ ان هفا
أقام وحيداً أو قضى العمر غاضبا

وقال (١) :

بلوت سرائر الإخوان حتى
رأيت عدو نفسي من حبيبي
فلا تأمن على سرٍ صحاباً
فإنهمُ جواسيس العيوبِ

وقال (٢) :

ما أطولَ الليل على الساهرِ
أما لهذا الليل من آخرِ
يا مخلفَ الوعد ألا زَوْرَةٌ
أقضي بها الحق من الزائر
تركتني من غمرات الهوى
في لج بحرٍ بالردى زاخرِ
أسمع في قلبي دبيب المنى
وألمح الشبهة في خاطري (٣)

(١) مقطوعة في ديوانه ١/٧٨ .
(٢) قصيدة في ديوانه ٢/١٠٥ .
(٣) هذه رواية الديوان ايضا وسيرد البيت بعد عدة سطور برواية اخرى هي : احس في قلبي ...

فتـارةً أهـدأ مـن روعتـي
وتـارةً أفـزع كالطـائـر
وبـين هاتيـن شـبا لـوعة [1]
لهـا بقلبـي فتكـة الثـائر
فهل إلـى الوَصلـة مـن شـافع
أم هـل علـى الصبـوة من تـاصر[2]
يا قلبُ لا تجـزع فـإن المنـى
في الصبـر واللهُ مـع الصـابر

وهذه الابيات من أجمل غزله وأرقه ، والبيت الرابع منها (أسمع في قلبي دبيب المنى) كان حافظ ابراهيم يعجب به كثيرا ويردده . وذكر الاستاذ الرافعي في كلامه على شعره أنه لما سيقت اليه بشارة العفو عنه في سيلان بقي بين الشك واليقين فذكر هذا التردد في بيت يقال انـه أمير شعره وهو :

أحـس في قلبـي دبيـب المنـى
وألمـح الشبهـة في خاطـري

ومن نسيبه [3] :

غلـب الوجـد عليـه فبكـى
وتولـى الصبـر عنـه فشكـا
وتمنـى نظـرة يشفـي بهـا
عِلَّـة الشوق فكـانت مَهْلكـا

(١) الشبا : جمع شباة ، وهي حد كل شيء .
(٢) المراد بالصبوة الهوى والهيام .
(٣) مطلع قصيدة في ديوانه ٢/٣٦٤ .

يا لهـا من نظـرة مـا قاربـت
مهبط الحكمـة حتـى انهتكـا

نظـرةٌ ضـم عليهـا هُدْبَـهُ
ثـم أغراهـا فكـانت شَرَكـا

غَرَسَتْ في القلـب منـي حُبَّـه
وسَقَتْـهُ أدمعـي حتـى زكـا

غلـبَ اليـأسُ علـى حسنُ المنـى
فيك واستولى على الضِّحْكِ البكـا

فإلـى مـن أشتكـي ما شفّنـي
من غـرام وإليـك المشـتكى[1]

سلكت نفسـي سبيـلاً في الهـوى
لـم تـدع فيـه لغيـري مسلكـا

وله قصائد وازن بها قصائد لشعراء متقدمين ، منها قصيدته التي وازن بها قصيدة ابن النبيه[2] التي أولها :

يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت
. . . .

فقـال[3] :

---

(١) شفه الهم والمرض : اوهنه وأضعفه .

(٢) هو علي بن محمد ، كمال الدين ، ابنه النبيه ، شاعر من اهـل مصر ، مدح الايوبيين ، وتولى ديوان الانشاء للملك الاشرف موسى ،توفي سنة ٦١٩ هـ ، ١٢٢٢ م له ديوان مطبوع

(٣) لم أجد هذه الابيات في طبعتي ديوانه .

ماذا على قرة العينين لـو صفحـت
وعـاودت بوصـال بَعدَما صفحت
بايعتهـا القلب إيجابـاً بما وعـدت
فيالهـا صفقةً في الحب ما ربحـت
قد يزعـم الناس أن البخـلَ مقطعةٌ
فما لقلبـيَ يهواهـا وما سـمحت

ومن بدائع شعره في المنفى (١) :

محا البين ما أبقت عيـونُ المها منـي
فَشِبْتُ ولم أقضِ اللبانةَ من سِنّي
عَناءٌ ويأسٌ واشتيـاق وغُربـةٌ
ألا شَدَّ ما ألقـاه في الدهر من غَبْنِ
فإن أكُ فارقتُ الديـارَ فلـي بهـا
فـؤاد أضلتـه عيـون المَهـا عنـي
بعثت بـه يـوم النوى إثْرَ لحظـةٍ
فأوقعـه المقدار في شَرَكِ الحُسنِ
فهل من فتى في الدهـر يجمع بيننـا
فليس كلانـا عـن أخيـه بمستغنِ

وفيها يقـول (٢) :

ومـن شـاغب الأيـام لان مريـره
وأسلمـه طول المراس الـى الوهـن

(١) هذه الابيات مطلع مقطوعة في المنتخب من أدب العرب ج١/٢٥٦ وهي في وصف الفراق .
(٢) لم ترد هذه الابيات في المرجع السابق .

وما المرء في دنياه إلا كسالك
مناهج لا تخلو من السهل والحزن
فإن تكن الدنيا تولت بخيرها
فأهون بدنيا لا تدوم على فن
تحملت خوف المن كل رزيئة
وَحَمْلُ رزايا الدهر أحلى من المن
وعاشرت أخداناً فلما بلوتهم
تمنيت أن أبقى وحيداً بلا خِدْن
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت
عليه من البغضاء عاش على ضِغْن
يرى بصري من لا أود لقاءه
وتسمع أذني ما تعاف من اللحن

وقال هو بسرَنْديب يتشوق الى مصر (1) :

ترَحَّلَ من وادي الأراكة بالوجد
فبات سقيماً لا يعيد ولا يبدي
سقيماً تظل العائدات جوانياً
عليه بإشفاق وإن كان لا يجدي
يَخَلْنَ به مَسَّاً أصاب فؤاده
وليس به مسٌ سوى حُرَق الوجد
به علة إن لم تصبها سلامة
من الله كادت نفس حاملها تردي

(1) مطلع قصيدة في ديوانه ج1/207 .

ومـــن عجب الأيــام أنـــي مولَـــع"
بمـــن ليس يعنيه بكائي ولا سُهدي [1]

وهي طويلة ومنها :

خليلي هذا الشوق لا شـــك قاتلـــي
فميـــلاً إلى المقياس ان خفتما فقدي [2]
ففي ذلك الـــوادي الذي أنبت الهوى
شـــفائي من سقمي وبرئي من وجدي
ملاعبُ لهـــو طالمـــا ســرت بينهـــا
على أثـــر اللـــذات في عيشة رغـــد [3]
إذا ذكرتهـــا النفس سالت من الأســـى
مع الدمع حتـــى لا تُنَهْنَهُ بالرد [4]

وقال يذكر مقامه في سيلان ويتشوق الى الاهل والاوطان من قصيدة [5] :

يا غاضبين علينـــا هـــل إلى عِـــدَةٍ
بالوصل يومَ أُنـــاغي فيـــه إقبـــالي
غبتـــم فأظلم يومـــي بعد فُرقتكـــم
وساء صنـــع الليالي بعـــد إجمالِ [6]

---

(١) السهد : السهر .

(٢) روضة المقياس : جزيرة جميلة في نهر النيل وفي جنوبها مقياس تقاس به مياه النيـــل ابان فيضانه وانخفاضـــه ، وهـــي في شرقي محلة الجيزة .

(٣) العيشة الرغد : واسعة طيبة لينة .

(٤) نهنهه عن الامر : كفه .

(٥) من قصيدة في ديوانه (ط . المنصوري) ج٢/٣٦٦ مطلعها :
ردوا علي الصبا من عصري الخالي وهـــل يعود سواد اللمة البالـــي

(٦) الاصل : إجمالي .

قَد كُنت أَحْسِبني منكم على ثقةٍ
حتى مُنيتُ بما لم يَجْرِ في بالي

لم أجن في الحب ذنباً أستحق به
عَتْباً ولكنها تحريفُ أقوالِ [1]

ومن أطاع رواة السوء نفَّره
عن الصديق سماع القيل والقالِ

أدهى المصائب غدرٌ قبله ثقةٌ
وأقبح الظلم صَدٌّ بعد إقبالِ

ومنها يفاخر :

لا عيب فيَّ سوى حريةٍ ملكتْ
أَعِنَّتي عن قبول الذل بالمال

تبعتُ خُطَّةَ آبائي فسرت بها
على وتيرة آبائي وأنسالي [2]

فما يمر خيال الغدر في خلدي
ولا تلوح سمات الشر في حالي [3]

قلبي سليم ونفسي حرة ويدي
مأمونة ولساني غير ختال

لكنني في زمان عشت مغترباً
في أهله حين قلَّت فيه أمثالي

بلوت دهري فما أحمدتُ سيرتَهُ
في سابقٍ من لياليه ولا تال

(١) الاصل : أقوالي .
(٢) رواية الديوان : على وتيرة آدابٍ وأسآل .
(٣) الاصل : في حالٍ .

حَلَبْتُ شَطْرَيْه من يُسرٍ ومَعسَرَةٍ
وذقت طعميه من خِصْبٍ وإمحالِ
فما أَسِفْتُ لبؤسٍ بعد مقدرةٍ
ولا فرحت بوفرٍ بعد إقلالِ

وهي طويلة ، وصف فيها حالته في سَرَنْديب ، وعرض فيها لشعره أيضا فقال :

راجعت فهرس آثاري فما لمحت
بصيرتي فيه ما يُزري بأعمالي
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي
وقد سَرَتْ حكمي فيهم وأمثالي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به
وأن غدوتُ كريم العم والخال
ولي من الشعر آيات مفصلة
تلوح في دجنة الأيام كالخال
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
ويهتدي بسناها كل قوّالِ
فانظر لقولي تجد نفسي مصورةً
في صفحتيه فقولي خط تمثالي

وقال يفتخر بشعره (١) :

ترنم بأشعاري ودع كل منطق
فما بعد قولي من بلاغ لمفلِق

(١) ديوانه ج٢/٣٤٤ وغض الطرف عن البيت الثاني في القصيدة وهو :
هو العسل الماذي طوراً وتارة يثور الشجا منه مكان المخنق

يغني به شاد ويحدو ركابه
به كل حاذ بين بيداء سَمْلقِ [1]
فطوراً تراه زهرة بين مجلس
وطوراً تراه لهذماً بين فيلق [2]
وما كلفي بالشعر إلا لأنه
منار" لسارٍ أو نَكال" لأحمق [3]
علقت به طفلاً وشبت ولم يزل
شديداً بأهداب الكلام تعلقي
إذا قلت بيتاً سار في الدهر ذكره
مسير الحيا ما بين غرب ومشرق
يهيم به رب الحسام حماسة
وتلهو به ذات الوشاح المنمق
بلغت بشعري ما أردت فلم أدع
بدائع في أكمامها لم تفتق
فهذا نمير الشعر فاقصد حياضه
لتروى وهذا مرتقى الفضل فارتق

وقال أيضا في شعره [4] :

إذا جاش طبعي فاض بالدر منطقي
ولا عجب فالدر ينشأ في البحر

---

(١) الشادي : المغني ، يحدو : يسوق ويغني ، والبيداء السملق : الصحراء المقفرة الجرداء .
(٢) اللهذم : الحاد القاطع من الاسنة ، والفيلق : الجيش العظيم .
(٣) النكال : العقوبة والانتقام .
(٤) من قصيدة في ديوانه ١٢/٢ مطلعها :
بناظرك الفتان آمنت بالسحر   وهل بعد ايمان الصبابة من كفر

تـدبر مقالـي ان جهلـت خليقتـي
لتعرفنـي فالسيف يعـرف بالأثـر [1]
ولا تعجبن من منطقـي إن تأرجـت
بـه كـل أرض فهو ريحانة العصر [2]
سيذكرني بالشعـر من لـم يلاقنـي
وذكـر الفتى بعد الممـات من العمـر

وقال في الفخر [3] :

عصيت نذيـر الحلم في طاعة الجهـل
وأغضبت في مرضـاة حب المهـا عقلي
ونازعت أركـان البطالـة والصبـا
إلـى غايـةٍ لم يأتهـا أحـدٌ قبلـي
فخذ في حديـثٍ غير لومـي فإننـي
بحب الغواني عن مَلامـكَ في شُغْلِ

ومنهـا :

وقـور وأحـلام الرجـال خفيفـةٌ
صبورٌ ، ونار الحرب مِرْجَلُها يغلي
إذا راعـت الظلمـاء غيري فإنمـا
هلال الدجـى قوسي وأنجمـه نبلـي
أنا ابن الوغى والخيل والليـل والظبى
وسُمْرِ القنا والرأيِ والعقدِ والحـلّ

(١) الاثر : فرند السيف ورونقه وديباجته .
(٢) في الاصل المخطوط : النصر .
(٣) مطلع قصيدة في ديوانه (ط . المنصوري) ج٢/٣٣٩ .

فقل للـذي ظـن المعـالي قريبـةً
رُويداً فليس الجـد يـدرك بالهـزلِ

ومن شعره (١) :

إذا ما شربناهـا(٢) أقمنا مكاننـا
وظلـت بنـا الأرض الفضـاء تـدور

قال الرافعي : انه أخذ من بيت لاعرابي وهو :

أتاني بظهـر الغيب أن قد تزوجـت
فظلـت بـي الأرض الفضـاء تـدور

ولعله نظمه ولم يدر أن أكثر البيت لغيره ، وأشار الى أنه ضمن البيت شطر بيت قديم لكثرة محفوظه .

ومما قال في عشقه وشعره (٣) :

والحـب مَلْكٌ نافـذ حكمُـهُ
مـن مَغْرب الأرض إلـى المشرقِ
فليقـلِ العـاذلُ مـا شـاءه
فالعشـقُ دَأْبُ الشاعر المُفلّـقِ

---

(١) من قصيدة في ديوانه ٢/١٨ مطلعها :
ابى الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير
(٢) في الاصل المخطوط : اذا شربناها ، وما أثبتناه رواية الديوان .
(٣) هذه الابيات آخر قصيدة في ديوانه (ط . المنصوري) ج٢/٦٥ مطلعها :
عودي بوصـل أو خـذي ما بقـى
فقـد تداعـى القلـب ممـا لقـي

لَو لـم أَكـن ذا شيمـةٍ حُرَّةٍ
لم أقـرضِ الشعـرَ ولـم أَعْشَقِ

ومن حِكَمِه [1] :

لَعَمْرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ يومِه
ومـا العيشُ إلاّ لُبثةٌ وزِيـالُ [2]
وما الدهـرُ إلا دفتـرٌ في خِلالِه
تصاويـرُ لم يُعْهَـدْ لهنَّ مثالُ [3]
ففي صفحةٍ منه زمـانٌ قد انقضـى
وفي وجـهِ أُخرى دولـةٌ ورجـالُ

ومن قوله وينزع فيه منزع القدماء في القول بالطبائع الاربع [4] :

إنَّ ابـنَ آدمَ ذو طبـائعَ أربـعٍ
مجموعـةِ الأجـزاء في أخلاقـهِ
تبـدو فَواعلهـا علـى حركاتِـهِ
فـي بطشـهِ وسكونـهِ ونزاقـهِ
فـإذا تغلّـب واحـدٌ منهـا علـى
أقرانـهِ أدى الـى إقـلاقـهِ
بَيْنـا تـراه كالـزُّلال لَطافـةً
أَلفَيْتَـه كالنـار فـي إحراقـهِ

---

(١) مقطوعة في ديوانه (ط . المنصوري) ج٢/٥٨١ .
(٢) الاصل : الا بعثة وزيال .
(٣) الاصل : تقادير لم يعهد لهن مثال .
(٤) قصيدة في ديوانه ج٢/٣٤٠ .

أو كالتراب يَهيمل من عَقَداتِه [1]
أو كالهـواء يجـولُ في آفـاقـهِ

فـإذا تعـادل جمعهـا وتوازنـت
حركاتهـا كانـت دليـلَ وِفاقـهِ

والمـرءُ مهمـا كـان في أفعـالـه
لا ينتهـي إلا الـى أعـراقـهِ

وقـال [2] :

ألا يا حَمام الأيك إلفُكَ حـاضرٌ
وغصنـك مَيَّـادٌ ففيـمَ تنَـوحُ

غـدوتُ سليماً في نعيـم وغِبْطَـة
ولكـنَّ قلبـي بالغـرامِ جريـحُ

فإن كنتَ لي عَوْناً على الشوق فاسْتَعِرْ
لعينـكَ دَمعـاً فالبكـاءُ مريـحُ

وإلا فَدَعْني من هَديلِكَ وانصرفْ
فليـس سـواءً بـاذلٌ وشحيـحُ

ومما قال [3] :

إذا المرءُ لم يدفع يدَ الجَوْرِ ان سَطَتْ
عليه فـلا يأسفْ إذا ضـاع مَجدُهُ

(١) هال التراب : صبه ، وعقدات التراب والرمل : ما انعقد منه واجتمع وتراكم .
(٢) ديوانه ج١/١٢٤ .
(٣) من قصيدة في ديوانه ج١/١٣٩ مطلعها :
رضيـت من الدنيا بمـا لا أوده وأي امرىء يقوى على الدهر زنده

ومن ذَلَّ خوفَ الموت كانت حياته
أضرَّ عليه من حمام يَؤدّهُ (1)
وأقتل داءٍ رؤية العين ظالماً
يسيء ويتلى في المحافل حمده

ومن قصيدة (2) :

أصبحت حاجتي إليك فخذ لي
بحقوقي من ظالم قد تعدى
وجد القلب خالياً فاحتواه
ورأى النفس طوعه فاستبدا
وكذا السلطان إن ظن بالأُمّـ
ـة عجزاً سطا عليها وشدّا

وقال (3) :

من صاحب العجز لم يظفر بما طلبا
فاركب من العزم طِرْفاً يسبق الشهبا(4)
لا يدرك المجد إلا من اذا هتفت
به الحمية هز الرمح وانتصبا
يستسهل الصعب إن هاجت حفيظته
ولا يشاور غير السيف ان غضبا

(1) يؤده : ينزل به .
(2) من قصيدة في ديوانه ج1/233 مطلعها :
ما لقلبي من لوعة ليس يهدا أو لم يكف انه ذاب وجدا
(3) ديوانه ج1/67 .
(4) الطرف : الكريم من الخيل .

ينهـل صارمـه حتفـاً ومنطقـه
سحراً حـلالاً إذا ما صال أو خطبا [1]
إن حل أرضـاً حمى بالسيف جانبهـا
وان وعـى نبـأة من صـارخ ركبـا
فذاك إن يحي تحي الأرض في رغـدٍ
وإن يمت ينقلب صـدق المنـى كذبـا
فاجمل بنفسك تبلغ مـا أردت بهـا
فالليـث لا يرهب الأخطـار ان وثبـا
وجد بما ملكـت كفاك من نشـب
فالجود كالبأس يحمي العرض والنسـبا
لا يقعد البطـل الصنديد[2] عن كرم
من جاد بالنفس لـم يبخل بما كسـبا

ورأينا البارودي يكثر من ذكر روضة النيل والمقياس والجزيرة [3] وأيامه فيها ولا سيما لما كان في سَرَ َنْديب وكَنْدِي [4] ، وقد اشتاق

---

(١) الصارم هنا : السيف ، والحتف : الهلاك .

(٢) الصنديد : الشجاع ، والسيد الشريف .

(٣) انظر على سبيل المثال قصيدته السينية التي مطلعها :
هل في الخلاعة والصبا من باس　　　بين الخليج وروضة المقياس
والسينية الاخرى التي مطلعها :
احمى الجزيرة مطلع الشمس　　　أم لاح ضوء غزالة الانس
ديوانه ج٢/١٤٩ و ١٥٨ ، وكذلك قصيدته القافية التي مطلعها :
هل من طبيب لداء الحب أو راقي　　　يشفي غليلا اخا حـزن وإيراق
ديوانه ٢/٣٢١ .

(٤) بلدة في جزيرة سرنديب الهندية ، في وسطها تقريبا . يؤمهـا كثير من الزائرين للاستمتاع بمناظرها الخلابة .

الى ربوع صباه ومراتع أنسه . ومن هذه المعاني وفيه لزوم مالايلزم[1]:

زمزمـــي الكـــأس وهاتـــي ... واسقنيهـــا يـــا مهـــاتي[2]
وامـــزجيهـــا برضـــاب ... منك معســـول اللهـــاة[3]
إنمـــا الـــراح مـــدار الـ ... أنس في كـــل الجهـــات
طالمـــا عاصيـــت فيهـــا ... أهـــل ودي ونُهـــاتي[4]
لا أبالـــي فـــي هواهـــا ... بسمـــاع الترهـــات
كيف أخشـــى قـــول داه ... أنـــا مـــن قـــوم دهـــاة

وقـــال[5]:

رَبِّ خـــذ لـــي من العيـــون بحقـــي
وأَجِرْني مـــن ظالـــم ليـــس يبقـــي
قد توقيـــت مـــا استطعت مـــن الـ
ـحب ولكـــن مـــاذا يـــرد التـــوقي
وترفقـــت بالفـــؤاد ولكـــن
غلبـــت لوعـــة الصبابـــة رفقـــي
لا تلمنـــي علـــى الهوى فغموض الـ
ـحق عـــذر يـــرد كـــل محـــق
سل دموعـــي فهـــن ينبئـــن عمـــا
في ضميـــري ويعتـــرفن بصـــدقي

(١) القصيدة في ديوانه ج١/٩٢ .
(٢) المهاة : الشمس والبلورة والبقرة الوحشية والمراد هنا المـراة الحسناء .
(٣) الرضاب : الريق ، واللهاة لحمة في اقصى الفم .
(٤) هذه رواية الديوان ، وفي الاصل : عاصيت فيه .
(٥) هذه القصيدة في ديوانه ج٢/٣١٩ .

كيف لـــي بالنجـاة من شــرك الحــ
ب سليمــــاً والحــب مالــك رقــي
قــد تلقيــت لوعتــي مــن عيــون
علمتنــي درس الهــوى بالتلقــي
ورشــوت الهــوى بلؤلــؤ دمعــي
والرّشــا وصلــة لنيــل الترقــي
فلعلــي أفــوز يومــــاً بوصــل
أتولــى بــه إمــارة عشـــقي

ومن ابداعــه [1] :

هل من فتــى ينشــد قلبــي معــي
بــين خــدور العيــن بالأجــرع [2]
كــان معــي ثــم دعــاه الهــوى
فمــر بالحــي ولــم يرجــع
فهــل إذا ناديتــه باسمـــه
يفيــق مــن سكرتـــه أو يعــي
هيهــات يلقــى رشــداً بعدمــا
أغــواه لحظ الرّشأِ الأتلــع [3]
فيا دمــوع القطــر سـيلي دمــاً
ويا بنــات الأيك نوحي معــي [4]

. . .

(١) الديوان ج٢/٢١٧ .
(٢) الاجرع : أرض رملية طيبة المنبت .
(٣) الرشأ : الظبي والمراد به المرأة الواسعة العينين ، والاتلع :طويل العنــق .
(٤) بعد هذا البيت في الديوان أربعة أبيات لم ترد هنا .

ويلاه من نار الهوى إنها
لولا دموعي أحرقت أضلعي (١)

. . .

فهل الى الأشواق من غايةٍ
أم هل الى الأوطان من مرجعِ
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى
لا بُدٌ للمحنةِ من مقطعِ

وله من قصيدة (٢) :

كَيْدُ الغَبيِّ مَساءَةٌ لضميره
ولمن يحاولُ كيدَه إرضاءُ
والناسُ أشباهٌ ولكن فرَّقَتْ
ما بينهم في الرتبة الآراءُ
والنفسُ إن صَلُحَتْ زَكَتْ واذا خلَتْ
من فطنةٍ لعبتْ بها الأهواءُ
لو لم يكن بين الرجال تفاوُتٌ
ما كان فيهم سادَةٌ ورِعاءُ (٣)
ولقد بَلَوْتُ الناس في أطوارهم
ومَلِلتُ حتى مَلَّني الإِبلاءُ
فإذا المودةُ خَلَّةٌ مكذوبةٌ
بين البريَّةِ والوفاءُ رِياءُ

(١) بعده في الديوان اربعة ابيات ايضا ، وهذه رواية الديوان ،وفي الاصل : احترقت أضلعي .
(٢) من قصيدة في ديوانه ج١/١١ مطلعها :
صلة الخيال على البعاد لقاء ولو كان يملك عيني الإغفاء
(٣) الرعاء : جمع راعٍ .

كيف الوثـوق بذمـةٍ من صـاحبٍ
وبكـل قلـبٍ نقطـة سـوداءُ
لو كان في الدنيـا وداد" صـادق"
مـا حـال بـين الخَلّتين جَفـاءُ
فانفُضْ يديـك من الزمـان وأهلِهِ
فالسعـيُ في طلَـب الصديـقِ هَبَاءُ

وله من هذا شيء كثير ، ومنه وقد ختم به قصيدة يذكر بهـا أيام الشباب [١] :

وعشْ فـرداً فمـا في النـاس خـل
يسـرك فـي بعـاد واقتـراب
حلبـت الدهـر أشطـره مليـاً
وذقـت العيش من أري وصـاب [٢]
فمـا أبصرت في الإخـوان ندبـاً
يجـل عـن الملامـة والعتـاب
ولـكنـا نعـاشـر مـن لقينـا
علـى حكـم المـروءة والتصـابي

وقال من قصيدة يذكر أياما له مضت في الجيزة [٣] :

---

(١) ختام قصيدة في ديوانه ج١/٥٠ مطلعها :
أعد يا دهر أيام الشباب وأين من الصبا درك الطلاب
(٢) حلب الدهر أشطره : مربه خيره وشره . والاري : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابة .
(٣) ختام قصيدة في ديوانه ج١/١٨ مطلعها :
غاد الندى بالجيزة الفيحـاء واحد الصبوح بنغمة الورقاء

إني امرؤ ملك الوداد قيادتي
وجرى على صدق العهود وفائي
لا أستريح إلى السلو ولوجنى
خِلّي عليّ ولا أشين ولائي
لا ذمتي رهن الفكاك ولا يدي
تلقي أزمة عفتي وحيائي
لكنني غرض لأسهم حاسد
وأرى الجوانح من لهيب عدائي
من غير ما ذنب جنيت وإنما
بغض الفضيلة شيمة الجهلاء
تعست مقارنة اللئيم فإنها
شرف النفوس ومحنة الكرماء
أنا في زمان غادر ومعاشر
يتلونون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب
منهم وإخوة محضر ورجاء
أقبح بهم قوماً بلوت إخاءهم
فبلوت أقبح ذمة وإخاء
قد أصبحوا للدهر سبة ناقم
في كل مصدر محنة وبلاء
وأشد ما يلقى الفتى في دهره
فقد الكرام وصحبة اللؤماء
شقي ابن آدم في الزمان بعقله
إن الفضيلة آية العقلاء

وقال (١) :

إلى الله أشكو أنني بين معشر
سواء لديهم طيب وخبيث
لهم ألسن إن رُمْنَ أمراً بلغنه
من النفس مصنوع لهن حديث
ترثُّ على قرب الوداد عهودهم
وكيف يدوم الشيء وهو رثيث
فليس لهم في سالف الدهر محتد
قديم ولا في المكرمات حديث
برمت بهم حتى سئمت مكانتي
وأنكرت طيب العيش وهو دميث
إذا لم يغثني الله منهم بفضله
فما لي بين العالمين مغيث

وقال على سبيل النصيحة(٢) :

قليلٌ مَن يدوم على الودادِ
فلا تَحْفَلْ بقربٍ أو بعادِ
إذا كان التغير في الليالي
فكيف يدوم ود في فؤادِ
ومن لك أن ترى قلباً نقياً
ولمّا يَخْلُ قلبٌ من سوادِ
فلا تبذُل هواكَ إلى خليلٍ
تظنُّ به الوفاءَ ولا تُعَادِ

(١) القصيدة في ديوانه ج١/٩٨ .
(٢) هذه القصيدة في ديوانه ج١/٣٤٧ .

وكــن متوسطــاً في كــل حــالٍ
لِتَـأْمَنَ ما تخــافُ من العنــادِ
مُداراةُ الرجــالِ أَخَفُّ وَطْــأً
على الإنسان من حربِ الفســادِ
يعيــش المــرءُ محبوبــاً إذا مـــا
نحــا في ســيره قصــد السَّدادِ

وما الدنيا سوى عجــزٍ وحــرصٍ
هما أصــلُ الخليقــة في الفسادِ

فلــولا العجــزُ ما كان التصــابي
ولولا الحــرصُ ما كان التعــادي

ومــا عَقَــدَ الرجالُ الــوُدَّ إلا
لنفــعٍ أو لمنــعٍ مــن تَعــادي

وما كان العِــداءُ يَخِفُّ لــولا
أذى السلطــانِ أو خوف المعــادِ

فيابْنَ أبــي ولسـت به ، ولكــن
كلانــا زرعُ أرضٍ للحصــادِ

تأمَّــلْ هــل تــرى أثــراً فــإني
أرى الآثــارَ تذهــب كالرمــادِ

حيــاةُ المــرء في الدنيــا خيــالٌ
وعاقبــةُ الأمــور إلــى نَفــادِ

فطوبى لامــرىءٍ غلبــت هَــواه
بصيرتــهُ فبــات علــى رَشــادِ

وقال في الفخر (١) :

ولي شيمــةٌ تأبى الدنايا وعَزْمَةٌ
تَرُدُّ لُهامَ الجيش وهو يَمــورُ
همامــة نفســي ليس يَنْثني ركابهــا
رواح على طــول المــدى وبكــور
معــودة ألا تــكف عنانهــا
عــن الجــد إلا أن تتــم أمــور
لها مــن وراء الغيب أذن سميعــة
وعين تــرى ما لا يــراه بصيــر
وفيت بما ظــن الكــرام فراســة
بأمــري ومثلي بالوفــاء جديــر
وأصبحت محمود الخــلال كأننــي
على كــل نفس في الزمــان أميــر
إذا صلت كف الدهــر من غلوائــه
وإن قلت غصت بالقلوب صــدور

وقوله في الحماسة (٢) :

وإني من القــوم الــذين سيوفهــم
لها في حواشي كل داجيةٍ فَجْرُ (٣)

---

(١) من قصيدة في ديوانه ١٨/٢ مطلعها :
ابى الشوق إلا ان يحن ضمير وكل مشــوق بالحنين جدير
وفي الديوان رواية اخرى لهذه القصيدة .
(٢) البيتان من قصيدة في ديوانه ج٢/٤٠ مطلعها :
طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر
(٣) روايته في الديوان : من النفر الغر الذين سيوفهم .

إذا استل منهم سيد غَرْب سيفه (١)
تفزعت الأملاك والتفت الدهر

هذه نماذج من شعر البارودي ، وشعره لا يتجاوز الثلاثة آلاف بيت كما قال عن نفسه ، وقد رأينا من هذا القليل الذي اقتبسناه من شعره المطرب قوة بيانه وسعة شاعريته ومبلغ حكمته . وكان أستاذنا الشيخ محمد عبده ـ أجزل الله ثوابه ـ يفضله على جميع الشعراء المعاصرين ، ويقرنه الى كبار المتقدمين . وكان من أحب الناس الى قلب الاستاذ الامام ، لم يكن يذكر أحدا بعاطفة حب كما كان يذكره ،وكان يتأوه على غربته ونكبته مالا يتأوهه على أحد .

وقال الاستاذ العقاد : « كان البارودي شاعرا له طلاوة وفيه حياة ولبعض أشعاره نفحة وايقاع لا تجدهما الا في القليل من شعر القدماء والمعاصرين ، وله من حسنات التذوق والتصوير والهام الحس ولطف الشعر وعذوبة الروح ما ليس للكثيرين » .

وقال الاستاذ خليل مطران في وصف اخلاقه : ان هذا الوزير الذي اقتدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته واقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغهما في مواطن القتال الا رجل سكينة ووداعة وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه وأحفظ عهدا لمحبيه ، ولعل اصابته بكريمتيه هي التي قلصت من كبده وأوْدَتْ بجسده . وذكر بِرّه بأولاده وعنايته بتعليمهم فقال « على أن هذا البر إنما كان احدى شمائله وفضائله ، فان

(١) غرب السيف : حده .

أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود ، والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع المقدرة ، والايناس مع علو النفس وشرف الطبع » •

كان البارودي مثالا من بعد الهمة في صباه وكهولته وشيخوخته ، لا يغفل عن عمل كل خير تصل اليه يده ، فبينما كان في منفاه يعلم أولاده ويعلم المسلمين العربية ويخطب فيهم ويتعلم الانكليزية ويتقنها كان ايام شيخوخته يختار من الشعراء المولدين أجمل ما قالوه لينشره للناس فأتحف بما اختار مجالس الادب في آخر أيامه بتوفره على دراسة ثلاثين شاعرا عربيا فحلا من المولدين ، جنى أطايب أشعارهم وكسر موضوعات المختارات على سبعة أبواب : الادب المديح ، الرثاء ، الصفات ،النسيب، الهجاء ، الزهد وسماها المختارات • أما الشعراء الذين اختار لهم فهم : بشار بن برد ، العباس بن الاحنف ، أبو نواس ، مسلم بن الوليد ، أبو العتاهية ، ابن الزيات ، أبو تمام ، البحتري ، ابن الرومي ، ابن المعتز ، أبو الطيب المتنبي، مهيار الديلمي، أبو العلاء المعري ، صرّ درّ، ابن سنان الخفاجي ، ابن حيوس ، الطغرائي ، الغزي ، ابن الخياط ، الارجاني ، الابيوردي ، عمارة اليمني ، سبط ابن التعاويذي ، ابن عنين •

لم ينتخب البارودي في مختاراته الا الجيد لفظاً ومعنى ، وربما يأخذ البيت غير الجيد لتعلق الجيد به ، ولم يراع في بعض الابيات ترتيبها الاصلي ، بل قد يقدم المؤخر ويؤخر المقدم ، وقد يكرر بعض ما اختاره في بابي الادب والمديح في أبواب أخر • • وقد يبدل الفاء بالواو والواو بالفاء أو بلام القسم اذا اقتضى السياق ذلك ، وقد يزيدهما او يحذفهما اذا وقعا في أول المنتخب واستقام الوزن بذلك ، وقد راعى في ترتيب أسماء الشعراء أسبقيتهم في الوجود لا مكانتهم في الشعر •

وقع ما اختاره من الشعر في أربعة مجلدات وقعت في (١٧٦٣) صفحة من القطع الكبير ، وقد حل مواضع الإشكال حلا لغويا مختصرا في أسفل الصفحة بحيث لا يعوق[١] الطالب عائق دون الانتفاع بالشعر فلا يضطره الى الرجوع الى معجمات اللغةوهو أطرب ما يكون في سماع شعر الشاعر ، ولعل البارودي في انتقاء هؤلاء الشعراء المجيدين فقط ، يشير من طرف خفي الى ان الامة العربية وهي أمة الشعر في جميع أدوار حياتها ما كانت تعد في القرن الواحد اكثر من بضعة شعراء ، أما أولئك المئات الذين دونت الكتب أشعارهم فهم ناظمون أو عروضيون كما سماهم بعض المعاصرين ، ولم يستوفوا صفات الشاعرية وان اشتهروا .

خدمة جليلة خدم بها البارودي دولة الادب العربي ، وختم بما انتخب بالصالحات أعماله فكان مجدد بنيان الشعر في هذا العصر ، أن أحياهم على ما يجب ان يحيوا ، وحببهم الى من يتعاطون فن الادب . نعم كان بإحسانه الاختيار من الشعراء المولدين كأبي تمام والبحتري [مثله] في اختيار بدائع الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين . واختيار المرء قطعة من عقله ، وأعظم بشعر يختاره البارودي . ويقول لابناء الاجيال القادمة: هذا ما ينبغي لكم أن تحرصوا على الاستفادة منه ، وقد وضعته بين أيديكم بما صنعت لكم ، ودللتكم على مواقع الاجادة من هذا الشعر الفحل .

وكأن البارودي بهذه المختارات أيضا قال للمتأدبين بلسان الحال : ان العمر قصير والهمم وانية ، والقوم عكفوا على الشعر قرونا فخلط من خلط منهم وأجاد من أجاد ، وهؤلاء المجودون عليكم بهم ، تدارسوهم

---

(١) الاصل : لا يعود ، وهو خطأ .

يجزئوكم عن تدارس مئات الدواوين حملت الغث والسمين ، ولا تورث ملكاتكم مايضعفها وأنتم لا غنية لكم عن الاطلاع على أجود ما قيل . فها أنا ذا حشرته لكم في هذا الكتاب ، فخيـر لكم أن تأكلوا الفاكهة الجيدة الناضجة من أن تتناولوا الفج الذي لم يطب في المذاق .

وبعد ، فقد كتب لي شرف التعرف الى شاعرنا العظيم هذا فـي مجلس الامام محمد عبده في عين شمس من ضواحي القاهرة سنة احدى وتسعمئة وألف ، وفي المجلس يومئـذ من العظماء بطرس باشا غالي ، والشاعر حافظ ابراهيم ، وقد عاد من المنفى وهو مكفوف ، والى مـا أصابه أشار الشاعران العظيمان خليل مطران وحافظ ابراهيم في رثائـه وقد جوّدوا كلّ الاجادة . قال مطران (١) :

إذا وَسِعَ الكونَ فِكْرُ امرىءٍ
فـلا بأسَ بالطَّرْفِ أن يُحسَرا (٢)

علـى الشمس أن تهـدي المبصريـن
وليـس علـى الشـمس أن تبصرا

وقال حافظ (٣) :

(١) من قصيدة قالها خليل مطران في رثاء البارودي مطلعها :
مصابك حيا عـرا جعفرا   وخطبك ميتا عـرا قيصرا
ديوان خليل مطران ج١ ص ٢٧١

(٢) رواية الاصل : اذا وسع الارض .

(٣) من قصيدة لحافظ ابراهيم في رثاء البارودي مطلعها :
ردوا عليّ بياني بعـد محمود   اني عَييتَ وأعيا الشعر مجهودي

لقــد نزحت من الدنيــا كما نزحت
غنها لياليــك من بيض ومن ســود

أغمضت عينيك عنها وازدريت بهــا
قبل المـــات ولم تحفــل بموجــود

★ ★ ★

- ٤٢ -

محمود شكري الالوسي *

١٢٧٣ — ١٣٤٢ هـ
١٨٥٧ — ١٩٢٤ م

ألوس : قرية على الفرات قرب عانات ، على خمس مراحل من بغداد ، واليها انتسب آل الالوسي ، وألوسينا هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود ، الملقب بأبي المعالي • أخذ العلم عن أبيه وعمه نعمان خير الدين وغيرهما ، وقعد للتدريس في داره وفي بعض مساجد بغداد • نشأ نشأة أهله ، وكان والده عالما وجده عالما وعمه عالما ، وكانوا على طريقة في المعتقدات خالفهم هو فيها • هم كانوا أحنافاً ومتصوفة ، يعتقدون بكرامات الصالحين والأولياء • أما هو فقرأ كتب ابن تيميّة وابن قيّم الجوزيّة فخلع رداء تصوفهم وتمذهب بمذهب السلف ، يأخذ الشريعة من مصادرها الصافية ، ويؤلف في هذا المذهب ويدافع عنه عن عقيدة ويقين ، فأصبح عَلَماً من أعلام أهل السنّة في العراق ، ولم يكن للمطامح الدنيوية محل من نفسه ، وصرف حياته في التدريس والتأليف،وأخذ عنه كثير من رجال العراق وانتفعوا بدروسه•

أولع المترجم له بالتاريخ والسير واللغة فبرز فيها ، واهتدى الى اطراح السجع من انشائه ، وبالسجع كان بدأ لاول نشأته ، على طريقة أهل القرن الماضي ، وأخذ يكتب كتابة المؤلفين ، كتابة مرسلة لا تعمّل

* ترجمته في الاعلام ٨/٤٩ ومعجم المؤلفين ١٢/١٦٩ والاعلام الشرقية ٢/١٨٤ .
ولد في رصافة بغداد وبها توفي .

فيها ، جاريا مع الطبع ، ولايتعمد السجع والازدواج الا في مقدمة الكتب وبعض الخطب . وما إخاله عني بعناية خاصة بالشعر ، وان رواه. وكان محققا في التمييز بين متينه وضعيفه . وجماع ما غلب عليه علوم الشرع ،خاليا من بدع المبتدعين من المتأخرين، والتبحر في فنون الادب، مستعينا بها على فهم روح الاسلام .

ولما تجلى نبوغه واشتهر بعلمه وحرية فكره ، شنّع عليه معاصروه من الحَشَوية ، ولم يروا للخلاص منه الا السعي الى حكام العثمانيين محاولين اسكاته ، ليحولوا دون انتشار دعوته التي ترمي الى اصلاح معتقداتهم ، والقضاء على خرافاتهم وتخريفاتهم فتذرعوا بتغريبه ، فاستصدروا أمر السلطان بنفيه الى الاناضول . ولما اجتاز بمدينة الموصل قام عظماء من أهلها ، وأبرقوا الى ملك العثمانيين يلتمسون العفو عنه ، فأجاب طلبهم ، وعاد الى موطنه .

وانتدبته الدولة في الحرب العامة مع نسيبه السيد علي الالوسي أن يذهب الى نجد لاقناع أميرها عبد العزيز آل سعود لينضم الى الترك ويحارب الانكليز ، فأبى (١) أن يكون مع الدولة ، وهي التي قتلت أحد أجداده ، وخربت ديارهم ، ولا سيما الدّرعية ، عاصمتها .

فَعُدّ السيد الالوسي مخفقا في سفارته ، وعادت الدولة تنظر اليه نظر ريبة ، لعلمها بأنه الرجل المبجل عند آل سعود وفي عامة أرض نجد، لاشتهاره بمذهب السلف ، والنجديون سَلَفيّون ، لا يُعقل الا أن ينزلوا على ارادة من يحبهم ويحبونه ، وانقلبت الدولة بعد ذلك تقوّي ابن الرشيد منافس ابن سعود في امارة نجد ، وأغدقت عليه المال

---

(١) أي عبد العزيز .

والسلاح ، ورفعت من مقامه ، مقدرة قدرته على مقاومة أعدائها بأكثر مما كان في طوقه •

صنف السيد الالوسي كتبا كثيرة للقدماء • ومن أهم ما صنف « بلوغ الارب في أحوال العرب » • وكانت لجنة اللغات الشرقية في استكهولم اقترحت ، بدعوة اسكار الثاني ملك السويد والنروج ، على الاخصائيين بتاريخ العرب والاسلام في الشرق والغرب تأليف كتاب يستوفي احوال العرب قبل الاسلام، ويستوعب ما كانوا عليه في جاهليتهم من العوائد والاحكام ، واشترطت أن يكون مشتملا على بيان ما يطلق عليه لفظ العرب ، واقامة الدليل على فضلهم على غيرهم ، وبيان نسب من اشتهر من القبائل ، وذكر اشهر مساكنهم ، وكيف كان حال مكة إذ ذاك ، وعوائدهم في المأكل والمشرب والزواج ، وتفصيل مجامعهم وأيامهم ، ومفاخرهم وأعيادهم وأفراحهم ومعتقداتهم واوابدهم ومتعبداتهم وعلومهم وصنائعهم ومشاهير رجالهم في الجود والحلم والحكم والشجاعة والشعر والخطابة والطب ، وأن يظهر الفرق بين حالتي أهل الحضر والبادية ، وبأي وسيلة أمكنهم في زمن قصير أن يتقدموا ذلك التقدم العجيب ، ويتغلبوا على عدة ممالك واسعة وأقطار شاسعة يبلغ عدد سكانها أضعاف أضعافهم مرارا عديدة ، حالة كون بلادهم حارة مقحطة خالية من بواعث المدنية ، وهل بقي من آثارهم شيء بين من يسكنون البوادي اليوم ويدعون بالعرب ، مع اقامة الادلة الكافية ، والاتيان بالمستندات القوية لاثبات كل أمر منها ، وعلى المؤلف أن يستند في استخراجها على الشعر الجاهلي وما تضمنته من ذلك الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والسير والتواريخ الصحيحة •

بعثت اللجنة بهذا الاقتراح الى المشهورين من علماء العرب والغرب

في تلك الحقبة ، فلبى الالوسي نداءها ، وكتب كتابه في ثلاثة مجلدات كان فيه أقرب الى الشروط المطلوبة ، ولكنه ما استوفاها كلها ، استقى من المصادر المعروفة، وما ألمّ بالغرض المقصود، ومع ذلك جاء كتابه من أوفى الكتب مادة ووصفا وتنسيقا ، على كثرة ما ورد على اللجنة من التآليف في هذا الموضوع الجليل ، فنال الجائزة ، وهي الوسام الذهبي الذي كانت السويد والنروج تهديه الى العلماء . وطبعت له كتابه ، وطرحت سائر المؤلفات في المهملات . ومما قاله قنصل السويد والنروج من رسالة الى المؤلف : « ان جميع الكتب التي وصلتنا في هذا الصدد ، مع ما بلغت من كثرة العدد ، واختلاف مصادرها شرقا وغربا ، من اوربا ومصر والشام والعراق وغيرها من الآفاق لم يحصل سواك أحد على تلك الجائزة التي سبق بها الوعد ، لان الموضوع واديه عميق بعيد الطريق ، غير أن كتاب الاستاذ مع ذلك أجمع لكل مادة .. » .

والواقع أنه من الصعب على رجل واحد لم يعرف لغة غير العربية أن يؤلف مثل هذا التاريخ ، وكان على مؤلفه أن يكون متمكنا من تاريخ العرب قبل الاسلام ، ومن السهل تدوين ما عرف من تاريخهم في تلك الاعصر ، والصعوبة في التقاط أخبار الجاهلية التي ضاعت قبل الاسلام بمئتي عام ، ودوّن الأخلاف بعض ما تيسر منها .

وعجّل الاستاذ باخراج تأليفه،فوقع في أغلاط كثيرة تدارك اصلاح بعضها فى الطبعة الثانية ، وجاء الكتاب مجموعة يمكن أن توصف بأنها من الحاضر الذي تهيأ ، ولم يكشف بها ما غمض من أحوال الجاهلية ، ولا تعرف أمور كثيرة في التفسير الا بالوقوف على أخبار الجاهلية وقوفا تاما .

وللمترجم له مع الشيخ يوسف النبهاني[1] جولات في الشرع ، هذا يثبت في كتبه ضروبا من البدع التي لم يقل بها الاسلام ، والشيخ يرد عليه في مجلدات ، ويبين له حكم الكتاب والسنة وآراء عظماء الملة . وظهرت في ردوده هذه مكانته من استبطان أسرار الشريعة ، وآراؤه في الاصلاح الديني،ومبلغ وقوفه على المصادر لتأييد مذهبه . وكذلك كان صنيعه عندما رد على بعض علماء الشيعة . وقد أحيا المؤلف الى هذا عدة رسائل للقدامى ، علق عليها وخدمها ، ومنها ما نشره في مجلة « المقتبس » .

قال تلميذه الاستاذ محمدبهجة الاثري في وصف عمله:انهاحتسب حياته لخدمة الدين الاسلامي ، وتطهيره من أوضار البدع والمحدثات ، فجاهد أهل الحشو ودعاة عبادة القبور ، ثم انتحى الى المذاهب الفاسدة المبنية علىالحب والبغض ، فأظهر للملأ ما تنطوي عليه من الخبائث والدسائس ، وماتضمره للاسلام — وان كانت تنتمي اليه في الظاهر — من الكيد والعداء ، وقد كان يرى أن في القضاء عليها قضاء على جميع البدع والاضاليل المنتشرة بين أهل الاسلام . وانه يأخذ بيد الاسلام الى ذروة عزه القديم . جاهد البدع والوثنيات، ودعا الى التوحيد الذي هو أول ما كانت تدعو اليه الرسل ، وبين تقليد الآباء والسير على آثارهم الغامضة ، غير مدخر في جهاده ودعوته وسعا ، حتى كبح جماح الوثنيين، وخفف من غلواء القبوريين أو كاد ، فكان له من التأثير المحمود في قمع الضلال ما لا سبيل لأحد الى انكاره . وهذه آثار جهاده بين الايدي

---

(١) يوسف بن اسماعيل النبهاني (١٢٦٥ — ١٣٥٠ هـ = ١٨٤٩ — ١٩٣٢ م) أديب ، شاعر ، قاض ، تولى رئاسة محكمة الحقوق ببيروت، له كتب كثيرة منها : جامع كرامات الاولياء .

ـ والمخطوط منهـا أكثر من المطبوع ـ تشهد لـه بالحسنى والمقـام المحمود [1] .

الالوسي نسخة حلوة من قدماء العلماء لم يأت بجديد ، وانصرف الى احياء القديم ، أحيا سنة أجداده في العلم والانقطاع اليه والشغف به ، ولم يتخذه سُلَّماً الى الدنيا .

كان عزوفا عن المطامع ، لا مطمع له في غير بث دعوته ، وتثقيف من يعتقد أنه يحصل منه النفع للامة . وهو اذا عد في المجددين المجتهدين في الاسلام لا يعد الا من المقلدين في العلم والادب . وكان على فضل شجاعة في بث دعوته الدينية ، أذاق المنحرفين من قلمه ما فضح به عيوبهم ، وما بالى غضبهم وغضب العامة ، ولا بطش الولاة ، وكانوا أبدا يميلون مـع العامة أكثر من ميلهم الى الخاصة . وكان قبل أن يشتد ساعده يجامـل ويتقي ، فلما تمت فيه أسباب الدعوة لم تأخذه هوادة فيمن وقفوا فـي سبيلها .

وإنا اذا شهدنا الاستاذ يزهد في المظاهر التي كان العثمانيون يغوون بها أمثاله أيام استيلائهم على بلاد العرب ، فإنه كان على هذه الصورة على عهد الاحتلال الانكليزي في العراق (١٣٣٥) .

جاءه عامل من عمال البريطانيين يصحبه تلميذه الاب أنستاس الكرملي ، ومعه صرة فيها ثلاثمئة جنيه ، وعرض عليه منصب قـاضـي

---

(١) من كتبه : اخبار العباد وما جاورها من القرى والبلاد (أربع مجلدات) ، مساجد بغداد (لم يتمه) ، أمثال العوام في دار السـلام ، رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين ، المسك الاذفر في تراجـم علماء القرن الثالث عشر ، تاريخ نجد ، الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثر ، فتح المنان (في الرد على أهل البدع في الدين) .

القضاة في بغداد ، فاعتذر عن قبوله (١) ، وأبى قبول العطية • والتفت الى تلميذه الكرملي يلومه على وساطته هذه ــ على ما حدثني بــذلك الاستاذ أنستاس ــ وقال : خير لي أن أموت جوعا من أن آخذ مالا لم أتعب في كسبه • وهدد من أتى بالمال باخراجه من داره اذا بقي يلح عليه في قبض تلك المنحة •

وماذا يعمل بالمال من عــاش في شبابه وكهولتــه وشيخوخته ولم يتناول شيئا من غير حِلّه ؟وكيف يمد يده ،وهو في آخر أيامه ، لا زوج له ولا ولد ،فيتناول من دولة أجنبية لا تمنح ماتمنح الامقابل شيء تريده ممن تعطيه • وبذلك تجلت فيه أخلاق الزهاد والنساك في الاسلام •

ثم عرضت عليه الحكومــة العربية الموقتــة الافتاء فرياسة مجلس التمييز الشرعي او القضاء او المشيخة الاسلامية، فرفض كل ذلك، وقبل عضوية المعارف في العراق ، كما قبل عضوية المجمع العلمي العــربــي بدمشــق •

كان الالوسي من افراد الرجــال الذين نفعوا قــومهم بارشادهم، وانتفع الناس بتآليفه على الجملة • وتآليفه يكثر نظائرها في المصنفات ولا تحمل ابداعا ، اللهم الا ما عرف فيها من حرية بحثه يوم الرد على من خالفوا الشرع ، ومالوا مع الاهواء السياسية لاصطياد المغانم الدنيئة •

★ ★ ★

(١) الصواب ان يقال : اعتذر من عدم قبوله ، وذلك خطأ شــائــع في الكتابة الدارجة .

- ٤٣ -

مصطفى عبد الرازق *

١٣٠٢ – ١٣٦٦ هـ(١)
١٨٨٥ – ١٩٤٦ م

ولد ببلدة (أبو جرج) من مديرية المنيا بصعيد مصر حوالي سنة ١٨٨٥ م ، وأبوه حسن باشا عبد الرازق ، وجدوده قضاة ولاية البهنسا ويعرف بيتهم ببيت عبد الرازق كما يعرف ببيت القضاة . ووالدته من أسرة الشريعي بسمالوط . تلقى التعليم الاولي في كتّاب بلدته ،وتولى والده توجيه دراسته وتربية استعداده الادبي ، ودرس في الازهر وحضر فيه دروس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ونال شهادة العالمية سنة ١٩٠٨ ، واشتغل على أثر ذلك بالتدريس في الازهر وفي مدرسة القضاء الشرعي سنة واحدة ثم سافر الى باريز سنة ١٩٠٩ فتعلم الفرنسية وحضر دروس الاستاذ ديركهايم في الاجتماع ، ودروسا في الآداب وتاريخها .

---

* ترجمته في الاعلام ١٣١/٨ وفيه وفاته سنة ١٣٦٦ الموافقة لسنة ١٩٤٦ م وفيه أن من كتبه ما يلي : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني (في سيرة الكندي والفارابي) ، الدين والوحي والاسلام ، البهاء زهير (في ترجمته وشعره) ، ومحمد عبده (سيرته) ، مذكرات مسافر ، وساعد بعض المستشرقين على ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمدعبده الى الفرنسية وفي وضع كتاب عن الشيخ محمد عبده بالفرنسية ايضا .

وانظر معجم المؤلفين ٢٤٥/١٢ ، مذكرات محمد كرد علي ٤٥٢/٢ ، فيض الخاطر ٣١٢/٧ .

(١) وفاته في الاصل : سنة ١٣٤٠ وهو مخالف لما جاء في المصادر .

وفي سنة ١٩١١ تحول الى مدينة ليون ليشتغل مع الاستاذ ادوارد لامبير في دراسة أصول الشريعة الاسلامية ، وحضر في جامعة ليون دروس الاستاذ جوبلو في تاريخ الفلسفة ، ودروسا في تاريخ الادب الفرنسي •

وتولى تدريس اللغة العربية في كلية الآداب في ليون فكان مدرسها الذي كان ندب للتدريس في الجامعة المصرية ، ولما نشبت الحرب العامة عاد الى مصر فأسند اليه منصب أمين السر العام للمعاهد الدينية الاسلامية، ثم نقل في سنة ١٩٢١ مفتشا للمحاكم الشرعية ، وفي هذه السنة نقل الى كلية الآداب بالجامعة المصرية أستاذا مساعدا للفلسفة •

هذا ما كتبه لي صاحب الترجمة عندما ضمه المجمع العلمي العربي الى أعضائه المراسلين ثم أصبح أستاذا صاحب كرسي يدرس الفلسفة الاسلامية وتاريخها ، وتظهر للملأ كفاءته ووفرة تحقيقه• وبعدحين تولى وزارة الاوقاف سبع مرات عن حزبه حزب الاحرار الدستوريين فأحسن العمل في نطاق الانظمة ، وما استطاع أن يطبق كل ما كانت ترغب فيه نفسه من التجدد •

واذ فرغ منصب مشيخة الازهر بوفاة العلامة المراغي رأت الحكومة أن توسد المشيخة اليه لعلمها بأنه قمين بادخال الاصلاح على هذه الجامعة لجمعه بين ثقافتين: الاسلامية والغربية فعارض بعض الشيوخ هذا التعيين بدعوى ان ابن عبد الرازق وإن تخرج في الازهر الا أنه لم يدرس فيه خمس عشرة سنة ، ولا يمكن قبوله عضوا بجماعة كبار العلماء ، ومن بين أعضائها يجب أن يختار شيخ الجامع الازهر ، كما هو شرطهم ، وتدريسه في الجامعة المصرية لا يعتبر كتدريس الازهر ، والازهر غير الجامعة • فلم تر الحكومة في نصب مرشحها ، الا أن تعدل القانون ووسدت اليه المشيخة فنزل عن رتبة الباشوية وعن لقب الوزارة ،واكتفى

بلقب الاستاذ الاكبر وشيخ الجامع الازهر•وتنازل عن جزء من إدرارات المشيخة لتصرف في وجوه أخرى • وظل الطامعون في الرئاسة غير راضين عن تقلده لها ، ولم يجدوا للوصول الى أغراضهم الا اهاجة الطلبة فأضربوا عن دروسهم ، فتأثر لما جرى وقضى مقهورا شهيد عزة نفسه •

كان أول تعارفي الى الاستاذ الاكبر في باريز سنة ١٩١٣ وقد جاء فرنسا للتثقف بثقافة الغرب على ما تثقف الثقافة الغربية ، فرأيت فيه الإباء والمروءة والبعد عن العظمة • وتجلى لي أن تربيته الاولى في بيت أبيه الكامل كانت من خير ما يربى عليه ابناء النبلاء ، كان الشيخ محافظا على الشعائر على ما عرف بذلك اهله ، واحتفظ بعمامته وقفطانه وجبته من أول أمره الى آخر عمره لم تبدل المناصب من زيه ، ولا غيرت رتبها من سمته ، ولا استخفته الالقاب العلمية التي أحرزها ، ومجامع العلم التي شارك في خدمتها •

كان مثال الجد والثبات ، صلب العود في الحق ، رقيق الحاشية في عشرة الناس ، محافظاً على القديم ، فاتحاً صدره للحديث من المعارف •

زار الملك فؤاد الاول كلية الآداب في الجامعة المصرية في بعض الايام ودخل القاعة التي كان الاستاذ يلقي درسه فيها فوقف المليك يستمع اليه هنيهة ، والاستاذ يشرح الدرس لطلبته كأنه لم يدخل عليه أحد ، وفي هذه الدقائق تجلت عظمة العلماء وجلال العلم •

كان الاستاذ يجري صدقات على أرباب الستر ، ويعاون البائسين بما يخفف بؤسهم ،ولا يحب أن يطلع أحدا على ما تندى به يده الكريمة• ولما صرف الاستاذ الظواهري شيخ الازهر سبعين عالما من مدرسيه كان

فيهم اصدقاء الاستاذ عبد الرازق فوقف نفسه على خدمتهم ، وما تركهم يحتاجون الى أحد ، ودام على تعهدهم ، حتى رجعوا الى دروسهم ،سار بذلك بسيرة أسرته في إسداء الخير للخير ، وكذلك كان دأب أبيه واخوته .

سألت مرة محاسب كلية الآداب وهو تلميذ من تلاميذ الاستاذ عما اذا كان يحب استاذه حقيقة فأجابني : وكيف لا أحبه وصفاته التي تحببه الى النفوس كثيرة ! ؟ ثم قال : اسمع قصة من قصصه فتعرف أني على حق في إكباري أخلاقه . جاءني ذات صباح يسألني عن عدد الطلبة الذين توقفوا عن أداء الرسوم الجامعية وهم مهددون بالطرد ان لم يوفوا ما عليهم ، فأحصيتهم له فقال : كم يبلغ مجموع المبلغ المطلوب منهم ؟ فقلت كذا . فقال : خذه مني ولا تطالبهم بعدها . واذا سألوك قل لهم ان الجامعة قررت اعفاءهم ، ولا تذكر لهم اسمي بالله عليك . وأذكر أنهم كانوا نحو ثلاثين طالبا . وله من هذا القبيل صدقات ينفق عليها من راتبه ، ومن ملك ورثه من ابيه في بلده من الصعيد .

كانت صلتي بالاستاذ أجمل صلة ، لا رياء فيها ولا وهن . تتناصح وتتباحث الافكار ، وألاحظ عليه أشياء لا أوافقه عليها ، وطالما حثثته على وضع تآليف في الموضوعات التي جود الخوض فيها ، وأردته غير مرة على ان يطبع دروسه في الجامعة لينتفع بها البعيد كما انتفع بها القريب ، فكان يعتذر بما يمليه عليه تواضعه ويقول: ان الطلبة تداولوها منذ ألقيت عليهم وحصل المقصود ، فلا داعي لطبعها على حدة . وأدركت بذلك أن صاحبي لا يهتم بالطبع والنشر اهتمامه بالتعليم والتلقين . شأنه شأن سلفه العلامة المراغي . والقليل الذي طبع له يدل على طريقته في بحث المعضلات، والنظر في تقدير المسائل بقدرها من دون حدة ولا تحامل،

يتلطف في الاداء والعرض ، ويقبل حتى الآراء التي تخالف رأيه برحب صدر واحترام صاحبها •

وبعد خمس سنين من تركه الجامعة بدا له أن يعود الى دروسه فيها فينشرها كما هي بصورتها يوم كتبت من غير تنقيح ولا تعديل ، وفي صياغتها التعليمية التي تراعي حاجة الطلاب الى مراجعة النصوص الكثيرة وحسن التدبر والفهم للاساليب المتفاوتة ، وان لم يخف على ذوق المطالعين جميعا ، ونشرها في مجلد لطيف سماه « التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية » ثم نشر له جزء في الترجمة للكندي والفارابي والمتنبي وابن تيمية وابن الهيثم من حيث النظر الفلسفي • لو كتب له أن يتم هذه التراجم لقرب الحكمة من أذهان من طالما عقّوها ولحببها الى النفوس بأسلوبه الذي جمع فيه بين القديم والحديث على ما جمع شخصه العصامي الى العظامي • ولئن عدّ في التأليف في المقلين فقد كان فيه من المجودين المحققين •

حدث عقبى توليه مشيخة الازهر أن عزت اليه جريدة « الموند » الباريزية حديثا اتخذ منه خصومه آلة للنيل منه • وخلاصته أن فرنسا أحرزت مكانا ممتازا بما بذلته من الجهود الكريمة في نشر الثقافة بين المسلمين • ورجا أن لا تتخلى عن خطتها لتحتفظ بالحب الذي يكنه لها العالم الاسلامي • فقامت صحف مصر والشام تغالي في تزييف رأيه في مدح فرنسا ، واتفق أن أهدته حكومتها في غضون ذلك وسام (جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير) فزاد ذلك في الطين بلة • وأغلب الظن أن الاستاذ الاكبر لم يتعارف الى هذا الوسام ، وما عبأ بتكذيب ما نقل على لسانه من حب المسلمين فرنسا • وكان بعض جماعة كبار العلماء عاملا قويا في إلقاء الاضطرابات في الازهر ليتوسلوا

بها الى زحزحة الشيـــخ عن منصبه . ومنهـــم من كنت أراهم يكثرون الاختلاف الى داره قبل توليه الرياسة بأعوام،ولكن من أعمتهم مصالحهم الشخصية لا يراعون في سبيل الحصول عليها قانون الوفاء والولاء .

نظرت مليا في سيرة صديقي فرأيت علمه عدل أخلاقه ، وهذا من النوادر في هذا العصر . ولو انصرف الى درسه في الجامعة ، وصـــرف أيامه في التأليف والتأديب على ما خص به من ثقوب ذهن وجلد في البحث لزاد الانتفاع بما أنتج أضعافا . ولمّا أخذت السياسة من وقته ما كان الاحرى صَرْفه في خدمة العلم . ومن عانوا السياسة مكرهين أو شبه مكرهين ، وكانوا على قدمه في التهذيب وطهارة النفس ينفعون في العادة غيرهم أكثر مما ينتفعون .

ندر في مصر أمثال بيت عبد الرازق ، يجمع أبناؤه الى السَّرَواة[1] ثقافة عالية ومكارم أخلاق . والاستاذ فرع هذه الشجرة المباركة ، راموز تلك البضاعة الجيدة . رحمه الله .

★ ★ ★

(١) سَرُو (بفتح فضم) : كرم مع شرف .

- ٤٤ -

معروف الرصافي *

١٢٩٤ - ١٣٦٤ هـ
١٨٧٧ - ١٩٤٥ م

كان والد معروف من عشيرة كردية تقطن في نواحي كركوك تسمى الجبارة ، وتدّعي هذه العشيرة أنها علوية النسب ، ويسلم لهـا أهل كردستان بهذه الدعوى . وأمه من عشيرة القراغول ، وهم فيما قيل بطن من شمر النازلين في سهول العراق ، درس في طفولته في كتّاب ببغداد ، وتعلم القرآن ، ثم دخل مدرسة ابتدائية ،وغادرها قبل أن ينال شهادتها ، فتعذر عليه التوظف ، واتصل بالعلامة محمود شكري الآلوسي ، فتتلمذ له ، ولقبه بلقبه « الرصافي » ، ولازمه اثنتي عشرة سنة ، وقرأ علـى الشيخين عباس القصـاب وقاسم القيسي ، وأولـع بدراسة الشواهد وشروحها ، وتذوق ما فيها من بلاغة ، فحفظ منها الشيء الكثير .وكان شيخه الآلوسي يلقبه بالشواهدي ، وشواهد النحو كشواهد البيـان من أمتن الشعر الجاهلي والاسلامي . وقرض الشعر وهو دون السادسة

---

* ترجمته في الاعلام ج ١٨٤/٨ ومعجم المؤلفين ج٣٠٦/١٢ وانظر مقدمة ديوانه ووحي الرسالة ج٢٦/٣ أعلام الادب والفن ١٩٨/٢ ، معجم المطبوعات ٩٣٩ ، تاريخ الادب العربي للفاخوري ١٠٢٩ وتاريخ الشعـر العربي الحديث : ٤٠٠ ، دراسات في الشعر العربي المعاصر:٥٨ ، الرائد: ٧١٦ والترجمة التي اوردها صاحب الاعلام ملخص ترجمته التي تلقاها منه سنة ١٩١٣ .

وألفت حولـه كتب عديـدة منهـا : ادب الرصـافي لمصطفى علي ، ومحاضرات عن معروف الرصافي له ايضا ، ذكرى الرصافي لعبد الحميـد الرشودي ، ومعـروف الرصـافي للدكتـور ابراهيم الكيلاني ، معـروف الرصافي لبدوي طبانة .

عشرة • انضم الى سلك التعليم الابتدائي ، ثم فاز بامتحان المسابقة بين الراغبين في التوظف فعين مدرسا في قضاء مندلي ، ومنها نقل الى تدريس آداب اللغة العربية في المدرسة الاعدادية في بغداد ، وبقي في تدريسها الى اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، واشتهر قبيل هذا العهد بما نشرته له الصحف في العراق والشام ومصر ، ولا سيما في مجلة «المقتبس» وجريدة « المؤيد » ، ينظمه في موضوعات اجتماعية وسياسية ، ولقبته في مقالة لي كتبتها في جريدة « المؤيد » بالشاعر الاجتماعي ، فآخذني حافظ ابراهيم على تلقيبي له بهذا اللقب ، كأنه يريد أن يختص هو به • وكانت مجلة « المقتبس » في القاهرة ثم في دمشق ، ثم جريدة المقتبس مباءة شعره وقمطر أدبه •

ولما ضمن الدستور لأرباب الاقلام في الولايات العربية حرياتهم ، خطا الرصافي خطوة واسعة في منازعه وشعره ، ودخل في حزب الاتحاد والترقي ، واضطر الى أن يساير أصحابه في بعض ما لا ينطبق على الخطة التي سار عليها من قبل ، وبعد أن كان يندب سوء حظ العرب من الاتراك عاد في حزبيته الجديدة يحاول التوفيق بين الترك والعرب ، بل بلغ به التهور الى أن يمدح الترك ويذم العرب ، وأخذ من بيئته في الآستانة وقد أصبح نائبا عن العراق في مجلس النواب يردد أحيانا هذه النغمة التي لم يرض عنها أكثر العرب • قال الاستاذ رضا الشبيبي : انفي القصيدة التي هجا بها أهل الشام هجوا مقذعا للعرب لا يقدم عليه من يجري في عروقه دم عربي ، وكان موقفه من الحركة القومية الاصلاحية في الديار الشامية موقف الخصم الشديد ، لايقل عن موقف تركي معتز بنعرته القومية ، فقد أقذع في الهجاء ، ونسب الى العرب ما نسبه من المساوي والمعايب التي نسبهااليهم الشعوبيون ،بل أعاد ما قاله الشعوبيون في هذا الباب ، وله في هذا الموضوع عدة قصائد أثارت عليه شباب الامة العربية •

وفي رأينا أما ما بدا من تقلقل الرصافي في نزعته القومية يشبه ما يصيب أكثر الشعراء في تلوّنهم ومسايرتهم أهواءهم، وتغييرهم مشاربهم بحسب الزمان . والشعراء في هذا الباب كرجال السياسة ، من الصعب أن تجد واحدا منهم كان في أول عمره ووسطه وآخره نمطا واحدا في الحكم على المسائل العامة ، خصوصا وصاحبنا الرصافي كان يعلق أملا على الدور الجديد ، وتطمع نفسه في أرقى المناصب ، على أنه قد بلغها بتولي النيابة عن أمته ، وبتدريسه في ارقى مدارس دار السلطنة . والغالب أنه كان يطمع في أكثر من ذلك .

قال الرصافي يخاطب المسيحيين (١) :

علام التعادي لاختلاف ديانة
وإن التعادي في الديانة عدوانُ
وماضرَّ لو كان التعاون ديننا
فتَعْمُرَ بلدانٌ وتأْمن قُطّانُ
إذا جمعتنا وحدةٌ وطنيةٌ
فماذا علينا أَن تَعدَّد أديانُ
إذا القومُ عمتهم أمورٌ ثلاثةٌ
لسانٌ وأوطانٌ وبالله إيمانُ
فأيُّ اعتقادٍ مانع من أخوّةٍ
بها قال إنجيلٌ كما قال قرآنُ
كتابان لم ينزلهما الله ربُّنا
على رُسْله إلا ليسعدَ انسانُ

(١) من قصيدة في ديوانه : ١٣١ مطلعها :
أما آن أن تنسى من القوم اضغان
فيبنى على أس المؤاخاة بنيان

فمن قام باسم الدين يدعو مفرّقاً
فدعواه في أصل الديانة بهتانُ
أنشقى بأمر الدين وهو سعادةٌ
إذاً فاتباع الدينِ يا قومُ خسرانُ
ولكنّ جهلَ الجاهلين طَحا بهم
إلى كل قولٍ لم يؤيده برهان [1]
فهاموا بتيهاءِ الأباطيلِ كالذي
تَخَبَّطَهُ من شدةِ المسّ شيطانُ [2]

ومما جاء فيها :

لقد قيل إن الغرب ذو مدنيةٍ
فقلتُ وهل معنى التمدنِ عدُوانُ ؟
وأيُّ فَخارٍ كائن في تمدّنٍ
إذا لم يقم في الغرب للعدل ميزانُ
إذا كانت الأخلاقُ غير شريفةٍ
فماذا عسى تجدي علومٌ وعرفانُ

وقال في الحفلة التي اقيمت لاحمد شوقي في مصر [3] :

إذا احتفلت مصر بشوقي فمالها
تقيم على الأحرار في العلم حاجِرا

---

(١) طحا بهم : ذهب بهم .

(٢) أرض تيهاء : مضلة .

(٣) من قصيدة في ديوانه : ١٣٦ مطلعها :
امارس دهرا من جديدي داهرا — وما زال ليلي بالعراقين ساهرا

فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها
علياً وطه حاصباً متطايرا (١)
فما بالُ هذا عدّ في مصر مارقاً
وما بال هذا عدّ في مصرَ كافرا
إذا لم تكن الأفكار في مصر حرةً
فليس لمصر أن تُكرِّم شاعرا
أيُرفع قدرُ العلم ينطق ناظماً
ويُوضع قدر العلم ينطق ثاثرا
ويُختص بالتبجيل من جاء منشداً
ويقذف بالتجهيل من جاء فاكرا
ألا إن هذا الشعر ليس بطائل
إذا كان عما يبلغ العلمُ قاصرا
كما أن هذا العلم ليس بنافع
إذا لم تكن فيه النفوس حرائرا
وتكريمُ ربِّ الشعر ليس بمفخر
لمن كان عن حرية الفكر جائرا
وإلا فعصر الجاهلية قبلنا
له السبق في تكريم من كان شاعرا

هذه حقيقة خلدها الرصافي • ولانلزم بأن نتعرف الىمايكن ضميره نحو شوقي وشاعريته ، والشعر هو الذي يعنينا على الاكثر •

---

(١) يشير الى ما لاقى صديقاي الاستاذ علي عبد الرازق من اجل كتابه « الاسلام واصول الحكم » ، والدكتور طه حسين بسبب كتابه « الادب الجاهلي » من محنة واضطهاد . (المؤلف) .

وقال في قصيدة عنوانها « حقيقتي السلبية » أبان فيها عن آرائه ومعتقده [1] :

أُحبُّ صراحتي قولاً وفعلاً
وأكره أن أميل إلى الرياءِ
فما خادعتُ من أحدٍ بأمرٍ
ولا أضمرت حسواً في ارتغاء [2]
ولست من الذين يرون خيراً
بإبقاء الحقيقة في الخفاءِ
ولا ممن يرى الأديان قامت
بوحي مُنَزَّلٍ للأنبياءِ
ولكن هنّ وضعٌ وابتداع
من العقلاء أربابِ الدهاءِ
ولست من الأولى وهموا وقالوا
بأن الروح تعرج للسماءِ
لأن الأرض تسبح في فضاء
وما تلك السماء سوى الفضاءِ
ولست من الذين يرون فخراً
لمُفْتَخِرٍ بإهراقِ الدماءِ
ولا ممن قد ارتبطوا بماضٍ
فعاشوا ينظرون الى الوراءِ

---

(١) هذه قصيدة كاملة جاءت في ديوانه : ١٨٩ .
(٢) الحسو : الجرعة والارتفاء : الاحتساء . وفي المثل: اسرّ حسواً في ارتفاء . لمن يظهر شيئا ويريد غيره .

ولا ممن يرى للناس حكماً
سوى الحكام أربابِ القضاءِ
ولا ممن تودَّدَ في حضورٍ
وعند الغيب جاهَرَ بالعِداءِ
ولا ممن يرى الأنساب مما
يمت به الأنام الى العَلاءِ
ولا ممن إذا وُبِئوا استعاذوا
بتمتمة الدعاء من الوباءِ
ولا من معشر صلّوا وصاموا
لما وعدوه من حسن الجزاء
ولا ممن يرون الله يَجزي
على الصلوات بالحور الوِضاءِ
ولا ممن يرى الأشياء تفنى
بحيث تكون من عَدَمٍ هواءِ
ولكن هنّ في جمع وفرقٍ
تبدَّلُ منهما صُوَرُ البقاءِ
ولست من الذين يرون فضلاً
كبيراً للرجال على النساءِ
ولكن دالت الأيام حتى
تهادن هؤلاء بهؤلاء

ويزيد الشاعر اجادة في الموضوعات التي تأخذ من قلبه بعض الشيء كقصيدته « أنا والشعر » [1] :

---

(١) مطلع قصيدة في ديوانه : ١٩٦ بهذا العنوان .

أرى الشعر أحياناً يجيش بخاطري
ويبذل ما قد عزّ لي من مصونِهِ
ويسكن أحياناً فأشجو وإنما
تَحَرَّكُ شَجوي ناشىءٌ من سكونِهِ
وقد أتوخى الهزل منه مجارياً
لدهرٍ أراه موغلاً في مجونِهِ
ولكن نفسي وهي نفس حزينة
تميل إلى المشجي لها من حزينهِ

* * *

لعمرك إن الشعر صمصام حكمة
وإن النُّهى معدودةٌ من قيونِهِ (١)
اذا جنني ليل الشكوك سللته
عليه ففرّاه بفجر يقينه
وما الشعر إلا مؤنسي عند وحشتي
ومُسْلي فؤادي عند وَرْيِ شجونِهِ
تقوم مقام الدمع لي نفثاته
إذا الدهر أبكاني بريب منونه

* * *

والشعر عين لو نظرت بنورها
إلى الغيب لاستشففت ما في بطونه
وأذن لو استصغيتها نحو كاتم
سمعت بها منه حديث قرونِهِ

(١) النهى : ج نهية ، وهي العقل .

ومما قال في الحرية(1) :

إذا لم يعش حـراً بموطنـه الفتـى
فَسَمِّ الفتى ميتاً ومَوْطِنَه قَبْرا
أحريتـي إني اتّخَـذْتُكِ قِبْلَةً
أُوَجِّهُ وجهي كل يـوم لها عَشْرا
وأَمْسِكُ منها الركنَ مستسلماً لـه
وفي ركنها استبدلت بالحَجَرِ الحِجْرا
إذا كنتُ في قَفْرٍ تَخِذْتُكِ مُؤْنساً
وإن كنتُ في ليل جعلتك لي بَدْرا
وإن نابني خَطْبٌ ضَمَمْتُكِ لائماً
فقبَّلتُ منكِ الصَّدْرَ والنَّحْرَ والثغْرا
وإن لامني قـومٌ عليـكِ فإنـني
لَمُلْتَمِسٌ للقومِ في جهلهم عُذْرا

وقال في الوطن (2) :

ألا إنمـا حريـة العيـش غـادةٌ
مُنى كل نفس وَصْلُهـا ووفودهـا
يضـيء دُجُنّـات الحياة جبينُهـا
وتبدو المعالي حيث أتلع جِيْدُها (3)

---

(1) من قصيدة في ديوانه : ٥٠ عنوانها (في سبيل حرية الفكر) مطلعها :
كتبت لنفسي عهد تحريرها شعرا   واشهدت فيما قدكتبت لها الدهرا
(2) من قصيدة في ديوانه : ١٠٣ عنوانها (تنبيه النيام) مطلعها :
اما آن أن يغشى البلاد سعودها   ويذهب عن هذي النيام هجودها
(3) أتلع عنقه : مده متطاولا .

لقد واصلت قوماً وخلّت وراءهـا
أناسـاً تمنى الموت لولا وعودوهـا
وقد مرضت أرواحنا في انتظارهـا
فمـا ضرّها ــ والهفتـا ــ لو تعودها

وذكر فضل شهر تموز في حرية الشعوب وما وقع للعرب فيهفقال[1] :

وإن تمـوز شهر قـام فيـه لنـا
على اليفـاع لـواء العز مركـوزا
في شهر تمـوز صادفنا لمـا وعـدت
بيض الصـوارم بالدسـتور تنجيـزا
هي المسـاواة عمتنـا فمـا تركـت
فضـلاً لبعض على بعض وتمييـزا
أمسـت لنـا قسـمة بالملك عادلـة
حكماً وكانت على عِلاّتهـا ضِيْزى
كنا من الجَوْر عُمياناً وليس لنـا
من قائـدين ولـم نملك عكـاكيزا
حتى نهضنا إلـى العليـاء تقدُمُنا
عصابةٌ بَـرَّزت في المجـد تبريـزا

وقصائده المطولات كمقاطيعه تنطوي على تعليم وحكمة ، ويقلّ غزله ونسيبه ، والاجادة كلها في اجتماعياته ، ولاسيما في النصف الاول من حياته أيام كان بعيدا عن رجال السياسة التركية ، غير مضطر الـى مصانعة رجال جمعية الاتحاد والترقي وقد أبدع في قصائده : « المرأة

(١) من قصيدة في ديوانه : ٣٨٨ بعنوان (تموز الحرية) مطلعها :
اذا انقضى مارْتُ فأكسر خلفه الكوزا   واحفل بتموز إن أدركت تمـوزا

في الشرق » [1] ، و « التربية والامهات » [2] ، و « هكذا » [3] ، « في ليلة نابغية » [4] ، « الحق والقوة » [5] .

ومن سياسياته من قصيدة [6] :

آهاً فآهاً على ما كان من شرفٍ
لليَعْرُبيّين قد ألوى به القِدَمُ
أيامَ كانوا وشملُ المجد مجتمعٌ
والشعبُ ملتئم والمُلكُ منتظمُ
كانوا أجلَّ الورى عِزّاً ومقدرةً
إذا الخطوبُ بحَبْلِ البَغي تَحْتَزِمُ

---

(١) مطلعها :

ألا ما لاهل الشرق في بُرَحاءِ ... يعيشون في ذلٍ به وشقاءِ

ديوانه : ٣٤٢ .

(٢) مطلعها :

هي الاخلاق تنبت كالنبات ... اذا سقيت بماء المكرمات

ديوانه : ٣٤٩ .

(٣) مطلعها :

أصبحت أوسعهم لوما وتثريبا ... لما امتطوا غارب الافراط مركوبا

ديوانه : ٤٠٢ .

(٤) مطلعها :

خاض الدجى وظلام الليل مختلف ... صوت به الوجه مثل السيف مخترط

ديوانه : ٤٠٥ .

(٥) مطلعها :

ارى الحق لم يغش البلاد وانما ... مشى ضاربا في الارض تلفظه الطرق

ديوانه : ٤١٣ .

(٦) في ديوانه : ٣٩٩ مطلعها :

هي المنى كثغور الغيد تبتسم ... اذا تطربها الصمصامة الخذم

وأَرْبَطُ الناسِ جأشاً في مواقفه
من شدة الرُّعب فيها ترجف اللِّمَمُ
على الحصَافة قد لِيثَتْ عمائمُهم
وبالحزَامة شُدَّتْ منهمُ الحُزُمُ
قضَوا أعاريبَ أقحاحاً وأعقبَهم
خلَفٌ هم اليومَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ
جارَ الزمان عليهم في تقلُّبه
حتى تبدلتِ الأخلاقُ والشِّيَمُ
دب التباغض في أحشائهم مَرَضاً
به انبرتْ أعظُمٌ منهم وجَفَّ دَمُ
فأصبح الذلُّ يمشي بين أَظْهُرهم
مَشْيَ الأمير وهم من حوله خدَمُ

ومن سياسياته (١) :

مَنْ مُبلغُ القومَ أن المصلحين لهم
أمسوا كمن لَبِسَ الجلبابَ مقلوبا (٢)
ما بالهم وطريق الحق واضحةٌ
لا يسلكون الى الإصلاح ملحوبا (٣)
أفي مصالح دنياهم وهم عربٌ
جاؤوا على حسب الأديان ترتيبا

(١) من قصيدة في ديوانه : ٤٠٢ عنوانها (ما هكذا) مطلعها :
اصبحت أوسعهم لوما وتثريبا لما امتطوا غارب الافراط مركوبا
(٢) أي أصبحوا اضحوكة ومشارا للسخرية .
(٣) الطريق اللاحب والملحوب : الواضح .

ماضرّهم لو نَحَـوا في الأمر جامعةً
تنفـي الكنـائس عنهـا والمحاريبـا
لكنهـم أمـة تأبـى مشـاربهـم
إلا التعصبَ للأديـان مشروبـا
قد حَوّلوا الحـق واشتطوا بمطلبـه
حتى بـدا وجهه كالليـل غربيبـا (١)
قد يطلب الحـق طَيّاشٌ فيبطلـه
ما كلُّ طالبِ حـقٍ نـال مطلوبـا

. . .

قل للأولى نطقـوا بالضاد مدّغمـاً
لم يدغـم الضاد آباء لكم فرَطوا (٢)
أَيَحْسُن اللحنُ إذ آباؤكم فصَحوا
أم يَحْسُن العجز إذ آباؤكم نشِطوا
فيكـم غلـوٌّ وتقصيـرٌ وبينهمـا
ضاع المـراد أأنتـم أمـةٌ وَسَطُ
إني ابتُليت بقـوم يَبْعَـرون على
أعقابهـم واذا عنفْتُهـم ثَلَطوا (٣)
شطّوا بأقوالهم حتى لقـد غضبوا
إذ قلتُ يا قومُ في أقوالكم شَطَطُ

---

(١) الغربيب : الاسود .
(٢) هذه الابيات من القصيدة التي عنوانها (في ليلة نابغية) وردت في ديوانه : ٤٠٥ مطلعها :
خاض الدجى وظلام الليل مختلف صوت به الوجد مثل السيف مخترط
(٣) يبعرون : يرمون برازهم بعرا ، ثلط :سلح سلحاً رقيقا. والمراد انه اذا أنبهم لخطأ صغير فعلوا ما هو أكبر منه .

فبدّلوا القولَ إن صحتْ عزائمكم
فِعْلاً وإلا فإني يائس قَنِطُ
قد حرتُ في الأمر إني حين أُسخطهم
يرضون عني وان أرضيتهم سَخِطوا
فاز الذي كان في أحواله وَسَطاً
فالمرءُ يُعقَى وإن الحلوَ يُسْتَرَطُ (١)
قل للأعاريب قد هانت مكارمكم
حتى ادّعَاها أناس كلهم نَبَط (٢)
برئت للعرب العرباء من فئة
يُنمون للعرب إلا أنهم سَقَطُ
إن المكارم ان هم أصبحوا عرباً
فإنها في طباع العرب تُشْتَرَطُ
إن يغمطوني لأني جئت أنهضهم
فأي مستنهضٍ ذي نجدة غمطوا
هم كالضفادع فاسمعهم إذا رَطَنوا
فما هنالك إلا اللغو والغلطُ (٣)

* * *

وقال (٤) :

لهفي على العرب أمست من جمودهم
حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر

---

(١) يعقى : يكره ، يسترط : يبتلع .
(٢) النبط : جيل من الاعاجم ، ويستعمل لاخلاط الناس وعوامهم .
(٣) رطن : تكلم بالاعجمية .
(٤) من قصيدة في ديوانه : ٦٤ عنوانها (سياسة لا حماسة)مطلعها:
الشعر مفتقر مني لمبتكر ولست للشعر في حال بمفتقر

أين الجحاجح ممن ينتمون إلى
ذؤابة الشرف الوضاح من مُضَرِ [(١)]
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر
ولا كرامة لولا الشمسُ للقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عَقِباً
ناموا عن الأمر تفويضاً الى القدر [(٢)]
أقول والبرق يسري في مراقدهم
يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

• • •

ومن قصيدة « الحق والقوة » [(٣)] :

يقولون إن الحق في الخلق قوة
تَذِلُّ لها الأعناق قَهْراً وتَنْدَقُّ
فما باله يمسي ويصبح شاكياً
ولا يتحاشى عن ظُلامته الخَلْقُ
إلى الله نشكو الأمر من مدنيةٍ
تعارَضَ في أوصافها الكِذْبُ والصِّدْقُ
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تَدّعي
بأشياء من بُطلانها ضَحِكَ الحقُّ
فهم منعوا رِقّ الأسير وإنما
أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرِّقُ

(١) الجحاجح : السادة .
(٢) الاصل : عن القدر .
(٣) ديوانه : ٤١٣ .

ومن قصيدة (١) :

لا خيـر في وطن يكـون السيف عنـ
ـد جبانه والمـالُ عنـد بَخيلِـهِ
والرأيُ عنـد طريـده والعلـمُ عنـ
ـد غريبـه والحكـم عند دخيلـهِ
وقـد اسـتبد قليلـه بكثيـره
ظلمـاً وآل كثيـره لقليلـهِ
إنـي اذا جَـدَّ المقـالُ بمـوقفٍ
فضَّلتُ مُجْمَلـه على تفصيلـهِ

وقـال (٢) :

لادَرَّ دَرُّ رجـال الديـن إنهـم
قد أظهـروا فيه منهم غير ما كتموا (٣)
واستعملوه كمـا تهـوى مآربهـم
كأنـه ليـس إلا آلـةً لهـمُ
تالله ما كـان في الإسـلام من حَرَجٍ
على الأنـام ولا في نهجه غَمَمُ (٤)
بل كلـه جـاء تيسيـراً وتبصـرة
للعـاملين وأحكامـاً بهـا حِكَمُ

(١) في ديوانه : ٤٣٣ عنوانها (تجاه الريحاني) مطلعها :
ان العـراق بعـرضـه وبطولـه وبرافـديـه وباسقـات نخيلـه
يهتـز مبتهجـا بمقـدم ضيفـه ويبـشُّ مبتسمـا بوجـه نزيله
(٢) من قصيدة في ديوانه : ٤٤٥ عنوانها (السجايا فوق العلم) مطلعها:
علـم يعـززه من دولـة علم في كل عصر به قد سادت الامم
(٣) هذه رواية الديوان ، وفي الاصل : أجل أردت رجال الدين انهم .
(٤) الغمم : إسبال الشعر حتى يضيق الوجه والقفا ، والمراد هنا ضيق الطريق .

لكنما القوم ظلوا جامدين على
ما منه قد وهموه بئس ما وهموا
إذا سلكتَ الى الإصلاح مسلكه
فأنت في رأيهم بالكفر مُتَّهَمُ
وإن تصادمتَ بالعادات تُنكِرُها
فأنت في زعمهم بالدين تصطدمُ
وإن أتيتَ ببرهانٍ فأعجَزَهُمْ
لم يُحسنوا الردَّ بل من عجزهم شتموا
وإن تقل لهمُ قولاً لِتُقْنِعهُمْ
شَدّوا عليك وردّوا قَبْلَما فهموا
خلائقٌ كظلام الليل مَنْ يَرَها
يقلْ بأمثالِ هذي تُمْسَخُ الأممُ

• • •

وفي مطلع قصيدة « حكومة الانتداب » (١) :

أنا بالحكومة والسياسة أَعْرَفُ
أَأُلامُ في تفنيدها وأُعَنَّفُ
سأقول فيها ما أقول ولم أخف
من أن يقولوا شاعر متطرف
هذي حكومتنا وكل شموخها
كَذِبٌ وكلُّ صَنيعها مُتَكَلفُ
غشت مظاهرها ومُوِّهَ وجهها
فجميع ما فيها بَهارِجُ زُيَّفُ (٢)

---

(١) ديوانه : ٤٦١ .
(٢) الاصل : غشت ظواهرها .

وجهـان فيهـا : باطـن متسـتـر
للأجنبـي وظـاهـر متكشّفُ
والبـاطن المسـتور فيـه تحكـم
والظـاهر المكشـوف فيـه تصلّفُ
عَلَـم ودستور ومجلسُ أمـةٍ
كـلٌ عن المعنـى الصحيح محرّفُ
أسماء ليس لنـا سـوى ألفاظهـا
أمـا معانيهـا فليسـت تُعـرَفُ

* * *

ومن قصيدة (١) :

أيا زعماء الغـرب هل من دِلالـةٍ
لديكم على غير الخديعـة والكـذبِ
تقولـون إن العصـرَ عصرُ تمـدنٍ
أمن ذلكم قتل النفوس بـلا ذنبِ
ألم تبصروا القتلى تمـج دماءَهـا
على الأرض والجرحى يئنون في الحربِ
أفي الحق أم في العلـم أن لا يسوءكم
ويخجلكم شـن الإغـارة للغصـب
وهل أغلقت هذي العلوم قلوبكـم
بأغطية قُدّتْ من الحجر الصلـبِ
كذبتـم فـإن العصر عصـر مطـامع
تُقَدّ اها الأوداجُ بالصارمِ العَضبِ

(١) في ديوانه : ٤٧٨ عنوانها (الى الحرب) مطلعها :
الاانهض وشمرايهاالشرق للحرب وقبل غرار السيفواسل هوىالكتب

وقال من أخرى [1] :

يقولـون إن العصـر عصر تمـدنٍ
فما باله أمسى عن الحـق مُزْوَرّا
الى الله أشكو في الـورى جاهليـةً
يعـدون فيهـا مـن تمدنهـم عصرا
أتتنا بثـوب العلـم تمشي تبختُـراً
إلى الخيـر لكن قـد تأبطت الشرّا
فـلا تلتـظ فـي مدحهـا متمطّقـاً
فإن أظهرتْ حلواً فقد أبطنت مُرّا [2]

* * *

وقال في قصيدته « مظاهر التعصب في عصر المدنية » وقد ألقـى الجنرال غورو المفوض السامي الفرنسي في سورية خطاباً افتخـر فيـه بأجداده الذين أوقدوا جذوة الحروب الصليبية [3] :

وقُلت عن الإفرنجِ قومِكَ إنهـم
لأَبطالُ هاتيـكَ المعاركِ أَنسـالُ
فحركتَ حزنـاً كان في الشرق ساكنـاً
وجددتَ عهداً منه في الشرق أوجـال
أسأت إلينـا بالذي قـد ذكرتـه
من الأمر فاستاءت عصورٌ وأجيالُ

(١)في ديوانه : ٤٨٢ عنوانها (في طرابلس) مطلعها :
هو النصر معقود برايتنا الحمرا — على انه في الحرب آيتنا الكبرى
(٢) التلمظ والالتماظ :تتبع الطعم والتذوق ، والتمطق :ان يصوت الآكل باللسان عند استطابته المأكول .
(٣) مطلع القصيدة في الديوان ٤٣١ :
رويدك غورو أيهذا الجنيرال — فقد آلمتنا من خطابك اقوال

ذكرتَ من الحرب الصليبية التي
بها اليومَ قد تَمَّت لقومك آمالُ
وتلك لعمري قرحةٌ قد نكأتها
بما قلتَه فاهتاج بالشرق بلبالُ [1]

وقال يصف جرائد الآستانة في عهده [2] :

ولم يكفها هذا الخلاف وإنما
أطافت بنقص للحقيقة زائدِ [3]
فما بين مكذوب عليه وكاذبٍ
وما بين مجحودٍ عليه وجاحدِ
ترى في فَروقَ اليوم قراء صُحْفِها
فريقين من ذي حُجة ومعاندِ [4]
جدال على مر الجديدين دائمٍ
بتفنيد رأيٍ أو بتزييفِ ناقدِ [5]

وقال فيها :

ولم أر شيئاً كالجرائد عندهم
مبادئه منقوضة بالمقاصد [6]

---

(١) البلبال : الخاطر .
(٢) من قصيدة في ديوانه ٢٢٥ عنوانها (الجرائد) مطلعها :
اذا شئت ان تسري بكافرة الصوى
يدوي بقطريها هزيم الرواعد
(٣) الاصل : لم يكفها .
(٤) فروق (بفتح الفاء) من اسماء القسطنطينية .
(٥) الاصل : او بتنقيد ناقد .
(٦) في الاصل المخطوط : مبادئها ...

يقولون نحن المصلحون ولم أجد
لهم في المجال القول غير المفاسدِ
وكيف يبين الحق من نقثاتهم
وكلٌّ له في الحق نفثة ماردِ

* * *

ومن مقطّعاته [1] :

لُقِّنت في عصر الشباب حقائقاً
في الدين تقصر دونها الأفهامُ
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه
فإذا الحقائق كلها أوهامُ

* * *

لا يخدعَنْك هتاف القوم بالوطنِ
فالقومُ في السر غير القوم في العلن [2]
أحبولة الدين رَكَّتْ من تَقادُمها
فاعتاض عنها الورى أحبولة الوطن

* * *

وَطّنْ حياتَك للمكاره وارتقبْ
كَدَرَ الموارد إن صفا لك مَشْرَبُ [3]
كلُّ الأماكن للأذاة مَظِنَّةٌ
حتى السماءُ تدِب فيها العقربُ

* * *

(١) ديوانه : ٥٠١ .
(٢) مطلع مقطعة من خمسة ابيات في ديوانه : ٥٠٧ .
(٣) مقطعة في ديوانه : ٥٠٧ .

أرى أغنيـــاء الناس كالعُمي لم يـــروا
شـــقاء بني غَبْراء من كـــل بائس (١)
كأن الغنى والفقر نور وحِنْـــدِس
ولم يرَ مَنْ في النور مَنْ في الحنادسِ (٢)

• • •

ما أقبح الجهلَ يُبدي عيب صاحبــه
للناظرين وعـــن عينيـــه يُخفيـــه (٣)
كـــذلك الثـــوم لـــم يشممـــه آكلـــه
والنـــاس تشتـــمّ نتن الريح من فيـــه

• • •

وتقع له في معظم قصائده أبيات فيها حكمة وعظة وتعليم :

مَنْ ليس يُبكيـــه من أبناء جلدتـــه
بكاؤهم فهو من جنس التماسيحِ (٤)

• • •

وما العلم إلا النور يجلو دجـــى العمى
ولكن تَزيغ العين عند انكســـاره (٥)

• • •

(١) ديوانه : ٥١٣ بعنوان (الاغنياء والفقراء) .
(٢) الحندس : الظلام الشديد .
(٣) ديوانه : ٥١٤ بعنوان (الجهل فضاح) .
(٤) من قصيدة في ديوانه :٢١٣ عنوانها (من ويلات الحرب)مطلعها:
مرت تقول الا يا رب خذ روحي كي أستريح بموتي من تباريحي
(٥) من قصيدة في ديوانه : ٣٦ عنوانها (معترك الحياة) مطلعها :
هو الدهر لم يترك مشن غواره على سابق من ليله او نهاره
وهذه رواية الديوان ، وفي الاصل المخطوط : ولكن تزوغ . . .

فما فاسد الأخــلاق بالعلم مفلحــاً
وإن كان بحراً زاخــراً من بحــاره

• • •

وما كان كذب القوم في القول وحده
ولكنــه في كتبهــم والمهـــارق (١)
وأقبحُ مَيْنٍ في الزمــان خرافــةٌ
تخط بها طِرســاً يراعــة نامــق (٢)
ضــلال على مــر الجديدين لم تزل
مغاربنــا مــن أمــره كالمشـــارق

• • •

نهيتك عن هواكِ فمــا انتهيــتِ
ولكن قــد فعلــت كما اشتهيتِ (٣)
فيا نفسي عــن الشهــوات كفــي
فأنــتِ عليــكِ يا نفسي جنيــتِ
ومــا أمّــارة بالســوء يومــاً
ســعت في المنكرات كمــا سعيــتِ

• • •

(١) من قصيدة في ديوانه : ٤٧ عنوانها (الدهر والحقيقة) مطلعها :
أوى الدهر لايألــو بستر الحقائــق
اذا افتــر عــن صبــح تلاه بغــاسق

والمهارق : الصحف تتخــذ من حرير ابيــض مصمغ مصقول تكتب عليها الكتب المخلدة كالمعاهدات ونحوها .

(٢) المين : الكذب ، ونمق الكتاب : زينه .

(٣) مطلع مقطعة من خمسة ابيات في ديوانه : ٥٤٢ .

وقد اعترف لي ذات يوم أنه أسرف على نفسه في الآستانة خلال أربع سنين ما كان عليه ان يأتيه في اربعين سنة .

ومما خاطب به المسيحيين [1] :

ألستم من القوم الذين علاؤهم
تقاعس عنه الدهر وانحط كيوانُ [2]
نَمَتْكم إلى المجد المؤثَّل تَغْلِبُ
كما قد نَمَتْكم للمكارم غَسّانُ
فلا تُنكروا عهد الإخاء وقد أتت
تصافحكم فيه نزار وعدنان [3]

* * *

نشر الرصافي دروسه في علم الادب ، ووضع في أخريات أيامه رسائل التعليقات دعا فيها الى التصوف ، بل الى أبعد من التصوف . دعا فيها الى وحدة الوجود ، وادعى أنه هو مذهب أرباب الافكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة . ولا شك أن معروفا كان في صدر حياته متشبعا بمذهب السلف ، المذهب الذي دعا اليه أستاذه الالوسي ، وفيه ينظر الى الشريعة بعيون أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية ، لا بعيون المبتدعين بما ليس في شيء من الدين ، بعد أن كان يقول عن

(١) من قصيدة في ديوانه : ١٣١ عنوانها (في سبيل الوطن ، الى اخواننا المسيحيين) مطلعها :

أما آن أن تنسى من القوم اضغان
فيبنى على أس المؤاخاة بنيان

وانظر ما ورد ايضا ص ٢ .

(٢) كيوان : اسم كوكب زحل بالفارسية .

(٣) في الديوان : لا تنكرا . وما أثبتناه من الاصل المخطوط اقرب الي الصواب .

قومه في العراق [1] :

يُرَجّون من أهل القبور رجاءَهم
ومن يحمل الدبوسَ أو يضرب الدفّا

أصبح يقول بالشعوذات الصوفية ، ولكن لم يجد أنصارا يعتضد بهم ، وكان أنصاره فقط ممن انغمسوا قبله بهذه الترهات والاباطيل ، ولذلك حق لنا القول : ان الرصافي لم يفلح في الدعوة الى التصوف ،كما أنّ الزهاوي لم يفلح في دعواه [الى] الفلسفة .

جرفته امواج السياسة المتلاطمة بعد اعلان الدستور العثماني كما قال ، وحالت بينه وبين معالجة الموضوعات الاجتماعية وغيرها مما كان يعالجه من قبل ، وبدا التلون في سياسته مع العرب وفي سياسته مع الترك ، وانتخب مرات عضوا في مجلس النواب العثماني عن بغداد ، وعضواً في الندوة العراقية بعد انفصال العراق عن الدولة العثمانية ، ودخلت عليه أموال بددها ، فاشتد به العوز حتى اضطر الى الرحيل الى لبنان ثم الى القدس .

وقال قصيدة من المطولات ، كلها أنين وحزن ومنها [2] :

ويل لبغداد مما سوف تذكره
عني وعنها الليالي في الدواوين

(١) اخر بيت من قصيدته (بعد الدستور) في ديوانه : ١١٣ ويشير في هذا البيت الى قوم تركوا النصوص الشرعية الداعية الى السعي والاعتماد على النفس ، ولجؤوا الى الاموات أو الى من يحملون الدبابيس ويضربون الدفوف والمزاهر .

(٢) من قصيدة في ديوانه : ٤٢٦ : عنوانها (بعد النزوح) مطلعها :
هي المواطن أدنيها وتقصيني   مثل الحوادث أبلوها وتبليني

لقد سقيتُ بفيض الدمع أَرْبُعهَا
علـى جوانب وادٍ ليس يسقيني
ما كنت أحسب أني مذ بكيت بها
قومي بكيت على مَنْ سوف يبكيني

ومنها :

أفي المروءة أن يعتز جاهلها
وأن أكون بها في قبضة الهُونِ
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم
وأن أُسام بعيشي جَدْع عِرْنين[1]
تالله ما كان هذا قطُّ من شِيَمي
ولا الحياةُ على النكراء من ديني
ولست أبذل عرضي كي أعيش به
ولو تأدّمتُ زَقّوماً بغسلينِ[2]

. . .

ما كنت أحسب بغداداً تُحَلِّئُني
عن ماء دجلتها يوماً وتُظْميني[3]
تالله ما ضاع حقي هكذا أبداً
لو كنت من عَجَمٍ صُهْبِ العَثانينِ[4]

---

(١) العرنين : الانف ، وجدعه : قطعه .
(٢) تأدم : اتخذ الإدام ، والزقوم : شجرة يطعم منها أهل النار ، والغسلين : ما يسيل من اجسام اهل النار من صديد ونحوه .
(٣) تحلئني : تمنعني وتطردني .
(٤) العثنون : اللحية ، أو ما نبت على الذقن وتحته ، والصهَب (بفتح الصاد والهاء) حمرة أو شقرة في الشعر .

علام أمكث في بغداد مصطبراً
على الضراعة في بحبوحة الهون
لأجعلنّ إلى بيروت منتسبي
لعل بيروت بعد اليوم تهديني
خابت ببغداد آمال أؤملها
فهل تخيب إذا استذرت بصنّين (١)

وفي هذه الفترة من حياته احتاج الى نجدة بعض أرباب الاريحية في الشام ، واحتاج الى امثالهم في العراق فتقدموا وربطوا له رواتب من صناديقهم الخاصة ، وهو بذلك قد يضطره تطلب بَسْط الايدي بالعطاء الى المبالغة في مديحهم ، واختلاق صفات ليست لهم .

أرسل اليّ في آخر أيامه قصيدة في مدحي قال انها وجدها بينا كان يفتش أوراقه . والقصيدة نظمها أيام كان شابا يراسل « المقتبس » فأعدتها اليه شاكرا وقلت له في الاعتذار : أنا لا أحب أن أُمدح ، واذا كان لي صفات قليلة تخولني المديح فمديحي يحوم حول دوري الاخير بأعمالي العلمية ، فساءه هذا وشكاني الى صديقه وصديقي العلامة طه الراوي ، فأعطاني الحق دونه ولامه على اهماله ، ولو كان يتوقع مني فائدة لكانت لي في ديوانه قصائد . أما أنا فكنت أثني [على] (٢) الشعراء وأنشطهم حتى يأتوا من شعرهم ما ينسينا شعراء الإسفاف والمناسبات ، وليحصروه في نطاق تستفيد منه الامة كما استفادت من

(١) صنين : اسم جبل في لبنان .
(٢) ليست في الاصل ، وزدناها لتستقيم العبارة ، وكان المؤلف قد وضعها بدلا من عبارة (امدح) ولكنه سها على ما يبدو عن كتابة كلمة (على) .

شعر معروف وشعر الزهاوي وشعر حافظ وشوقي والبارودي ومطران وصبري •

قيل : إن للرصافي أشعارا بذيئة في المجون برز فيها على ابن الحجاج [1] وغيره من شعراء الخلاعة الاقدمين ، وقد طرحه ولم يدونه فأحسن ، لانه يضر بالعقول والتربية ، وهو الذي نادى طول حياته باستعمال العقل وتحسين الملكات • وربما كان مما قاله في ثورة الشباب فتحامى نشره لما قدّر مضرّته • واذا كان الرصافي جرؤ على استعمال حريته في الحكم على الاديان وعلى النظم الاجتماعية والسياسة ، فإنه لا يملك حرية افساد الاخلاق ، وتحبيب المجون الى الناس ، وهم غير محتاجين الى شعره في هذا الباب •

الرصافي أجاد كل الإجادة في تنوع موضوعات شعره لولا هذه الاماديح التي دار عليها موضوع الشعر العربي منذ عرف ، وشعره سهل جزل تتشربه حتى نفوس من لم يدرسوا الادب كثيرا • وهو في شعره يسير مع أكبر الشعراء ان لم يفقهم ، وكأنه في شعره ينثر ، وان كان في نثره وكتابته دون شعره •وعهدي طويل بما نشر الرصافي من أدبه في النثر ، فلذلك لا يستقيم حكمي عليه في هذا المعنى • أما شعره فقد كان رجال الادب يُجمعون على جزالته وسلاسته ، وما يتدفق منه من الافكار الصائبة في الاصلاح وانارة العقول وتربية الوطنية •

★ ★ ★

---

(١) هو حسين بن احمد ... بن الحجاج ، شاعر فحل ، أمير الفحش ، يضرب به المثل في السخف والمداعبة والاهاجي ، وهو من كتاب العصر البويهي ، توفي سنة ٣٩١ هـ ، ١٠٠١ م •

- ٤٥ -

يعقوب صروف *

١٢٦٨ - ١٣٤٦ هـ
١٨٥٢ - ١٩٢٧ م

بعد فتنة سنة ١٨٦٠ في الشام قويت عزيمة أصحاب الارساليات الدينية في الغرب على نشر مذاهبها في هذه الديار، وتنافس دعاة الكثلكة مع دعاة البرتستانتية، فأسسوا مدارس مختلفة الصبغات والدرجات في الساحل الشامي، ولا سيما في جبل لبنان، وجعلوا بيروت ميدان المنافسات المذهبية، فاستفاد السياسيون اللبنانيون من ذلك ثقافة جديدة، وأحكموا من اللغات الغربية الفرنسية والانكليزية. ومن أعظم المدارس التي كان لها الاثر العظيم في هذه النهضة الجديدة كلية الاميركان في بيروت، وهي التي دعيت بعدُ الجامعة الاميركية الإنجيلية، فإنها، الى عنايتها بنشر البرتستانتية، عنيت أيضا بالعلوم والآداب، وعلّمت لاول نشأتها العلوم بالعربية، فتخرجت فيها طائفة من

---

* نشرت هذه الترجمة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٢٧ ص ٣ وترجمته في الاعلام ٢٦٦/٩، معجم المؤلفين ٢٥٦/١٣، أعلام الصحافة العربية ص ٩١ لابراهيم عبده، معجم المطبوعات: ١٢٠٦، تاريخ الادب العربي للفاخوري: ١١٢٥، رجال عرفتهم: ١١٥. ونقل الزركلي في الاعلام عن جريدة «أخبار اليوم» المصرية انه اول من دعا الى الاشتراكية في مصر، وأول من شرحها للناس، وطالب الجماهير والحكومات بالاخذ بها. وجوه شرقية وغربية: ١١٥، مرآة العصر ٤٤٥.

وهو يعقوب بن نقولا صروف الدمشقي الاصل، الحموي المنبت.

الشبان الأذكيـاء ، كان بعضهم فخـرا للشام ، ومن جملتهم يعقـوب صروف .

ولد هذا العالم يوم١٨ تموز سنة ١٨٥٢ (مات يوم ٩تموز ١٩٢٧م) في قرية الحَدَث (١) من أبوين فقيرين . قيـل إن جده كان من أصـل رومي ، وأن الدم العربي قليل في دمه . ولما ترعرع تلقى مبادىء العلوم في مدرسة سوق الغرب البرتستانتية (٢) ، ثم انتقل الى مدرسة عبيـة الاميركية . وكفله الاميركان وأخذوا بيده ، فظهر ذكاؤه واجتهاده ،ونال شهادة بكالوريوس علوم من الكلية الاميركية في بيروت في سنة ١٨٧٠ ودرّس بعـد ذلك سنتين في مدرستـي صيدا وطرابلس الاميركيتين ، وبعدها دعته الكلية الاميركية الى تعليم البيان العربي والعلوم الطبيعية والكيماوية والرياضية والفلسفية فدرّس فيها احدى عشرة سنة .

وبدا له خلال التدريس مع تربه فارس نمر أن ينشىء مجلة تبحث في العلوم المادية ،فاستشارا أستاذهما العلامة الدكتور كرنيليوس فانديك الاميركاني (٣) صاحب الايادي البيض على العلم والعرب فشجعهما على عملهما وسمى مجلتهما « المقتطف » وبدأ يؤازر فيها وينظر فيما يترجمان ويؤلفان . وصدر « المقتطف » في أول أيار ١٨٧٦ في مدينة بيروت ، ثم رأيا الانتقال الى مصر ، وأنشآ في القاهرة سنة ١٨٨٨ جريدة سياسـية يومية سمّياها « المقطّم » تناصر الاحتلال الانجليزي ، وظلا علـى اصدار « المقتطف » و « المقطّم » .

وتقاسم الشريكان العمل ، فانفرد الدكتور نمر بالمقطّم السياسي،

---

(١) القريبة من بيروت .
(٢) سوق الغرب احدى بلدان جبل لبنان شرقي بيروت .
(٣) انظر ترجمة له ص ٣١١ الترجمة ٣١ .

وانقطع الدكتور صروف لانشاء المقتطف • وينظر صروف أيضا في المسودات الاخيرة من المقطم ، ولا ينظر نسر في المقتطف قبل نشره ، وكثيرا ما كان صروف يحذف من المقطم أشياء لاتخلو من مجازفات لا تتفق مع اعتداله وتعقله ويتحامى مس عواطف المصريين •

وامتزج الشريكان حتى كأنهما شخص واحد ، فأثريا من معاونة الانكليز ، ونال المستأثر بالجريدة السياسية منهما الحظ الاكبر من مغانمهم مما لم يوفق الى مثله أحد من أرباب الاقلام •

وما زال المقتطف ، بفضل منشئه ، يدأب على السير في الخطة التي رسمت له ، وجل اعتماده في مادته على المصادر الانكليزية ، يقرّب العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والاقتصادية والزراعية من أذهان الجمهور ، حتى كان أداة صالحة لنزع غشاوة الجهل المخيم على العقول، ومشعلا من نور الغرب يشع بين أبناء هذا الشرق •

وكثير ممن لم يحظهم الحظ بدراسة هذه العلوم في المدارس تلقوها من طريق المقتطف ، ذلك لأن منشئه كان يتوخى السلاسة في التعبير ، ولا ينشر ما يتعب ذهن القارىء ، ويحبب اليه المطالعة • وأذكر أن أحد معارفي أرسل اليّ من دمشق بمقالة منمقة العبارة • قليلةالمعاني، وأرادني على ان ادفعها لصاحب المقتطف للنشر ، فنامت عنده حتى فرغ صبر كاتبها فأوعز اليّ بالبحث عما آلت اليه حال مقالته ، فقال لي صروف : اني اعتدت أن أدفع مقالات المؤازرين الى ابنتي لتقرأها ،فاذا فهمتها أنشرها ، واعتقد ان القراء يتذوقونها ، وإلا فلا ، ومقالة صاحبك عبارة عن ألغاز ومعميات لم أدرك ما يريد أن يقول ، فبالطبع على تلك النسبة يكون فهم القراء • وهذا ما حالدون طبعها •

رُزق صرّوف رشاقة في بيانه ، لا يتكلف فيه ولا يتصنع ، ومهر في بسط المعاني لقرائه ، وكان من تدريسه في صباه سنين كثيرة عامل مهم لإدراك حاجة المتعلم والمستمع والقارىء،ساعده على افهام قرائه وتقريب الابحاث العلمية من الاذهان مهما كانت درجة معرفة المطالع ، وهذه مزية فيه قلّما داناه فيها أحد ممن أنشؤوا مجـلات خاضت الابحاث التي خاضها أو ما يماثلها • والسر في نجاحـه أنه أتقن العربية والانكليزية ، وأتقن العلوم التي توخّى نشرها ، وتخرج بعظيم أفاده علما وتدريبا •

كان المترجم له يقرأ المقالة الطويلة بالانكليزية فينقلها الى العربية ، أو يحتذيهـا ، أو يأخذ بعض معانيهـا ، وذلك باختصار لا غبار عليه • يزينها بما يوضحها ويحليها في العين والذوق•• وكان حسن الاختيـار فيما ينقل ويحتذي ويؤلف ، لا يخوض أبحاثا لم يقع له أن ذاق منها ولو لمَاظات خفيفة ، واذا اضطر الى أن يعالج موضوعات لم تسبق له تبدو مقاتله ويظهر ضعفه • عُدّ عليه هذا في بعض ما كتب وترجم •والتعريب في مجلته أبدا أكثر من التأليف • وأكثر المقالات المصنفة كانت من أقلام مؤازريه • ومن قرأ أجزاء المقتطف يسقط فيها على ملخص آراء العلماء من الانكليز والاميركيين في العلوم وعلى مقالات جادت بها أقلام بعض أدباء تلك الحقبة من الشاميين والمصريين وغيرهم • ويدرك أن صاحب هذه الصحيفة كان يسيـر بها على سنة الترقي ، تزيـد كل سنة مادته ، وتزيد معها معارف قرائه •

ولما كان له من موضوعاته ما لا يستسيغه عامة المطالعـين في ذاك الدهر ، ومنها ما يمس الاديان والتقاليد في الاحايين كن منشئها يلتزم الحياد على الاكثر ، فينقل ويعزو ما ينقل الى مصادر معينة ، ويتـرك المجال للقارىء حتى يفكر بنفسه فيما يتلو ويتدبر • وكان يتعمد مـا

أمكن ، الابتعاد عن مزج القديم بالحديث • وماكان ممن يحسن الظن بمدنية العرب لتشبعه بروح من لم يدرسوها حق دراستها ، وساء حكمه على تلك المدنية بما أبقت بيئته الاولى في نفسه من التبرم بحال من شاهد من أهلها • ومع هذا نشر لمؤازريه أبحاثا مهمة بدون تعليق عليها إلا في أمور لا تحتملها حوصلته•ويعتقد هو خلافها بحسب ما هداه اليه عمله• ثم قد تضطره العاطفة الى أن ينوه بمن لا يستحقون التنويه ، فيترجم لهم ، ويلفق لهم أدباً، ويزعم لهم فضائل،ويغفل عن ترجمة من لم يشاركوه في سياسته ، أو من نقدوه وآذوه في نقدهم من علماء العصر وغيرهم • على أن التسامح العلمي باد على أكثر ما كان ينشر ، ولا يُحمل عطفه على بعض من حاول رفعهم إلا على خُلُق تخلقت به بعض الطوائف في هذا الشرق القريب • فإن الطائفة القليلة العدد تتماسك وتتساند أمام الطوائف الكبرى ، وبعبارة أصرح انه أصبح من طبيعة المسيحيين في ديارنا أن يمسك بعضهم بأيدي بعض ، وينوهوا بأدبائهم ورجالهم ، ويلفقوا لهم مزايا ، ويتخيلوا لهمْ درجات يرفعونهم اليها • وقد يعد هذا العمل من باب التنشيط اذا لم يعبث بالحقيقة •

ومن طالع مجلة المشرق وما كتبه أصحابها من أبناء الرهبانية اليسوعية في التنويه بأبناء طائفتهم من الباباويين يدهش من هذه الجرأة على التصنيع والمصانعة • ولو حاول مؤرخ معتدل أن يرد الى الصواب ما نقلوه ودوّنوه في أبناء الكاثوليك والموارنة لاقتضى له أن يحذف منه تسعة أعشاره،ذلك لانهم خلقوا لمن أرادوا تزيين صورهم شعرا ونثرا وتآليف وخطبا لو كان هناك انصاف لما قوبلت بغير الطرح في سلة المهملات ، وقالوا عما نشروا انها كتب وأسفار وأباعوها من عامتهم ، ونشروها لتأييد دعوتهم فكانت سبة على العرب والعربية ، وعارا على الحقائق التاريخية •

فتح «المقتطف» صدره للمناقشات في العقد الاول من حياته ،فنصح فانديك لمنشئيه بالعدول عنها ، وأثبتنا له نصيحته في مجلد السنة الثامنة، وقللا بعد ذلك من الاخذ والرد على الاجزاء التالية ، وشغلا صفحاتها بالمفيد من الابحاث مجردة عن المماحكات ، وراعى المقتطف ذوق الكثرة الغامرة من قرائه ، ومالايعود عليه بضرر في تجارته العلمية • ومن مزج العلم بخدمة نفسه في الماديات فاتخذ العلم تجارة والتجارة بابا للعلم قد ينجح في الاعم من حالاته •

وقد اضطر « المقتطف » في الربع الاخير من عمره أن يجاري بعض المجلات في نشر الابحاث الادبية ، فأجاد في بعض رواياته المترجمة ،ولم يجد في المختارات الادبية ، فجاء من « المقتطف » صحيفة عامة تبحث في أمور كثيرة ، ولا تشهد عليها مسحة مجلات الاخصائيين التي تنصرف الى علمأو علوم لاتتعداها فتطيل فيهاوتتوسع ماشاءت وشاءتأغراضها• وللمقتطف عذره في ذلك ما دام أهل الإخصاء [1] في الشرق لايعيشون من أقلامهم ، وما عمّ العلم بيننا حتى يخص • ومن كان غرضه تعميم المعارف بين قرائه كافة ، وإرضائهم على اختلاف أهوائهم وشهواتهم الادبية لا بد أن يسقط ولو قليلا فيما يدعوه الخاصة لغواً أو حشواً • وقد قال لنا منشئه يوما في الكلام على مجلتنا « المقتبس » إننا نملؤها بالدسم فوق اللازم ، فالأشبه بنا أن نضمنها ما تتحمض به النفوس ليشتد قرَمها الى العلم •

لا جرم أن المقتطف كان مدة نصف قرن مَباءة لنشر الافكار والعلوم وكان الفضل له بأن حمل زمرة صالحة من رجال النهضة العربية من أواخر القرن الماضي على البحث والدرس والنشر • وطال عمر مجلته

(١) في القاموس المحيط : اخصى : تعلم علما واحدا .

فدعيت شيخة المجلات العربية ، وقد سار منشئه فيه بروح الزمن فكانت مباحثه علمية صناعية لأول أمره، ثم أخذ يُعنى بأبحاث عربية ومايستهوي العامة الى مطالعته ، خصوصا عندما انبعثت شعلة الآداب من مصر ، ونبغ من المصريين علماء وأدباء أرقى كعبا ممن تخرجوا في مدارس المرسلين في الشام ومصر ، ذلك لأن الافراد الذين امتازوا من أهل مصر أخصوا في العلوم ، وأتقنوا العربية ، ومرنوا على الكتابة والترجمة ، وجمهور من درسوا في مدارس المرسلين من المبشرين درسوا أمورا كلية قصدوا بها تلقف اللغات الاجنبية وقصدهم الاول التجارة ، وما عنوا العناية المطلوبة باللغة العربية وآدابها •

ولصرّوف فضل عظيم في وضع كثير من المصطلحات العلمية والاسماء الفنية ، تناقلتها الاقلام ، ودخلت في الكتب العلمية الحديثة المترجمة • وله طريقة في النقل من اللغات الافرنجية حبذا لو يسير النقلة عليها ، لانها زبدة تجارب سنين طويلة ، وهي من خير الطرق في النقل و الاحتذاء • وقد تجلت في شخصه أخلاق العلماء العصاميين ، فهضم ما تعلم ، وعلّم ما علم ، فرزق الحظوة بما كتب وعرّب ، وكثر أحبابه والمعجبون بمضائه وحزمه من جميع الطبقات والنحل ، واحتفلت مصر بعيد « المقتطف » الخمسيني ، فأظهر خاصة العرب ما تكنه قلوبهم من الحرمة لهذه المجلة وصاحبيها • وان واحدا وسبعين مجلدا كتبها صروف في احدى وخمسين سنة هي في الواقع أهم معلمة عربيةفي العلوم الطبيعية والرياضية والاقتصادية ، تخلد بين العالمين ذكره ، وتضعه في الصف الاول بين الرعيل الذي حمل قبس العلم والادب الى عقول العرب في العهد الحديث ، ولقد كان مثال العامل النشيط الى آخر أيامه ، يلذّه عمله ويتعشقه ، لذلك أكبر العقلاء المصيبة به يوم وفاته • وعده العرب ركنا عظيما من أركان نهضتهم تداعى وهوى ، ورجلا قلّ في الرجال

العاملين نبوغ مثله • رفعه علمه وأدبه ، ورفع هو كثيرين من حملة الاقلام ، وأرشدهم وهداهم الى البحث على الطرق العلمية الجديدة ، وكان أيضا من جملة من لهم فضل عظيم على كاتب هذه السطور بعطفه عليه وتنويهه به ، وما أخلاه في بداءة عمله من ملاحظاته الرشيدة وآرائه السديدة • رحمه الله وأجزل ثوابه [١] •

★ ★ ★

(١) وترجم كتاب (سر النجاح) للدكتور سميلز ، طبعه في بيروت سنة ١٨٨٠ ثم في مصر ١٨٨٥ وزاد عليه اكثر من ثلثه في الامثال والحكم والشواهد وترجمة كثيرين من عظماء الشرق من المتقدمين والمحدثين كما عرب مع زميله الدكتور فارس نمر كتاب (سير الابطال والقدماء العظماء) •

- ٤٦ -

يوجين غريفيني *

GRIFFINI , EUGENIO

١٨٧٦ ــ ١٩٢٥ م

من علماء المشرقيات المستعربين ، من الطليان . ولد في ميلانو سنة ١٨٧٦ ، وكان يميل منذ صباه الى اللغة العربية ، فدرسها أولا من دون معلم ، ثم دخل المعهد الشرقي في نابولي ، ونال اجازة بالعربية ، ثم درس الفقه في معهد جانوا ، وسافر بعدها الى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر ، وبعد عودته من سياحته عين أستاذا للعربية في مدرسة فلورنسا الكلية ، غير أنه فضّل الاقامة في الشرق ، وسكن مصر ، فعهد اليه الملك فؤاد الاول بترتيب خزانته الخاصة .

واتفق أن اقتنى تاجر ايطالي في صنعاء اليمن مخطوطات عربية باعها من خزانة الامبروزيانا في ميلانو ، فوضع لها غريفيني فهرسا مستوفى على عادة المستعربين من الاوربيين في وصف الكتب وتقريب طرق الانتفاع بها على المشتغلين وكان من كتبها مجموع في الفقه منسوب الى زيد بن علي فطبعه وزعم أنهأول كتاب وضع في الفقه ، ورد عليه العلماء لأن أكثر رواياته أو كلها نقلت عن أبي خالد الواسطي ، وهو غير

---

* ترجمته في « المستشرقون : ٣٧٠ » وولادته فيه سنة ١٨٧٨ م والاعلام ج١/٣٧٣ وانظر معجم المطبوعات ، ٤٠٩ ، ٩٨٤ ، ومجلة المجمع مجلد ١ ص ٥٢ ، ١٢٦ و ٥/٣٨٢ .

ثقة • ولعله كان مما وضعه علماء الزيدية • وعلى كلٍ ففي الكتاب فوائد كثيرة في الفقة الزيدي • وهذا لا يقدح في فضل ناشر الكتاب •

وكان جل اعتماده في التأليف على جزازاته المرتبة على الموضوعات، جعلها في مغلفات خاصة معنونة باسم كل موضوع • فإذا أراد بحثا يرجع الى المغلف الخاص فتجتمع لديه في الحال المادة اللازمة لمقالة يريد كتابتها• وقد أخذ عنه عشاق الآداب من المصريين طريقته في وضع جزازاته وبطاقاته ، ومنهم صاحب هذا التاريخ •.

وتآليف المترجم له كثيرة ، منها كتاب صغير في اللغة الدارجة في طرابلس الغرب ، وهو يحتوي على قاموس ايطالي وعربي • وفي أوله نبذة من قواعد هذه اللهجة •

وعني المترجم بتاريخ علم الفلك عند العرب وببعض شعرائهم المشهورين ، ونشر ديوان الاخطل ، وقصيدة منسوبة الى امرىءالقيس، وقصيدة قَدَم بن قادم [1]،وقصيدة الاعشى المعروفة بـ « ماالبكاء»[2]•

وعني أيضا بالعلم ، بأصول التشريع العام وتاريخه في العالم وعند كل أمة ، وذكر أول من جمع فيه من أهل الكتاب ، في الشرق من العرب

---

(١) وليٌ من أولياء اليمن ، وتبَّع من التبابعة تنسب اليه قصيدة نشرها هذا المستشرق وعلق عليها شرحا لغوياوأثريا مطولابالغة الايطالية• وأتبعها بأخبار تتعلق بقبر هذا الولي (مجلةالمجمع ١/٥٢) وذكره عبد القادر المغربي في مقال له بعنوان (فصحاء الاعراب) في مناقشة أوردها جرت بين أبي عكرمة الضبي والمبرد (مجلة المجمع المجلد ٩ ص ١٤٧) .

(٢) هي أول قصيدة في ديوانه مطلعها :

ما بكاء الكبير بالاطلال وسؤالي فهل ترد سؤالي

وهي التي مدح بها الاعشى الكبير ميمون بن قيس (ت ٧ هـ ، ٦٢٩ م) الاسود بن منذر اللخمي وتعد خمسة وسبعين بيتا .

المسلمين أو المسيحيين والسريان والارمن ويهود العراق ويهود سورية ، أو من الطوائف وأصحاب الديانات الآسياوية والإفريقية • بدأ بحثه من القرن الثالث للميلاد أي من عهد مجموع القوانين الرومانية ، واستنتج من مجموع هذه الشرائع أنها كلها جاءت من أصل واحد يتمشى عصده في القدم مع تاريخ البشـــر ، وهي مستقلة بعضهـــا عن بعض من حيث العقائد والاحكام والاصول والفروع ، ذاهبا الى أنه ليس في الدنيا الا بشر واحد ومدنية واحدة وحق واحد وعلم واحد •• ولا اختلاف الا في أسماء الاجناس والقبائل والاوطان والاديان •

ونشر غريفيني كتاب « لمع القوانين المضية في دواوين الديـــار المصرية » للامير عثمان بن ابراهيم النابلسي من أهل القرن السابع [1]• الى غير ذلك مما نشره بالعربية والايطالية •

اتصلت بـــه مدة في القاهـــرة فرأيت فيه سماحـــة العلماء ونعومة المتمدنين ، وكان من الرجال الذين وقفوا أنفسهم على خدمة المشتغلين بالآداب من قومه ومن العرب الذين أحبهم وأحب لسانهم •

ولما أنشأتُ المجمع العلمي العربي ، وكان يومئذ أستاذ العربية في جامعة ميلانو بعث الي ّ يقول: « أملي عظيم بأن تكون هذه النهضة مبدأ توزيع العدل والمعارف النافعة بين أمم البحر المتوسط وفقا لمبادىء الحق والحرية ، حرية الامم والاوطان ، وأن تكون نهضتكم الادبية والعلمية فجر عهد جديد في العالم العربي الاسلامي ، فجر عهد الاحرار في بلادهم، والكرماء مع ضيوفهم » •

★ ★ ★

(١) من أمراء الدولة الايوبية ، تولى النظر في الدواوين المصرية بأمر السلطان نجم الدين ايوب وكان حيا سنة ٦٣٢ هـ ، ١٢٣٥ م (معجـــم المؤلفين ٦/٢٤٩) •

- ٤٧ -

يوسف هوروفيتز *

HOROVITZ , JOSEPH

١٨٧٤ – ١٩٣١

يوسف هوروفيتز ولد في سنة ١٨٧٨ في ليبزيغ فيألمانيا • وبعد أن أخذ العلوم الشرقية في جامعتي ماربورغ وبرلين حاز لقب دكتور في الفلسفة من كلية برلين سنة ١٨٩٨ ، وفي سنة ١٩٠٢ انضم الى جماعة جامعة برلين • وبعد أن أقام في بعض بلاد الشرق القريب نحو سنة تقلد كرسي مدرس الآداب العربية في جامعة علي كره في الهند • وبعد رجوعه الى وطنه أوائل سنة ١٩١٥ عين أستاذ الالسنة السامية في جامعة فرنكفورت •

ومن تآليفه ما جعله كتبا مستقلة، وما نشره في المجلات العلمية، وأكثر أبحاثه في موضوعات اسلامية ، كبحث في إسراء الرسول ، والجنة في القرآن ، والابحاث القرآنية ، والاشعار التي قيلت في الرسول • ونشر كتاب « الهاشميات » للكميت (١) مع ترجمة ألمانية • وصحح الجزء الاول من المجلد الثاني ، والجزء الثاني من المجلد الثالث من كتاب

---

* ترجمته في (المستشرقون) : ٧٤٣ ومنه اخذنا تاريخي الولادة والوفاة والاول منهمامخالفلما أورده المؤلف وانظرمعجم المطبوعات: ١٥٧٠

(١) يشتمل على جملة قصائد في مدح بني هاشم وآل البيت ، والكميت هو ابن زيد الاسدي (٦٠ – ١٢٦) هـ • اشتهر بالتشيع لبني هاشم •

« الطبقات الكبرى » لابن سعد . وله غير ذلك من الابحاث الاسلامية بالالمانية[1] » .

★ ★ ★

(١) ذكرت كلها في « المستشرقون » .

الفهارس

المترجمــون

* * *

الاعـلام

(غ)

(ف)

(ن)

(هـ)

★ ★ ★

الاماكـــن

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

* * *

الكتب والرسائل

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

★ ★ ★

الابحـــاث

★ ★ ★

المجلات والصحف

★ ★ ★

الشعر

مطلع البيت	القافية	الشاعر	عدد الابيات	الصفحة
تمسي	فتذكر	اسماعيل صبري	٥	١١٤
يا يوم حطين	ينكسر	شكيب ارسلان	١٣	٢٦٢
مضى زمن	تسهر	حافظ ابراهيم	٥	١٩٠
تسوؤنا	يفخروا	حافظ ابراهيم	٤	١٩٠
شمسهم	الخدور	حافظ ابراهيم	١٣	١٨١
وانما نحن	البشر	ابراهيم اليازجي	٤	٢٥
اذا الشعر	شعر	جميل الزهاوي	١	١٥٣
اذا ما شربناها	تدور	محمود البارودي	١	٤٠٩
اتاني	تدور	اعرابي	١	٤٠٩
نصحت	الامر	محمود البارودي	٣	٣٩٣
واني من القوم	فجر	محمو دالبارودي	٢	٤٢١
ولي شيمة	يمور	محمود البارودي	٧	٤٢١
كنا نود	مصائره	محمود البارودي	٨	٣٩٣
اذا لم يكن	من عسر	احمد شوقي	٦	٧٨
يا واحد	الاشعار	احمد شوقي	٢	٩٠
هم فجر	الآثار	خليل مطران	٣١	٢٢٠
ساعة البين	السعير	اسماعيل صبري	٢	١١٥
اذا جاش	البحر	محمود البارودي	٤	٤٠٧
ما أطول	آخر	محمود البارودي	٨	٣٩٩
يا نفس	واقصري	ابراهيم الحوراني	٣	٥
أدلك	مكابر	اسماعيل صبري	٤	١٢٧
لهفي	ضجر	معروف الرصافي	٥	٤٥٣
وما العلم	انكساره	معروف الرصافي	٢	٤٦١
ان الذي	البحتري	أحمد شوقي	١	٩٠

(الميــم)

مطلع البيت	القافية	الشاعر	عدد الابيات	الصفحة
هذب كلامك	العالم	ابراهيم الحوراني	٢	٤
في هذه	جهنم	ابراهيم الحوراني	٢	٦
واذا القلوب	الاجسام	احمد شوقي	١	٧٨
الدهر	الامم	احمد شوقي	٢	٦٨
اذا الاحلام	الطغام	احمد شوقي	١	٨٣
علمتهم	من الذمم	أحمد شوقي	٦	٨٨
وكأنه	تمام	احمد شوقي	٢	٩٠
براغيث	دمي	احمد شوقي	١٠	٩٢
الشعر	الاكرم	جميل الزهاوي	١	١٥٤
اذا خانني	سهمي	اسماعيل صبري	٢	١٢٣
مواطن	الحلاقم	شكيب ارسلان	١٢	٢٥٩
الا قل	الالم	شكيب ارسلان	٤٢	٢٦٣
لا در در	كتموا	معروف الرصافي	١٠	٤٥٥
آهاً فآها	القدم	معروف الرصافي	٩	٤٥٠
لقنت	الافهام	معروف الرصافي	٢	٤٦٠
لا يخدعنك	العلن	معروف الرصافي	٢	٤٦٠
ويل لبغداد	الدواوين	معروف الرصافي	١٢	٤٦٤
أرى الشعر	مصونه	معروف الرصافي	١٠	٤٤٧
لقد هجرت	يعلم	ابراهيم الحوراني	٤	٨
يا الب	تندم	اسماعيل صبري	٤	١٢٨

مطلع البيت	القافية	الشاعر	عدد الابيات	الصفحة
الدين لله	داعيها	احمد شوقي	٧	٧٥
ما أقبح	يخفيه	معروف الرصافي	٢	٤٦١
	(الياء)			
يا من تزوج	الهاوية	اسماعيل صبري	٢	١٢٥
بني القبط	ثانيا	أحمد شوقي	٨	٦٦
كم ساعة	القاسية	اسماعيل صبري	١٣	١١٦

* * *

المراجـع

ـ ابراهيم اليازجي ، عيسى ميخائيل سابا ، سلسلة نوابغ الفكـر العربي (٤) دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ •

ـ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٦٠ •

ـ الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، محمد محمد حسين ، ج ١ـ ٢ ، المطبعة النموذجية ، مصر ١٩٦٢ •

ـ أحمد زكي ، أنور الجندي ، سلسلة أعلام العرب رقم ٢٩ لسنة ١٩٦٤ •

ـ الادب العربـي المعاصر في سوريـة ، سامي الكيالـي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ •

ـ الادب العربي المعاصر في مصر ، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ •

ـ ادباء العرب ، بطرس البستاني ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٦٨، •

ـ اشهر مشاهير ادباء الشرق ج ١ ـ ٢ ، محمد عبد الفتاح ، مصر •

ـ الاعلام ، خير الدين الزركلي ، ط ٣ ، بيروت •

ـ الاعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية ١ ـ ٣ ، زكي محمد مجاهد ، دار الطباعة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

ـ اعلام العرب في الادب والسياسة ، فائز سلامة ـ دمشق ـ ١٩٣٥ .

ـ اعلام الصحافة العربية ،ابراهيم عبده ،مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١ ، ١٩٤٨ .

ـ اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث لاحمد تيمور ط ١ ١٩٦٧ دار النصر .

ـ أعلام الفن والادب ، أدهم الجندي ، دمشق ، مطبعة صوت سورية ، ١٩٥٤ .

ـ اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، ادوارد فنديك ، مصر ١٨٩٦ .

ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، اسماعيل باشا الباباني البغدادي ج ١ ـ ٢ ، استانبول ، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧ .

ـ تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة .

ـ تاريخ الادب العربي ، حنا فاخوري ، ط ٢ ، ١٩٥٣ .

ـ تاريخ الشعر العربي الحديث ، احمد قبش ، دمشق ، ١٩٧١ .

ـ تاريخ الصحافة العربية ، فيليب دي طرازي ، بيروت ، ١٩١٣ ـ ١٩٣٣ .

ـ تاريخ الصحافة السورية ١ ـ ٢ ، شمس الدين الرفاعي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .

ـ تاريخ الطباعة في الشرق العربي ، خليل صابات ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ .

ـ تاريخ محمد عبده ج ١ ـ ٣ ، محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار ١٣٥٠ هـ .

ـ تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي ، انور الجندي ط ١ ـ ١٩٧٠ ، مكتبة الانجلو مصرية .

ـ تراجم اعيان دمشق ، جميل الشطي ، دمشق ، ١٣٦٧ .

ـ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ١ ـ ٢ جرجي زيدان ، ط ٣ ، دار الحياة ، بيروت .

ـ الجامع في أخبار ابي العلاء المعري ج ١ ـ ٣ ، محمد سليم الجندي ، تح عبد الهادي هاشم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

ـ حاضر العالم الاسلامي ، تأليف ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض ، علق عليه شكيب أرسلان ، ط ١ ، مصر ، ١٣٤٣ .

ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ج ١ ـ ٣ ، عبد الرزاق البيطار ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٦١ .

ـ الحماسة ، أبو تمام ، مصر ، ١٣٣٥ هـ .

ـ دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة،محمد بديع شريف وغيره ، مكتبة الانجلو مصرية ، مط ٠ الرسالة ٠

ـ دراسات في الشعر العربي المعاصر ، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ ، ١٩٥٩ ٠

ـ ديوان اسماعيل صبري ، تصحيح احمد الزين ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، ١٩٣٨ ٠

ـ ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتحقيق محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ٠

ـ ديوان البحتري ج ١ ــ ٤ ، تح حسن الصيرفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ٠

ـ ديوان جميل صدقي الزهاوي ، المطبعة العربية بمصر ، ١٩٢٤ ٠

ـ ديوان حافظ ابراهيم ج ١ ــ ٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ ٠

ـ ديوان خليل مطران ج ١ ــ ٤ ، دار الهلال ، دار المعارف ، ١٩٤٩ م ٠

ـ ديوان الشريف الرضي ج ١ ــ ٢ ، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٣٠٧ ٠

ـ ديوان شكيب أرسلان ، مط ٠ المنار ، ١٩٣٥ ٠

ـ ديوان محمود سامي البارودي،ط • دار الكتب المصرية، وطبعة مطبعة الجريدة ، ضبط وشرح محمود الامام المنصوري •

ـ ديوان المعاني ، ابو هلال العسكري ، مكتبة الاندلس ، بغداد•

ـ ديوان معـروف الرصافي ، مكتبة الحيـاة ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٥٧ •

ـ ذكريات ، شاهين القز ، دار النهار ـ بيروت ـ ١٩٨٠ •

ـ الرائد في الادب العربي ، نعيم الحمصي وغيره ، دار المأمون للتراث ، ١٩٧٩ •

ـ الراحلون ، سامي الكيالي ، دار الفكر العربي •

ـ رجال عرفتهم ، عباس محمود العقاد ، دار الهلال ، ١٩٦٢ •

ـ رواد القومية العربية ، انور الجندي •

ـ رواد النهضة الحديثة ، مـارون عبـود ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٥ •

ـ روض البشر ، في اعيان دمشق في القرن الثالث عشر ، محمد جميل الشطي ، دمشق ، ١٣٦٧ هـ •

ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، احمد امين ، مطبعـة لجنة التأليف ، ١٩٦٨ •

ـ زهر الآداب وثمر الالباب ، الحصري ، مصر ، ١٩٥٣ •

ــ ساعات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٤٥ .

ــ شعر دعبل الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٤ .

ــ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، عباس محمود العقاد ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

ــ الشوقيات ج ١ ــ ٤ ، احمد شوقي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .

ــ الشوقيات المجهولة ج ١ ــ ٢ ، احمد شوقي ، اصدار محمد صبري ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

ــ عصاميون عظماء من الشرق والغرب ، نخبة من الاساتذة ، اشراف محمد فريد ابو حديد ، دار الهلال بمصر .

ــ طبقات القراء (غاية النهاية) لابن الجزري ، مصر ، ١٣٥١ .

ــ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تح محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢ ــ مصر ــ حزيران ١٩٥٥ .

ــ عيون الاخبار ج ١ ــ ٤ ، ابن قتيبة طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

ــ غرائب الغرب ج ١ ــ ٢ ، محمد كرد علي ، المكتبة الاهلية بمصر ، ط ٢ ، ١٩٢٣ .

ـ في الادب الحديث ج ١ ـ ٢ ، عمر الدسوقي ، ط ٧ ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٩ .

ـ فيض الخاطر ، احمد امين ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ .

ـ قدماء ومعاصرون ، سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦١

ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ـ ٢ ، حاجي خليفة ، استانبول ، ١٩٤١ .

ـ كنوز الاجداد ،محمد كرد علي ، دمشق ، ١٩٥٠ .

ـ اللباب ، للزهاوي ، مط . الفرات ، بغداد ، ١٩٢٨ .

ـ المجددون في الاسلام ، عبد المتعال الصعيدي ، مصر .

ـ المجمعيون ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

ـ محمود سامي البارودي ، عمر الدسوقي ، سلسلة نوابغ الفكر العربي رقم ٤ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٣ .

ـ مذكرات محمد كرد علي ج ١ ـ ٤ ، دمشق ١٣٦٧ ـ ١٣٧٠ هـ

ـ مرآة العصر في تاريخ الاسلام ورسوم اكابر الرجال بمصر ج ١ ـ ٢ ، الياس زخورة ، المطبعة العمومية ، مصر ، ١٨٩٧ .

ـ المستشرقون ج ١ ـ ٣ ، نجيب العقيقي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

ـ مشاهير شعراء العصر لاحمد عبيد ـ القسم الارل شعراء مصر ـ مط . الترقي ـ دمشق ١٩٢٢ .

ـ معالم واعلام ، القسم الاول ، القطر العربي السوري ، احمد قدامة ، مطبعة الف باء ـ الاديب ، ١٩٦٥ .

ـ معجم المؤلفين ج ١ ـ ١٥ ، عمر رضا كحالة ، المكتبة العربية بدمشق ، ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ .

ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف سركيس ، مطبعة سركيس ، مصر ، ١٩٢٨ .

ـ مفتاح السعادة ، طاش كبري زاده ، ج ١ ـ ٣ ، دار الكتب الحديثة .

ـ ملوك العرب ج ١ ـ ٢ ، امين الريحاني ، بيروت ، ١٩٢٩ .

ـ المنتخب من أدب العرب ج ١ ـ ٢ ، جمع وشرح طه حسين وغيره ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣١ .

ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ بيروت ١٩٥٥ .

ـ نثار الأفكار ، نيويورك ١٩١٣ .

ـ نهر الذهب في تاريخ أعيان حلب ، كامل الغزي ، حلب ١٩٢٦ .

ـ هدية العارفين ، أسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين ، اسماعيل باشا البغدادي ، استانبول ١٩٥٥ .

ـ وجوه شرقية وغربية ، أمين الريحاني ، دار الريحاني للطباعة ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ـ وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ، مطبعة لجنة التأليف بمصر ، ١٩٣٦ .

★ ★ ★

تصويبات

وقعت أثناء الطبع أخطاء لا بد من الاشارة الى الهام منها ، فيرجى تصحيحها قبل الشروع في قراءة الكتاب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١	الاخير	٢٧	٢٨
٢٤	٢٠	فتنثني	فننثني
٤٣	٥	فشاخ	فشاء
٦١	٧	للآلي	اللآلي
٧٢	١٥	والحباء	والحياء
١٣٢	٦	فميري	فمبيري
١٣٤	١٠	هير	هيللر
١٤١	٢٢	التفريط	التقريظ
٢٦٤	٢١	خفنه	خفته
٢٧٤	الاخير	٦٨٦ــ١٢٨٧هـ	ت٦٨٦ــ١٢٨٧م
٢٨٢	٤	لغة غريبة	لغة غربية
٢٨٢	٨	النافد	النافذ
٢٨٥	٨	والي مصر	ابن والي مصر
٢٩٢	١	النظر	النظر(١)
٣٠٥	٧	وينبرج	ونيبرج
	٢١	(١)	(٢)
٣١٠	٥	لتيسير ...	لتيسير كشف
٣٢٧	١١	ابن واضع	ابن واضح

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٣٥	٢٢	١٣٥٠ هـ	١٣٥٠ م
٣٣٨	٦	المستعرة	المستعمرة
٣٣٨	٨	ابن شنب	ابن أبي شنب
٣٥٠	١٢	محمد عرابي	أحمد عرابي
٣٩٠	١٠	حسن المرصفي	حسين المرصفي
٣٦١	٥	بالانصاف	والانصاف
٣٧٥	١٣	على الكتاب	علم الكتاب
٣٨٤	١٥	خطأهم	خطئهم

★ ★ ★

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

المعاصرون

تأليف

محمد كرد علي

علق عليه واشرف على طبعه

محمد المصري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على **محمد وآلــه**

وبعد ، فقد كان مجمعنا احتفــل ســنة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ، بمرور مئة عام على ميلاد مؤسسه **الأستاذ الرئيـــس محمد كرد علــي** رحمه الله • وكان بودنا إذ ذاك لو ظفرنا ببعض ما لم ينشر مــن آثار الأستاذ لنقدمه الى جمهور العلماء والباحثين في تلك المناسبة • ولما لم يتيسر لنا ذلك في حينه ، عمدنا الى بعض ما كان الاســتاذ نشره مــن آثار السلف ـ وهو كتاب « **حكماء الاســلام** » للبيهقي ـ فأعدنا طبعه بالتصوير ، بالإضافة الى إعادة طبع المجلد الثاني من مجلة مجمع اللغة العربيــة •

ثم كان عقيب الاحتفال أن قدّم إلينا مشكوراً المهندس الأستاذ طريف كرد علي ـ نجل الأستاذ الرئيس ـ ظرفاً أصابه بأخرة في مخلفات والده ، وقد كتب عليه بخطه « **المعــاصرون** » وهو يشتمل على أوراق شتى تبين أنها أصول كتاب لم يفرغ الأستاذ من تنقيحه وتحريره ، وقد ترجم فيه طائفة ممن اتصلت أسبابــه بأسبابهم من علماء البــلاد العربية وأدبائها ، ومن المستشرقين ، منهم من كانت تربطه بهم صداقة راسخة ، ومنهم من جمعه وإياهم بعض المؤتمرات والندوات العلمية ، ومنهم من اتصلوا به واتصل بهم عن طريق المراسلة • وقد ترجم كلاً منهم بمــا عرف عنه ، مبّيناً رأيــه فيه وفي أعماله بصراحته المعهودة في كل مــا

كتب . وقد كان من هذه التراجـم ما نشره الأستاذ في بعض الصحف والمجلات ــ ومنها مجلة مجمعنا ــ فاقتطعه منها ، ومنها ما طبع بالآلة الكاتبة . إلا ان اكثرها كان مسودات بخطه ، وكان قد اعاد النظر في بعضها فألحق بها ما ألحق ، واصلح منها ما أصلح بقلـم الرصاص تارة وبالحبر تارة . ولما كان الظفر بمثل هـذا الكتاب ــ وان كـان جله مسودات لم تنقح ــ غنماً للمعنيين بتاريخ النهضة العربيـة وأعلامها حرصنا على اخراجه للناس ، ورغبنا الى بعض الاساتذة ان ينظر في هذه الأصول ويعد الكتاب للطبع ، ولكنه ردها الينا بعد اشهر من تكليفه معتذرا بأن اعماله الكثيرة حالت بينه وبين إعداد الكتاب علـى النحو الذي ينبغي له . فكلفنا بالأمر الاسـتاذ محمد المصري ، فلم يـأل جهداً في اعداد الكتاب عن هذه الاصول وإخراجه علـى أمثل صورة ممكنة ولم يدع التعليق عليه بما رأى من المفيد ان يعلق به ، ثم صنع له فهارس متعددة تيسر الافادة منه ، فله الشكر الجزيل .

وإنا لنأمل أن يوفق المجمع وآل الاستاذ الرئيس الى الكشف عن آثار اخرى من آثاره ولا سيما ما تبقى من مذكراته،فقد حدثني صديقي الاستاذ السيد أحمد عبيد (وهو الذي نشر لـه الأجزاء الأربعة التي طبعت منها) أن الأستاذ وقفه على الجزء الخامس وقرأ له أشياء منـه إلا أنه لما يعثر على هذا الجزء . ولن يألو المجمع جهـداً في نشر ما يقع اليه من هذه الآثار إن شاء الله .

٢٠ مـن صفـر ١٤٠١ هـ
٢٧ من كانون الأول ١٩٨٠ م

رئيس مجمع اللغة العربية

الدكتور حسني سبح

التحقيــق

جريت في تحقيق الكتاب على النهج التالي :

١ ــ نسخت الكتاب دون أن يفوتني تصحيح طرأ على عبـارة أو عبارة مقحمة بين السطور أو بين اظهر الأوراق المتنوعة ٠

٢ ــ يضم الكتاب سبعاً وأربعين ترجمة رتبتهـا حسـب حروف الهجاء ، وجعلت لها أرقاماً متسلسلة ٠

٣ ــ أكملت بعض أسماء المترجمين التـي جاءت في مطلع كـل ترجمة ، ووضعت تحت كل اسم عربي تاريخي ولادته ووفاته بالتاريخين الهجري والميلادي ، وتحت كل أجنبي اسمه الأعجمي وتاريخي ولادته ووفـاته بالتاريخ الميلادي ٠

٤ ــ أما الحواشي فقد أوردت فيها بعض المراجـع لراغبٍ في زيادة ، ككتب التراجم والدراسات وبعض ما ألف عن صاحب الترجمة من كتب وأبحاث ٠

٥ ــ ترجمت للأعلام الواردة ضمن التراجم كلما دعت الى ذلك حاجة ٠ كما عرّفت الأماكن وغيرها ٠

٦ ــ شرحت بعض الألفاظ والعبارات بإيجاز ٠

٧ ــ أتممت وصححت بعض العبارات التي أصابها الخلل لسـهو أو زلة قلم أو لتلف لحق بهـا ، وأشرت الى ذلك في موضعه ، ووضعت إضافاتي ضمن قوسين [ ]

٨ ــ أتممت أسماء بعض الكتب وعرّفت بها .

٩ ــ خرّجت القصائد والأبيات الواردة خلل التراجم وصححت بعضها بعد الرجوع الى دواوين شعرائها . وأشرت الى ذلك في موضعه .

١٠ ــ قيّدت بعض الكلمات بالشكل كلما كان ذلك ضرورياً .

١١ ــ أشرت الى ما نشر من الترجمات في مجلة أو صحيفة ، رغم ما أدخله المصنف من تعديل .

١٢ ــ أخيراً صنعت الفهارس اللازمة .

محمد المصري

فتجنت على الشعوب وشنت غارة في البلاد من بعد أخرى

الى ان قال

عبرٌ كلها الليالي ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا؟

وهي طويلة قالها بمناسبة ظهور مذنب هالي المشهور في سنة ١٩١٠

وكتب الى الأميرة الكسندرة افيرنيوه (كريمة قسطنطين نعوم الخوري) يرغب اليها في ان تعيد مجلتها (انيس الجليس) الى الظهور بعد احتجابها وذلك سنة ١٩٠٤

خبري القوم يا سمية (اسكندر) يا ربة النهى والذكاء

هل لوجه (الانيس) بعد احتجاب من سفور في عالم الأدباء

فنرى فيه كل بحث جديد يقف الحق في صفوف النساء

ان للغانيات حقاً علينا ليس يخفى الا على الجهلاء

وله في صديقته هذه الأميرة أشعار لطيفة والغالب ان الأبيات التي اشتهرت عنه قالها فيها وهو مما كتبه تحت بيتين قالتهما وهما .

فديتك يا هاجري فهل ترتضي بالفدا

سهرت عليك الدجى وتحت ونكن سدى:

فقال

أهاجرتي اطفئي لواعج لا تنتهي

مضت في هواك السنون وما نلت ما اشتهي

اذا قيل مات الاديب بفاتنة ، أنت هي

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهي

فحسبي ان أزدهي وحسبك أن تشتهي

أراني استرسلت في نقل هذا الشعر العذب ، وكل شعر صبري نمط واحد في العذوبة والسلاسة ذلك لأنه كان ممن ينقح شعره قبل نشره ، مثل حافظ ابراهيم ، وقد قال في هذا المعنى

شعر الفتى عرضه الثاني فأحر به ألا يشوه بالأقذار والوضر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحط ثاني النفيسين من لغو ومن هذر

نموذج احدى القصاصات التي كان اقتطعها من احدى المجلات

محمود شكري الآلوسي

آلوسة قرية على الفرات قرب عانات على خمس مراحل من بغداد [illegible] انتسب
إلى الآلوسي . والآلوسي هو محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين محمود الملقب
بأبي المعالي . أخذ العلم عن أبيه وعمه نعمان خير الدين [illegible] وقعد للتدريس في داره وفي
بعض مساجد بغداد ([illegible]) إلى أن
نشأ جيل [illegible] علماً وعُدّ عالماً . وكان على طريقة في المعتقدات
خالف بها [illegible] بكرامات الصالحين والأولياء [illegible]
[illegible] كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية [illegible]
[illegible] الصافية [illegible] في هذا المذهب [illegible]
[illegible] فأصبح [illegible] من أعلام السنة في [illegible]
[illegible] التأليف [illegible]
[illegible] التاريخ والسيرة [illegible]
[illegible] على طريقة [illegible]
[illegible] الطبع [illegible]
[illegible] بعض الكتب [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الإسلام
[illegible]
[illegible] بإصلاح معتقداتهم [illegible]
[illegible] الموصل [illegible]
الثانية [illegible] فأجاب طلبهم وعاد إلى موطنه
[illegible] في الحرب العامة الأولى [illegible] على الآلوسي [illegible]
[illegible]
[illegible] الدولة [illegible]
[illegible] الآلوسي

نموذج احدى الصفحات التي كتبها الاستاذ الرئيس محمد كرد علي بخطه

المعاصرون